البوسنة
فى قلب إعصار

دراسة فى التاريخ السياسى

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهيئة اليونسكو



ص ب ١٧٠٧ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب حصيلة بحث ودراسة استمرت قرابة ست سنوات قدر لي أن أعيش فيها حرب البوسنة منذ اندلاعها يوماً بيوم وساعة بساعة، ثم تابعت تطورات قضيتها بعد اتفاقية السلام على نفس المنوال من المتابعة المتصلة.

استحوذت قضية البوسنة على اهتمامي واستأثرت بعقلي ومشاعري منذ عام ١٩٩٢م حتى اليوم، وكانت نتيجة هذا الاهتمام ثلاثة كتب، هذا الكتاب هو ثالثها، أما الأول فقد كان ترجمة لكتاب هام للمفكر الإسلامي البسنوي "على عزت بيجوفيتش" رئيس جمهورية البوسنة حالياً، وهو كتاب "الإعلان الإسلام بين الشرق والغرب" الذي صدرت طبعته الأولى في خمسة وعشرين ألف نسخة نفدت في أقل من عامين. أما الثاني فكان ترجمة عمل آخر لنفس المؤلف بعنوان "الإعلان الإسلامي".

هذه الكتب الثلاثة تمثل عندي جهداً متكاملاً لمحاولة فهم قضية البوسنة فهماً صحيحاً من شتى جوانبها.

خلال بحثي لمأساة البوسنة تأكدت عندي عقيدة: أن هذه المأساة يمكن أن تتكرر مرة أخرى في البوسنة نفسها أو في مكان آخر قريب أو بعيد منها. وقد صدق حدسي، فبعد أقل من أعوام ثلاثة بدأت أعمال عنف صربية تجتاح شعب كوسوفا المسلم بغية استئصاله من أرضه كما حدث في البوسنة.

من أجل هذا شعرت أن من واجبي أن أسجل تجربة البوسنة بكل أبعادها وأسرارها لتكون درساً حياً ماثلاً أمام عيوننا وعيون الأجيال القادمة إلى أن يحين الوقت الذي نستطيع فيه أن نتعامل مع هذه التحديات المصيرية لا من موقع المستضعفين بل من موقع الأقوياء والأنداد القادرين.

والبحث عن الحقيقة في حرب البوسنة وفي تاريخ البوسنة بصفة عامة طريق محفوف بالصعوبات، وعلى سالكه أن يكون واعياً حذراً من الفخاخ المبثوثة فيه، فما أكثر المزاعم والادعاءات والمبالغات والأكاذيب التي تتخفى بثوب الحقيقة.

ففي حرب البوسنة– على سبيل المثال– كنا أمام عدوان واضح خطط له بعناية فائقة على أعلى مستوى من القيادات السياسية والعسكرية في صربيا، أستخدم فيه جيش يعتبر واحداً من أقوى جيوش العالم من حيث التسليح والمعدات هو جيش يوغوسلافيا السابقة، ضد شعب دولة أخرى ناشئة هي دولة البوسنة والهرسك، التي لا تملك جيشاً ولا سلاحاً، ومع ذلك صور هذا العدوان الصريح للعالم على أنه حرب أهلية فجرتها أحقاد دينية وعرقية

تراكمت عبر التاريخ، ثم جاءت القوى العالمية الكبرى فتبنت مزاعم المعتدي وأصرت على استمرار حظر التسلح على البوسنة وهي المعتدى عليها، وغضت الطرف عن المذابح الوحشية التي تعرض لها شعب البوسنة المسلم، ولم تستطيع أن ترى أمامها معتد وضحية وإنما رأت أطرافاً متنازعة متساوية في الإثم.

وعلى هذا الأساس بنت مواقفها تجاه البوسنة، وهكذا غرقت قضية البوسنة في طوفان من الأكاذيب والادعاءات وسوء الفهم، وكانت النتيجة تدمير دولة واستئصال شعب من أرضه بالقتل والتشريد بينما وقف المجتمع الدولي- بلا مبالاة- يتفرج على هذا المسلسل المأساوي.

من أجل هذا كان أهم أهداف الكتاب أن يضع الحقائق في موضعها ويكشف عن الزيف والأباطيل في قضية البوسنة المفترى عليها وفي تاريخها الذي أصابه التشويه والتحريف، ويبرز الأسباب التي تقف وراء ذلك كله.

وأبادر بالتأكيد أن مؤلف هذا الكتاب لا تستبد به نظرية المؤامرة ولا يسعى لترويجها برغم أنه واجه أحداثاً ووقائع يستحيل تفسيرها إلا في ضوء مثل هذه النظرية، كما أنه لا يعتقد بأن كل ما في الغرب فاسد أو معاد كما يعتقد كثير من المتشائمين، فقد عاش في الغرب سنين طويلة وعرف فيه عن قرب مفكرين منصفين جادين في البحث عن الحقيقة ؛ كما عرف صحفيين علي قدر من الشجاعة التي تدفع صاحبها لتجشم المشاق والاستهانة بالمخاطر والتضحية بالنفس إذا لزم الأمر سعياً وراء الحقيقة. ولولا وجود أمثال أولئك وهؤلاء ما كان لمؤلف مثلي أن يصل إلى الحقائق التي ساعدته في تأليف هذا الكتاب.

ولكن إذا كان هذا كله صحيحاً فما هو إذن سر المواقف السلبية لدول الغرب من قضية البوسنة؟ هذا بعض ما نحاول معالجته في هذا الكتاب.

ربما كان من المناسب هنا أن أضع أمام القارئ بعض الحقائق المستمدة من واقع التراث الحضاري عميقة الجذور في الغرب لعلها تفيد في فهم بعض الدوافع التي أثرت في تشكيل الموقف الغربي من البوسنة:

أولاً : لدول الغرب سياسات تختص بها شعوبها وسياسات أخرى تتعامل بها مع شعوب العالم الخارجي، فهذه الدول- في إطار شعوبها- حريصة على الديمقراطية وحقوق الإنسان وحريته ورخائه، ولكنها في تعاملها مع الشعوب الأخرى تصبح هذه المبادئ مجرد شعارات تروج لها عند النخب المثقفة في هذه الشعوب، ولها وظائف أخرى من أهمها تحقيق مصالحها الخاصة، فهي تلوح بها أحياناً في وجه بعض السلطات والأنظمة الأخرى عندما تستشعر فيها تمرداً أو انحرافاً عن الدوائر المرسومة لها، ولكنها تسكت عن طغيان هذه الأنظمة وتجاوزاتها الصارخة مع شعوبها مهما بلغت بشاعتها، بل قد تمد لهذه الأنظمة يد

المساعدة طالما ظلّت هذه الأنظمة في خدمة المصالح الأجنبية، وفي البلاد العربية عندنا نماذج من هذا النوع. هذا التلاعب الانتهازى بالمبادئ وازدواجية المعايير ميراث عنصري في أعماق الحضارة الغربية.

ثانياً: من سوء حظ العالم أن دول الغرب وقد تأهلت بقوة العلم والتكنولوجيا وبالتفوق العسكري والاقتصادي تتصدى اليوم لقيادة العالم وتفرض عليه ما تسميه بالنظام العالمي الجديد، ولكنها من الناحية النفسية لا تشعر بالأمن إلا في ظل سيطرتها المطلقة على الآخرين، فإذا فقدت هذه السيطرة أو شعرت بتهديد فيها تزعزع شعورها بالأمن، ولكي تحافظ على استمرار هذه السيطرة تحرص على احتكار تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا النووية كما تحرص على التفوق الاقتصادي والعسكري. ويفسر لنا هذا مواقف الغرب المتشنجة من هاجس امتلاك دول مثل باكستان أو إيران أو العراق شيئاً من القوة النووية، كما يفسر لنا عبارات يطلقها بعض الساسة الغربيين فلا نكاد نفهمها في حينها على الوجه الصحيح، ومثال ذلك: عندما سأل الصحفيون في واشنطون "مالكوم رفكند" وزير خارجية بريطانيا الأسبق عن سبب إصرار حكومته على منع تسليح المسلمين في البوسنة فأجاب: "حتى لا نفقد السيطرة على الموقف".

ثالثاً: العداء التاريخي للإسلام والخوف الكامن من انبعاثه وتهديده من أكبر الهواجس التي تؤرق الغرب، وهناك جهات تلعب على هذا الهاجس وتغذيه بوقود جديد، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، حتى أصبح لهذا الهاجس أسماء معلنة يتحدثون عنها في كتبهم وصحفهم يعقدون لها الندوات والمؤتمرات، فهو الأصولية الإسلامية تارة، والإسلام الإرهابي تارة أخرى، ويطلقون على هذا الهاجس أحياناً مصطلح "إسلاموفوبيا" أو الخوف المرضي من الإسلام، وقد يشيرون إليه بالعدو الأخضر الذي حل محل العدو الأحمر للشيوعية.

ومن أبرز المروجين لهذا الهاجس "صامويل هانتنجتون" الذي ارتبط اسمه بنظرية في صراع الحضارات حيث يؤكد أن الخطر القادم على الغرب هو الإسلام، ويرى أن حرب البوسنة كانت مجالاً للصراع الديني الحضاري بين الإسلام والمسيحية.

والسؤال هو: هل يمكن لمثل هذه الأفكار أن يكون لها أثر في تشكيل مواقف الدول الغربية تجاه البوسنة؟

لقد عرضنا الوقائع المتصلة بهذه المواقف وقمنا بتحليها في سياق هذا الكتاب، ومن حق القارئ أن يتأمل ليصل بنفسه إلى النتائج التي يستريح إليها عقله.

على خلاف ما زعمه صامويل هانتنجتون كان التوافق بين فئات السكان في البوسنة بين المسلمين والمسيحيين واليهود مثار إعجاب الدارسين والرحالة على مر العصور، حتى أن "هـ. ت. نوريس" الكاتب البريطاني والأستاذ بجامعة لندن اعتبر البوسنة نموذجاً فذاً للانسجام الديني والعرقي في منطقة البلقان كلها، وأما الكاتب والصحفي الأمريكي "دافيد ربيف" فقد أكد أن مجتمع البوسنة قد التزم في حياته بالتعددية الثقافية بالمعنى الحقيقي وبالممارسة أكثر مما حدث في بلاده (الولايات المتحدة) نفسها، ويرى أن التسامح في البوسنة جزء من طبيعة مجتمعها، كما يرى من واقع دراسته ومشاهدته أن شعب البوسنة يؤمن بأن الهوية الوطنية لا تستمد من الانتماء العرقي أو القومي وإنما من المواطنة المشتركة، وكذلك يؤكد أن قضية البوسنة كانت وستظل قضية عادلة، وكان يجب أن تكون بحق قضية الغرب منذ البداية، ويرى أن التدخل إلى جانب البوسنة ضد العدوان الصربي بمثابة الدفاع عن النفس بالنسبة للغرب وليس صدقة يتصدق بها على أناس غرباء، ولكن للأسف فشل الغرب في هذه المهمة، يقول "دافيد ربيف": "خسرنا هذه المعركة ولكن بقي علينا التزام آخر أن ندلي بشهادتنا أمام العالم".

قبل بداية العدوان الصربي على البوسنة بعدة سنوات قامت حملات إعلامية مدبرة في بلجراد على المسلمين وعلى الإسلام، عمدت إلى تخويف الجماهير من خطر إسلامي قادم من البوسنة يستهدف حياة الصرب ومصائرهم، ودارت هذه الحملات حول مزاعم أربعة:

١- أن الإسلام الأصولي قد انبعث في يوغسلافيا.

٢- أن العرب والمسلمين بصفة عامة لديهم إستراتيجية للسيطرة على العالم، وذلك لإقامة دولة عالمية موحدة، عن طريق إحياء الإسلام في يوغسلافيا أولاً، ثم الانتشار منها إلى بقية دول أوروبا.

٣- أن الإسلام بطبيعته يدعو إلى إبادة الآخرين المخالفين لعقيدته.

٤- أن مسلمي البوسنة قد خانوا جنسهم وتاريخهم بترك المسيحية واعتناق الإسلام، وأنهم بذلك يستحقون الإبادة.

وفي مواجهة هذه المخاطر المزعومة رفعت صربيا شعارات: الدفاع عن الحضارة المسيحية، مواجهة الاستبداد الآسيوي، معركة المسيح في أوروبا، وقداسة التراث الصربي وتراث كسوفو، إلى آخر هذه الشعارات التي كانت تلهث بها وسائل الإعلام الصربية خلال الثمانينات.

وعندما أنشأ علي عزت بيجوفيتش حزب العمل الديمقراطي ونجح في انتخابات رئاسة جمهورية البوسنة أعتبر هذا في حد ذاته دليلاً كافياً على أن الأصوليين يحاولون إقامة دولة إسلامية في أوربا وفرض الشريعة الإسلامية في الحكم، وتحويل صرب البوسنة إلى ذميين.

ويفند هذا الكتاب تلك المزاعم ويكشف عن الكيفية التي استطاعت بها العناصر القومية المتطرفة في صربيا بقيادة "سلوبودان ميلوسفتش" أن تفرض سيطرتها على وسائل الإعلام، وكيف أدارت الحرب الإعلامية لتدفع البوسنة إلى مصيرها المأساوي.

تميزت حرب البوسنة دون سائر الحروب بأن حوادثها وقعت تحت سمع العالم وبصره على شاشات التلفاز، ولذلك لم يستطع الصرب إخفاء جرائمهم في البوسنة كما استطاعت الصهيونية إخفاء جرائمها في فلسطين. وقد تعرض هذا الكتاب لعينات من هذه الجرائم الوحشية التي سوغتها نفوس شريرة في مناخ سقطت فيه هيبة القانون وأخذت السلطة دور المحرض على الجريمة فكافأت الذين أسرفوا في ذبح المدنيين المسالمين من النساء والأطفال والرجال بأساليب وحشية وعاقبت من كان يتردد في الإقدام على هذه الأساليب.

هذا وقد أقامت أوروبا موقفها تجاه البوسنة على أساس من افتراضات خاطئة فأدى هذا إلى تسمرها على أمرين:

- التقليل من القتال بفرض حظر التسلح على المسلمين والامتناع نهائياً عن التدخل بالقوة لوقف الحرب.
- الاكتفاء بتقديم مساعدات غذائية وبالجهود الدبلوماسية لوقف القتال.

وسنرى كيف شجع هذا الموقف السلبي مطامع الصرب في أرض البوسنة، وجعل وجود القوات الأوروبية في البوسنة بمثابة دعم للعدوان الصربي، وليس عنصراً مساعداً في تحقيق السلام.

فإذا انتقلنا إلى الموقف الأمريكي فسوف نلاحظ كيف بدأ موقفا مرتبكا ومحيراً، وكيف استطاعت الولايات المتحدة في النهاية أن تأخذ زمام المبادرة وتقود الجهود الدولية المتعثرة إلى حل سياسي. ثم نستعرض تفاصيل هذا الحل ونحاول تقييم آثاره ونتائجه كما تحققت على أرض الواقع.

أما بالنسبة لدور الأمم المتحدة في البوسنة فقد نسب إليه المراقبون صفات العجز والشلل أحياناً، ووصموه بالتناقض والتواطؤ أحياناً أخرى، وأكد بعضهم أن الأمم المتحدة لم تصنع العار ولكنها نفذته. فمن الذي صنع العار؟ ولماذا قبلت الأمم المتحدة القيام بدور المنفذ؟ وكان للمبعوث الخاص لسكرتير عام الأمم المتحدة في البوسنة واسمه "ياسوشي أكاشي" دور خطير في البوسنة أثار سخرية الصحفيين فأطلقوا عليه إسم "متسوبتشي شتنك" وكانوا يقصدون أنه

الياباني الذي التحق بعصابات الإرهاب الصربية المعروفة باسم "شتنك"، ويحاول الكتاب تحليل دور الأمم المتحدة في البوسنة ويكشف عن الأسباب التي أدت إلى سقوطها الذريع في هذه القضية.

لقد أوقفت "اتفاقية دايتون للسلام" أعمال الحرب في البوسنة ووضعت حداً لتدفق الدماء البريئة فيها، ولكنها وقد شطرت الكيان البسنوي الواحد إلى شطرين وأضعفت حكومتها المركزية لم تستطع أن تنفذ الجوانب الإيجابية التي اشتملت عليها بنودها، فهل افتقرت الاتفاقية إلى الآليات المناسبة لتنفيذها كما يرى البعض؟ أم أن الإرادة الدولية غائبة أيضاً في وقت السلم كما كانت غائبة أثناء الحرب؟، وهل يبقى كبار مجرمي الحرب يمرحون على الساحة بدون رادع؟ ويمارسون أعمالهم التخريبية في إعاقة تنفيذ الاتفاقية؟ أم ينهض المجتمع الدولي بواجبه في القبض عليهم وتسليمهم لمحكمة جرائم حرب يوغسلافيا في لاهاي؟.

يطرح الكتاب هذه الاستفسارات ويحاول الإجابة عليها من واقع الأحداث الجارية وتطوراتها في البوسنة.

في تناول موضوع معقد كموضوع البوسنة يسهل التباس الأمور في ذهن القارئ، فسكّان البوسنة تركيبة ممتزجة تتألف من عناصر ثلاثة رئيسية جرى فرزها على هذا النحو بفعل عوامل تاريخية وسياسية مفروضة على البوسنة مما سنتبينه في موضعه من الكتاب؟ فوفقا لإحصاءات يوغسلافية قبل الحرب كان المسلمون يشكلون ٤٤٪ من سكان البوسنة بينما يشكل الصرب ٣٣٪ والكروات ١٧٪، وهي أرقام تؤخذ على علاتها لما فيها من خلل وتحيز سنتبين حقيقته.

وتأتي المشكلة بعد ذلك من صربيا وكرواتيا حيث يحدث الخلط بين صرب صربيا وصرب البوسنة وبين كروات كرواتيا وكروات البوسنة، فهنا تلتبس الأمور خصوصاً على القارئ أو المراقب الخارجي إذا لم يكن خبيراً بالأوضاع السياسية والسكانية في يوغسلافيا السابقة وفي البوسنة بصفة خاصة. وقد استغل "سلوبودان ميلوسفيتش" هذا الالتباس فأطلق جيشه على البوسنة ثم ادعى أمام العالم أنها حرب أهلية وأنه لا يتدخل فيها. ويجب أن نلفت النظر هنا إلى حقيقة هامة وهي أن صرب البوسنة الذين خدعوا بدعاية "ميلوسفتش" فانخرطوا في نشاطات عدوانية ضد جيرانهم من المسلمين والكروات لا يمثلون الأغلبية الصربية في البوسنة وإنما على العكس كانوا أقلية متطرفة وأما أغلبية صرب البوسنة فكانوا بين معارضين للتطرف والعدوان وبين مستضعفين وقفوا على الحياد.

من هؤلاء المعارضين جنود حاربوا في جيش البوسنة ضد العدوان الصربي وكانوا يشكلون ١٢٪ من القوات البوسنوية، وكانت القيادة العليا لهذه القوات تضم جنرالات من صرب البوسنة، وفي سراييفو المحاصرة مع إخوانهم المسلمين. هذه حقائق يجب أن تكون حاضرة في ذهن القارئ حتى تتضح له الأمور المتشابكة في حرب البوسنة.

ولأن صرب البوسنة الذين انحازوا إلى مخططات صربيا العدوانية كانوا هم الأقلية حرص علي عزت بيجوفيتش على أن يطلق عليهم في خطابه اسم صرب "كراجيتش" لا صرب البوسنة، وهو محق فيما ذهب إليه فإن من ينتمي إلى البوسنة حقا لا يمكن أن يسعى إلى تدميرها.

كذلك كان للقوميين المتطرفين من كروات البوسنة دور في تدمير البوسنة خصوصاً خلال فترة معينة تزعم فيها "ماتي بوبان" قيادة حزب "الاتحاد الديمقراطي للكروات"، فقد إشترك مع الصربي "رادوفان كراجيتش" في مخططات لتقسيم البوسنة فيما بينهما، وكان "بوبان" مسئولاً عن إقامة معسكرات تعذيب وإبادة للمدنيين المسلمين على غرار المعسكرات الصربية.

تبين لي من دراسة الانتماء العرقي في البوسنة وفي البلقان بصفة عامة أن السياسة والمطامع التوسعية كانت- عبر التاريخ تتجاوز الانتماء العرقي بل تتحداه، فالمتخصصون في تاريخ المنطقة يسلمون مثلاً بأن مسلمي البوسنة ينتمون إلى نفس العنصر السلافي الذي ينتمي إليه الصرب والكروات، وبرغم ذلك رأينا الصرب يجردون المسلمين من جنسهم ويزعمون أنهم ينتمون إلى الأتراك الغزاة وبذلك يسقطون حقهم في الحياة والبقاء في البوسنة ؛ فشعوب هذه المنطقة- رغم انتسابها إلى جنس سلافي واحد- لم تعرف السلام فيما بينها عبر التاريخ القديم أو الحديث، وكانت صداقاتها تمتد دائماً خارج المنطقة السلافية لتستعدي قوى أجنبية ضد جيرانها، والصراع الصربي الكرواتي أكبر شاهد على ذلك. ولهذا يرى بعض المؤرخين أن مسألة الانتماء العرقي في البلقان ليست أكثر من لعبة سياسية تخضع للأهواء الجامحة.

ومن الأمور المثيرة للعجب أن توجد- إلى اليوم- قيادات سياسية صربية تتشدق بالتفوق العنصري للصرب وتدعم ذلك بأفكار منسوبة إلى البيولوجيا وعلم الجينات، من أمثلة هذه القيادات "بليانا بلافسيتش" رئيسة جمهورية الكيان الصربي في البوسنة وهي سياسية ذات خلفية أكاديمية حيث كانت تعمل أستاذة علم البيولوجيا في جامعة سراييفو. وتبلغ السفاهة باسم العلم إلى حد الهوس العقلي عندما تزعم في كتاباتها أن المسلمين في البوسنة قد بدأت جيناتهم تتشوه عندما اعتقوا الإسلام ثم أخذت هذه التشوهات تتراكم جيلاً بعد جيل. وكلما أمعنا في التعرف على الشخصيات التي صنعت كارثة البوسنة كلما رأينا العجيب والمستغرب من الأنماط البشرية، وعلى سبيل المثال كانت دراستي لشخصية "سلوبودان ميلوسيفيتش" و

"رادوفان كراجيتش" من العوامل التي ساعدتني على فهم الأسباب الكامنة وراء التدمير المذهل والأعمال الإجرامية التي بلغت حداً من التنظيم والوحشية معاً مما يصعب- حتى على الخيال الجامح- أن يتصوره. ونتيجة لهذه الدراسة لم يعد عندي شك أن استمرار "ميلوسفيتش" في السلطة لابد أن ينتج كوارث أخرى مروعة، فهو بطبيعته صانع كوارث ولا تتجلى عبقريته ولا تزدهر إلا في هذا المناخ، ولقد صدق حدسي فيه فقد بدأ نشاطه الإجرامي يمتد إلى كوسوفا "المسلمة"، وخرج المجتمع الدولي مرة أخرى يتظاهر بمحاصرة النار الجديدة التي أشعلها ميلوسفيتش في البلقان.

ولا يسعني في النهاية إلا أن أشكر جميع الذين أسهموا بجهودهم وتشجيعهم لمواصلة العمل في إعداد هذا الكتاب. وأخص بالذكر من هؤلاء الأصدقاء ثلاثة لا ينسى فضلهم:

الدكتور عادل حسن غنيم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس، والدكتور كمال عرفات اللذان لم يبخلا بوقتهما الثمين في قراء الكتاب وإمدادي بملاحظاتهما وتعليقاتهما القيمة.

والدكتور "مراد ديجاريفتش" قنصل البوسنة في سفارة لندن والأستاذ السابق بجامعة بريشتينا، أشكره على الوقت الذي أنفقه معي يجيب على استفساراتي الكثيرة، وعلى مساعدته في التحقق من الأسماء البسنوية وصحة نطقها، كما أشكره على الخرائط التي أمدني بها والتي أطلعني عليها في مكتبه، وهي خرائط على جانب كبير من الأهمية ساعدتني على استيعاب طبوغرافية المواقع التي جرت فيها عمليات القتال، وعلى فهم حقيقة الحصار الطويل الذي واجهته مدينة سراييفو الباسلة طوال سنوات الحرب.

أرجو أن أكون قد وفقت في عرض قضية البوسنة كدرس هام في التاريخ السياسي يستحق النظر بإمعان واستخلاص العبرة منه، ونسأل الله التوفيق.

محمد يوسف عدس
لندن ٢ مايو ١٩٩٨

الفصل الأول

البوسنة من أقدم العصور إلى الفتح العثماني

البوسنة والهرسك بلاد صغيرة لا تزيد مساحتها عن ٥١١٢٩ كيلو متراً مربعاً، ولكنها تتمتع بطبيعة جميلة ثرية فهي جبلية في معظم تضاريسها، تكسوها الغابات والمراعي الخضراء وتكثر فيها الأنهار والبحيرات والمياه المعدنية، وأهم أنهارها نهر "سافا" الذي يشكل حدها الشمالي مع "كرواتيا" وتصب أنهار "بوسنا" و "يونا" و "فرباس" شمالاً في نهر سافا، أما نهر "درينا" فيشكل الحدود الشرقية مع "صربيا" و ينحدر نهر "نيريتفا" جنوباً ليصب في البحر الأدرياتيكي. ويمتد شريط دلماشيا في غربها على الساحل الأدرياتيكي ومنه اتصلت البوسنة عبر التاريخ بحوض البحر المتوسط وحضاراته، وتشترك البوسنة والهرسك في حدودها الشرقية والجنوبية مع جمهوريتي صربيا "والجبل الأسود"، وتحدها كرواتيا من الشمال والغرب.

اسم البوسنة مشتق من اسم نهر "بوسنا" أما "الهرسك" وهو الشطر الثاني من الاسم فترجع تسميته إلى حاكم لهذا الإقليم في القرن الخامس عشر أطلق عليه "هرسوج" أو "هرتسوج" وهو لقب "دوق".

تغطي الأراضي الزراعية والصالحة للزراعة ما يقرب من نصف مساحة البلاد، وأكثرها خصوبة يقع في شمال البوسنة. وأهم المحاصيل الزراعية هي الذرة والزيتون والعنب والتين والرمان والبرتقال والليمون والأرز والطباق، وتشتهر منطقة الهرسك بالمراعي وتربية الأغنام، وتكسو المناطق الشرقية والجنوبية غابات الصنوبر والزان والبلوط. وتملك البوسنة ثروة معدنية كبيرة ومتنوعة قوامها الفحم والحديد والنحاس والكروم والمنجنيز والزئبق والملح، إلى جانب مواد البناء كالرخام، وكانت الفضة والذهب من أهم المعادن التي استهلكها الرومان ثم حكام البوسنة خلال العصور الوسطى.

نشطت الغزوات السلافية نحو البوسنة خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين فاكتسحت أمامها القبائل المستوطنة فقضت على بعضها واستوعبت البعض الآخر وأصبحت السيادة المطلقة للسلاف على مر القرون، ونظراً لهذه العوامل التاريخية وما صحبها من مناخ لغوي وثقافي امتد لأكثر من ألف عام يمكن اعتبار السكان الحاليين في البوسنة من العنصر السلافي ومن ثم فإن وصول السلافيين إلى البوسنة هو نقطة البداية الطبيعية لتاريخها.

كان السلافيون قد استوطنوا شرق أوروبا وجنوبها الشرقي بما في ذلك شبه جزيرة البلقان منذ عهد طويل، جاءوا مهاجرين من موطنهم الأصلي آسيا قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة وظل

نزوحهم إلى أوروبا مستمراً حتى الألف الثانية قبل الميلاد. وتنتمي لغاتهم إلى أسرة اللغات الهندو- أوروبية. وقد انقسمت الشعوب المنحدرة من السلالات السلافية إلى مجموعات ثلاثة: سلاف الشرق ومنهم الروس والأوكرانيون وسلاف الغرب ومنهم البولنديون والتشيك والسلوفاك، أما سلاف الجنوب فمنهم الصرب والكروات والسلوفنيون (شعب سلوفينيا) والبشناق (شعب البوسنة).

يقسم المؤرخون الانتماء الديني لهذه الشعوب السلافية إلى مجموعتين رئيسيتين: تنتمي المجموعة الأولى إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وتشمل الروس والأوكرانيين والصرب والمقدونيين، وتنتمي المجموعة الثانية إلى كنيسة الرومان الكاثوليك وتشمل البولنديين والتشيك والسلوفاك والكروات والسلوفنيين وبعض الأوكرانيين.

ولأسباب تاريخية سنتعرض لها بالتفصيل لا ينطبق التوزيع الديني الذي أشرنا إليه على البوسنة والهرسك ولا كسوفو أو سنجق فشعوب هذه البلاد غالبيتهم العظمى من المسلمين، علماً بأن المسلمين يوجدون أيضاً بأعداد كبيرة في مقدونيا وحتى في كرواتيا والجبل الأسود وصربيا نفسها.

اكتسح الرومان البوسنة في زحفهم نحو الشرق وأقاموا فيها مستعمرات وطرقاً وكانت هذه الطرق ذات أهمية تجارية إلى جانب أهميتها العسكرية، فقد كانت معبرا لنقل معادن الذهب والفضة والرصاص التي كانت تستخرج في البوسنة منذ عهد مبكر. وبقيت البوسنة تحت الهيمنة الرومانية خلال أربعة قرون.

وفي القرن الثالث الميلادي غزا "القوط" البلقان وألحقوا بالجيوش الرومانية هزائم مروعة. وفي القرن السادس استطاع الإمبراطور جستنيان القضاء على القوط وتحولت البوسنة عندئذ إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية.

كان الصرب والكروات على الوثنية حتى القرن السابع الميلادي عندما شرع البيزنطيون في تنصيرهم. أما المناطق النائية في البوسنة فلم تصلها المسيحية إلا في وقت متأخر نسبياً ربما في أوائل القرن العاشر الميلادي، ولم تكلل جهود المبشرين المسيحيين في البوسنة بالنجاح لعوامل خاصة بهذه المنطقة سوف نتبينها في سياقها بالفصل الثاني من هذا الكتاب.

غموض التاريخ:

يلاحظ الدارس أن تاريخ البلقان منذ القرن السابع إلى القرن الحادي عشر تاريخ مختلط ومتقطع، يتميز بتعاقب الغزاة وتنقل الولاء، وكانت أقدم قوة مهيمنة في البلقان هي الإمبراطورية البيزنطية، غير أن سيطرتها المباشرة كانت ضعيفة، فقد كان يكفيها أن تنتزع

اعترافاً ما بسلطانها من وقت إلى لآخر، وقد امتد نفوذها إلى ساحل دلماشيا حيث كان للدولة الرومانية الغربية مواقع على نفس الساحل ولكن لم يستمر الأمر طويلاً على هذا النحو، حيث جاء غزو الإمبراطور شرلمان في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ليكتسح هذه المناطق، وأصبح غرب البوسنة وشمالها الغربي تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية الغربية حتى سنة ٨٧٠م، وربما في هذا الفترة تحول النظام القبلي في البوسنة إلى نظام إقطاعي على غرار إقطاع غرب أوروبا أو قريب منه. وفي فترات متقطعة كانت أجزاء من شمال البوسنة تقع تحت سيطرة الكروات بينما تخضع أجزاء من الهرسك تحت سيطرة "الجبل الأسود".

ولعل أول ذكر للبوسنة كياناً جغرافياً وسياسياً كان في وثيقة بخط الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين بورفيرو جنيتوس" عام ٩٥٨م يهبها لأمير صربي، ومن ثم لم تبق طويلاً في أيدي الكروات وإنما تناوبتها أيدي الصرب والكروات فترات متعاقبة، ولم يكن الصرب أو الكروات أنفسهم في حالة استقرار وإنما في تقلب دائم حيث كان للقوى الخارجية المحيطة بهم تأثير قوي جعلت استقلالهم ضعيفاً وسلطانهم محدوداً.

المجر :

كانت نهاية القرن الحادي عشر نقطة تحول في تاريخ غرب البلقان، فقد توجه اهتمام الصرب شرقاً إلى "راشكا" التي أصبحت قلب مملكة الصرب خلال القرون الوسطى، بينما استولى المجريون على كرواتيا حيث توج الملك المجري "كولمان" ملكاً على كرواتيا وامتد سلطان المجر إلى البوسنة عام ١١٠٢م، ونظراً لبعدها كان يحكمها حاكم من أبناء البوسنة يطلق عليه لقب "بان" وقد اخذ سلطان هذا "البان" يتعاظم مع الوقت متجهاً نحو الاستقلال بالبوسنة.

ثم جاءت فترة اضطربت فيها الأمور كعادتها في البلقان حيث استطاعت الإمبراطورية البيزنطية استرجاع كل من البوسنة وكرواتيا لمدة عقدين من الزمن حتى سنة ١١٨٠م عندما انحلت عرى هذه العلاقة واستعادت كرواتيا علاقتها بالمجر، بينما ظلت البوسنة مستقلة عنهما واستطاعت أن تؤكد استقلالها عن كرواتيا وعن الإمبراطورية البيزنطية لأول مرة في التاريخ.

هذا ما سجله لنا سكرتير الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس" حيث كتب يقول: "لم تعد البوسنة تطيع "جوبان" الصرب، واعترف قائلاً: "إن البوسنة شعب مجاور" له تقاليده الخاصة وحكومته الخاصة".

وذكرت المدونات الإمبراطورية في موضع آخر "أن البوسنة يفصلها عن صربيا نهر درينا". وقد ظل هذا النهر حداً فاصلاً على تخوم شرق البوسنة على طول تاريخها إلى اليوم.

ونخلص من هذا إلى أنه من الخطأ القول بأن البوسنة كانت جزءاً من صربيا أو من كرواتيا كما يردد اليوم بعض القوميين المتعصبين من كلا الجانبين.

ومن ثم فإن السؤال عما إذا كان سكان البوسنة كرواتاً أو صرباً هو سؤال لا معنى له بل سؤال خاطئ.

ولذلك يعقب "نويل مالكوم" على ذلك قائلاً: "كل ما نستطيع أن نقوله باطمئنان عن هوية البوسنويين أنهم السلافيون الذي عاشوا واستقروا في البوسنة منذ أقدم العصور إلى اليوم".[1]

دولة البوسنة في العصور الوسطى (١١٨٠-١٤٦٣):

كثراً ما وصف المؤرخون تاريخ البوسنة خلال العصور الوسطى بأنه تاريخ مضطرب ومحير. ولكن يمكن الإشارة إلى ثلاثة من حكامها الأقوياء بكثير من الاطمئنان والثقة وهم: البان "كولان" (١١٨٠-١٢٠٤) و "بان "ستيفن كوترمانيتش" (١٣٢٢-١٣٥٣) والملك "ستيفن تفرتكو" (١٣٥٣-١٣٩١).

بان كولان:[2]

يكتسب "كولان" مركزاً أسطورياً في تاريخ البوسنة، ولا يزال عهده يعتبر في نظر الكتاب المحدثين عصراً ذهبياً في تاريخ البلاد. فقد شهدت البوسنة فترة من السلام والازدهار امتدت أربعة عشر سنة، ظل أثرها باقياً في حياة الناس لزمن طويل؛ فقد وجه "كولان" اهتماماً خاصاً بالتنمية الاقتصادية حيث عقد اتفاقية تجارية مع "راجوسا" على استغلال مناجم البوسنة الغنية بالمعادن، وأنشأ علاقات طيبة مع كل من حاكم "الهرسك" الذي تزوج أخت "كولان" و "جوبان" العظيم ملك صربيا المسمى "ستيفن نيمانيا" مؤسس الأسرة النيمانية في صربيا التي حولت صربيا إلى قوة مرموقة خلال القرون التالية.

وظلت علاقات البوسنة على مستوى أقل من ذلك مع دولتين جارتين أخريين هما: المجر التي كانت تنظر إلى البوسنة على أنها جزء منها، ومع "زيتا" (كان يطلق عليها "دوقلي" في مرحلة تاريخية ثم "مونتنجرو" أو الجبل الأسود كما تعرف حالياً). التحقت

---

[1] أنظر نويل مالكوم Malcalm, Noel. Bosnia: A Short History. London: M. Papermac, 1994. P.2.

[2] بان Ban هو لقب الحاكم أو الملك في البوسنة، وفي صربيا يطلق عليه "جوبان"

"زيتا" بالمجر لأسباب تكتيكية حيث كان لحاكمها أطماع في جارته البوسنة، فدأب يرسل الشكاوي إلى البابا يتهم فيها زوجة البان والشعب البوسنوي معها بالهرطقة أملاً في مساعدة البابا له على غزو البوسنة وامتلاكها، ولكن لم تفلح مساعيه وإن بقيت تهمة الهرطقة عالقة بالأذهان كما سنرى.

شرعت المجر- خلال النصف الأول من القرن التالي (الثالث عشر الميلادي) تصعد ضغوطها على البوسنة في محاولة لإخضاع أسقف كنيستها.

وأخذ البابا يستحث حكام المجر وأساقفتها خلال العقد الثالث من القرن الثالث عشر للقضاء على الهرطقة البوسنوية، وتصف رسائل البابا المتتالية أسقف البوسنة بأنه جاهل ناهيك عن تشجيعه للمارقين والهراطقة.

كان المجريون يلتمسون سببا دينياً لغزو البوسنة والاستيلاء عليها حتى استطاعوا في سنة ١٢٣٨م غزو جنوب وسط البوسنة، غير أنهم اضطروا للانسحاب منها بعد ثلاثة أعوام فقط (١٢٤١م) عندما سحق المغول الجيش المجري ثم انسحبوا عائدين لموت الخان الأعظم مدمرين في طريق انسحابهم كرواتيا و "دلماشيا" والجبل الأسود وصربيا ولكنهم لم يمروا بأراضي البوسنة فلم يمسوها بسوء.

في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي لجأت البوسنة إلى عزلتها التقليدية، ولكن المجر عادت تتلمس الأسباب للعودة إلى إخضاعها فطالبت البابا بوضع البوسنة تحت إشراف الأسقفية المجرية في "سلوفينيا"، وتبع ذلك الاستيلاء على أراضي شمال شرق البوسنة وتوزيعها على أفراد الأسرة المجرية الحاكمة، وهكذا تحقق الهدف الأصلي للأطماع المجرية المتسترة بعباءة الغيرة على الدين.

ستيفن كوترمانيتش :

خلف "ستيفن كوترمانيتش" أباه في الحكم سنة ١٢٨٠م وتزوج بنت حاكم "ماتشفا" المجري (من الأسرة المالكة) ثم بدأ نضالاً طويلاً لتعزيز قوته.. إلا أن تفاصيل هذا النضال من الناحية التاريخية – ليست واضحة تماماً. أما نتائج هذا النضال فتتمثل في أقامة دولة بسنوية قوية أخضع لها ساحل "دلماشيا" بين "راجوسا"* و "سبليت"، وفي سنة ١٣٢٦م قام بضم الهرسك وكان يطلق عليها "هوم" آنذاك، وجعل البوسنة والهرسك كياناً واحداً لأول مرة في التاريخ. ولحسن حظ "كوترمانيتش" أن جيرانه الصرب كانوا مشغولين بالتوسع جنوباً في مقدونيا وألبانيا وشمال اليونان.

* راجوسا هي مدينة دوبرفنيك الحالية.

اهتم "كوترمانيتش" بتوثيق روابط الود مع الجيران فوقع مع "راجوسا" إتفاقية تعاون سنة ١٣٣٤م، ومع البندقية إتفاقية أخرى سنة ١٣٣٥م،ووثق علاقته بالكنيسة البوسنوية. وتقرب من البابا حيث سمح للفرنسسكان بإنشاء بعثة تبشيرية في البوسنة، وأرسل إلى البابا سنة ١٣٤٧م يطلب منه إيفاد قسسا مدربين على أن يكونوا على معرفة باللغة السلافية.

ستيفن تفرتكو :

مات "كوترمانيتش" سنة ١٣٥٣م تاركاً وراءه دولة قوية في البوسنة، إرتكز استقرارها على التعاون الداخلي بين عائلات النبلاء الإقطاعيين، وهو التعاون الذي كان يوليه "كوترمانيتش" أكبر عناية طوال حكمه، فلما تولى "تفرتكو" من بعده وكان حدثاً صغيراً لا يزيد عمره عن خمسة عشر عاماً لم يستطع الحفاظ على هذا التعاون بين النبلاء، فبدأت أطماع المجر تتحرك من جديد نحو إعادة السيطرة على أجزاء من البوسنة، ولم يكن في قدرة "تفرتكو" إلا التسليم بالأمر الواقع، حتى قويت شوكته وصقلته التجارب. وتصادف حينذاك أن مات "ستيفن دوشان" مؤسس دولة صربيا التي بدأت تتفكك بعد موته نتيجة لصراع نبلاء الإقطاع الصربيين على السلطة. وانتهز "تفرتكو" الفرصة السانحة فوقف مع "لازار" أحد نبلاء الصرب الأقوياء وساعده على إحكام قبضته على النبلاء الآخرين، فكافأه "لازار" بمنحه أجزاء من الهرسك و "زيتا" وجنوب "دلماشيا" وهو الجزء الذي سمي فيما بعد باسم "سنجق نوفي بازار".

واحتفالا بهذه المناسبة نصب "تفرتكو" نفسه ملكاً على البوسنة وصربيا، وانتهز فرصة موت ملك المجر وحدوث نزاعات على السلطة في كرواتيا سنة ١٣٨٢ فنشر سلطانه كاملاً على ساحل "دلماشيا" باستثناء "راجوسا".

امتد سلطان "تفرتكو" بعد ذلك إلى أقاليم "كرواتيا" و "سلوفينيا". وفي عام ١٣٩١م- قبل موته بعامين- أطلق على نفسه أيضاً ملك كرواتيا و "دلماشيا".

مثلت هذه الحقبة التاريخية أكبر استقلال وأعلى سلطة تمكنت منها البوسنة في العصور الوسطى، ويلاحظ أنه رغم شيوع النظام الإقطاعي فيها إلا أنه لم يكن ذلك الإقطاع البشع بمعناه الصارم كما عرفته أوروبا الغربية خلال نفس الحقبة، وظل هذا أحد الملامح الاجتماعية المتميزة في البوسنة عبر التاريخ.

كانت المجر هي القوة المجاورة المهيمنة، وفي القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر تحولت صربيا إلى دولة صربية قوية. ولكن مما قد يثير الدهشة أنها لم تبد أي محاولة من جانبهما لغزو البوسنة فقد اكتشف المجريون قبلها أن أراضي البوسنة عسيرة الاختراق

باهظة التكاليف لمن أراد المخاطرة باحتلالها، خاصة ما عرف عن نبلاء الإقطاع فيها من حيث ميلهم الشديد إلى الاستقلال وقربهم من الفلاحين. فإذا أضيف إلى هذا الانعزال الشديد الذي فرضته الطبيعة الجبلية الوعرة التي تحصّن البوسنة ضد الطامعين فيها، كل ذلك جعل البوسنة أكثر قدرة على الحفاظ على استقلالها وعلى هويتها التي ميزتها عن جيرانها من وجوه كثيرة، هذه الهوية المتميزة تمثلت في طبيعة الدين الذي ساد البوسنة وحير معه المؤرخين وجعل البوسنة دائماً موضع اتهام بالهرطقة، فقد حرصت البوسنة أن تتميز بعقائدها واستقلالها عن الكنيسة الكاثوليكية نافرة من هذه الكنيسة حتى جاء العثمانيون.

ولقد دأب كتاب البابوية على اتهام البوسنويين بالهرطقة الدينية، وحدد بعضهم هذه الهرطقة بأنها الثنائية المانوية أو "البوجوميلية" المشتقة منها على حسب زعمهم، وقد تجادل الباحثون في هذه النظرية التقليدية المعقدة مما سننظر إليه بشيء من التفصيل في موضعه من الكتاب.

الأتراك العثمانيون في البلقان :

يميل المؤرخون المحدثون في البلقان إلى اعتبار أي شخصية في تاريخهم تعاونت راضية مع الأتراك أو دعتهم إلى المنطقة كحلفاء على أنها شخصية خائنة ارتكبت أبشع جريمة ضد شعبها وضد الهوية القومية ولكن المتمعن في تاريخ البلقان يتبين له أن هذه النظرة تكشف عن منتهى التناقض كما تكشف عن زيف هذه الادعاءات. فحكاية القوميات هذه لم تظهر في أوروبا إلا حديثاً ولم يكن في العصور الوسطى أي أثر لها.

ومن ناحية أخرى رأينا أن كل حكام العصور الوسطى استعانوا بجيوش شعوب أخرى، وعن هذا الطريق دخلت إلى منطقة البلقان جيوش غربية يتحدث جنودها بلغات غير مألوفة مثل الجرمان والكتلان وغيرهم. وعن هذا الطريق أيضاً دخل الأتراك مثل غيرهم. ربما كان الشيء الوحيد الذي يختلف فيه الأتراك أنهم مسلمون، ولكن الجنود الأتراك جئ بهم للحرب لا لنشر الدين.

كانت أول مرة تعبر فيها القوات التركية داخل أوروبا سنة ١٣٠٥م عندما دعاهم قائد كتلاني لمساعدته. بعد ذلك بفترة من الزمن استدعاهم "ميلوتين" ملك الصرب لمساعدته في حملته على جيش بيزنطة. واستخدم القيصر "دوشان" حفيد "ميلوتين" الأتراك في جيشه لمساعدته على التوسع في أراضي الإمبراطورية البيزنطية منتهزا فرصة اشتعال الحرب الأهلية فيها خلال عقد الأربعينات من القرن الرابع عشر. كما إستعان الإمبراطور البيزنطي نفسه بالأتراك العثمانيين لإستعادة ممتلكاته وزوج إبنته لأميرهم أورخان الذي الذي أعاد له بالفعل

مساحات واسعة على الساحل،فلما أظهر رغبته في إبقاء جيشه بالمنطقة سمح له الإمبراطور بذلك سنة ١٣٥٤. وكان هذا أول موقع قدم للعثمانيين في أوروبا.

تولى الحكم بعد أورخان ابنه مراد[٣] وفي عهده بدأ التصادم بين قواته وبين القوات الصربية المناوئة حتى كانت معركة كوسوفا في يونية ١٣٨٩. ومن هذا يتضح أن الأتراك كانوا في منطقة البلقان لفترة طويلة في علاقات تعاون بلغت حد المصاهرة في بعض الأحوال "وكان لهم حلفاء وأتباع من بين الصرب أنفسهم من بينهم حاكماً مقدونياً وبلغارياً وهما "ماركو كراليفتش" و "كونستانتين دينانوفيتش" وهناك أدلة قوية على أن أحدهما على الأقل مع حشد كبير من الجنود الصرب كانوا في صفوف الجيش العثماني الذي حارب "لازار" ملك الصرب في معركة كوسوفا الشهيرة".[٤]

الغريب في الأمر أن المؤرخين الصرب تجاهلوا الحقائق التاريخية وتابعوا الأساطير التي نسجها الخيال الشعبي حول معركة كوسوفا فزعموا أن هزيمة الصرب كانت ضربة ماحقة قضت على مملكتهم وأن العثمانيين احتلوا على أثرها صربياً، وكلا الزعمين غير صحيح، فقد تكبد الجانبان خسائر فادحة في الأرواح، وقتل "لازار" ملك الصرب كما قتل مراد سلطان العثمانيين في المعركة، وفي حين هرب جيش لازار من أرض المعركة انسحب بعده الجيش العثماني بقيادة بايزيد ابن السلطان مراد عائدا الي بلاده ليحسم الخلافة بين اخوته. وبقيت مملكة الصرب قائمة بعد المعركة قرابة سبعين سنة لم تشهد إلا تدخلاً طفيفاً من جانب العثمانيين حيث كان ملكها يدفع الجزية للسلطان العثماني ليثبت ولاءه وتبعيته.

دخلت البوسنة بعد موت "تفرتكو" سنة ١٣٩١م في مرحلة ضعف واضطراب طويلة عاد خلالها النفوذ المجري إلى البوسنة. وفي سنة ١٤١٤ ظهر في آفاق البوسنة عنصر سياسي عسكري جديد حيث جاء العثمانيون يناصرون "تفرتكو" الثاني المطرود. وفي العام التالي زحفوا بجيش أكبر فسحقوا القوات المجرية في هزيمة منكرة وسط البوسنة. واتفق معهم "استويا" الذي نصبوه ملكا على البوسنة أن يكون للعثمانيين نفوذ يوازي ما كان للمجريين من نفوذ، واستمر الأمر على هذا الحال حتى توفي "أستويا" عام ١٤١٨م. وظل الصراع الداخلي بين النبلاء في البوسنة مرجحا كفة النفوذ المجري تارة والنفوذ العثماني تارة أخرى حتى جاء الهجوم الكاسح للعثمانيين سنة ١٤٦٣م.

---

[٣] هو مراد الأول الذي تولى السلطة في الفترة من ١٣٥٩-١٣٨٩.

[٤] أنظر نويل مالكوم في كتابه عن كوسوفا، ص ٦٣. Malcalm, Noel. Kosovo: A Short History. London: Macmllan, 1998.

في أثناء ذلك كان الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية وكنيسة البوسنة المستقلة يتخذ مظاهر عدة ويتقلب في مراحل مختلفة، ولكن تحت تأثير الحاجة الملحة إلى مساعدات خارجية لمواجهة الخطر العثماني المرتقب وافق ملك البوسنة "ستيفن توماس" سنة ١٤٥٩ على مطالب البابا بتنفيذ سياسة محاكم التفتيش أو بمعنى آخر (الاضطهاد الديني والتعذيب المنظم) لكل من لا يعتنق الكاثوليكية، ومن ثم استدعى الملك رجال الدين في البوسنة وخيرهم بين أمرين: إما اعتناق الكاثوليكية وإما النفي خارج البلاد، فقبل منهم من قبل كارهاً ورفض آخرون فطردوا خارج وطنهم. وظل الاضطهاد الديني قائماً في البوسنة قرابة أربع سنوات حتى جاء العثمانيون في ربيع ١٤٦٣ حيث زحف جيش كبير بقيادة السلطان محمد الثاني قادماً من "أدرنة" متجهاً نحو البوسنة فسقطت أول قلعة فيها بمساعدة الأهالي في ٢٠ مايو ١٤٦٣م وهرب الملك ولكنه سرعان ما استسلم بعد حصار قصير. وهكذا تخلصت البوسنة من ملكها الجائر كما تحررت من الاضطهاد الديني لعدة قرون في ظل الهيمنة العثمانية.

ديانة مختلفة وهوية مستقلة :

لم يدر جدل واسع حول أي موضوع يتعلق بتاريخ البوسنة القديم كما دار حول طبيعة الكنيسة البوسنوية في القرون الوسطى. ويبدو أن الكتاب وجدوا في هذا الموضوع جانباً "رومنسياً" جذبهم إليه فأكثروا الخوض فيه . فمثل ثورات الفلاحين على الإقطاع المستبد في القرون الوسطى كانت الهرطقة والمروق من سطوة الكنيسة الكاثوليكية مرتبطان بالشجاعة والبطولة.

ولعل أول مؤرخ كرواتي اهتم بالموضوع هو "فرانيو رتشكي" ويعتبر أكبر مؤرخي القرن التاسع عشر في كرواتيا، فقد تناول الموضوع بشيء من التفصيل في سلسلة من المقالات نشرت بين سنتي ١٨٦٩ و ١٨٧٠م، جمع فيها كل ما استطاع الحصول عليه من أدلة ليثبت أن كنيسة البوسنة كانت امتداداً لديانة تسمى "البوجوميلية". كان أول ظهور لها في بلغاريا على يد رجل دين يدعي "بوجوميل" (أي حبيب الله)، وانتشرت هذه الديانة خلال القرون التالية في القسطنطينة وغيرها من مناطق البلقان مثل مقدونيا وأجزاء من صربيا. وكانت هذه الديانة قائمة على أساس من المعتقدات "المانوية الثنائية" حيث تتساوى فيها قوة الشيطان مع قوة الإله.

العالم في "المانوية" لأنه عالم مادي فهو من صنع الشيطان، ويستطيع الإنسان تحرير نفسه من عبودية هذا العالم بالزهد فيه فلا يقرب اللحم أو الخمر أو النساء. وكانت فكرة ارتباط المادة بالشيطان ذات أثر بالغ في حياة البوجوميليين فعلى حد قول المؤرخ الكرواتي

"راتشكي" يعتبر التجسيد الإلهي في المسيح وهما لا يمكــن حدوثـه، وأن مـوت المسـيح علـى الصليب لم يحدث، وتبعاً لذلك رفض البوجوميليون كثـيرا مـن الشـعائر الـتي تشـتمل علـى أشياء مادية مثل التعميد بالماء، بل كان الصليب في حد ذاته رمزاً مكروهاً ودليلاً علـى فسـاد العقيدة. كذلك رفضت البوجوميلية استخدام مبنى الكنيسة وأنكروا نظامـها الكـهنوتي وعلـى الأخص أديرتها الغنية.

أما المؤرخون الصرب فقد أصروا على القول بـأن الكنيسـة البوسـنوية لم تكـن أكـثر مـن كنيسة أرثوذكسية انحرفت عن الطريق السوي للأرثوذكسية. وقد بقيت هـذه النظريـة سـائدة عند الصرب إلى اليوم، بينما يصر الكرواتيون على أن البوسنويين كـانوا أتباعـاً للكاثوليكيـة، وهكذا لم يستطع الصرب ولا الكروات أن يتقبلوا حقيقـة أن الديانـة البوسـنوية في اختلافـها عن دياناتهم كانت تعبيراً قوياً عن اختلاف أعمـق في الهويـة والانتمـاء القومـي وأنـها دليـل قاطع على الاتجاه الوطني الاستقلالي الغالب على الوجدان البوسنوي منذ أقدم العصور.

ويعلق نويل مالكوم على ذلك بقوله: "إن ما شـاع بـين الصـرب والكـروات حتـى العصـر الحديث حول هذا الموضوع لم يكن إلا من قبيل أحلام تحقيق الرغبـة.. وهكـذا ظـل الصـرب حتى الآن يرون أن المسلمين في البوسنة ينبغي أن يعودوا إلى الأرثوذكسية بينما يصر الكروات على أن مسلمي البوسنة ينبغي أن يعودوا إلى الكاثوليكية".[٥]

ترجع أهمية نظرية "راتشكي" وانتشـارها حديثـاً بـين المؤرخـين إلى أنـها تؤكـد حقيقـة اختلاف الديانة البوسنوية عــن كـل مـن الديـانتين الكاثوليكيـة والأرثوذكسـية، وأن تعـرض البوسنويين في الماضي للاضطهاد المستمر من جانب الكنيستين كان أحد العوامل الهامة الـتي جعلتهم يرون الحرية في اعتناق الإسلام.

ويرى نويل مالكوم أن البوجوميلية بطبيعتها المختلفة عن الكاثوليكيـة والأرثوذكسـية وإن كانت سبباً في اعتناق البوسنيين للإسلام إلا أنها لم تكن إلا سبباً واحداً بين أسباب أخـرى.[٦]

ويرفض نويل مالكوم كل ما قيل عن الهرطقة الدينية كمـا صورتـها الوثـائق البابويـة لأن الذين كتبوا هذه التقارير– على حد قوله– أناس لم تطأ أقدامهم أرض البوسـنة مطلقـاً، ومـن ناحية أخرى فإن التاريخ لم يحتفظ لنا بأي كتابات صدرت من داخل البوسنة. وأن ما ظـهر إبان العصور الوسطى كان تزويرا، وأن ما جرى على أقلام المؤرخـين بعـد ذلـك كـان ترديـداً لهذه الأكاذيب غير مستند إلى دليل، فاتخذوه على سبيل تحلية الكلام بالمصطلحات الغريبة وتحميلها معاني الانحراف والمروق والهرطقة.[٧]

---

[٥]،[٦] أنظر نويل مالكوم نفس المصدر ص ٢٩.

[٧] أنظر نويل مالكوم نفس المصدر ص ٣٧.

الفصل الثاني

البوسنة تحت النظام العثماني

تم الغزو العثماني لملكة البوسنة بسرعة فائقة خلال ربيع ١٤٦٣، ومن ذلك التاريخ أصبحت أراضي البوسنة تحت السيطرة العثمانية واستقر الأتراك فيها بصفة دائمة حتى بعد أن سحب الجيش العثماني معظم قواته في الخريف.

ولكن الأراضي التي استولى عليها العثمانيون في النصف الشمالي في البوسنة تعرضت لغزو المجريين ثم استعادها العثمانيون على مراحل انتهت سنة ١٥٢٧ كما تم إخضاع الهرسك سنة ١٤٨٢. ولكي يقضي العثمانيون على مناوءة المجريين لنفوذهم في المنطقة ظلت الهجمات العثمانية تتوالي علي المجر في عهود كل من السلطان محمد الثاني [٨] (١٤٥١-١٤٨١م)، والسلطان بايزيد (١٤٨١-١٥١٢)، والسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) حتى تمزقت الإمبراطورية المجرية، كما تم القضاء على نفوذ أسرة هابسبورج (الإمبراطورية النمساوية) في البلقان.

نظام التجنيد:

كان العثمانيون- خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر- يتبعون نظاماً في التجنيد يقوم على اجتلاب الصبيان في سن مبكرة، من أبناء أسر رعايا الإمبراطورية سواء في ذلك الأسر المسيحية أو الأسر المسلمة، حيث يتم تعليمهم وتدريبهم وفق برامج معينة، حتى يكتمل تعليمهم ونضجهم ثم يلحقون بقوات الجيش المعروفة باسم الإنكشارية ، ومن لم يلتحق بالجيش كان يعين في وظائف بالإدارات الحكومية المختلفة أو في القصور الإمبراطورية، كل حسب قدراته ومواهبه. وقد يبد في الأمر قسوة ونحن نحكم على هذا الموضوع بمعايير عصرنا ومشاعره السائدة، ولكن الأمر على عكس ما نتصور، فقد كان انتقال صبي من جحيم الإقطاع الأوروبي وعبوديته إلى القصور الإمبراطورية في الدولة العثمانية للتربية والتعليم- كان هذا الانتقال نعمة كبرى للصبي نفسه ولأهله ثم لموطنه الأصلي كما سيتضح لنا فيما بعد.

ويبرز هذه الحقيقة الكاتب البريطاني نويل مالكوم حيث يقول: "حاول البعض تصوير أخذ السلطة العثمانية أطفال المسيحيين لتعليمهم في اسطنبول وتدريبهم للانخراط في الجيش

---

[٨] هو السلطان محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣م.

أو الخدمة المدنية على أنه عملية وحشية، ولكن الذي ينظر إلى الأمر بعين الإنصاف سيرى رؤية أخرى مختلفة، فهؤلاء الأطفال الذين تعلموا في المدارس السلطانية. ثم عملوا ضباطاً في الجيش أو موظفين في إدارة الدولة ظلوا على اتصال دائم بأسرهم وقد عادوا بالخير العميم عليها، فمن أبناء البوسنة وحدها ارتقى تسع وزراء عظام خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكان من أبناء الصرب رجال استطاعوا حفظ مصالح بلادهم ومواطنيهم وذلك من خلال تأثيرهم في حكومة السلطان وبلاطه، لدرجة أن المسيحيين أنفسهم كانوا يلتمسون من جيرانهم المسلمين أن يحل أبناؤهم محل أبناء المسلمين للذهاب إلى اسطنبول، ونظرا لكثرة هؤلاء الموظفين أصبحت اللغة السلافية (الصربو- كرواتية) ثالث لغة في الإمبراطورية بعد اللغتين التركية والعربية.

عندما انتهى نظام التجنيد هذا في الستينات من القرن السابع عشر كان عدد السلافيين الذين يعملون في الإمبراطورية العثمانية مائتا ألف، وقد إشتهروا باسم "الصقالبة". ويرى "مالكوم" أن قوة ونفوذ الصقالبة ومنافستهم لملاك الأراضي من القادة العثمانيين أنفسهم كان من نتائجه القضاء على النظام الإقطاعي التركي، بل أدي نشاطهم المتزايد إلى انهيار النظام المالي والإداري للإمبراطورية العثمانية وبالتالي أدى إلى تدهور الإمبراطورية.

نظام الإقطاع العثماني:

يختلف النظام الإقطاعي عند الأتراك عن الإقطاع الأوروبي في أمور كثيرة وهامة: فالإقطاع الأوروبي كان نظام أسياد يملكون وعبيد يعملون لحسابهم. ولم تكن ملكية الإقطاعي تقتصر على الأرض فحسب بل تشتمل أيضا علي الناس الذين يعملون في هذه الأرض. ولم تكن علاقة نبلاء الإقطاع بهؤلاء الفلاحين أو العبيد علاقة يحكمها قانون، فرغبة النبيل هي القانون إن شاء أعطى وإن شاء منع، هذا الاستبداد الذي لا حدود له ولا رادع جعل حياة الفلاحين جحيماً لا يطاق.

أما نظام الإقطاع العثماني فشيء مختلف؛ ذلك لأن صاحب الإقطاع لا يملك الأرض فالأرض ملك للسلطان، ودور الإقطاعي مقتصر على إدارة هذه الأرض واستغلال ربعها في الإنفاق العام، فجزء من هذا الريع كان ينفق على جنود المقاطعة، ويكون هو وجنوده جاهزين إذا دعاه السلطان للقيام بمهمة ما. وتبعاً لذلك كان صاحب الإقطاع يتغيب عن الأرض تسعة أشهر في السنة. ولم يكن لصاحب الإقطاع سلطان على الفلاحين أكثر من أنه يحصل منهم عشر المحصول الناتج مع قليل من الخدمات المحددة. وقد وجد الفلاح الذي جرب عبودية النظام الإقطاعي الأوروبي من قبل فرقاً هائلاً بينه وبين الحياة في نظام الإقطاع العثماني

حيث استطاع أن يتمتع في ظله بحرية أكبر كما تمتع بأمن ورخاء لا نظير له. تحول هذا الإقطاع مع مرور الزمن إلى ملكيات خاصة نتيجة لتطبيق قوانين الإرث الإسلامي، وتوزعت هذه الملكيات على عدد أكبر من السكان، حتى أصبح نصف فلاحي البوسنة- حسب تقدير "جستين مكارثي" يملكون الأرض الزراعية التي يعيشون فيها مع أسرهم الممتدة.[١٠]

ومن الطرائف التي تستحق الذكر أن آخر رسالة استغاثة بعث بها ملك البوسنة قبل استلامه إلى البابا تقول:

" إن الأتراك يستخدمون مع الفلاحين خداعاً ماكراً؛ فقد وعدوا كل من يأتي إليهم بالحرية، وهم يرحبون بالفلاحين ويبالغون في إكرامهم.. ولسوف يتشجع الفلاحون بهذه الحيل ويهجرونني".[١٢]

ويعلق "مالكوم" على هذه الرسالة قائلاً: "الحقيقة أنه لم يكن في الأمر ثمة حيل أو خداع وإنما كانت وعوداً جادة تحققت بالفعل".[١٣] ثم يضيف بعد ذلك ما استخلصه من بحثه فيما يتعلق بمعاملة الدولة العثمانية لرعاياها غير المسلمين فيؤكد أن رعايا الدولة كانوا يعاملون بمعيار واحد كأصحاب ملل مستقلة، فهم سواء في حق الالتحاق بالنظام إذا ما اكتسبوا النظرة العثمانية والأسلوب العثماني في السلوك، بصرف النظر عن ملتهم. فلم يكن التعامل على أساس (مسلمين وغير مسلمين) بل رعايا الإمبراطورية. وكان هناك باشوات مسيحيون منحوا كغيرهم من الباشوات إقطاعيات من الأرض بدون أن يضطروا إلى التخلي عن ديانتهم المسيحية، فكل ما كان مطلوباً من المسيحي هو أن يكون مخلصاً للدولة متقبلاً لأسلوبها في العمل، فتلك كانت القضية الأهم التي تعني بها السلطة الإمبراطورية.[١٤]

ظل التسامح وهذا الامتزاج الحضاري قائماً في الدولة العثمانية قرابة قرنين من الزمن، فلما فقدت الدولة حيويتها وأصابها الجمود والفساد بدأ هذا الاتجاه ينحسر ويحل مكانه الجور والاستبداد ليشمل جميع الرعايا مسلمين ومسيحيين، وكان هذا أكثر وضوحاً في الولايات التي تمرد فيها حكامها على السلطة المركزية وحاولوا الاستقلال عنها.

---

[١٠] أنظر جستين مكارثي في كتابه :

The Muslims of Bosnia Herzegovina ..2 nd ed ..
Cambridge Mass. : Harvard University , 1996 .

[١٢] أنظر "فاين" ص ٥٨٣ Fine, J.V.A.- Late Medieval Balkans: A Critical Survey From The Late Twelfth Century To The Ottoman Conquest. An Arlor; Mechigan, 1987.

[١٣] أنظر نويل مالكوم، نفس المصدر السابق ص ٤٨.

[١٤] أنظر نويل مالكوم، نفس المصدر، ص ٤٨.

إسلام البوسنة :

من أبرز الظواهر في تاريخ البوسنة بعد الغزو العثماني اعتناق سكانها للدين الإسلامي بأعداد كثيفة كانت دائماً مثار دهشة وموضع كتابات مستفيضة حاول الباحثون فيها إلقاء الضوء على هذا التحول المثير وتفسيره والوصول إلى الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة.

ولا تزال كتابات المؤرخين المحدثين- على اختلاف نزعاتهم- يتردد فيها نظريات وأحياناً قصص وأساطير حول هذه الظاهرة، فالأمر كان ولا يزال موضع جدل كبير.

فهناك نظرية شائعة تذهب إلى أن طبيعة الديانة البوجوميلية التي سادت في البوسنة قبل العثمانيين هي التي أدت إلى اعتناق سكان البوسنة أفواجاً للإسلام، يرجح هذه النظرية كتاب كثيرون من أشهرهم "توماس أرنولد".

ويرى آخرون أن البوسنويين دخلوا الإسلام تحت تأثير عاملين: القهر من جانب السلطات العثمانية من ناحية، والمكاسب المادية التي كانوا يلوحون بها لمن يعتنق الإسلام، ومصدر هذا الرأي عدد من القسس الأرثوذكس والكاثوليك، الذين رأوا الناس ينفضون عن كنائسهم ويتجهون إلى الدين الجديد فحملهم الهوى أو دفعتهم الغيرة إلى موقف لا يحسدون عليه.

ويعارض كل من هـ.ت. نوريس، ونويل مالكوم النظريتين حيث يرفضان نظرية القهر والإجبار رفضاً كاملاً، ويختلفون مع نظرية توماس أرنولد في اتجاهها العام.

فنحن أمام ثلاثة اتجاهات من الرأي يمثلها ثلاثة من كبار المؤرخين والكتاب البريطانيين لهم وزنهم في مجال تخصصاتهم، ولهم إنجازاتهم العلمية واجتهاداتهم الجادة، ولهم مناهجهم في البحث والرصد والتفسير، وهم جميعاً يشتركون في إجادتهم لعدد من اللغات أتاحت لهم سعة الإطلاع، كما أتاحت لهم بصفة خاصة الاستناد في كتاباتهم إلى المصادر الأولية بلغاتها الأصلية.

يأتي على رأس هؤلاء الثلاثة "توماس أرنولد"، وهو عالم وباحث مقتدر يجيد اللغة العربية والفارسية والأردية إلى جانب إلمامه باللغات الأوروبية، كان أستاذاً بجامعة لندن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، زار مصر سنة ١٩٣٠. ومن أهم مؤلفاته وأشهرها كتابه "الدعوة إلى الإسلام"[١٥] يكشف فيه عن حقيقة الانتشار السلمي للإسلام في

---

[١٥] أنظر ت. أرنولد Arnold, T.W. The Preaching of Islam : A History of Propagation of the Muslim Faith- London: Darf Puplishers, (reprint) 1986.

كل بلاد العالم، وهو حجة دامغة للخرافة الشائعة في الغرب عن فرض الإسلام على العالم بقوة السلاح.

ويأتي من جامعة لندن أيضاً "هـ.ت. نوريس"، كان أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية حتى سنة ١٩٩١، يجيد عدة لغات من بينها لغة البوسنة (الصربو- كرواتية)، تعددت أسفاره وزياراته إلى بلاد منطقة البلقان من أجل الدراسة والبحث، وله مؤلفات عديدة عن تاريخ المسلمين من بينها كتاب "المجتمعات المسلمة في شرق أوروبا" وكتاب آخر أكثر أهمية بالنسبة لموضوعنا هو كتاب "الإسلام في البلقان" يغلب عليه العناية بالآثار الفكرية والأدبية والدينية إلى جانب اهتمامه بالجوانب التاريخية والاجتماعية والسياسية حتى الوقت الحاضر.

أما "نويل مالكوم" فقد تخطى الأربعين الآن ودخل في مرحلة النضج والكهولة، تخرج من جامعة كمبريدج وحصل على الدكتوراه في التاريخ وعمل بالجامعة في الفترة من سنة ١٩٨١-١٩٨٨م. ثم جذبته الصحافة فشغل وظيفة المحرر الخارجي لصحيفة "إسبكتاتور" "The Spectator" ثم كاتباً ومحللاً سياسياً في صحيفة الديلي تليجراف The Daily Telegraph. ومن أهم مؤلفاته كتابه: "البوسنة: تاريخ موجز" الذي نشر في لندن سنة ١٩٩٤م. ونويل مالكوم صاحب نظرة ثاقبة في السياسة انتقد سياسة الحكومة البريطانية في البوسنة وكشف عن المواقف المخجلة التي وقفتها الحكومات الغربية من قضية البوسنة.

البوجوميلية:

يرجح "توماس أرنولد" نظرية انتشار العقيدة الإسلامية في البوسنة نتيجة للتشابه الكبير بين العقيدة البوجوميلية والإسلام فيما يتعلق بموقفهما من المسيحية. ويفصّل الموقف الديني للبوجوميليين قائلاً: "لقد رفضوا عبادة مريم العذراء، ورفضوا فكرة التعميد، ورفضوا جميع الصور الكهنوتية، وكانوا يكرهون الصليب كرمز ديني ويرون أنه من الوثنية أن ينحني الإنسان أو يركع أمام التماثيل الدينية وصور القديسين أو آثارهم.. وكانت أماكن عبادتهم بسيطة جداً وخالية من الزخارف بعكس كنائس الرومان الكاثوليك الحافلة بالزخارف.. وكانوا يشتركون مع المحمديين (يقصد المسلمين) في كراهية الأجراس ويطلقون عليها نفير الشيطان.. وكانوا يعتقدون أن المسيح لم يصلب وأن شبحاً آخر حل محله، وفي هذا يتفقون تماماً مع ما ورد بشأن صلب المسيح في القرآن. ويضيف "أرنولد" أن تحريمهم للخمر.. والتقشف الذي ساد حياتهم العامة، ومسلكهم الجاد في الحياة يوثق عري صلاتهم بالإسلام.

ويؤكد بعض المؤرخين أنهم كانوا يصلون في النهار خمس مرات وفي الليل خمس مرات.. ويكررون الصلاة ساجدين.

ويصفهم "أ. ج. إيفانز" مقتبساً من "كوسماس" Kosmas قائلاً: "ستجد الهراطقة (يقصد البوجوميليين) آمنين مطمئنين كالحملان الوديعة صامتين ضعافاً من كثرة الصيام لا يتكلمون كثيراً ولا يتحدثون بصوت مرتفع ويطلقون لحاهم".

ويعلق أرنولد على ذلك قائلاً: "بهذا وجد "البوجوميليون" أن دخولهم في الإسلام لا يستلزم منهم إلا تغييراً طفيفاً لكي يلتحقوا بالمسجد.. وكان من السهل إقناعهم بالتخلي عن بعض التقاليد الأخرى التي تخالف الإسلام".[١٦]

ويثبت أرنولد أن "البوجوميليين" تعرضوا لاضطهاد مستمر بسبب عقيدتهم من قبل الكنيسة الكاثوليكية "فكان البابوات يشجعون على شن حملات صليبية عليهم في كثير من الأوقات: في عهد البابا "هونوريوس الثالث" سنة ١٢٢١م وفي عهد "جريجوري التاسع" سنة ١٢٣٨م وفي عهد "إنوسنت الرابع" سنة ١٢٤٠م وفي عهد "بنديكت الثاني عشر" سنة ١٣٣٧.. وأنشئ لهم نظام التفتيش سنة ١٢٩١م"[١٧]

ويطلعنا "أرنولد" على رسالة كتبها البابا جون الثاني عشر إلى ملك البوسنة (الكاثوليكي) يقول فيها: "إلى ابننا الحبيب الرجل النبيل (ستيفن) أمير بوسنيا- نعلم بأنك ابن بار للكنيسة.. ولذلك فإننا نكلفك بالقضاء على الهراطقة في منطقتك.. وأن تقدم كل التسهيلات والمساعدات لمفتشنا (فابيان). ولما كان عدد كبير من الهراطقة- من أنحاء وجهات شتى- قد تجمعوا في هذه المنطقة آملين أن ينشروا أخطاءهم الفاحشة وينعموا هناك بالسلام.. فإن هؤلاء الهراطقة قد تلبسوا بمكر الشيطان وتسلحوا بسمومهم وزيفهم يفسدون بها عقول الكاثوليك بالكلام المعسول.. إن كلامهم يزحف كالسرطان.. وهم يتظاهرون بالتواضع والمذلة ولكنهم يقتلون في الخفاء.. إنهم ذئاب وسط حملان المسيح البسطاء" وهكذا انطلق ملك البوسنة وقسس محاكم التفتيش في البوجو ميليين قتلاً واضطهاداً ففر منهم أربعمائة إلى البلاد المجاورة والذين لم يتمكنوا من الفرار أرسلوا مكبلين بالسلاسل إلى روما. [١٨] ولكن رغم كل اضطهاد بقيت البوجوميلية حية حتى جاء السلطان محمد الثاني لفتح البوسنة سنة ١٤٦٣،وهناك وجد ملك البوسنة الكاثوليكي نفسه معزولاً عن رعيته التي هجرته.. وقام "البوجوميليون" بتسليم مفاتيح القلاع ومفاتيح القصر الملكي إلى العثمانيين وفي خلال أسبوع

---

[١٦] أنظر توماس أرنولد، نفس المصدر، ص ٢٠٠.

[١٧] [١٨] أنظر "أرنولد" نفس المصدر ص ١٩٨.

واحد سقطت في يد السلطان الفاتح سبعون مدينة بوسنوية.[19] وفي ظل الهيمنة العثمانية احتفظ البوسنويون بلغتهم وقوميتهم وممتلكاتهم وبقي كثير منهم يحملون أسماءهم السلافية دون تغيير.. ولم يجبرهم الفاتحون على ترك دينهم.

يتفق "هـ.ت. نوريس" مع "توماس أرنولد" في حقيقة أن العثمانيين لم يستخدموا أي وسيلة لإجبار سكان البوسنة على اعتناق الإسلام، ولكنه يعارض فكرة أن البوجوميلية بطبيعتها هي التي أدت إلى اعتناق البوسنويين للإسلام. ويرى أن ساحل الإدرياتيك كان مفتوحاً للتأثيرات الإسلامية لعدة قرون وأن المسألة كانت مسألة وقت حتى ينفذ الإسلام إلى المنطقة الجبلية التي يسكنها البوسنويون خلف هذا الساحل. فالإسلام لم يكن مجهولاً بالنسبة للبوسنويين، وكان هناك مسجد في "أوستيكولينا" قائماً قبل الغزو العثماني بزمن طويل.

ويرى "نوريس" أن هؤلاء البوسنويين البوجوميليين لم يستطيعوا أن يتأقلموا مع النظام الإقطاعي المستبد الذي كان سائداً في المنطقة بأسلوبه المركزي وبما يفرضه من عبودية ومذلة وما ينطوي عليه من مادية مفرطة، بينما يميل البوسنويون بحكم الفطرة والطبع إلى الحرية والزهد والتمرد على القهر والتحكم. ويخلص نوريس إلى نتيجته أن دخول العثمانيين وتحطيمهم لهذا النظام الإقطاعي هو الذي مهد الطريق أمام انتشار الإسلام في البلقان كله لا في البوسنة وحدها. وإذن فالحياة الزراعية المتجهمة والنظام الزراعي المستبد في البلقان والحاجة إلى التخلص منهما هو الذي فتح الطريق للعقيدة الإسلامية وتبني الثقافة الإسلامية.[20]

وهكذا يكشف لنا "نورس" عن سبب هام من أسباب الاستقبال الحار للعقيدة الإسلامية من جانب البوسنويين. ولكنه وهو يتحدث عن الفطرة والطبع يقترب– لا شعورياً– إلى رأي "توماس أرنولد" في أن التشابه بين البوجوميلية والعقيدة الإسلامية هو الذي أدى في النهاية إلى اعتناق الإسلام. ذلك لأن الطباع والأخلاق والقيم لابد أن تكون قد نشأت وترعرعت أحقاباً في إطار عقيدة روحية ذات خصائص معينة، كانت هي البوجوميلية عند البوسنويين، ومن ثم لا نرى خلافاً جوهرياً في هذه النقطة بين رأي كل من "نوريس" و "توماس أرنولد". لا يختلف "نويل مالكوم" مع "توماس أرنولد" ومع "نوريس" في أن انتشار الإسلام في

---

[19] أنظر "أسبوث" .Aspoth, J. de. An Officeal Tour Through Bosnia and Herzegovina. London: 1890. PP 42-45. (اقتباس أرنولد)

[20] أنظر هـ.ت. نوريس، المصدر السابق، ص ٤٦.

البوسنة لم يكن نتيجة لإجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام، ويؤكد معهما أن الدولة العثمانية لم يكن في سياستها أي خطط لتحويل الناس عن دينهم إلى الإسلام، أو حتى جعلهم يلتزمون بمسلك المسلمين، وإنما كانت الدولة معنيّة في المقام الأول ببقاء البلاد تحت السلطة العثمانية، فما دامت هذه البلاد توفر المال والرجال لسد احتياجات الإمبراطورية فإن بقية الأمور الحياتية متروكة للشعوب ولا تتدخل الدولة فيها. وهكذا ترك المسيحيون واليهود جميعاً يمارسون دياناتهم بحرية كاملة، وكان من حقوقهم المقررة أن يطبقوا قوانين ملتهم على رعاياهم وفي محاكمهم الخاصة فيما عرف باسم "النظام المللي".[٢١]

أسباب انتشار الإسلام في نظر نويل مالكوم :

تبقى مسألة التحول الكثيف للبوسنويين إلى الإسلام موضع تساؤل وخلاف. فمالكوم يختلف في هذه النقطة مع "توماس أرنولد" كما يختلف مع كثير من الكتاب والمؤرخين الذين خاضوا في الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة، بل إنه يصف بعض هذه الكتابات بأنها من قبيل الأساطير. ويعتمد "مالكوم" في رأيه على الأرقام الإحصائية التي تمدنا بها التحليلات الدقيقة لسجلات الإدارة العثمانية التي أتيحت للدارسين في الأربعينات من القرن العشرين، ويعلق "مالكوم" على ذلك بقوله: لقد بدأت الصورة تتضح لنا أكثر فأكثر حتى أن كثيراً من الحكايات والأساطير التاريخية أخذت في التلاشي والذوبان أمام الحقائق الرقمية المدونة".[٢٢]

يرى مالكوم أن الدفاتر العثمانية تعتبر من أهم مصادر المعلومات التاريخية لأنها تحتوي على تسجيلات دقيقة للضرائب وعنيت أكبر عناية بتسجيل ملكية الأراضي والعقارات، وصنفت الناس حسب مللهم (دياناتهم)، ومن هذه الدفاتر أمكن رسم صورة مفصلة عن حركة الإسلام في البوسنة.

وفيما يلي نلخص دراسة "نويل مالكوم" الإحصائية عن أسلمة البوسنة طبقاً للسجلات العثمانية:

تشير الدفاتر العثمانية سنة ١٤٦٨م إلى وجود ٣٧١٢٥ أسرة مسيحية[٢٣] و ٣٣٤ أسرة مسلمة فقط إلى جانب تسعة آلاف فرد مسيحي بين أعزب ومطلق أو مطلقة يقابل ذلك هناك ٢٣٤ فرد مسلم فقط. كان الإسلام– وفقا للسجلات– أكثر انتشاراً في سراييفو منه في الهرسك

---

[٢١] أنظر "مالكوم" في كتابه عن البوسنة ص ٤٩، ٥٢–٦٩.

[٢٢] أنظر "مالكوم" في كتابه عن البوسنة ص ٤٩، ٥٢–٦٩.

[٢٣] مصطلح "غير مسلم" أدق في الوصف عن "مسيحي" لأن ديانة البوسنويين قبل الإسلام كانت موضع جدل كما رأينا.

نسبياً. وقد اقترنت الأسماء المسجلة بأوصاف مثل: (مسلم جديد) وقد تصادف اسم شخص مسلم بينما لا يزال أبواه مسيحيين مثل: (علي بن فلان المسيحي).

أما السجل الثاني الذي تم تحليل أرقامه بإمعان فيرجع تاريخه إلى سنة ١٤٨٥م، في هذه السنة يشير السجل إلى أن الإسلام قد بدأ يحقق تقدماً ملحوظاً حيث وجد به (٣٠٥٥٢) أسرة مسيحية و (٢٤٩١) فرد أعزب ومطلق، في مقابل (٤١٣٤) أسرة مسلمة و (١٠٦٤) فرد أعزب. فإذا ضرب عدد الأسر في خمسة أفراد لكل أسرة تكون النتيجة كالتالي (١٥٥٢٥١) مسيحي، (٢١٧٣٤) مسلم. وفي دفاتر العشرينات من القرن السادس عشر وجد في سنجق البوسنة (٩٨٠٩٥) مسيحياً و (٨٤٦٧٥) مسلماً، هذا الرقم الأخير يمثل عدد المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام.

أما في "الهرسك" فقد كتب أحد الرهبان الأرثوذكس عام ١٥٠٩م مشيراً إلى أن كثيراً من الأرثوذكس اعتنقوا الإسلام تطوعاً (يقصد بدون إجبار)، وفي شمال البوسنة وشرقها يلاحظ "مالكوم" أن تقدم الإسلام كان بطيئاً حتى تم تحرير هذه المناطق من السيطرة المجرية، عندئذ تسارعت خطى الإسلام فيها ابتداءً من عشرينات القرن السادس عشر.

ويزعم الأب الدومنيكي المؤرخ "مانديتش" أن الكاثوليك تعرضوا لحملات إضطهاد منظمة لإجبارهم على اعتناق الإسلام في الفترة بين ١٥١٦و ١٥٢٤م، إلا أن دراسة أكثر دقة وتفصيلاً لشمال شرق البوسنة (موطن الكاثوليكية المجرية) لنفس هذه الفترة قام بها "آدم هانجيتش" لا تتفق مع هذه المزاعم التي ذهب إليها الأب "مانديتش". وكانت الأسلمة في المدن أكثر منها في القرى. وفي سنة ١٥٣٣م أصبحت نسبة المسلمين في هذه المنطقة ثلث السكان وفي سنة ١٥٤٨م زادت النسبة إلى ٤٠٪.

ولكن المسلم به أن تعداد المسلمين في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر كان يمثل الأغلبية العظمى لسكان البوسنة والهرسك.

هناك مصادر أخرى للإحصاء كتبها قساوسة بعثتهم البابوية من روما، ولكن "مالكوم" لا يثق بتقارير هؤلاء القساوسة ولا إحصاءاتهم لأن أرقامهم- كما يرى- كانت مؤسسة على وصف المسلمين بالمارقين والهراطقة وهي أوصاف مائعة لا تقرر الحقيقة، علاوة على أن أصحابها لجأوا إلى المبالغة في تضخيم أعداد رعايا الكاثوليكية كما بالغوا في وصف التضييق الذي تعانيه هذه الكنيسة وكان الأولى بهم أن يصفوا الأشياء بوصفها الصحيح فالتضييق لم يكن إلا تعبيراً آخر عن انصراف الناس عن الكنيسة الكاثوليكية إلى الإسلام.

من هذه التقارير ما قدر عدد الكاثوليك سنة ١٦٢٦بـ (خمسمائة وعشرين ألف) كاثوليكي، ولكن قسيسا ألبانياً في نفس الفترة تقريباً أي سنة ١٦٢٤ قرر أن عدد الكاثوليك

كـان ١٥٠ ألفـا فقـط، وأن الأرثوذكـس بلـغ عددهـم ٧٥ ألفـاً والمسـلمون ٤٥٠ ألفـاً، وهكـذا تتضارب الأرقام في هذا المصدر ولذلك لا يمكن الاعتماد عليه في التماس الحقيقة.

يقول مالكوم:[٢٤] "المهم أن عملية اكتساب البوسنة للإسلام حتى أصبح المسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة قد أخذت فترة طويلة تبلغ مائة وخمسين عامـاً" ثـم ينتقـل إلى اسـتخلاص بعض النتائج الضرورية ترتيباً على هذه الحقائق التي كشف عنها ودعمها بالأرقـام الموثقـة في أدق سجلات الدولة العثمانية. يقول "فالكوم": لقد أصبح الآن من الممكن اسـتبعاد كثـير مـن الحكايات والتفسيرات الخاطئة التي دارت حول أسلمة البوسنة".

أولاً– حكاية أنه كان هناك عملية استيطان واسعة النطاق من جانب الأتـراك العثمـانيين أو من خارج البوسنة بصفة عامة هذه الحكايـة لا توجـد أي دلائـل تاريخيـة تدعمـها، فقـد استوطن الأتراك في مناطق كثيرة في البلقـان إلا أن هـذه السياسـة بـالذات لـن تكـن تتبـع في البوسنة كما تؤكد ذلك سـجلات الضرائـب العثمانيـة، ويبـدو أن الذيـن زاروا البوسـنة أيـام العثمانيين سمعوا من أهلها يصفون أنفسـهم بأنـهم عثمـانيون علـى اعتبـار أنـهم مواطنـون أو رعايا للدولة العثمانية لا أتراكاً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة.

ولعل كثيراً من التجار السلاف جاءوا إلى البوسنة من مناطق أخرى في البلقـان ولكنـهم لم يكونوا أتراكاً بل من السلاف المسلمين.

ثانياً– اجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام بعد الغزو العثمـاني هـي فكـرة زائفـة زيفـاً مبيناً، فعملية التحول للإسلام كما عرضها مالكوم فيما سبق كـانت عمليـة بطيئـة اسـتغرقت أجيالاً كثيرة، وليس لدينا شهود عيان يوضحون لنا كيـف ولمـاذا أسـلم النـاس في البوسـنة، اللهم إلا تعليقات ذلك الراهب الذي قال إن اعتناق الإسلام كان اختياريا تطوعيـا. وتكشـف لنا الدفاتر العثمانية أنه كان من الطبيعي والشـائع أن يسـلم بعـض الأفـراد ويحملـون أسمـاء مسلمة ومع ذلك يعيشون مع أسرهم المسيحية في بيت واحد فلا يفارقونها.

كانت الكنيسة الأرثوذكسية مؤسسة محترمة ومعترف بها بل وموضع عناية مـن السـلطة العثمانية في أنحاء الدولة، وبالمثل منحت الكنيسة الكاثوليكية كل المقومات والوضع القانوني المناسب لمزاولة نشاطها، إلا أن السلطات كانت تنظـر إليـها بعـين الشـك نتيجـة لارتباطـها بالإمبراطورية المجرية ولمسلك قسسها المريب.

ويكشف "مـالكوم" عـن الأسـباب الخفيـة وراء بعـض التقـارير المزيفـة عـن سـوء معاملـة المسيحيين في البوسنة من جانب السلطات العثمانية، وعن رغبة الذيـن أسـلموا في العـودة إلى

---

[٢٤] أنظر نويل مالكوم، ص ٥٤.

دينهم، يقـول مـالكوم أن هـذه التقـارير كتبـت خصيصـاً لبعـض البـلاد الخارجيـة كالنمسـا لتحريضها على غزو البوسنة حيث صوروا لها أنه إذا حدث غزو شامل للبوسنة فإن مجمـوع سكانها سوف يرحبون بالنمسا. وبالفعل قامت النمسا بالمحاولة سنة ١٦٩٧ ولكنـها أصيبـت بخيبة أمل لأنها لم تجد من يرحب بها من سكان البوسنة. فلو كان صحيحاً أن البوسـنويين قد أجبروا على اعتناق الإسلام قهراً لتغـير موقفـهم مـن الغـزو النمسـاوي، ولكـن الإجبـار لم يحدث في تاريخ البوسنة كله ولم يكن جزءاً من سياسة الدولة العثمانية.(٣٣)

ثالثاً– يرفض مالكوم نظرية الأسلمة الكثيفة أو الانتشار الكثيف للإسلام كنتيجة لطبيعـة الديانة السابقة في البوسنة والمفترض أنها "البوجوميلية"، وذلك لسـببين: أولهمـا أنـه ينكـر حكاية البوجوميلية أصلاً ويعتبرها مجرد كنيسة مستقلة في إطار الأديان المسيحية، وثانيـهما أن هذا الانتشار لم يأت فجأة وإنما أخذ زمناً طويلاً بلغ– كما ذكر آنفاً– مائة وخمسين سنة.

يقول "مالكوم" إنه من السهل تصور حقيقتـين: الطبيعـة الخاصـة لكنيسـة البوسـنة مـن ناحية، وكثافة الانتشـار الإسـلامي مـن ناحيـة أخـرى، وأن أولاهمـا انتـهت عندمـا بـدأت الثانية. ولكن هذه النظرية– مع بساطتها– نظرية خاطئة من وجهة نظر "مـالكوم"، إذ يبـدو أن هذه الكنيسة كانت قد اضمحلت قبل حضور الأتراك بوقت طويل، ثم يضيف قائلاً: "لقد عـانت الكنيسـة البوسـنوية معانـاة متصلـة مـن اضطـهاد الكـاثوليك، وطبيعـــي أن يرحـــب البوسـنويون بـالأتراك، ولكـن الـترحيب بـالأتراك شـيء واعتنـاق الإسـلام شـيء آخـر"،(٢٥) فالأرجح عند "مالكوم" أن الناس الذين التصقـوا بدينـهم وتشـبثوا بعقيدتـهم ضـد كـل أنـواع الاضطهاد والتعذيب الكاثوليكي أولى بهم أن يتشبثوا بدينهم بعد رفع الاضطهاد عنهم.

ويرجع "مالكوم أسلمة" البوسنة إلى عوامل أخرى منها ضعف الكنيسة البوسنوية وتفكـك نظامها "الإكليريكي" خلال الفترة التي سبقت الغزو التركي، ولم تكـن الكنيسـة مدعمـة مـن قبل سلطات الدولة، كما أن سكان الريف كانوا بعيدين عن تأثير الكنائس بصفة عامة. وظـل النزاع قائماً بين الكنيسة البوسنوية وبين الكنيسة الكاثوليكية زمناً طويلاً هذه النزاع كان مـن شأنه أن يضعف أثرهما معاً، وكان نجاح الإسلام مسـتمراً علـى حسـاب الصـراع الدائـر بـين الكنائس، والـذي تبلـور بعـد الغـزو العثمـاني في صـراع جديـد بـين الكنيسـتين الكاثوليكيـة والأرثوذكسية، وهذا هو السبب الراجح عند "مـالكوم" في انتشـار الإسـلام بمنـاطق أخـرى في البلقان وأكبر مثل على ذلك "ألبانيا".

---

(٢٥) أنظر مالكوم، المصدر السابق، ص٥٧.

ظاهرة الإقبال الكبير على الإسلام في المجتمعات المسيحية في البلقان لها أبعاد كثيرة وقد رصد هذه الظاهرة عدد كبير من شهود العيان الذين زاروا المنطقة وحاولوا تفسيرها فنجحوا أو أخفقوا تبعاً للزاوية التي نظروا منها إلى الظاهرة. كان أحد هؤلاء الزوار هو الطبيب الإنجليزي البروتستانتي "جورج ويلر" الذي أصيب بصدمة- على حد قوله- عندما زار "كورنثة" في السبعينات من القرن السابع عشر عندما لاحظ الحماس الذي يستقبل به السكان المسيحيون الإسلام فيتركون دينهم وكنيستهم بلا مبالاة، ويتدفقون يومياً لإعلان إسلامهم أمام الدعاة، ويستنكر "جورج ويلر" ترك المسيحيين لدينهم من أجل الخرافات التركية (على حد وصفه للإسلام) كلما ألمت بهم ملمة أو أصابتهم محنة صغيرة.[٢٥] هكذا يصف "جورج ويلر" الإسلام بأنه مجرد خرافات تركية، ثم يعزو الظاهرة إلى عدم توفر الإرشاد الديني المسيحي وقلة القسس الأكفاء المخلصين، وهو في هذا يتفق جزئياً مع وجهة نظر "نويل مالكوم" لقد أثبت الظاهرة ولكنه أخفق في تفسيرها، لأنه لاحظ الجانب السلبي من هذا الأسباب ولم يبحث الجانب الإيجابي الذي يمثل حقيقة العقيدة الإسلامية وقدرتها على جذب الناس لاتفاقها مع الفطرة السليمة، ولا يتوقع من زائر عابر إلا أن يأخذ الأمور بظواهرها فيميل مع الهوى متعسفاً في حكمه وهو يجهل طبيعة الإسلام.

رابعاً- نظرية اعتناق النبلاء المسيحيين للإسلام بالجملة بغية الاحتفاظ بأملاكهم وامتيازاتهم الإقطاعية. يلفت مالكوم النظر إلى أن هناك من المؤرخين من لا يزال يروج لهذه النظرية إلى اليوم رغم تعارضها مع الدراسات الجادة التي أجريت في الثلاثينات من القرن العشرين.

من بين الذين روجوا لهذه النظرية في القرن التاسع عشر "إيفان فرانيو يوكيتش" Ivan Franjo Jukeic الذي نشر كتاباً عن تاريخ البوسنة في سنة ١٨٥١م، وهو سلافي من "الفرنسسكان"، اتهم في كتابه أبناء الطبقة الأرستقراطية البوسنوية بأنهم جاءوا من صلب مسيحيين فاسدين تحولوا إلى الإسلام فقط لكي يحافظوا على ممتلكاتهم وثرواتهم وليتحرروا من الضرائب والمكوس وليرتعوا في الآثام والرذائل والممارسات الشريرة، كل ذلك لكي يعيشوا حياة ملكية دون جهد أو تعب.

ويعلق مالكوم على هذا الكلام بأنه وصف لا ينطبق على النبلاء البوسنويين في أي جزء منه، فقد تحولت أراضيهم إلى ملكية السلطان من الناحية الرسمية على الأقل، وكان الواحد منهم يقضي معظم العام في خدمة نشطة كضابط مقاتل في الجيش العثماني. وقد لاحظ المؤرخ

---

[٢٥] أنظر "مالكوم". نفس المصدر ص٥٨.

"فاسو تشوبر يلوفيتش" أن قلة قليلة من نبلاء البوسنة هم الذين انخرطوا في فرق الفرسان المسماه (سباهي) أو (الخيالة) واحتفظوا- وفقاً لطبيعة وظائفهم- بأملاكهم، ولكن لم يشترط عليهم اعتناق الإسلام لكي يتمتعوا بهذا الامتياز، بل ظل كثير منهم على مسيحيته، وكان هذا أمراً عادياً وشائعاً في صدر الفتح العثماني للبوسنة.

أما خطأ "إيفان فرانيو يوكيتش" فيكمن في افتراضه أن هناك خطاً متصلاً لتوارث الملكيات الزراعية منذ الفترة السابقة للعثمانيين عبر مرحلة الأسلمة حتى مرحلة الأرستقراطية البوسنوية المالكة للأرض في عهده. ولكن الأمر كما أوضح "تشوبر يلوفيتش" وغيره من الباحثين أن تحولات كثيرة في ملكية الأرض خلال الفترة العثمانية قد حدثت بحيث تجعل فكرة "يوكيتش" قائمة على غير أساس من الحقيقة. فالإقطاعات التي عاصرها "يوكيتش" كانت وليدة تطورات سياسية واجتماعية متأخرة جرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وحتى لو رجعنا إلى القرن السادس عشر لوجدنا أن نظرية "يوكيتش" نظرية خاطئة. وهذا ما أكدته دراسة قام بها مؤرخ حديث لثمانية وأربعين أسرة بسنوية مسلمة من ملاك الأراضي الأرستقراطيين خلال القرن السادس عشر. تقول هذه الدراسة إن خمسة منهم فقط ينحدرون من طبقة النبلاء البسنويين قبل العهد التركي، وأن الباقين لا ينتمون إلى ذلك العصر كليةً، وتؤكد الدراسة أن كثرة من أبناء النبلاء قتلوا في الحرب أو فروا خارج البوسنة أثناء الغزو التركي، وأن بعض أبناء طبقة النبلاء تم أسرهم، "ولم تكن هناك معاهدة بين كبار النبلاء وبين الأتراك أن يبيعوا مسيحيتهم في سبيل حياة الرفاهية أو الانغماس في الآثام كما يزعم يوكيتش".[٢٦]

خامساً- خرافة التهرب من دفع الجزية: يقول مالكوم: "يزعم البعض أن انتشار الإسلام في البوسنة يرجع إلى رغبة الناس في تجنب دفع الجزية المفروضة على غير المسلمين، وكانت هذه الضريبة السنوية تقدر قيمتها بحسب الوضع الاقتصادي للفرد، فالثري يدفع أربع دوقيات ومتوسط الحال يدفع دوقيتان فقط أما في المستوى الأدنى فيدفع الفرد دوقية واحدة (كانت الدوقية في القرن السادس عشر تشتري عشرين كيلو جراماً من القمح). ربما زادت هذه الضريبة في زمن الحرب ولكن هذه الزيادة كانت تسري أيضاً على المسلمين، علاوة على أن المسلمين كانوا يدفعون الزكاة وهي فريضة دينية مقررة في الدين الإسلامي أما بالنسبة للمسيحيين فقد كانوا يعفون من الخدمة العسكرية في مقابل دفع الجزية ولم يكن

---

[٢٦] أنظر مالكوم، نفس المصدر، ص٦٤.

المسلمون يتمتعون بهذا الإعفاء. وإذن فلم يكن من الضروري للإنسان أن يكون مسلماً لكي يكون غنياً أو ميسور الحال أو متمتعاً بأي امتيازات أخرى.[٢٧]

ولكن كان هناك طريق آخر للثراء والنفوذ أمام البوسنويين مع غيرهم من أبناء البلقان، وذلك بالالتحاق في فرق الانكشارية العثمانية، وفي الخدمة المدنية للإمبراطورية. كان يشترط عليهم أن يبقوا عزاباً لفترة محدودة فإذا وصلوا مرحلة معينة يعودون إلى بلادهم في البوسنة ليتزوجوا وتمنحهم الدولة قطعة من الأرض لزراعتها. وقد أصبح هذا النظام من مصادر انتشار الإسلام على نطاق واسع.

سادساً- خرافة امتيازات المسلمين:

يفند مالكوم مزاعم أخري عن حرمان غير المسلمين من بعض الامتيازات المتاحة للمسلمين؛ من هذه المزاعم أن غير المسلمين كان محرماً عليهم ركوب الخيل وحمل الأسلحة ولبس ثياب المسلمين. يقول "مالكوم" إن هذه مزاعم باطلة لأنه من الثابت تاريخياً أن القسس والتجار المسيحيين كانوا يلبسون ثياب المسلمين ويركبون الخيول وكان التجار المسيحيون يحملون أسلحتهم الخاصة، أما مسألة حرمان المسيحيين من بناء كنائسهم أو ترميمها فلم ينهض أي دليل عليها.[٢٨] وأقول: بل العكس هو الصحيح وسنرى حقيقة ذلك في سياقه، فبناء الكنائس وصيانتها والعناية بها كان يحظى برعاية السلطات العثمانية.

عوامل أخرى ساعدت على انتشار الإسلام:

إذن ما هي العوامل الأخرى التي أدت إلى هذا الانتشار الواسع للإسلام في البوسنة؟

أشار مالكوم فيما سبق إلى بعض هذه العوامل، وهو هنا يتابع مناقشة عوامل أخرى أدت إلى تزايد نسبة المسلمين في البوسنة ويرى أن من أهم هذه العوامل نظام الرقيق ونمو المدن الإسلامية.

١- نظام الرقيق:

يقول مالكوم إن نظام الرقيق لم يكن اختراعاً جاء به العثمانيون وإنما هو نظام كان قائماً ومعمولاً به في عصرهم وقبل عصرهم. فأسرى الحروب كانوا يعتبرون رقيقاً، وكانت الجيوش المتحاربة تقتل بعض الأسرى وتسترق بعضهم الآخر، أما العثمانيون فلم يكونوا يقتلون أسراهم لأن ذلك محرم في دينهم، بل كان الأسير يستطيع أن يكسب حريته إذا هو اعتنق

---

[٢٧] [٢٨] أنظر مالكوم، نفس المصدر ص ٦٥،٦٦.

الإسلام. وكان لدى العثمانيين أسرى كثر، ففي وقت من الأوقات تجمع لديهم: سبعة آلاف أسير من "هابسبورج" نتيجة للهزائم التي لحقت بالجيوش النمساوية على أراضي كرواتيا سنة ١٤٩٤م، ومئتا ألف أسير من هزائم الجيوش المجرية على أرض سلوفينيا سنة ١٥٢٦م، وترجع أصول هؤلاء الأسرى إلى عروق سلافية في بلاد مجاورة للبوسنة مثل "دلماشيا" وكرواتيا وسلوفينيا، وقد أعتق هؤلاء الأسرى وأعيد كثير منهم إلى البوسنة ليزداد بهم عدد المسلمين. وقد وجد سنة ١٥٢٨م أنهم يمثلون ٨٪ من سكان سراييفو وحدها.[٢٩]

إلى جانب عتقاء الرقيق تدفق إلى البوسنة أعداد من السلاف الذين أسلموا في أنحاء متفرقة من البلقان مثل صربيا ومقدونيا وبلغاريا فقد كانت البوسنة منطقة جذب سكانية نظراً للازدهار الذي تحقق فيها على عهد العثمانيين. ولعل أكبر تدفق إسلامي نحو البوسنة هو الذي حدث في نهاية القرن السابع عشر عندما انسحب الأتراك من أراضي دلماشيا وكرواتيا وسلوفينيا والمجر، فقد ارتحل على أثرهم أعداد كبيرة من المسلمين متجهين نحو البوسنة، وكان أكثر هؤلاء النازحين من أصل بوسنوي عادوا إلى البوسنة بعد أن استقروا خارجها ردحا من الزمن.

٢- نمو المدن وازدهارها :

نمت المدن في البوسنة وازدهرت إبان الحكم العثماني ازدهاراً كبيراً ففي السنوات الخمسة عشر الأولى للفتح بني في سراييفو مسجد وتكية ومأوى للمسافرين وحمام وجسر على نهر "مليكا" ونظام لأنابيب المياه، وأقيم قصر للحكومة سمي سراى وأخذت "سراييفو" اسمها من هذا السراى، كذلك أقيم سوق كبير في قلب المدينة.

كانت مدينة سراييفو في قرنها الأول تعج بالتجار والفنيين وفي القرن السادس عشر كان يسكن المدينة طبقتان هامتان هما التجار والجنود وكان لكل طائفة قاضيها الخاص. وجاء الازدهار الحقيقي للبوسنة في عهد "غازي خسرو بك" وهو من أبناء البوسنة من منطقة "تريبني" بالهرسك اعتنق أبوه الإسلام في وقت مبكر. وحكم خسرو بك* سنجق البوسنة فيما بين سنة ١٥٢١ وسنة ١٥٤١م، وكان صاحب همة عالية تملكته روح الخير والإحسان، وقد جرت العادة أن يوقف الأغنياء جزءاً من ممتلكاتهم للإنفاق على مشروعات التنمية الخيرية وكان وقف خسرو بك من أشهر هذه الأوقاف، من هذا الوقف بني مسجداً عظيماً في

---

(٢٩) أنظر مالكوم، نفس المصدر، ص٦٧.

* كان ذلك أثناء خلافة السلطان سليمان القانوني.

"سراييفو" سمى باسمه فيما بعد، كما أقام مدرسة ومكتبة وحماماً ونزلين لإيواء المسافرين وسوقاً للأقمشة.

وكان لنظام الوقف في البوسنة أثر بالغ في ازدهار المدن وفي التنمية التي عمت البلاد، وكان قوام سكان سراييفو من المسلمين ولم يأت إليها المسيحيون إلا في نهاية القرن السادس عشر وانضم إليهم عدد من اليهود، وازدادت سراييفو تقدماً وعمراناً فأصبح بها ستة جسور وست حمامات، وثلاثة أسواق والعديد من المكتبات، وست "تكايا" وخمس مدارس، وأكثر من خمسين مكتباً (والمكتب هو المدرسة الابتدائية للتعليم الأساسي)، وأكثر من مائة مسجد. وكان سكان سراييفو يتمتعون بامتيازات كثيرة، ووصفها بعض المؤرخين بأنها "المدينة الحرة" و "المدينة الجمهورية"، وطابت الحياة في سراييفو فكان من الطبيعي أن يعتز البوسنويون بالإسلام وهم ينعمون بالعيش في هذه الجنة الأرضية.

مزاعم وأباطيل حول العرق والدين:

في إطار الحملات الإعلامية الصربية ضد المسلمين خلال الثمانينات زعم غلاة القوميين الصرب أن مسلمي البوسنة ينحدرون من أصول تركية جاءت مع المستعمر القديم، وعلى ذلك فإن الصرب إنما يحاربون سلالة هذا المستعمر الغريب لإخراجهم من أرض الصرب، وزعم فريق آخر من هؤلاء الغلاة أن المسلمين الحاليين كانوا صرباً أرثوذكسا، ثم أسلموا متحالفين مع الأعداء والغزاة، ولذلك فهم يستحقون القتل والإبادة.

العجيب أن الفكرتين رغم تناقضهما المبدئي يعيشان جنباً إلى جنب في الكتابات الصربية والإعلام الصربي، وهذا من سمات العقلية المتعصبة، فمن شأن هذه العقلية أن تضم الفكرتين المتناقضتين دون إدراك لهذا التناقض. تذهب الفكرة الأولى إلى أن مسلمي البوسنة أجانب جاء أجدادهم من خارج المنطقة، بينما تقول الفكرة الثانية إنهم ليسوا أجانب ولكنهم تخلوا عن دينهم وجنسهم واعتنقوا الإسلام، وفي كلتا الحالتين يجب استئصالهم.

ومن ناحية أخرى نجد الكروات يزعمون شيئاً ثالثاً مختلفاً، حيث يروجون في كتاباتهم التاريخية وفي وسائل الإعلام أن مسلمي البوسنة كانوا كرواتا كاثوليك تنكروا بإسلامهم لدينهم وقوميتهم، ويجب إعادتهم إلى الكاثوليكية أو القضاء عليهم.

لابد أن ننوه هنا إلى خصيصة من خصائص الفكر القومي السائد في يوغسلافيا السابقة، حيث يتوحد الدين مع القومية في الإشارة إلى هوية الشعوب التي عاشت في إطار الاتحاد

اليوغسلافي. فالإشارة إلى شخص ما بأنه أرثوذكسي أو صربي هي إشارة ذات دلالة واحدة، كذلك اتحدت الكرواتية مع الكاثوليكية بنفس المعنى. أما بالنسبة للمسلمين فالأمر مختلف فهم لم يطلقوا على أنفسهم اسماً آخر سوى أنهم بسنويون، وهي التسمية التي عرفناها في التاريخ "البشناق"، وفي الاتحاد اليوغسلافي السابق كان يشار إليهم باسم المسلمين "Muslims" بحرف "M" الكبير لتحديد هويتهم القومية ويشار إلى دينهم بكلمة muslims بحرف "m" الصغير. وقد قبل المسلمون بهذه التسميات مضطرين لأنها كانت المخرج الوحيد أمامهم من تمييع الهوية بين الصرب والكروات، كما كانت الوسيلة الوحيدة للاعتراف بهم كشعب (ذي قومية متميزة) مما أهلهم لتشكيل جمهورية في إطار الاتحاد اليوغسلافي في السابق، واكتسبوا بذلك حقوقاً متساوية شأنهم في ذلك شأن الشعوب الأخرى.

هذه مقدمة ضرورية لفهم الأمور في إطار الثقافة السائدة في يوغسلافيا السابقة، وسنرى في سياق هذا الكتاب كيف تم التلاعب بهذه الحقائق لخدمة أهداف سياسية خبيثة، وعمليات تخريب وإبادة واستئصال على أوسع نطاق في البوسنة.

نعود إلى مناقشة المزاعم الصربية والكرواتية فهذه المزاعم مع تناقضها الظاهر ورغم شيوعها لا تستند إلى أي دليل من التاريخ، بل إن الاستقراء المتأني للتطور التاريخي في البوسنة يؤكد حقائق أخرى من شأنها أن تنسف هذه المزاعم نسفاً، وسوف نرى أنها أقرب شبها بالمزاعم الصهيونية والأساطير التي يروجها الصهاينة عن حقوقهم التاريخية في أرض فلسطين.

لقد رأينا فيما استعرضناه من كتابات المؤرخين والمفكرين المنصفين فيما سبق أن البسنويين (البشناق) المسلمين هم أحفاد البشناق السلافيين الأصلاء الذين عاشوا قروناً في البوسنة قبل الإسلام وعاشوا فيها قروناً بعد الإسلام إلى اليوم. كانوا قبل إسلامهم يدينون بالبوجوميلية كعقيدة وصفتها الكنيسة الكاثوليكية المهيمنة في ذلك الزمان بأنها كنيسة مسيحية مارقة مهرطقة، والبشناق على هذا الأساس لم يكونوا صرباً أرثوذكس ولا كانوا كرواتاً كاثوليك.

الذي يجب أن يوضع موضع البحث والتساؤل هو أصل الصرب والأرثوذكسية وأصل الكروات والكاثوليكية في البوسنة.

أصل الصرب والأرثوذكسية في البوسنة :

لم يكن للصرب ولا للأرثوذكسية أي وجود في البوسنة قبل دخول العثمانيين على الإطلاق. يقول "نويل مالكوم" : "إنه لا يوجد أي دليل على وجود مبني لكنائس أرثوذكسية في البوسنة قبل الفترة العثمانية".[٣٠] ويمضي ما لكم ليفند كلام أحد مؤرخي الصرب وادعائه بوجود بعض الأديرة الأرثوذكسية في شمال البوسنة قبل وفود العثمانيين فقد تبين لمالكوم أن كتابات هذا المؤرخ يشوبها اضطراب شديد وأنها كتابات غير دقيقة، ويسلم مالكوم بأنه قد وجد في البوسنة أفراد من الأرثوذكس حيث من المعروف أن بعض نبلاء البوسنة تزوجوا من أسر النبلاء في صربيا "أما بالنسبة للتنظيم الكنسي فقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية غائبة تماماً عن الصورة في البوسنة قبل العهد العثماني".[٣١]

هذا وقد ألمنا بطرف من الجدل الذي دار حول الديانة التي سادت في البوسنة قبل الإسلام، وهل كانت كاثوليكية مارقة أم أنها كانت بوجوميلية، ويستطيع أي باحث منصف أن يحكم مظمئناً إلى أن الوجود الكاثوليكي لم يكن له كيان حقيقي صحيح في البوسنة، وأن التمرد على الكاثوليكية والمسيحية بصفة عامة كان هو الحال الدائم وأن الشكوى المريرة من انحراف البوسنويين عن المسيحية أو اعتناقهم لديانة أخرى غيرها كانت مستمرة من جانب الكاثوليك والكنيسة الكاثوليكية في روما، كذلك فإن الثابت من الوثائق يؤكد تعرض البوسنويين للإرهاب والاضطهاد من جانب محاكم التفتيش التابعة للكنيسة الكاثوليكية لحملهم على اعتناق الكاثوليكية في عهود بالبوية كثيرة دون جدوى. ومن الثابت أيضاً أن العثمانيين عندما دخلوا البوسنة انحسرت حملات الاضطهاد والإرهاب الكاثوليكي، وذابت فلول القساوسة الكاثوليك الذين جلبوا إلى البوسنة في عهد آخر ملوكها، وكانوا قد استقروا في أطرافها الشمالية تحت حماية المجريين والنمسويين. وبهذا تسقط مزاعم القوميين الكروات بأن مسلمي البوسنة كانوا كرواتاً إلى البوسنة؟.

من أين إذن جاء صرب البوسنة الأرثوذكس؟ ومن أين جاء كروات البوسنة الكاثوليك؟

يجيب على هذين السؤالين السياسة العملية للأتراك العثمانيين في البوسنة، تلك السياسة التي انبعثت من استراتيجيتهم في البلقان وتميزت باتجاهين بارزين: سياسة

---

[٣٠] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص٧٠.

[٣١] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص٧٠.

الإحلال أو إعادة سكان وتعمير المناطق المهجورة، وتفضيل الكنيسة الأرثوذكسية على الكنائس الأخرى، أما التعامل مع الكاثوليك فقد جاء في وقت متأخر نسبياً.

كان الأرثوذكس في البلقان يستمدون سلطتهم الدينية من السلطان العثماني، وكان السلطان يعتبر نفسه بحكم القانون حامي حمى الأرثوذكسية، أما الكاثوليك فكان العثمانيون ينظرون إليهم باعتبارهم عملاء لقوى خارجية.

وقد ورد ذكر أول بطريارك أرثوذكسي للبوسنة سنة ١٥٢٣ وبدأت أول كنيسة أرثوذكسية في سراييفو في منتصف القرن السادس عشر، وفي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حدث تدفق أرثوذكسي كبير من البلاد المجاورة للبوسنة، وقد رحب العثمانيون بهم للاستعانة بهم في تنفيذ سياسة التوطين والتعمير للمناطق التي خلت من سكانها بسبب الحروب أو بسبب الطاعون.

الحرب والسياسة في البوسنة العثمانية (١٦٠٦-١٨١٥م)

كان تاريخ البوسنة في القرنين السابع عشر والثامن عشر حافلاً بالحروب، وقد بدأ الفساد يدب في أوصال الدولة العثمانية المترامية الأطراف، وأخذ النظام وقوة القانون يضعفان وبدأ الشعور بالملل والاستياء يتسلل إلى شعوب الدولة. واشتدت الأزمات المالية بسبب رغبة العثمانيين في تحديث قواتهم المسلحة بعد أن أصابها التخلف والوهن وتفوقت عليها الدول الأوروبية خاصة قوات الإمبراطورية (النمساوية- المجرية) تحت أسرة "هابسبورج".

دخلت الجيوش العثمانية سنة ١٦٦٣ أراضي النمسا وبعدها بعام واحد وقعت معارك بين الطرفين اتفقا بعدها على عدم المساس بحدود الدولتين.

ولكن الهزيمة التي لم يستطع العثمانيون الشفاء منها جاءت على أثر أهم المعارك التي دارت بينهما في الفترة من عام ١٦٨٣ إلى ١٦٩٩م. وكان عام ١٦٨٣ بالنسبة للأتراك عام كوارث بعد فشل حصارهم لفيينا، فقد استطاع الجيش النمساوي والبولندي ضرب الحصار التركي فشرع الأتراك في الانسحاب، وقاموا بمحاكمة الوزير الأعظم في بلجراد بسبب الهزائم التي لحقت بجيشه، واستطاع النمساويون إخراج الأتراك من المجر ثم طردوا المسلمين المجريين منها فتدفقت أعداد كبيرة منهم إلى البوسنة.

في تلك الأثناء كان جيش البندقية يقوم بهجمات مباشرة على حدود البوسنة، ولكن استطاع "البشناق" صد هذه الهجمات، بينما تمكنت النمسا من الاستيلاء على الأراضي التابعة لإيالة البوسنة داخل كرواتيا.

خلال هذه الفترة من الهجمات الشرسة حتى سنة ١٦٨٧م بلغ عدد الهاربين من المسلمين إلى البوسنة ثلاثين ألف شخص. وتشرد في داخل البوسنة حوالي مائة وثلاثون ألف شخص آخرون.

وتأزمت الأمور أكثر بالنسبة للعثمانيين بحلول عام ١٦٨٩م عندما اقتحم الجيش النمساوي البوسنة وصربيا حتى وصل إلى كوسوفا، وانتهز الصرب الفرصة فقاموا باتفاق سري مع النمسا لإعلان التمرد ضد السلطات العثمانية، وبدا العثمانيون وكأنهم يوشكون أن يفقدوا البلقان. إلا أنهم استعادوا كفاءتهم واستردوا قواهم فاستطاعوا رد العدوان النمساوي عن صربيا والبوسنة فانسحب الجيش النمساوي متراجعاً.

ورحب كثير من الصرب الأرثوذكس بعودة العثمانيين إلى البوسنة بعد أن جربوا سطوة القسس الكاثوليك الذين جاءوا مع الغزو النمساوي.

ولم تلبث أن رجحت كفة النمساويين مرة أخرى تحت قيادة الأمير الشاب "يوجين" الذي تمكن من إيقاع هزيمة كبرى للأتراك في "زنتا" Zenta بجنوب المجر سنة ١٦٩٧م، وسرعان ما تحول في سبتمبر من نفس العام فاخترق قلب البوسنة بستة آلاف جندي فقط، أخذ العثمانيون على غرة فلم يكونوا على استعداد للحرب. وفي مذكرات للأمير يوجين كتب يصف أحداث يومين من أيام هذه الغزوة:

"في ٢٣ أكتوبر وضعت قواتي في جبهة عريضة على مرتفع يطل على مدينة سراييفو، وكنت أبعث بفصائل للقيام بأعمال النهب. وكان الأتراك (يقصد السكان البوسنويين) قد خبأوا كل شيء ذا قيمة، إلا أن هذه الفصائل وجدت كثيراً من السلع والأشياء الثمينة فاستولت عليها، كانت المدينة فسيحة مفتوحة وتبدو فيها مآذن مائة وعشرين مسجداً. وبقيت في سراييفو يوم ٢٤ أكتوبر، ثم أشعلنا النيران فشبت الحرائق بالمدينة وجميع المناطق المحيطة بها بعد أن عادت فصائل النهب بالغنائم وبكثير من النساء والأطفال بعد أن قتلوا الكثير من الناس. وجاء المسيحيون (الكاثوليك) إلينا في جموع كبيرة وطلبوا منا السماح لهم بالحضور إلى معسكراتنا بأمتعتهم حيث أنهم يعتزمون مغادرة البوسنة والرحيل معنا، ولقد كنت أتمنى أن آخذ جميع المسيحيين معي وأعبر بهم نهر سافا عائداً". [٣٢]

وبدلاً من غزوات السلب والنهب بدأت النمسا تفكر جدياً في احتلال البوسنة، وكانت الأوضاع في البلقان تسير ضد العثمانيين لصالح القوى المعادية.

---

[٣٢] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص ٨٥.

كان العثمانيون يفقدون البلقان جزءاً جزءا تحت ضربات الإمبراطورية النمساوية التي دخلت في تحالفات مع البندقية، فسقطت المجر وترانسلفانيا في يد النمسا، وسقطت أجزاء كبيرة من "دلماشيا" واليونان في يد البندقية سنة ١٦٩٩. وفي القرن التالي ضمت البندقية جنوب غرب البوسنة إليها، واستعادت النمسا تحالفها مع البندقية وعاد الأمير يوجين سنة ١٧١٦ ليوقع هزيمة كبرى بالعثمانيين في "بترو فارادين" إلا أن قوات الدفاع البشناقية استطاعت أن تثبت أمام الزحف.

وبمقتضى معاهدة "يو جار يفلتش" في صربيا سنة ١٧١٨م استولت النمسا على شريط من حدود البوسنة الجنوبية، واستولت البندقية على دلماشيا وزحفت داخل البوسنة إلى خط أصبح من ذلك الوقت هو حدود جنوب غرب البوسنة.

في أثناء هذه الحروب تدفقت جموع المسلمين لتتكدس داخل البوسنة وقد تآكلت من أطرافها. وتدهورت الأوضاع السياسية والاقتصادية وزادت الضرائب على كاهل الأهالي فلجأوا إلى التمرد ضد هذه الضرائب. في سنوات ١٧٢٨ و ١٧٢٩ و ١٧٣٢م كان المسلمون هو الذين يقومون بهذه الثورات، وخلال هذه السنوات انتشر الطاعون فمات بسببه عشرون ألفاً من البشناق، ولم تنقطع الحروب بين البوسنة والنمسا حتى جاءت معاهدة بلجراد سنة ١٧٣٩ التي تخلت فيها النمسا بمقتضاها عن الأراضي الواقعة جنوب نهر سافا، وتحددت بذلك الحدود الشمالية للبوسنة الحديثة.

كانت اتفاقية بلجراد لسنة ١٧٣٩ أطول اتفاقية نعمت البوسنة في ظلها بخمسين عاماً من الاستقرار بدون غزو خارجي، ولكن كان على سكان البوسنة أن يتحملوا مزيداً من الضرائب لتمويل حروب الدولة العثمانية، وقد أدى هذا إلى تزايد الانتفاضات الداخلية احتجاجاً على الضرائب الباهظة، وثار الفلاحون على النظام الجديد في تملك الأراضي، واشترك جنود الانكشارية في ثورات كثيرة ضد الإجراءات الإصلاحية التي بدأتها السلطات العثمانية في نظمها العسكرية والاقتصادية والسياسية.

أما الحروب النمساوية التي بدأت سنة ١٧٨٧ فكانت لها أبعاد أكبر في زعزعة مركز الدولة العثمانية في البلقان، حيث دخل عنصر جديد قلب التوازن العسكري في المنطقة وذلك باتفاق إمبراطور النمسا جوزيف الثاني وكاترينا إمبراطورة روسيا العظمى للاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية في البلقان واقتسامها فيما بينهما، وقد أدى هذا إلى غزو النمسا للبوسنة، ثم أدى إلى ضمها بصفة حاسمة إليها بعد ذلك بثلاثين سنة.

وجاء القرن التاسع عشر بقوى جديدة مناوئة، فظهرت حركة صربية قومية تستهدف القضاء على النفوذ التركي وإقامة مملكة صربية تمد سلطانها إلى البوسنة والبلاد المجاورة،

ومن أبرز هذه القوى الجديدة التي أحدثت اختلالاً مفاجئاً في موازيـن القـوى ظـهور الجيـش الفرنسي بقيادة نابليون الذي اكتسح النمسا وإيطاليـا والمجـر وأصبحـت قواتـه علـى حـدود البوسنة. وصحب هذا كله اضطراب وفساد في قلب السلطة العثمانية.

المقاومة والإصلاح (١٨١٥-١٨٧٨م):

مع نهاية الحقبة النابليونية تأكد للعثمانيين أن في نظامهم ضعفاً خطيراً لابد من التصدي لعلاجه، فقد كثرت حالات التمرد من حكام الولايات حتى أصبح بعضها مستقلا، وتزايدت الاضطرابات في أنحاء شتى، وسادت الرغبة في الاستقلال عن الإمبراطورية المتدهورة. ومن ثم بدأت محاولات الإصلاح السياسي والعسكري، ولكـن يبـدو أن هـذه المحـاولات قـد جـاءت متأخرة عن موعدها فلم تجلب معها سوى مزيد من التمرد والاضطراب.

أول من قاوم الإصـلاح هـم الإنكشـارية الذيـن كـانوا في المـاضي عمـاد قـوة الإمبراطوريـة واستقرارها وهيبتها وسلطانها في العالم، فإذا بهم يصبحون شوكة في جنبـها بـل داءاً عضـالاً يشلها ويضعف كيانها.

قام الإنكشارية سنة ١٨٢٧ بتمرد في البوسنة فأرسل السلطان إليهم قوة من بلجراد بقيادة "عبد الله باشا" فقضى على التمرد في سراييفو ولكنه بعد ثلاثة أيام من القتال اضطر للرحيـل إلى "ترافنك". وكان سبب التمرد الإنكشـاري هـو التغيـيرات الـتي لحقـت بـالجيش تحقيقـاً لإجراءات تحديثه علـى غـرار الجيـوش الأوروبيـة الناهضـة، مـن حيـث أسـاليب التدريـب والتسليح والزي العسكري.

ولم تهدأ الاضطرابات في البوسنة بسبب التمرد والقتال المتواصل، فعانت البلاد مـن هـذه الأوضاع المتردية واضطرب ميزان العدالة، وتأثرت بكل ذلك الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

في غضون ذلك كانت النمسا الطامعة في البوسـنة وفي غيرهـا مـن أراضـي البلقـان التابعـة للإمبراطورية المريضة ترقب الموقف عن قرب وتستعد للحظة الانقضاض الحاسمة.

وهناك تقرير له دلالته كتبه القنصـل النمسـاوي إلى "مـترنخ" بعـد زيارتـه للبوسـنة سـنة ١٨٤٤م يقول: "إن الانطباعات التي جئت بها عند مغادرتي للبلاد أسوأ من انطباعاتي عنـد بدء الزيارة. فقد تزايدت شكوك السلطات البوسنوية في دور المسيحيين لتعاونهم مع إخوانـهم في الخـارج لغـزو البوسـنة، ولكـن المشكلة في حقيقتـها مشـكلة سياسـية ولا علاقـة لهـا بالدين،فالرعايا البوسنويون سواء منهم المسلمون أو المسـيحيون يتعرضـون للابـتزاز المـالي مـن

جانب السلطات المحلية سواء بسواء.[٣٣] وفي سنة ١٨٥١م أصبح السخط عاماً في البوسنة ولكن استطاعت السلطات كسر شوكة أصحاب الأراضي المسلحين ومن ثم شرعت في تنفيذ الإصلاحات التي كان يطلق عليها "تنظيمات عثمانية".

ومهما يكن الأمر فقد ظل التسامح سائداً في البوسنة تجاه المسيحيين فقد دعمت السلطات أنشطتهم في فتح المدارس الخاصة بهم وبناء مزيد من الكنائس والحصول على مزيد من الحقوق والحريات، والتوسع في الأنشطة الأهلية المتنوعة. كل ذلك رغم الشبهات التي أحاطت بهم في التجسس والتعاون مع الأعداء الخارجيين.

وقد أثار هذا الموقف المتسامح من جانب السلطات المسلمة إعجاب كاتب مسيحي مثل مالكوم الذي كتب يصف هذا الموقف بأنه: "موقف مثير للدهشة حقاً"[٣٤]

لم تكن النمسا وحدها هي التي تتربص لاجتياح البوسنة وإنما كانت صربيا- كما أشرنا من قبل، وكذلك كرواتيا كلاهما يتربص بالبوسنة.

ولأن الحرب تبدأ في العقول أولاً فقد شرع الكتاب الصرب يمهدون العقول للعدوان القادم على البوسنة. ونعرض فيما يلي لبعض مظاهر هذا الاتجاه:

نشر المفكر الصربي "فوك كراجيتش" مقالاً سنة ١٨٤٩ تحت عنوان (صربيون جميعاً في كل مكان) زعم فيه- على أساس تاريخي مشوش- أن البوسنويين وكذلك سكان "دلماشيا" جميعاً ينحدرون من أصول صربية.[٣٥]

وفي سنة ١٨٤٤م كتب قبله "إليا جراشانين" وزير داخلية صربيا (وكانت دولة شبه مستقلة آنذاك)- كتب مذكرة سرية يشرح فيها الأسباب الممكنة لاستمالة صرب البوسنة (يقصد الأرثوذكس) للتعاون مع صربيا في ضم البوسنة مستقبلاً إليها، وهي مذكرة مفصلة تشتمل على برامج لتدريب شباب البوسنة الصرب وأساليب كسب ود الفرنسسكان (الكاثوليك).

في ذلك الوقت كانت صربيا تسعى لاستكمال استقلالها عن الدولة العثمانية ناشرة الدعوة إلي إقامة صربيا الكبرى عن طريق التوسع في الأراضي المجاورة تحت ستار الدعوة إلى إقامة دولة سلافية جنوبية مستقلة.

---

[٣٣] أنظر مالكوم، المصدر السابق، ص١٢٦، ١٢٣.

[٣٤] أنظر مالكوم، المصدر السابق، ص١٢٦، ١٢٣.

[٣٥] أنظر جرميك Grmek, M etal. Le Nettoyage ethnique: documents historiques sur une idiologie serbe (Paris, 1993).

إنها نفس الفكرة العنصرية القومية التي حفزت صربيا للعدوان عل البوسنة سنة ١٩٩٢ وتحت نفس الدعوى المزيفة بإقامة اتحاد يوغسلافي جديد.

وعلى الطرف الآخر ظهر مفكرون كروات مثل "أنتي ستار تستفيتش" و "يوجين كفارتنك" بأفكار مماثلة ولكن في ظل أيديولوجية مختلفة؛ فقد زعما أن جميع البوسنويين من أصل كرواتي، ورتبوا على ذلك النتائج اللازمة، أي ضرورة ضم أراضي البوسنة إلى كرواتيا.

ولم ينشغل البوسنويون المسلمون بهذه الأفكار العقيمة ولكنهم كانوا على وعي بأن كلا الطرفين (صربيا وكرواتيا) لديه نفس الرغبة في الاستيلاء على أراضي البوسنة.

ورغم كل هذه الاضطرابات في ستينات القرن التاسع عشر تمتعت البوسنة بعقد ذهبي تحت قيادة واحد من ألمع حكامها هو "طوبال عثمان باشا" وقد ورد ذكره في مذكرات طبيب سويسري اسمه "جوزيف كيوتشت" الذي استقر في سراييفو سنة ١٨٦١م وفتح صيدلية هناك وأصبح موضع ثقة لكثير من الحكام المتعاقبين، ولكن "طوبال عثمان باشا" كان أفضلهم عنده، كان أميراً للبحرية العثمانية ثم حاكما مدنيا لبلجراد، وتعلم في تركيا وأجاد العربية والفارسية وكتب شعراً جيداً باللغة التركية، وكان إلى جانب ذلك يتحدث باليونانية والفرنسية. أنشأ مدارس إسلامية حديثة في سراييفو وسمح للمسيحيين ببناء مدارس خاصة بهم، وأنشأ مكتبة جديدة جمع فيها الكتب العربية والفارسية والتركية، كما أنشأ مطبعة لطباعة الكتب الدراسية، وأصدر مجلة أسبوعية باللغة البوسنوية والتركية سماها "بوسنا"، وقام بتنفيذ برنامج لاستكمال شبكة واسعة من الطرق تبدأ من "سراييفو" إلى "بوسنسكا برود" في عام واحد، وأقام خطا للسكك الحديدية من "بنيالوكا" إلى حدود كرواتيا، وأنشأ مستشفى في سراييفو وهي أول مستشفى عام في البوسنة، كانت تضم أربعين سريراً لجميع المواطنين بصرف النظر عن انتمائهم الديني، وأنشأ مجموعة جديدة من المحاكم بما في ذلك محكمة عليا للاستئناف يرأسها قضاة مسلمون ومسيحيون معاً.

وفي إطار إصلاحاته السياسية أنشأ مجلسا للشورى مثلت فيها السناجق السبع التي تشكل كيان إيالة "البوسنة والهرسك" كان يمثل كل سنجق ثلاثة (إثنان من المسلمين ومسيحي واحد).

كان المجلس يجتمع أربعين يوماً في السنة لتقرير سياسة الحكومة في المسائل الاقتصادية والمالية والزراعية، والضرائب وبناء الطرق.

إلى جانب ذلك أنشأ طوبال باشا مجلسا تنفيذيا إداريا يتألف من ثلاثة من المسلمين واثنين من المسيحيين ويهودي واحد، كان هذا المجلس يجتمع يومين في الأسبوع، ورغم أن

الطابع العام للمجلسين يغلب عليه الصفة الاستشارية إلا أن وجودهما يعتبر تقدماً كبيراً في إطار الحكم العثماني للبوسنة.

وفي سنة ١٨٥٩ صدر فرمان لتنظيم العلاقة بين الفلاحين وأصحاب الأراضي الزراعية وجاء "طوبال باشا" لتنفيذه، حدد هذا الفرمان حق صاحب الأرض في ثلث المحصول بعد خصم ضريبة الحكومة التي قدرت بعشرة في المائة. ويجب أن ننوه هنا أن الفلاحين لم يكن عليهم أن يدفعوا شيئاً في شراء بيوتهم أو شراء الأرض التي تبنى عليها هذه البيوت، فقد حدد هذا الفرمان أن صاحب الأرض هو الملزم بتوفير المسكن للفلاح والإنفاق على إصلاحه وصيانته. وكان من حق الفلاح أن يهجر الأرض ويذهب إلى أي مكان آخر إذا شاء ومتى شاء.

ويمضي "جوزيف كيوتشت" في شهادته ليؤكد أن الممارسات السابقة لملاك الأراضي تجاه فلاحيهم قبل صدور الفرمان المذكور لم تكن بهذا السوء الذي وصفت به أحياناً في كتب المؤرخين حيث يقول: "لقد عاش معظم الفلاحين في ظروف تشوبها العلاقات الطيبة مع ملاك الأراضي، فقد اعتاد ملاك الأراضي في السنوات العجاف على تقديم كل مساعدة ممكنة لفلاحيهم". ولم يستبعد "جوزيف كيوتشت" بعض المظالم التي كانت تقع على الفلاحين من جانب بعض الأغوات المستبدين، وأن هذه المظالم كانت مصدراً لأعمال التمرد في البوسنة، وهو يؤكد مرة أخره أن هذا الصراع كان بسبب تعارض في المصالح الاقتصادية ولا علاقة له بالدين.[٣٦]

ومما يستحق الذكر في هذا المجال أن ألفاً من الفلاحين بعضهم من المسلمين والبعض الآخر من المسيحيين الأرثوذكس قاموا معاً بثورة في منطقة "بوسافينا" سنة ١٨٦٨م ضد مكتب تحصيل الضرائب، وفي سنة ١٨٦٩م قامت مجموعة أخرى من المسلمين والأرثوذكس معاً بتمرد مماثل في "فوتشا"، ولعل هذه الحوادث التي عاصرها "كيوتشت" هي التي جعلته يؤكد استبعاد العنصر الديني من الصراعات الدائرة بين الفلاحين وبعض ملاك الأراضي.

يدعم هذه الحقائق الصورة البديعة التي يرسمها "كيوتشت" لحياة الناس في سراييفو كما شاهدها بنفسه، حيث يذكر لنا كيف كانت الأسر المسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية تجتمع معاً بعد ظهر أيام الآحاد في الصيف على سفوح الجبال الخضراء، وكيف كان المسلمون واليهود يشاركونهم في هذه الرحلات الخلوية مع أسرهم فيقضي الجميع أوقاتاً

---

[٣٦] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص١٣٠.

سعيدة لا يعكرها كراهية دينية، وقد دام هذا الحال خلال تسع سنوات عاشها "كيوتشت" إبان حكم "طوبال باشا".

لم يكن التسامح الإسلامي مقتصراً على الطوائف المسيحية فحسب، بل شمل جميع المواطنين، فقد كان في البوسنة قبل وفود العثمانيين إليها مجموعات متفرقة من الغجر، أما اليهود فقد جاءوا خلال القرن الأول من الفتح العثماني، وعومل الجميع في البوسنة- بل في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كلها- أفضل معاملة وأكثرها إنسانية. وفي ذلك يقول "نويل مالكوم": "الذين يتسرعون في اتهام الأتراك بالوحشية وعدم التسامح عليهم أن يتوقفوا قليلاً ليتأملوا أسلوب معاملة اليهود والغجر في الإمبراطورية العثمانية لكي يروا الفرق الصارخ بين التسامح والمعاملة بالحسنى عند الأتراك، وبين التعصب والوحشية التي عومل بها الغجر واليهود في أوروبا. ففي قلب أوروبا المسيحية، أدي هذا التعصب مع الأيديولوجية النازية إلى مذابح رهيبة وإلى محارق لعشرات الألوف من اليهود والغجر في منتصف القرن العشرين". وهو يقصد مذابح ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية.

شهدت الحقبة الأولى للحكم العثماني في البوسنة نموذجاً إنسانياً متميزاً في معاملة الغجر، فقد صدر بشأنهم فرمان خاص سنة ١٦٠٤م يقول:

"غير مسموح لأحد بإهانة الغجر ولا قهر هذه الفئة من الناس بأي حال من الأحوال".

أما في بريطانيا وفي نفس هذه الفترة تقريبا (سنة ١٥٩٦) فإننا نشهد مشهداً مختلفاً تماماً؛ فقد قدم إلى المحاكمة مائة وستة من الغجر في منطقة "يورك" بتهمة التسول وصدرت ضدهم أحكام متفاوتة، وقطعت رءوس تسعة منهم بمقتضى قانون برلماني صدر في عهد الملكة إليزابيث الأولى استهدف معاقبة الشحاذين الغجر الذين كانوا يعرفون باسم المصريين، ولا أعرف مصدر هذه التسمية الغريبة، ولكن المهم أن هذه العقوبة المغلظة لا تتناسب أبداً مع جرم كهذا، ذلك إذا أعتبر التسول جريمة. ولم تكن العقوبة إلا نذيراً للغجر لكي يبتعدوا عن المجتمع البريطاني الذي لا يتحمل استيعاب عناصر أخرى مخالفة من البشر سواء من ناحية العرق أو اللون أو الدين.

في البوسنة المسلمة كان الأمر مختلفاً فقد كانت الحقوق القانونية الأساسية للغجر هي نفس الحقوق التي تمتع بها المسلمون والمسيحيون واليهود جميعاً على السواء، ولذلك عندما غزا النمساويون البوسنة سنة ١٧٨٨م انضم الغجر إلى القوات النظامية للدفاع عن البوسنة جنباً إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين.

وهكذا كلما أمعنا النظر في تاريخ البوسنة نواجه بالمقارنة التي تفرض نفسها تلقائياً بين سماحة المسلمين سواء منهم الأتراك أو البشناق في تعاملهم مع الطوائف الأخرى التي تختلف

عنهم في الدين أو العـرق، وبـين وحشـية أوروبـا العنصريـة الـتي لا تقبـل بوجـود الآخـر أو التعايش معه في سلام.

ليس صحيحاً إذن أن عصور الدولة العثمانية كلها كانت عصور ظلام وطغيـان كمـا يحلـو لبعض المؤرخين أن يزعموا دون دليل، ويبدو أن إعادة النظـر في التـاريخ العثمـاني أصبحـت واجباً تفرضه روح البحث النزيه عن الحقيقة، وقد تناول هذا الموضوع برنـامج وثـائقي أذيـع بالتلفاز المصري مساء الجمعة ٦ ديسمبر ١٩٩٦م أكد فيه الدارسون ضرورة إعادة النظر في هذا التاريخ "لأن ما كتب لنا في المدارس والجامعات عن ا لعثمانيين يتجـافى مـع الحقيقـة، وأن الباحثين الجدد لديهم الآن فرصة الاطلاع على وثائق لم تتح للمؤرخـين السـابقين". وفي هـذا إشارة إلى الانفتاح حديثاً لكنوز الوثائق العثمانية التي حبستها حكومة كمال أتاتورك وما جاء بعدها من الحكومات التركيـة العلمانيـة حتـى يسـتطيع المفـترون أن يروجـوا مـا شـاءوا مـن أكاذيب دون خوف من مراجعة المنصفـين. ولا عجـب أن نـرى أن أكـثر النـاس إقبـالاً علـى الوثائق العثمانية اليوم هم الباحثون الأمريكيون، إنهم ينقبـون عـن العوامـل الكامنـة في بنـاء المجتمع العثماني التي جعلته قوياً متماسكاً على مـدى عـدة قـرون رغـم انتشـاره وضخامتـه واحتوائه على العديد من الأجناس والأديان والشعوب. وقد وجدنـا باحثـة أمريكيـة معـاصرة معجبة بالبناء الاجتماعي العثماني حيث تقول: "هذا المجتمع يتميز بأن لكل فرد فيه مكان معين وله حقوق وواجبات محددة، حتى أن أقل طبقات السـكان شـأناً كـانت محصنـة ضـد النزوات السلطوية، وبهذه الحقوق فضل الفلاحون في البلقان الحكم العثمـاني علـى حكامـهم المتسلطين". [٣٧]

ازدهار الحياة الاقتصادية والثقافية في البوسنة العثمانية :

ازدهرت الحياة في البوسنة في ظل الحكم العثماني ازدهاراً كبيراً وظهر بها طبقة من كبار ملاك الأراضي إلى جانب طبقة أخرى من الملاك الصغار من البوسـنويين، وقـد صـاحب هـذا تغيير في النظام العسكري والمالي في الدولة العثمانية.

[٣٧] أنظر "فرانسين فريدمان" Friedman, Francine. The Bosnian Muslims: Denial of a Nation. Boulder, Colorado: Westview Press, 1996. PP.29,30.

وكان من نصيب السكان المسلمين في البوسنة أن يتحملوا العبء الأكبر من الجهد العسكري لا في الدفاع عن البوسنة وحدها ولكن في مساعدة الدولة العثمانية في أنحاء كثيرة من أراضيها.

وتتجلى أهمية القوات البشناقية في الجيش العثماني. بوجود عدد كبير من القادة العسكريين البشناق الذين كان يطلق علهم لقب "سباهي" بلغ عددهم (١٥٥٣) قائداً، وخدم بعضهم في الحملة على روسيا سنة ١٧١١م، وعلى إيران في سنة ١٧٢٣ إلى سنة ١٧٢٧م، وكان السباهي يأخذون معهم جنودهم البشناق حيث قتل منهم أعداد كبيرة فقد ذهب في الحملة الإيرانية (٥٢٠٠) لم يعد منهم إلى البوسنة سوى خمسمائة جندي فقط.

على الرغم من الاضطرابات التي كان تحدث من وقت لآخر في البوسنة والهرسك إلا أن "إيالة البوسنة" كانت أفضل حكماً وأكثر استقراراً من غيرها من المناطق المجاورة في البلقان مثل صربيا، وأقل تعرضاً لشغب العصابات الخارجة على القانون والنظام، مما جعلها موضع جذب للمستوطنين النازحين من صربيا و "الجبل الأسود" وغيرها من الإيالات طوال القرن الثامن عشر الميلادي، ففي هذا القرن تزايد عدد السكان المسيحيين المهاجرين إلى البوسنة زيادة ملحوظة انعكس أثرها في سجلات الضرائب التركية التي تكشف أن هذه الزيادة قد بلغت ٢٨٠٪: ففي سنة ١٧٣٢ كان عدد المسيحيين (١٤٣٠٠٠) شخص فأصبح في سنة ١٨١٧ أربعمائة ألف.

تحقق للسكان المسيحيين ازدهار عظيم في المدن الكبيرة والصغيرة على السواء حيث نما عدد التجار المسيحيين واليهود، وبرز دور التجار الكاثوليك بصفة خاصة حيث كانوا يربطون بين البوسنة "وراجوسا" في نهاية القرن السابع عشر ومن ثم لعب منهم عدد كبير دوراً هاماً في الاقتصاد البسنوي خلال القرن التالي. ومن قبل كان يقوم بالنشاط التجاري عدد كبير من الصرب الأرثوذكس والفلاشيين والأرمن، وكان الأرثوذكس يعملون في مهن كثيرة من أهمها المشغولات الذهبية،وشارك المسلمون في هذا الأنشطة مع براعتهم في الصناعات اليدوية.

ازدهار سراييفو :

بلغ ازدهار سراييفو خلال القرن السابع عشر مبلغاً جعلها إحدى عجائب البلقان، بل اعتبرت أهم مدينة داخلية تقع غرب سالونيكا. يصف أحد الزوار متجراً من متاجرها فيقول إنه يحتوي على بضائع تبلغ قيمتها مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف دوقية، مما يدل على الثراء الذي كانت تتمتع به في ذلك العصر. ونزل بالمدينة باحث ومؤلف تركي هو "أوليا جلبي" في سنة ١٦٦٠م وأحصى ما بها من منازل فوجد بها سبعة عشر ألف منزل، وهذا يعني أن عدد

سكان سراييفو في ذلك الوقت كان يزيد عن ثمانين ألف شخص، وأحصى "أوليا جلبي" مساجدها فكانوا مائة وأربعة مساجد، ووجد بها سوقاً ضخماً يحتوي على (١٠٨٠) متجراً تبيع سلعاً واردة من بلاد العرب ومن الهند والفرس وبولندا وبوهيميا.
وزار سراييفو قبل ذلك بعامين سائح فرنسي فأبدى نفس الانبهار والحماس في وصف مدينة سراييفو حيث كتب: "هناك شوارع جميلة نظيفة وقناطر ذات طرز معمارية بديعة، وبها ١٦٩ نافورة مياه والمدينة حافلة بالحدائق المزهرة فكل منزل به حديقته الخاصة التي تمتلئ بأشجار الفاكهة خصوصاً شجر التفاح" وأعجب الرجل أيضا بسوق المدينة وما يحفل به من سلع لا يحصى أنواعها، وأناس لا يحصى عددهم، كما أعجبه بصفة خاصة السوق الأسبوعي للخيول الرشيقة. ولا حظ "أوليا جلبي" وغيره من الرحالة وفرة المياه النظيفة الجارية في المنازل وفي كل مكان، إلى جانب الحمامات والمرافق العامة مما ساعد على حياة صحية نظيفة، وفي ذلك يقول "أوليا جلبي": "ترى حمرة وردية على الوجوه المبتسمة لسكان سراييفو نظراً لجودة الطقس وجمال الطبيعة، حيث العشب الأخضر يكسو سفوح الجبال المحيطة بالمدينة ولذا تبدو على سكان المدينة مظاهر الصحة والقوة، ومن علامات ذلك وجود ألف شخص مسن يتمتعون بالصحة والنشاط وهم فوق السبعين".

ورغم أن "سراييفو" قد تعرضت للتخريب خلال حرب ١٦٩٧م وللحرائق في سنتي ١٧٢٤، ١٧٨٨م ولكنها كانت تستعيد ما أتلفته الحروب والحرائق وتسترد رونقها وبهاءها في كل مرة، ورغم ما أصابها من محن ورغم تقلص عدد سكانها الذي أصبح عام ١٨٠٧ ستين ألف فقط فإن تعداد سكانها كان يفوق تعداد بلجراد وزغرب في نفس تلك الفترة، فقد سجل تعداد مدينة زغرب أربعة عشر ألف شخص، وظلت سراييفو بعد ذلك رائعة باهرة متفوقة على غيرها من مدن شرق أوروبا، بل كانت سراييفو في وقت زيارة "أوليا جلبي" تزهو على سائر المدن الأوروبية كلها بنظافتها وجمالها وأمنها ورخائها، وللمقارنة نورد وصفاً ملخصاً للمدن الأوروبية كما سجله "جيفري تريجر" في أحد كتبه حيث يقرر أنه حتى عام ١٧٠٠م كان يوجد في أوروبا كلها ٤٨ مدينة فقط يزيد تعداد سكانها عن أربعين ألف شخص، أما أكثر المدن فكانت لا تزيد عن عشرة آلاف وبعضها اقتصر على ألف أو ألفين، ويصف "تريجر" أهم المرافق التي تشتمل عليها المدينة الأوروبية في ذلك الوقت فيقول: "كانت تشتمل على كنيسة كبيرة وواحدة صغيرة أحياناً، ومحكمة، ومدرسة واحدة وسوق ودار لنقابة التجار والصناع، وكانت المدينة عالماً معزولاً تحيطه الأسوار وتنبعث منه الروائح الكريهة حيث تتجول الخنازير والدجاج في شوارعها، وتوجد بها مخازن الفضلات المعدة لتسميد الأرض الزراعية" ويعزو "تريجر" تدني عدد سكان المدن إلى خوف سكانها من غزو

المتسولين ومن الحرائق التي التهمت في مدينة بروكسل وحدها ٣٨٣٠ منزلاً مرة واحدة عام ١٦٩٥، كما كانوا يخشون اقتحام الجنود للمدينة سواء كانوا من جيش صديق أو من جيوش الأعداء حيث كان الجميع يلزمون السكان بإيوائهم في بيوتهم وتزويدهم بالطعام والمؤن اللازمة، ومن ثم لم تكن المدن الأوروبية مناطق جذب للسكان.[٣٨]

الحياة الاقتصادية :

استمر الازدهار الاقتصادي في البوسنة خاصة بعد اتفاقية "باساروفتش" التي فتحت أمام تجار البوسنة أسواق الإمبراطورية النمساوية في "ليبزج" و "فيينا" وكانت أهم صادرات البوسنة لهذه الأسواق: الحاصلات الزراعية من الفاكهة وعلى الأخص التمور المجففة، والجلود والفراء، وكانت أهم وارداتها المنسوجات.

تواكب هذا الازدهار مع قوة الدولة العثمانية عندما كانت في أوج عزها وعنفوانها، ولكن سرعان ما دب الفساد في أوصالها وبدأت تتفكك. ويصف الدبلوماسي الإنجليزي سير "جيمس بورتر" سنة ١٧٦٨م أسباب هذا الفساد فيقول إنه كان نتيجة لأخطاء في النظام الإدراي والسياسي ولم يكن نتيجة انحدار عام في الأخلاق. ففي تلك الفترة من الركود ظلت شهادة شهود العيان تعبر عن الانبهار بالتقاليد الأخلاقية والاجتماعية السارية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، حيث يذكر "سير جيمس بورتر" أنه لاحظ بنفسه أن السرقة نادرة في استطنبول وقال: "إنك تستطيع أن تعيش هناك في أمان بينما أبواب بيتك مفتوحة طول الوقت".[٣٩]

لاحظ بعض المراقبين أن السياسة العثمانية في البوسنة ابتداء من القرن التاسع عشر أخذت تتحول في البوسنة إلى جانب الكاثوليك أكثر من الأرثوذكس، والأرجح أن السبب في ذلك يعود إلى تزايد ولاء الأرثوذكس لصربيا التي دأبت على مناوأة العثمانيين، وكان التنافس بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية في البوسنة على أشده.

---

[٣٨] أنظر جيفري تريجر: Treasure, Geoffrey. The Making of Modern Europe (1648-1780). London: Methuen, 1985. PP. 17-20

[٣٩] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص ٩٧-٩٩.

الحياة الثقافية :

صور بعض الكتاب الصرب المتعصبين في يوغسلافيا العصر العثماني في البوسنة بأنه كان عصراً قاحلا مفتقراً للحياة الروحية والأدبية، وفي هذا السياق يقول الكاتب الروائي "إيفو أندريتش" في بحث كتبه عن الثقافة في البوسنة العثمانية: "لقد كان أثر الحكم التركي سلباً مطلقاً، فلم يستطع الترك أن يجلبوا معهم محتوى ثقافياً ذا قيمة، وهذا الحكم ينطبق أيضاً على السلاف الجنوبيين الذين اعتنقوا الإسلام". والحقيقة أن مثل هذه الأحكام إنما تدل على جهل صاحبها، أو على حد قول "نويل مالكوم": "إنها مجرد تعبير عن التعصب الأعمى وهو عمى اختياري أمام هذا الزخم في الآثار المعمارية العثمانية البديعة، عمى اختياري أمام الفيض الوافر من الأعمال الأدبية المتنوعة التي كتبها البسنويون المسلمون في ظل الحكم العثماني، ولا أحد يعرف الآن على وجه اليقين إذا كان شيء من هذه المخطوطات لا يزال موجوداً بعد التدمير الواسع والحرق المنظم للتراث الثقافي لمسلمي البوسنة على يد الصرب في غزوهم لها بين سنة ١٩٩٢م و ١٩٩٥م.

ورغم أن ما كان موجوداً في البوسنة قبل الغزو الصربي لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من هذا التراث الضخم إلا أن السجلات تذكر أن "سراييفو" كانت قبل بدء القصف تحتوي على ٧٥٠٠ مخطوطة أصلية محفوظة في مكتبة "غازي خسرو بك"، وخمسة آلاف مخطوطة أخرى محفوظة في المعهد الشرقي و (١٧٦٢) مخطوطة في الأرشيف التاريخي، و (٤٧٨) مخطوطة في المكتبة الوطنية. من هذه الأرقام وحدها يستطيع المرء أن يحكم بأن البوسنة العثمانية لم تكن صحراء ثقافية، كما يزعم الزاعمون. بل إن الكتاب البوسنويين تركوا آثاراً فكرية أخرى باللغات العربية والتركية والفارسية لا تزال موجودة في مجموعات اسطنبول "وفيينا" والقاهرة وفي أماكن أخرى من العالم.[٤٠]

من الأنماط الأدبية التي شاعت في البوسنة ما يسمى بأدب "ألياميدو" Aliamido، وهي أعمال مكتوبة باللغة الوطنية بحروف عربية شأنها في ذلك شأن الكتابات التركية القديمة والكتابات الفارسية.

ومن الأسماء البشناقية البارزة ممن حمل مشعل الفكر والثقافة يذكر اسم "محمد يوسكوف" (المتوفى سنة ١٦٥١م) فقد ألف قاموساً من التركية إلى الصربو- كرواتية

---

[٤٠] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص١٠٠، عن محتويات مكتبة الغازي خسروبك في سراييفو أنظر: محمود محمد السيد الدغيم، المصدر السابق، ص٢٤٧-٢٥٠.

وبالعكس، ويعتبر ثاني أقدم قاموس في أي لغة سلافية على الإطلاق. وكان للمسلمين دور قوي في ازدهار الأدب الشعبي الغني.

ولأن اللغة البوسنوية ظلت وعاءً حاملاً للفكر والأدب حقبة طويلة من الزمن أصبحت أكثر حساسية ومرونة عن غيرها من اللغات "الصربوكرواتية" الأخرى. وكتب "مورو أوربيني" يقول: من بين جميع المتحدثين باللغات (الصربوكرواتية) يملك البوسنويون أجمل وأرق لغة، وهم يفخرون إلى اليوم بأنهم يحتفظون بلسان سلافي نقي ولاحظ الكاتب الصربي الشهير في القرن التاسع عشر "فوك كاراجيتش" أن لهجة وسط الهرسك تمثل اللغة الشعبية في أفضل وأنقى صورها.[٤١]

كان البوسنويون يكتبون أيضاً بلغات البلاد الإسلامية كالفارسية والعربية والتركية. فقد كان القاموس الاصطلاحي للفلسفة باللغة العربية فلما كتبوا في الفلسفة جعلوها باللغة العربية، وألفوا شعراً باللغة الفارسية، وهكذا كان اختيار اللغة مرتبطاً باختيار الموضوع، ولكن هذا لا يمنع أن البوسنويين وهم يشعرون أنهم جزء من الكيان الإسلامي الأوسع ويرغبون في أن يشارك جمهور أوسع في قراءة ما يكتبون لجأوا إلى هذه اللغات يكتبون بها في موضوعات عامة مثل علوم الدين والتاريخ والفلسفة والشريعة، إلى جانب كتاباتهم الأدبية الأخرى.

وتضم قائمة المؤلفين البشناق عدداً كبيراً من أسماء المؤلفين نذكر بعضهم على سبيل المثال: أحمد سعودي البوسنوي (المتوفى ١٥٩٨م الذي كتب تعليقات على الشعر الفارسي الكلاسيكي.

وحسن أفندي بروشاق (المتوفى ١٦١٦) الذي ألف كتابه الشهير (مرآة الأمراء) وهو بحث في الحلم، إلى جانب العديد من الكتب في المنطق والقانون، كما وضع ثبتا بأسماء المؤلفين البوسنويين، "وعبدي البوسنوي" (توفي ١٦٤٤) كتب عدة رسائل عن حياة الصوفية وأحوالهم، و"إبراهيم على بيجوفيتش" (توفي ١٦٥١) ألف في التاريخ باللغة التركية عن الفترة ما بين ١٥٢٠ إلى ١٦٤٠م، ورجع في كتابته إلى المصادر الأوربية المطبوعة. و "أحمد الموستاري رشدي" (توفي سنة ١٦٩٩) وكان واحداً من عدد كبير من شعراء مدينة "موستار" الذي كتب شعراً بالتركية محاكياً فيه الأنماط الشعرية الفارسية. و "مصطفي الموستاري أيوبوفيتش" وكان مشهوراً باسم (شيخ يويو) توفي سنة ١٧٠٧م بعد أن ألف ثلاثين رسالة في المنطق واللغة والشريعة. و "مصطفي الأقحصاري" (توفي ١٧٥٥م) الذي ألف العديد من الكتب

---

[٤١] أنظر نويل مالكوم،المصدر السابق، ص١٠٢.

في الديـن والأخـلاق وكتـب رسـالة طريفـة في تقريـظ القـهوة. و "مصطفـي باشيسـكي" (تـوفي ١٨٠٩م) الـذي ألـف تاريخـاً مرتبـاً زمنيـاً لمدينـة "سـراييفو" علـى غـرار يوميـات الجـبرتي (المصري).

بعض هؤلاء الكتاب كان يعمل خارج البوسنة كمعلمين أو رجال إدارة، ولكن أكثرهم كان يعمل في البوسنة نفسها، فمثلاً "الشيخ يويو" نفسـه كـان قـاضي موسـتار كمـا عمـل حاكمـا للبوسنة فترة من الوقت. أما "درويش باشا البوسنوي" (توفي ١٦٠٣) فكان شـاعراً لامعـاً كمـا قام بترجمة كثير من الآثار الشعرية الفارسية إلى اللغة التركية.

وهكذا يتضح لنا بلا لبس زيف الإدعاء الصربي بأن البوسنة كـانت صحـراء ثقافيـة إبـان الحكم العثماني، أو بحسب تعبير نويل مالكوم الحاسم: "إنها فرية مردودة على صاحبها."

وإلى جـانب الفكـر والأدب كـان للبوسـنويين سـجل حـافل في مجـال الفنـــون الجميلـــة كالخطوط والمنمنمات التي اشتهروا بها طوال الفترة العثمانية.

كان للطوائف والفرق الصوفية نشاط ملحوظ في البوسنة وقد خلف كتاب الصوفيـة (٢٢٢) مخطوطا في تكية "سنان" بسراييفو، وكانت لهم أشعار صوفية رقيقة معروفة باسم "إلاهيات" كان يؤلفها الدراويش ويتغنون بها في مجالسهم وأذكارهم، ويمثل المتصوفون الإسـلام الشـعبي غير الرسمي خارج المدارس النظامية والمساجد. وكان لبعض هذه الفرق الصوفية حس سياسي قوي ومن ثم كان حماسهم في الدفاع عن الديـن حيـث هبـوا في وجـه الزحـف الروسـي علـى مسلمي شمال القوقاز.

أقيمت أول تكية صوفية في البوسنة لفرقة المولوية سنة ١٤٦٣م، وفي سنة ١٥٠٠م أقيمـت تكية أخرى للنقشبدية هي تكية إسـكندر باشـا، ثـم أقيمـت تكايـا أخـرى للبكتاشـية. هـذه التكايا كانت مثل المدارس يحيا فيها الأتباع والمريدون مـع شـيوخهم حيـاة روحيـة خالصـة ويتعلمون فيها الآداب والأخلاق الصوفية الرقيقة.

الأخلاق والتسامح :

يجمع الدارسون والمراقبون الذين اختلطوا بأهل البوسنة وعاشـوا معـهم أن الشـناق كـانوا يتمتعون بمستوى أخلاقي رفيع، فـهم مؤمنـون ورعـون أتقيـاء. كتـب عنـهم "أوليـا جلـبي" بحرارة يقول: "إنهم جميعاً يخشون الله.. إيمانـهم صـادق نقـي قـوي، نفوسـهم خاليـة مـن الحسد والكراهية، وهم جميعاً شباب وشيوخ أغنياء أو فقـراء حريصـون علـى أداء الصـلاة في أوقاتها. وكتب عن أخلاق البشناق وتقاليدهم كاتب سوري يقول: "البشناق معروفـون بدماثـة

أخلاقهم والحرص على كرامتهم، وسعة معارفهم ودقة فهمهم للأمور، والتروي في تفكيرهم، وإخلاصهم، وأهليتهم للثقة من أبرز سجاياهم".

أمضى الرحالة الفرنسي "كيسليه" Quicclet خلال سنة ١٦٥٨م شهرين في سراييفو فكتب يقول: "لم أتلق في سراييفو إلا أحسن المعاملة والكرم السخي من جميع المسلمين في المدينة حيث كان الجميع أصدقاء".[٤٢]

ظلت تقارير شهود العيان الذين زاروا البوسنة وعاشوا مع أهلها في أوقات مختلفة عبر السنين– تتري على نفس الوتيرة من الاستحسان، معبرة عن مناخ التسامح وسعة الصدر وكرم الضيافة وغير ذلك من السمات الخلقية التي يتمتع بها أهل البوسنة حتى القرن التاسع عشر، عندما حدثت ظروف سياسية وأوضاع اجتماعية تسببت في تغيير موقف المسلمين تجاه المسيحيين بصفة خاصة، وسوف نرى في تاريخ البوسنة كله أن هذا التغير يأتي كرد فعل لكارثة تحل بالمسلمين من خارج أرضهم على شكل عدوان عسكري أو غزوات للسطو والنهب أو مذابح يتعرض لها السكان العزل على نطاق واسع. وهذا ما حدث في بداية القرن التاسع عشر فقد اجتاحت الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون ساحل دلماشيا وروعت المسلمين هناك فتدفقوا نحو البوسنة والهرسك فراراً من الموت، وقام الأرثوذكس في صربيا و"الجبل الأسود" بتمرد مسلح وأوقعوا آلاف المسلمين في مذابح مروعة فقتلوا عشرات الآلاف وفر الباقون إلى البوسنة، وشعر المسلمون بأنهم محاصرون في البوسنة من كل جانب وأن خطر الحرب أصبح قريباً من ديارهم، وأن الزحف الصليبي عليهم وشيك الوقوع.

ومما زاد الأمور تعقيداً بالنسبة لعلاقة المسلمين بالمواطنين المسيحيين في البوسنة– تدخل الدول الكبرى (بروسيا والنمسا وفرنسا) في الشئون الداخلية للدولة العثمانية وفرض حمايتها على الرعايا المسيحيين. ومن ثم بدأ المسلمون يتشككون في سلوك المسيحيين ويتوجسون منهم خيفة، وأصبح الغرباء في البوسنة موضع اتهام بالتجسس لحساب الدول الخارجية. ولكن هذا الموقف لم يترتب عليه في أي وقت من الأوقات أن قام المسلمون بإيذاء غير المسلمين أو حتى التحرش بهم، هذا الموقف الإنساني من جانب البسنويين المسلمين يستحق الدرس والتأمل.

---

[٤٢] أنظر نويل مالكوم، نفس المصدر، ص١٠٥.

نجم الإمبراطورية يهوي في البوسنة:

كان البشناق دعامة وطيدة للإمبراطورية العثمانية في أوج عزها وقوتها، فقد كانوا أكثر شعوب الإمبراطورية مشاركة في صنع هذه القوة وتدعيمها، بالشجاعة العسكرية والحكمة السياسية وحسن الإدارة. وقد استطاع الدكتور محمد حرب حصر أسماء ثلاثة عشر من أبناء البوسنة الذين تولوا مناصب وزراء عظام أو صدور عظام، كما حصر ستة عشر اسماً منهم تولوا قيادة الأساطيل العثمانية،[٤٣] إلى جانب العديد من المناصب الإدارية الهامة، لا في البوسنة وحدها بل في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية الواسعة. هذه العلاقة الحميمة بين البشناق وبين الدولة العثمانية بدأت تتراخى شيئاً فشيئاً نتيجة لتراكم تأثير مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية: يرجع بعض هذه العوامل إلى تغييرات طرأت على النظام الداخلي للدولة العثمانية وما اعتراه من فساد، ويرجع بعضها إلى تزايد التدخل الأجنبي للقوى العالمية الكبرى التي ظهرت على الساحة، كما يرجع بعضها الآخر إلى التطورات التي حدثت في البوسنة نفسها وكان من نتيجتها تصاعد التوتر وبداية التمرد على السلطة.. وقد أدت هذه العوامل جميعاً إلى النهاية الدرامية المحتومة بانهيار النفوذ العثماني وانقضاض القوى الخارجية على البوسنة.

من أبرز التطورات التي حدثت في البوسنة ظهور مؤسسات سياسية واجتماعية وعسكرية- إذا أخذت في جملتها- فإنها تشكل نظاماً فعالاً لقوة محلية مستقلة أو شبه مستقلة.

لعل من أهم هذه المؤسسات على الإطلاق مؤسسة "القبطانية" Kapetanije : بدأت هذه المؤسسة تتشكل في أواخر القرن السادس عشر. و "القبطانية" منصب عسكري مختص بمناطق الحدود، من مهامه تجنيد قوات من الأهالي وتدريبها، والقيام بتفتيش المسافرين الذين يعبرون الحدود، وتأمين سلامة طرق السفر من العصابات وقطاع الطرق، وله مهمات أخرى تشبه أعمال الشرطة إلى جانب واجبات إدارية متنوعة.

أما المساحة التي تشغلها "القبطانية" فقد تكون أصغر أو أكبر من القضاء الذي يتولاه القاضي، ولكنها عادة تكون أصغر من "السنجق".

---

[٤٣] أنظر حرب، محمد. البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة. القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، ١٩٩٣. ص١٨٨-١٨٩.

وفي القرن السابع عشر توسع نظام "القبطان" فتولى مزيداً من السلطات والصلاحيات، وبدأت العائلات البوسنوية تتعامل مع هذا النظام على أنه وظيفة متوارثة بين أفراد العائلة. وفي نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر كان في البوسنة ٩٣ "قبطانية". وعندما أسند إلى "القباطنة" وظيفة جمع الضرائب كان النظام في عنفوان قوته. ولم يكن لهذا النظام مثيل في مناطق البلقان الأخرى وإنما انفردت به البوسنة وحدها وتميزت به، وشكل أفراده طبقة سياسية واجتماعية ذات هيبة ونفوذ، وقد وجد النظام مساندة فعالة من جانب الأهالي الذين لمسوا في توجهاته الإصلاحية جدية واستقامة،

فبدلاً من أن يخضع الأهالي للبكوات السناجقة المعينين من قبل سلطة خارجية لمدد محدود قد ينشلغون فيها بجمع ثروات خاصة بهم، آثر الناس أن يحكمهم "قباطنة" من أبناء جلدتهم لهم مصلحة في إجراء تحسينات وإصلاحات دائمة في بلادهم.

ومن ناحية أخرى رحبت بهم السلطات في اسطنبول لأنهم أثبتوا أنهم عسكريون أكفاء استطاعوا حماية حدود الولاية كما كانوا يجمعون الضرائب المطلوبة لها دون تفريط. ولا ينتقص من قيمتهم أنهم كانوا يشكلون عقبة في طريق سلطة الحاكم المركزي للبوسنة المعين من قبل السلطان، فقد كان هناك عوامل أخرى كثيرة أضعفت هذه السلطة المركزية، ومع ذلك ظلت البوسنة بسكانها وموقعها دعامة قوية من دعائم الدولة العثمانية زمناً طويلاً، ومما هو جدير بالذكر أن الجيش العثماني الذي جاء لتحرير مصر من الحملة الفرنسية وكان به الضابط محمد على الذي أصبح والياً لمصر فيما بعد- كان يشمل على عدد كبير من الجنود البسنويين إلى جانب الجنود الألبان.[٤٤]

كان حاكم إيالة البوسنة- من الناحية النظرية- يمثل سلطة السلطان العثماني على أراضي البوسنة جميعها، وكان يعمل بمرتبة وزير حاملاً لدرجات الباشوية الثلاثة، ويأتي من بعده البكوات السناجقة، وكانت البوسنة في نهاية القرن السابع عشر تنقسم إلى أربعة سناجق هي: البوسنة، والهرسك، زفورنك، وكليس، وكان السناجقة يعينهم السلطان بنفسه، أما الأغوات فكان يعينهم الوزير وكان في البوسنة أربع أغوات مستقلة.

من الناحية العملية ظلت سلطة الوزير تتقلص شيئاً فشيئاً ابتداء من القرن الثامن عشر، وقر نهاية القرن لن تكن سلطة الوزير تتعدى حدود "ترافنك" وما حولها حيث كانت إقامته وبلاطه، وبالتالي ضعفت سلطة المؤسسات التي تستمد شرعيتها منه، كل ذلك لصالح القوى المحلية النامية والمستندة إلى تأييد الأهالي.

---

[٤٤] أنظر جستين مكارتي في كتاب .The Muslins of Bosnia ص ٧٢.

خرج الوزراء من سراييفو بعد حرب التسعينات من القرن السابع عشر ووجدوا أن العـودة إليها أصبحت مستحيلة، وكان لنمو كل من سراييفو وموستار سياسـياً أثـر مباشـر في ضعـف السلطة المركزية، وكان البوسـنويون يختـارون قادتـهم الإداريـين والسياسـيين، ويرجـع هـذا التقليد إلى بداية الفتح العثماني للبوسـنة فقـد منـح السـلطان محمـد الثـاني "سـراييفو" سـنة ١٤٦٠م امتيازات خاصة من بينها حـق رؤسـاء المـهن اختيـار السـلطات الإداريـة، ومـن ثـم أخذت هذه الممارسة تترسخ وتقوى مع مرور الزمـن، فتقلـص نفـوذ الانكشـارية حتـى أصبـح اللقب ينصرف إلى كثير من المواطنين كلقب شرفي بدون واجبات عسكرية وبدون مرتب.

احتفظ النظام المركزي بممثل للوزير في "سـراييفو" مـن أبنـاء البوسـنة ولكـن لم تكـن لـه صلاحيات حقيقية.

هذا الاستقلال التدريجـي لسـراييفو جعلـها في مركـز اسـتطاعت فيـه أن تعـارض زيـادة الضرائب التي فرضت سنة ١٧١٧م، وكذلك تمردت موستار عدة مرات على أوامر الوزير.

ربما كان الاستقلال الإداري النسبي الذي تمتعت به البوسنة والمشاركة المباشـرة لأبنائـها في إدارة شئونها ونجاحهم في برامج الإصلاح التي نفذوها، ربما كان هذا أحد العوامل الهامة في اسـتقرار الأوضـاع بـها أكـثر مـن غيرهـا مـن الولايـات العثمانيـة الأخـرى الـتي شـهدت اضطرابات كبرى وبدأت تنسلخ عن السلطة المركزية في "اسـطنبول" مثلمـا فعـل محمـد علـي باشا الذي استقل بمصر وأصبح مناوئا للسلطان العثماني وكذلك فعل كثير غيره من المتمردين.

اتسعت مظاهر الفساد في قلب السلطة العثمانية فعجـزت عـن الإصـلاح وتراكمـت عليـها الديون، وازداد ضعفها يوما بعد يوم، فتعاظمت مطامع القوى الكبرى في اقتسام الإمبراطورية أو تركة "الرجل المريض" كما كانوا يسمونها. وصاحب هذا كله ازديـاد التدخـل الأجنـبي في شئون الولايات العثمانيـة وبخاصـة في منطقـة البلقـان ومنـها البوسـنة، حـدث هـذا نتيجـة الامتيازات التي اضطر العثمـانيون منحـها للقناصلـة الأوروبيـين فيمـا يعـرف باسـم "حمايـة الأجانب"، وحيث تولت روسيا الأرثوذكس وتولت الإمبراطورية النمساوية والمجريـة حمايـة الكاثوليك. ومع استمرار الضعـف السياسـي والاقتصـادي والتفكـك الإداري في أنحـاء الدولـة العثمانية أخذ ولاء المسيحيين في البوسنة يتجه إلى الخارج أكثر مـن الالتفـاف حـول المبـادئ الوطنية الواحدة.

ونتيجة لذلك اتصل بعض الأرثوذكس بصربيا وصرحوا علانية بانتمائهم إليـها. وفي سـنة ١٨٧٦ أعلنت "صربيا" و "الجبل الأسود" الحـرب علـى الدولـة العثمانيـة وصرحـا بعزمـهما على الاستيلاء على البوسنة، وتمكن " الجبـل الأسـود" مـن احـراز بعـض الانتصـارات علـى القوات البوسنوية، أما صربيا فقد فشلت في هجومها وأوشك العثمانيون علـى احتلالهـا لـولا تدخل روسيا بالوساطة حيث قبلت تركيا وقف إطلاق النار.

وفي سنة ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وقد سبق ذلك محادثات سرية بينها وبين النمسا لاقتسام أراضي البلقان. وزحفت روسيا إلى حدود اسطنبول حيث تمكنت من إبرام اتفاقية "سان ستيفانو" مع العثمانيين حصلت بلغاريا بمقتضاها على الاستقلال وبقيت البوسنة مع تركيا.

توجست دول أوربا الغربية خوفا من النشاط العسكري لروسيا في البلقان فاجتمعت في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ لإعادة صياغة "اتفاقية سان ستيفانو" ورسم خريطة جديدة لموازنة القوة الروسية الناشئة وإغلاق طريقها نحو البحر المتوسط. قامت هذه الدول بتقسيم بلغاريا إلى نصفين وأعلنت بقاء البوسنة تحت النفوذ العثماني التركي (اسميا) على أن تقوم النمسا باحتلالها وإدارتها، وبالفعل تحركت قوات النمسا في ٨٢٠ ألف جندي إلى البوسنة، وعلم المسلمون بالأمر فقرروا التصدي للعدوان النمساوي فاجتمع منهم أربعون ألف مقاتل من أنحاء البوسنة. ولكن الجيش النمساوي كان مستعداً ومد رباً ومسلحاً بأفضل الأسلحة. وكان الجواسيس النمساويون يجوبون أنحاء البوسنة منذ سنة ١٨٧١ فرسموا خرائط البلاد بتفاصيلها الدقيقة لمساعدة قوات الاحتلال.

في ١٨ أغسطس ١٨٧٨ وصلت القوات النمساوية إلى مشارف سراييفو بعد هزائم كبيرة لحقت بالمسلمين، وبدأ الهجوم الكبير في صباح اليوم التالي بضرب مدفعي مكثف. ثم دخل المشاة إلى المدينة ولكنهم فوجئوا بالنيران تنهال عليهم من نوافذ المنازل، وكان النساء يشاركن في هذا المقاومة، غير أن المعركة لم تلبث أن حسمت لصالح الجيش النمساوي، ثم تحرك بعدها إلى الهرسك، وتم احتلال جميع أراضي البوسنة والهرسك في ٢٠ أكتوبر ١٨٧٨م.

اشتعلت المقاومة البوسنوية وجرت حرب عصابات شرسة مع الجيش المحتل في ٥٣ معركة بلغت خسائر النمسا فيها ٩٤٦ قتيلاً و ٣٩٨٠ جريحاً.

ولم تهدأ المقاومة بعد ذلك فقد اشترك المسلمون والأرثوذكس (من صرب البوسنة) في عمليات أطلق عليها النمساويون حرب اللصوص، وفي الحقيقة لم يكونوا لصوصاً وإنما وطنيين شرفاء، كانوا يهاجمون الجنود ويتربصون بالشرطة النمساوية شأنهم في ذلك شأن أي حركة وطنية ضد الاحتلال الأجنبي في أي مكان بالعالم.

الفصل الثالث

البوسنة من إمبراطورية النمسا والمجر حتى الحرب العالمية الثانية

كانت السنوات الأولى للاحتلال النمساوي المجري للبوسنة شديدة الوطأة، نزح خلالها ٣٥٠ ألف مسلم إلى تركيا، قلة قليلة منهم أتراك والغالبية العظمى من البوسنويين، وبقى مائتا ألف آخرون مشردون خارج ديارهم وأراضيهم.

وصدر قانون عسكري بالتجنيد الإجباري لجميع الذكور البوسنويين للخدمة قهراً في جيش الاحتلال فثارت الجماهير ضد القانون.

وهنا يجب أن نثبت ملاحظة هامة فقد أبقت سلطات الاحتلال قوانين الإصلاح التركية الخاصة بنظام الأراضي الزراعية تجنباً لثورة الأهالي، وقد شهد المؤرخ البريطاني "وليام ميلر" عندما زار البوسنة سنة ١٨٩٠ أن الفلاحين في البوسنة أفضل حالاً من الفلاحين في "دلماشيا" و "سيسلي"، كما لا حظ أن تقسيم الأراضي وفقاً للقانون العثماني في الميراث (يقصد قوانين المواريث الشرعية) أدى إلى تفتيت الملكيات الكبيرة حتى أصبحت لا تزيد كثيراً عن ملكيات صغار الفلاحين، وبذلك ظهرت طبقة عريضة من الملاك الصغار غيرت من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في ريف البوسنة.[٤٥]

السياسة السكانية :

تركزت هذه السياسة في تغليب كفة الأجانب والكاثوليك بصفة خاصة على حساب المسلمين والأرثوذكس. فقد دعا النمساويون والمجريون عدداً من الرهبان الألمان المقيمين في المجر لإنشاء مزارع نموذجية في البوسنة بلغ عددها ٤٥ مستوطنة سكنها عشرة آلاف من الأجانب، ألفان منهم من ألمانيا والباقي من بلاد أخرى في البلقان، ومنحتهم السلطات امتيازات كبيرة.

في سنة ١٩١٠ أصبح في البوسنة ٤٧ ألفاً من النمسا و ٦١ ألفاً من المجر جميعهم من الكاثوليك، وهكذا تضخم عدد الكاثوليك النازحين من هذه البلاد، وتحول المجتمع الكاثوليكي في البوسنة إلى طبقة مدللة مميزة.

هذا إذن هو مصدر الوجود الكاثوليكي في البوسنة، ونحن بذلك نجيب على سؤال كنا قد طرحناه من قبل، فالوجود الكاثوليكي قبل العثمانيين محوط بشكوك كثيرة، وقلة منهم

---

[٤٥] أنظر "وليام ميلر" Miller, W. Travels and Politics in The Near East. London, 1898. P.7.

وجدت طريقها إلى البوسنة بعد العثمانيين أما الكثرة الغالبة فقد جاءت من خارج البوسنة في ظل الاحتلال النمساوي المجري.

لقد جرت عمليات كثلكة في البوسنة على نطاق واسع بين الأرثوذكس وتسببت محاولات نشر الكاثوليكية في مشاكل كثيرة للأسر المسلمة؛ فقد دأبت سلطات الاحتلال على إغراء الفتيات المسلمات بالزواج من شبان كاثوليك، وكان القسس يساعدون في إخفاء البنات المسلمات بعيداً عن أعين الشرطة عندما تتحرك للبحث عنهن بعد إلحاح أسرهم بالشكوى.

وفي هذا السياق أثارت تصرفات الأسقف "ستادلر" قضية دار حولها جدل كثير، فقد كان هذا الأسقف منغمساً بنفسه في واقعة إخفاء أرملة مسلمة وطفليها، وتبين من التحقيقات أن حكومة الاحتلال كانت قد أبرمت اتفاقية سرية مع البابا سنة ١٨٩٥ أعطت للقسس الكاثوليك حق الاتصال بأهالي البوسنة المسلمين بغية تحويلهم إلى الكاثوليكية.[٤٦]

كان لهذه الممارسات مع تدفق الأجانب على البوسنة أثر بالغ في تذمر السكان المسلمين وفي قلقهم المستمر.

الأوقاف :

أشرنا من قبل أن الوقف كان من المؤسسات العظيمة التي تميزت بها البوسنة خلال العهد العثماني، فإلى هذه المؤسسة يرجع الفضل في قيام الجمعيات الخيرية والرعاية للأفراد والمجتمعات المحلية وتمت بفضلها مشروعات إنسانية بالغة الأثر في الحياة الاجتماعية. فقد لعب الوقف دوراً بارزاً في المجتمع المسلم: منه كان يتم الإنفاق على صيانة المساجد والمدارس والتكايا والقناطر والخانات الخيرية لإيواء الضيوف والمرتحلين. وعندما دخل النمساويون سنة ١٨٧٨م كان ثلث الأراضي الزراعية في البوسنة موقوفة على الأعمال الخيرية– وكانت الشريعة الإسلامية تحرم تغيير الوقف ومن ثم التزمت السلطات العثمانية بتنفيذ ورعاية هذا القانون الشرعي– فلما جاء النمساويون تحول الوقف إلى قضية سياسية ودارت حوله معارك بين القادة المسلمين وبين سلطات الاحتلال.

وبسبب هذه السياسات المناهضة للأنشطة الإسلامية ولمصالح المسلمين وهم الأكثرية الغالبة نما الشعور الوطني لدى المسلمين في البوسنة وتضافرت قيادات المسلمين وقيادات الأرثوذكس معاً في محاولة لإزاحة النفوذ النمساوي.

---

[٤٦] أنظر "دونيا" Donia, R. Islam under The Double Eagle: The Muslims of Bosnia and Herzegovina 1878-1914. Boulder, Colorado, 1981.

البشناق :

العثمانيون هم الذين أطلقوا على سكان البوسنة مسلمين وغير مسلمين اسم "البشناق" اشتقاقاً من بلدهم (البوسنة مع ميل إلى نطق حرف ش بدلاً من س) ولكن صرب البوسنة وكرواتها كانوا يعتبرون "البشناقي" هو البوسنوي المسلم فقط، وهم في ذلك على صواب، لأن الكتلة السكانية الأصيلة في البوسنة هم "البوجوميليون" الذين تحولوا إلى الإسلام بعد الفتح العثماني. أما الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك فقد جاءوا البوسنة فيما بعد: دخل الصرب في إطار تطبيق السياسة العثمانية في "الإحلال والتعمير" كما أشرنا من قبل، وتكاثر الكروات الكاثوليك في العهد النمساوي المجري كما رأينا. كان الكاثوليكي يطلق على نفسه صفة (لاتيني) وهو تعبير كان يساوي في معناه آنذاك مسيحي، أما الأرثوذكسي فكان يميز نفسه باسم (فلاشي) وهي كلمة كانت تساوي (مسيحي) في ذلك الوقت أيضاً. لم تنقطع صلة الأرثوذكس الدينية بصربيا ولم تنقطع صلة الكاثوليك بكرواتيا، وهي صلة كانت موضع تشجيع مستمر من جانب صربيا وكرواتيا إلى اليوم، كان الكاثوليك ينظرون إلى كرواتيا وما وراءها لدعم مجتمعاتهم في البوسنة والتدخل في البوسنة لحمايتهم إذا لزم الأمر، أما الأرثوذكس فقد كانوا ينظرون إلى صربيا بعين الولاء، وظل اسم الصرب عالقاً بالأرثوذكس الذين اكتسبوا المواطنة البوسنوية حتى اليوم، وظل اسم الكروات عالقاً بالكاثوليك الذين اكتسبوا هذه المواطنة، أما المسلمون فقد استمروا دائماً على اسمهم "البشناق" (أو البوسنويين).

ولابد هنا من الإشارة إلى حقيقة تاريخية هامة فقد كان الأتراك العثمانيون لا يسمحون بالصراعات والاضطرابات بين أتباع الديانات المختلفة في البوسنة، بل كان النظام يحمي الجميع ويعتبر نفسه مسئولاً عن سلامتهم وأمنهم وحريتهم في العقيدة والنشاط، فلما تقلص النفوذ العثماني في البوسنة بدأت الاضطرابات والصراعات العنيفة بين الكاثوليك والأرثوذكس فقد كانت السياسة المجرية تسعى إلى ضرب الصرب بالكروات، بعد أن جرى تهميش الكتلة السكانية الأكبر من مسلمي البوسنة عن طريق إشغالهم بمشاكلهم الداخلية نتيجة تعرض حقوقهم للانتقاص الدائم بل العدوان من جانب سلطات الاحتلال.

فلما أعلنت إمبراطورية النمسا والمجر رسمياً ضم البوسنة إليها في ١٥ أكتوبر ١٩٠٨م كان رد الفعل في صربيا غاضباً، وتشكلت على أثر ذلك جمعيات سرية للقضاء على النفوذ النمساوي المجري في محاولة لضم البوسنة إلى صربيا، من أشهر هذه الجمعيات كانت جمعية اليد السوداء التي امتدت فروعها إلى داخل البوسنة نفسها.

ظهور القومية السلافية :

تعاظم الشعور القومي بين السلاف الجنوبيين ضد النفوذ النمساوي المجري وتبلورت فكرة إنشاء دولة (سلافية جنوبية) تتألف من صربيا وكرواتيا والبوسنة. وأصبح التخلص من النفوذ الأجنبي هدفاً قومياً للسلافيين الجنوبيين حيث بدءوا بضرب فلول الأتراك سنة ١٩١٢م بمساعدة وتحريض من اليونان وبلغاريا، وتمكنوا من طرد الأتراك من "سنجق نوفي بازار" ومن كوسوفا ومقدونيا، وعاونهم في هذه الهجمات مسلمو البوسنة وهم يجهلون أن عشرات الألوف من المسلمين الأبرياء في هذه المناطق قد تم ذبحهم أو طردهم خارج أرضهم ، وتوسعت صربيا في زحفها لتشمل مناطق أخرى حتى انتهت الحرب البلقانية بمؤتمر لندن في ٣٠ مايو سنة ١٩١٣م.

وبينما كانت الأوضاع السياسية لا تزال تغلي في المنطقة تهور ولي العهد النمساوي فغامر بزيارة سراييفو في ٢٨ يونية ١٩١٤م وهو يوم الاحتفال بذكرى معركة كوسوفا عند الصرب فقتله قومي صربي، وعلى أثر ذلك اندلعت الحرب العالمية الأولى.

البوسنة بعد الحرب العالمية الأولى :

المسلمون تحت النفوذ الصربي

كان فريق من مسلمي البوسنة مع فكرة الاتحاد اليوغسلافي يدعمون حركة الصرب القومية في مواجهة الاحتلال النمساوي المجري، فلما اجتاحت البوسنة قوات صربيا و "الجبل الأسود" بعد الحرب العالمية الأولى وشهد المسلمون العنف الدموي الذي مارسته هذه القوات بمشاركة صرب البوسنة تراجع هذا الفريق عن التعاون مع الصرب.

تبنت صربيا خطة الوزير الصربي "ستويان بروتتش" في حل مشكلة إخضاع البوسنة إما عن طريق إجبار جميع المسلمين والكروات الكاثوليك للتخلي عن أديانهم واعتناق الأرثوذكسية، وإما عن طريق المذابح والإبادة المنظمة إذا رفضوا اعتناق الأرثوذكسية، وقد أدت هذه السياسة الدموية بين سنة ١٩١٠ إلى ١٩٢٠م إلى فقد البوسنة خمس سكانها بين المذابح والحرق حتى الموت لأعداد هائلة من الرجال والنساء والأطفال، وبين الأوبئة التي انتشرت بين المشردين الفارين من وجه الغزو الصربي البشع.

أما الحل الذي كان يراه بعض المفكرين المسلمين للخروج من هذه الكوارث فقد تركز حول إنشاء اتحاد يوغسلافي كونفدرالي تحتفظ فيه البوسنة بهويتها المستقلة، وتبنى

الكروات نفس الفكـرة بالنسـبة لكرواتيـا، ولكـن صربيـا أصـرت علـى دولـة مركزيـة متحـدة عاصمتها بلجراد.

كان هذا ولا يزال الحلم الصربي على مر العصور: صربيـا الكـبرى التـي تنشـر سـلطانها على كل شبر من الأرض يعيش فيه صربي، وإخـلاء البـلاد مـن جميـع القوميـات المخالفـة للقومية الصربية، وهي نفس الدعوة النازية الهتلرية: أن ينتشر سلطان الرايخ الألمـاني علـى كل شبر أرض فيها عنصر ألماني، وتطهير الأرض من كل عنصر مخالف لا تجري في عروقه الدماء الجرمانية.

ولكن– رغم المذابح وأعمال العنف الدمـوي– لـم تفلـح صربيـا فـي اقتـلاع الإسـلام مـن البوسنة، ومن ثم بـدأت تلجـأ إلـى القوانيـن والتنظيمـات الاقتصاديـة والاجتماعيـة لتفريـغ الإسلام من محتواه، حيث أصدرت الحكومة الصربية قانوناً أسمته "قانون الإصلاح الزراعي" انتزعت بمقتضاه ملكيات أربعة آلاف أسرة مسلمة في نظير تعويضات هزيلة، بـهذا القـانون الجائر وحده وضعت صربيا مالا يقل عن أربعين ألف مسلم في خانة الفقر والعوز.

أما من الناحية الاجتماعيـة فقـد مارسـت صربيـا الضغـوط المسـتمرة بـل الإرهـاب علـى المسلمين لتحديد هويتهم إما صرباً أرثوذكس مع بلجراد وإما كروات كـاثوليك مـع كرواتيـا، وقد اضطر بعض المسلمين إلى الانحيـاز إلـى كرواتيـا احتجاجـاً علـى الهيمنـة والاضطـهاد الصربي، واختار البعض الآخر الهوية اليوغسلافية لنفس السبب.

ورغم كل شيء عاد مسلمو البوسنة يمارسون نشاطهم كجماعة متمـيزة واسـتطاع الممثلـون البشناق في برلمان يوغسلافيا أن يحافظوا على هويـة البوسـنة وحدودهـا فـي إطـار الاتحـاد اليوغسلافي، ولكن مصطلح "مسلم" الذي كان هو الأسـاس الدينـي لهويـة البشـناقي المسـلم أخذ يتآكل تحت تأثير الزحف العلماني للقرن العشرين ليصبح مجرد مصطلح سياسي تعبـيراً عن قومية خاصة.

الصراع بين الصرب والكروات:

ظل الصراع مستمراً بين الصرب المتمسكين بالسلطة المركزية وبين الكروات الذيـن وقفـوا ضد هذه المركزية، وأما المسلمون فكانوا يتخذون موقفاً وسطا بين الطرفين المتصارعين، وفي سنة ١٩٢٩ حدث تغيير جديد فأصبح الاسم الجديد للدولة هو "يوغسلافيا" بدلاً من "مملكـة صربيا وكرواتيا وسلوفينيا"، وقسمت البوسنة بين العديد من أقسام هذه الدولة.

وهكذا بعد أكثر من أربعمائة عام ينفـرط عقـد البوسـنة لأول مـرة فـي التـاريخ، فبعـد أن كانت البوسنة وحدة سياسية مستقلة، أصبح المسلمون أقليات في كل هذه الأقسام.

لم يكن الكروات- حقيقة- يرون في الوحدة اليوغسلافية المزعومة سوى تحقيقاً للحلم الصربي "صربيا الكبرى"، بصرف النظر عن مصالح الآخرين المهدرة، ولذلك هاجر من كرواتيا أحد أكثر القادة الكروات تطرفاً وهو "أنتي بافليتش"- هاجر إلى إيطاليا وأخذ ينظم مع موسليني حركة "الأستاشا" الفاشية للعمل على استقلال كرواتيا، وكان لهذه الحركة أثر خطير في يوغسلافيا أثناء الحرب العالمية الثانية.

البوسنة خلال الحرب العالمية الثانية:

الحرب العالمية الثانية بالنسبة ليوغسلافيا كانت قصة حروب كثيرة معقدة ومتشابكة:

أولاً- هاجمت ألمانيا وإيطاليا الأراضي اليوغسلافية واقتسماها فيما بينهما.

ثانياً- حرب المحور ضد الحلفاء، وكانت يوغسلافيا ذات أهمية لهذه الحرب باعتبارها مصدراً للأيدي العاملة والمواد الخام.

ثالثاً- اشتعلت إلى جانب ذلك حربان أهليتان في يوغسلافيا: تمثلت الأولى في الحرب التي شنتها قوات "الأستاشا" الكرواتية ضد الصرب المقيمين في كرواتيا والبوسنة، وتمثلت الثانية في حرب قوات "الشتنك" الصربية مع قوات التحرير اليوغسلافية بقيادة "تيتو"، أما المسلمون فكانوا عرضة للقتل من جميع الأطراف. بلغ عدد ضحايا هذه الحرب المركبة مليون قتيل، معظمهم قتلى يوغسلافيين بيد يوغسلافيين.

في ١٠ إبريل ١٩٤١م أعلنت ألمانيا قيام دولة كرواتيا المستقلة مشتملة على كل أراضي البوسنة والهرسك، واستدعى الألمان "أنتي بافليتش" زعيم عصابات الأستاشا ليرأس حكومة هذه الدولة. وحقيقة الأمر أن عصابات الأستاشا المتطرفة لم يكن بها أكثر من اثني عشر ألف رجل، ولكن استطاع هؤلاء المتطرفون السيطرة على الدولة بدعم من القوات الألمانية، وأصبحت عصابات الأستاشا أداة للإرهاب والمجازر الوحشية.

وفي مواجهة هذا انبعثت من جديد عصابات "الشتنك" الصربية بقيادة ميهالوفتش الذي بدأ مقاومة فعالة لقوات النازي وكان هدف الشتنك إقامة صربيا الكبرى بابتلاع "سلوفينيا" والبوسنة ودلماشيا و "الجبل الأسود"، وأجزاء من كرواتيا وكوسوفا وذلك باستخدام "التطهير العرقي" ومعناه إخلاء الأرض بالعنف من جميع السكان غير الصربيين، وكان شعار "ميهالوفتش" في هذه الحرب هو: "حيث وجدت قبور صربية فتلك أرض صربيا".

يجب التنويه هنا أن مصطلح "التطهير العرقي" مصطلح خاطئ وخادع. أما كونه خادع فلأنه يعبر عن عمليات إجرامية وحشية بلغة ناعمة، أما كونه خاطئ فلأن الصرب والكروات والمسلمين كلهم ينتمون إلى عرق واحد فهم جميعاً "سلافيون". الأمر يتعلق بالاختلاف في الدين والثقافة وليس في العرق.

خاضت قوات التحرير الشيوعية الحرب ضد النازيين بقيادة "جوزيف بروز تيتو" وكانت محظورة من قبل في مملكة يوغسلافيا، بدأت الحرب وهي لا تملك أكثر من ستة آلاف مقاتل وتعاونت معها قوات الشتنك الصربية، ولكن "تيتو" كان يخوض المقاومة وله هدف آخر غير هدف الصرب.

أما المسلمون فقد كانوا منقسمين على أنفسهم في هذه الحرب المعقدة التي لم يكن لهم فيها أطماع ولا أهداف وإنما جرفتهم الحرب في طريقها جرفاً وأصبحت بلادهم مسرحاً لأعمال العصابات من كل جانب كانوا هم ضحيتها الأولى. تمزقت قواهم، فانحازت فئة منهم إلى جانب "تيتو"، تحت اسم "منظمة المسلمين اليوغسلاف" بينما أجبرت فئة أخرى ضئيلة- كانت تسكن على الحدود الكرواتية- على العمل مع الكروات، كما عملت فئة أخرى ضئيلة مع الصرب قهراً، ومع اشتراك المسلمين على كل الجبهات لم يسلموا من الاضطهاد والقتل من جانب الصرب والكروات.

بعد أغسطس ١٩١٤م بدأت تتشكل وحدات من المسلمين في جيش "تيتو" بعد أن ظهر تميزها في القتال، وأبدى "تيتو" تسامحاً مرحلياً مع المسلمين خصوصاً بعد مقتل عشرات الألوف منهم على يد الصرب في المعارك التي جرت في شتاء ١٩١٤/١٩٤٢م وفي صيف سنة ١٩٤٢م.

كان دور قوات التحرير الشيوعية دوراً متواضعاً جداً في القتال مع القوات النازية على خلاف الفكرة الشائعة التي روجها الغرب عن "تيتو" ورجاله، فلم تكن المنطقة التي احتلها "تيتو" في الريف تؤثر في الحقيقة على حركة قوات المحور، ولذلك لم تهتم به ألمانيا لأنها كانت مسيطرة سيطرة قوية على كل الأراضي المهمة. ولذلك لم تحدث اشتباكات أو معارك ساخنة بين "تيتو" وبين قوات المحور كما يتوهم البعض.

ولعب الحظ دوراً كبيراً في سطوع نجم "تيتو"، فعلى جبل "دور ميتور" اتصل بتيتو ضابط إنجليزى هو "وليام ديكن" الذي أعجب بأسلوب "تيتو" في القتال واستطاع أن يقنع الإنجليز و الحلفاء بمؤازرته وصرف النظر عن قوات الشتنك الملكية الصربية بقيادة "ميهالوفتش" وعندما استسلم الإيطاليون للحلفاء في سبتمبر ١٩٤٣م وقعت في يد "تيتو"

كميات كبيرة من أسلحتهم تفوق بها علـى قـوات "الشـتنك"، وخـلال عـام ١٩٤٤م تكثفـت مساعدات الحلفاء لتيتو، وفي صيف ذلك العام بدأ الألمان ينسحبون من يوغسلافيا.

لم يكن للحلفاء خيار كبير في الانحياز إلى جانب قوات التحرير الشـيوعية فقـد كـانت روسيا من أكبر القوات الحليفة، وهم يعلمون سلفا أن روسيا لن ترضـى بالنظـام الملكـي فـي يوغسلافيا وأنها سوف تسقطه لتقيم نظاماً شـيوعياً فيـها، ومـن ناحيـة أخـرى كـان تدعيـم الحلفاء لتيتو في وقت شدته من عوامل استمالته نحو الغرب. وعلى كل حال كان الغرب قد اتخذ قراره بالنسبة للسلطة القادمة في يوغسلافيا والصورة التي يمكن أن تكون عليها.

وفي سبتمبر ١٩٤٤ طلب الحلفاء من ملك يوغسلافيا أن يوجـه نـداء إلـى اليوغسـلافيين لمساعدة تيتو، وفي نهاية العام كانت القـوات السـوفيتية قـد اجتـاحت المنطقـة وأصبحـت تسيطر على ثلث البلاد ولم يلبث "تيتو" أن تسلم السلطة في يوغسلافيا بدعم من الحلفاء.

الفصل الرابع

بين يوغسلافيا الشيوعية وانبعاث القومية الصربية

عادةً ما ينسب إلى "تيتو" أنه أعاد السلام والاستقرار والتوازن إلى يوغسلافيا وفي هذا كثير من الحقيقة، ولكنه جاء بثمن باهظ دفعته شعوب يوغسلافيا، فقد فرض "تيتو" النظام الشيوعي على هذه الشعوب فرضاً، وكانت هناك قوات ذات أعداد كبيرة حاربت قوات "تيتو" فلما انتهت الحرب لجأوا إلى حمى الحلفاء خوفاً من انتقامه، من بين هؤلاء: الحرس الوطني السلوفيني وجنود "ألأوستاشا"، ومجموعات صغيرة من المسلمين- والصرب- وكروات البوسنة، لجأوا جميعاً إلى الحلفاء في النمسا خلال شهري إبريل ومايو ١٩٤٥م.

وألح "تيتو" في طلب هؤلاء اللاجئين وكان عددهم يبلغ ثمانية آلاف أعادتهم بريطانيا، حيث قتل معظمهم فور وصولهم إلى يوغسلافيا.

ولكي يوطد "تيتو" سلطته شرع في قتل آلاف آخرين من شعوب يوغسلافيا بلغ مجموعهم ٢٥٠ ألف شخص فيما بين ١٩٤٥ و ١٩٤٦م. قتلوا في مجموعات رمياً بالرصاص أو في معسكرات الموت أو نتيجة الأعمال الشاقة الإجبارية والتعذيب في السجون، تحت إشراف البوليس السري لتيتو.

كانت أساليب "تيتو" في الحكم هي نفسها أساليب ستالين في القمع، وكان الدستور اليوغسلافي نسخة طبق الأصل من الدستور السوفيتي، ومن الأساليب الستالينية القمعية حملة تيتو ضد الأديان في يوغسلافيا.

أما بالنسبة للمسلمين فقد تلقوا من العسف والمعاناة في مستهل الحكم الشيوعي أضعافاً مضاعفة وذلك لسببين:

أولاً: لأن الإسلام ليس كغيره من الأديان فهو لا يعني فقط بالمعتقد الشخصي بل له أبعاد ذات علاقة بالممارسات الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما لا يمكن للشيوعيين أن يقبلوه.

ثانياً: كانت النظرة إلى الإسلام في الغرب عموماً أنه دين آسيوي متخلف ولابد من اجتثاثه من الجذور، لأنه دين معاد للتقدم، معاد للحضارة الغربية.[٤٧]

---

[٤٧] إنها نفس الفكرة التي يروج لها اليوم صامويل هنتجتون في كتابه "صراع الحضارات.."

كانت أفدح الكوارث التي نزلت بالمسلمين هي التي وقعت عندما اقتحمت الوحدات الشيوعية المسلحة القرى فجمعت كل من توسمت فيه أن يصبح من المنافسين في المستقبل، من أصحاب المكانة الاجتماعية العالية ومن المثقفين الذين عرفوا بأنهم أصحاب عقائد إيمانية، كل هؤلاء قضى عليهم بالموت دون أي محاكمات أو تحقيقات.(٤٨)

كان دستور يوغسلافيا سنة ١٩٤٦ يقرر المواد المعتادة ذات البريق التي تقول إن يوغسلافيا سوف تحافظ على حرية العقيدة وفصل الكنيسة عن الدولة. ولكن الأحداث كانت تقول شيئاً آخر.

فقد ألغيت المحاكم الشرعية للمسلمين سنة ١٩٤٦، وصدر قانون يحرم على النساء ارتداء الحجاب، وفي نفس العام أغلق آخر مكتب لتعليم مبادئ القرآن الكريم، وأصبح تعليم الأطفال القرآن جريمة يعاقب عليها القانون. وفي سنة ١٩٥٢م أغلقت في البوسنة جميع التكايا وأصبحت فرق الصوفية محظورة.

وطبقاً لبعض التقارير: كانت السلطات الشيوعية تجبر المسلمين في القوات المسلحة أو في معسكرات العمل على أكل لحم الخنزير، وتم تحذير المسلمين من إجراء عملية الطهارة لأبنائهم.

وأغلقت كل الجمعيات التعليمية والثقافية الإسلامية، ولم يبق سوي جمعية واحدة رسمية محاصرة بالرقابة والقيود. كذلك أغلقت المطبعة الإسلامية في سراييفو وتم حظر إصدار أي كتاب دراسي إسلامي في يوغسلافيا.

بعض هذه الإجراءات قوبلت بمقاومة من المسلمين، فقد تسربت بعض الكتب الدراسية إلى أيدي الأطفال وكان البعض الآخر يتعلم سراً في المساجد.

أما "جمعية الشبان المسلمين" فقد قاومت الحملة ضد الإسلام بقوة حتى أودع معظم أعضائها في السجون خلال سنتي ١٩٤٩ و ١٩٥٠، وكان من بينهم "على عزت بيجوفيتش" الرئيس الحالي لجمهورية البوسنة، والذين سجنوا كانوا أفضل حالاً من الذين قتلوا من قيادات هذه الجمعية المجاهدة.

كانت الخسائر المادية للحرب فادحة أيضاً: فقد دمرت الحرب ٧٥٦ مسجداً، بعضها أعاد السكان بناءها، وبعض المساجد التي لم تدمر تدميراً كاملاً قام الشيوعيون بتحويلها إلى متاحف أو مخازن أو "إسطبلات" للحيوان.

---

(٤٨) اقتباس نويل مالكوم من كتاب "هـ. بولتون"، أنظر مالكوم المصدر السابق، ص ١٩٣. Pulton, H. The Balkans: Minorities and States in Conflict. London, 1991. P. 43.

أما الهيئة المختصة بـإدارة الأوقـاف الإسـلامية فقـد وضعتـها الدولـة تحـت الحراسـة، واستولت على مبنى الإدارة في "سراييفو" وفي غيرها من البلاد كما استولت على ممتلكاتـها التي تفوق الحصر.

حتى مقابر المسلمين لم تسلم من الاعتداء فقد هدمت مقابر المسلمين وحولها الشـيوعيون إلى منتزهات أو مبان سكنية أو مكاتب إدارية.

وكانت آخر ضربة للأوقاف بعد الاستيلاء على الأراضي الزراعيـة الموقوفـة هـي تـأميم المساكن المؤجرة التي كانت تابعة للأوقاف وذلك في سنة ١٩٥٨.

وهكذا تلاشت آثار أعظم مؤسسة خيرية ظلت تعمل في البوسنة ما يقرب مـن خمسـمائة عام.

تحسنت الصورة قليلاً في البوسنة كمحاولة لتلميع صورة "تيتو" في البلاد المسـلمة بعـد انضمامه إلى سياسة عدم الانحياز، وبدأ "تيتو" يقدم إلـى زواره مـن رؤسـاء الـدول المسـلمة رئيس علماء المسلمين. واكتسب كثير من غلاة الشيوعيين الذين كانوا يحملون أسـماء مسـلمة مثل: أحمد وعلي ومصطفى وظائف في وزارة الخارجية كسفراء إلى البـلاد المسـلمة بصـرف النظر عن أنهم انسلخوا عن دينهم منذ زمن بعيد.

مشكلة الهوية:

ظهرت في يوغسلافيا الشيوعية مشكلة عجيبة وحاول الحزب الشيوعي علاجها في أول الأمر باستخفاف شديد، تلك هي مشكلة هوية المسلمين ووضعهم بين الشعوب الأخرى التـي تضمها يوغسلافيا. نشأت هذه المشكلة عندما طرح سؤال بسيط في ظاهره فإذا الإجابة عليـه تكشف عن حيرة وارتباك. كان السؤال هو: ماذا يعني أن يوصف شخص بأنه مسلم؟

- هل يعني انتماء هذا الشخص لدين معين؟
- أو انتماؤه لمجموعة عرقية معينة؟
- أو انتماؤه لهوية قومية معينة؟

أما الباعث وراء هذا السؤال فقد كان محاولة لتحديد الهوية القوميـة لمسـلمي البوسـنة، وبالتالي تحديد ما إذا كان المسلمون يشكلون شعباً متميزاً مثل الصـرب والكـروات فيمنحـون وضع الشعب وحقوقه في دستور الاتحاد أم أنهم ليسوا شـعباً؟ وانتـهى الحـوار فـي المؤتمـر الشيوعي الأول بيوغسلافيا إلى أن المسلمين ليسوا شعباً وأن مشكلتهم سوف تذوب وتتلاشى عن طريق استيعابهم بين الصرب والكروات. ومن ثم طلـب المؤتمـر مـن جميـع المسـلمين أن يتوحدوا إما مع الصرب وإما مع الكروات. وبناء على ذلك فرض على المسـلمين فـي إحصـاء

البوسنة سنة ١٩٤٨م أن يحددوا هويتهم في ثلاث فئات فقط: إما مسلم صربي أو مسلم كرواتي أو غير محدد.

لقد عرفنا من قبل أن الهوية الصربية والكرواتية يمتزج فيها الدين كعنصر أساسي في تحديد الهوية، فإذا قلت صربي فكأنك تعني أرثوذكس، وإذا قلت كرواتي فكأنك تعني كاثوليكي سواء بسواء. وبتطبيق هذه القسمة على المسلمين ننتهي إلى النتيجة الحتمية وهي الإيحاء بأن هؤلاء المسلمين إنما هم سلالة أجداد أرثوذكس أو أجداد كاثوليك.

لم ينجح هذا الحل الشيوعي الطوباوي المتعسف في تذويب الهوية البوسنوية للمسلمين، لأنه حل متناقض مع الواقع متناقض مع الحقيقة الموضوعية والحقيقة التاريخية التي يزعم الشيوعيون أنهم يحترمونها ويلتزمون بها. ويقول المنطق الصحيح أن السؤال الذي طرح أصلاً كان سؤالاً خاطئاً من أساسه. لأن الهوية الحقيقية لمسلمي البوسنة أنهم الشعب "البشناقي" أي البوسنوي كما اتضح لنا في دراستنا السالفة، وأن صرب البوسنة وكروات البوسنة كانوا هم الإضافات اللاحقة. الواردة من خارج البوسنة وأن هذا الإضافات قد تضخمت أو تراكمت بفعل عوامل وسياسات مفروضة من قوى الاحتلال الخارجي. ومع ذلك فلا أحد اليوم ينكر أنهم اكتسبوا الآن الجنسية البوسنوية. ولكن لا يجب أن يكون تسليمنا بهذا على حساب حقيقة أخرى أكثر أصالة وأقوى سنداً وأرسخ تاريخاً، وأعني بها حقيقة شعب البوسنة المسلم.

كانت المحاولات دائبة للاعتراف بالهوية القومية لشعب البوسنة المسلم ليكون في ذلك متساوياً مع الشعب الصربي والشعب الكرواتي، وبالفعل تأكدت شخصية جمهورية البوسنة كياناً مستقلاً في أوائل الستينات لا بجهود رجال الدين بل بجهود الشيوعيين والعلمانيين، وظهرت لأول مرة في بيانات إحصاء السكان لسنة ١٩٦١ فئة (مسلم). ثم جاء دستور يوغسلافيا سنة ١٩٦٣ معترفاً بالمسلمين كشعب إلى جانب شعب الصرب وشعب الكروات، بمعنى أن المسلمين يمثلون قومية لا ديناً. هذا الإطار العلماني لمصطلح "مسلم"- كان المقصود به أن يتجه التطور في البوسنة إلى تفريغ إسلام البوسنة من الدين بالتأكيد على الصيغة القومية للمصطلح، بمعنى أن تحل "قومية إسلامية" محل "الدين الإسلامي".

ولكن إلى جانب هذا الاتجاه الذي صنعه الحزب الشيوعي وباركته الدولة ظهر اتجاه آخر يؤكد العقيدة الإسلامية في الهوية البوسنوية، حمل هذا الاتجاه فرد واحد كان قد بدأ سلسلة من المقالات في مجلة مغمورة في يوغسلافيا لم تنتبه إليها السلطات في حينها، ذلك هو "علي عزت بيجوفيتش" وعلى الرغم من أن كتابات هذا الرجل لم تكن تتصل بالبوسنة ولا بيوغسلافيا وإنما تركزت على الأوضاع الإسلامية العامة في العالم، فقد أكد

علي عزت في كتاباته أن القومية قوة مفرقة دافعة للنزاع والتصارع، وأن الشيوعية نظام غير ملائم وغير متسق مع الطبيعة الإنسانية الحرة.

هذا الاتجاه المضاد للشيوعية كان بمثابة السهم الذي أحدث مزقاً في خيمة النظام الشيوعي، ثم أخذ هذا المزق يتسع شيئاً فشيئاً من خلال انفتاح مسلمي البوسنة على العالم المسلم، وخروج أعداد منهم للتعلم في معاهد العلم الديني في أزهر مصر، وغيرها من البلاد المسلمة، وذلك نتيجة لانفتاح يوغسلافيا نفسها على العالم المسلم، حيث أقيمت في آخر المطاف بجامعة سراييفو كلية الدراسات الإسلامية سنة ١٩٧٧ بفضل المساعدات المالية للعاهل السعودي الملك فيصل بن عبد العزيز.

هبط النمو الاقتصادي للبوسنة إلى القاع مقارنة بالجارتين صربيا وكرواتيا، حدث ذلك نتيجة لإهمال الفئة الحاكمة المسيطرة على يوغسلافيا والتي لم تكن تولي شعب البوسنة عناية لأنه لم يشكل في نظرها قومية واضحة المعالم، وترتب على سوء الأوضاع الاقتصادية ارتفاع نسبة وفيات الأطفال في البوسنة لتسجل أعلى نسبة في يوغسلافيا بعد كوسوفا (وهي مسلمة أيضاً).

ولكن كان من حظ البوسنة بعد القطيعة السوفيتية ليوغسلافيا وخوف "تيتو" من أي هجوم مفاجئ على بلاده من قبل الاتحاد السوفيتي- أن يتجه إلى جبال البوسنة الحصينة لإنشاء صناعاته الحربية والاستراتيجية، ومن ثم ازدهرت الصناعة هناك.

فإذا أضفنا إلى ذلك انبعاث الكيان القومي للمسلمين كشعب بمقتضى دستور سنة ١٩٦٣م وتأكيد هذا الكيان مرة أخرى في دستور ١٩٧٤م لوجدنا تضافر العوامل التي سارعت بتطوير البوسنة، حتى أصبحت عاصمتها "سراييفو" تبدو كأنها مشروع ضخم في الإعمار والتجديد، ثم تتويجه ببناء "استاد" سراييفو الذي شهد الدورة الشتوية للألعاب الأولمبية سنة ١٩٨٤م.

انبعاث القوميات المتطرفة:

يبدو أن الدرس التاريخي الذي ينساه الناس هو أن الفدرالية إذا كانت تتألف من قوميات شتى لا يمكن أن تنجح في مناخ دكتاتوري مستبد إلا نجاحاً ظاهرياً مؤقتاً، وأنها لا تزدهر إلا في نظام سياسي ديمقراطي على وجه الحقيقة وهذا لم يكن متوفراً في يوغسلافيا الشيوعية.

وقد زاد الأمور سوءاً عاملان :

١- اضطراب الأحوال الاقتصادية في يوغسلافيا نتيجة لتكرار نفس المشروعات في كل جمهورية دون رعاية لضرورات التكامل فيما بين هذه المشروعات.

٢- أن هذه المشروعات كلها قد أقيمت بأموال مقترضة من الخارج في سباق التنافس بين الجمهوريات.

من هنا بدأت تطنو على السطح روح التمرد والتذمر فيما بين أواخر الستينات إلى أواخر الثمانينات؛ تتصاعد في كرواتيا شكوى من الاتجاه إلى تطعيم اللغة اليوغسلافية (الصربو كرواتية) بكلمات صربية للهيمنة على اللغة، وشكوى أخرى من احتكار إنشاء بنوك في بلجراد (الصربية) تصب فيها عائدات السياحة التي تجمع من "دلماشيا" الكرواتية، إلى جانب العديد من المشاكل السكانية والاقتصادية الأخرى. وكثر في كتابات الكروات التأكيد على حقوق كرواتيا المهدرة، مع حملة تطالب بمزيد من التحرر في نظام يوغسلافيا السياسي.

أما بالنسبة للصرب فلم يكن لديهم أي مبررات للسخط على الأمور في يوغسلافيا على الأقل خلال العشرين سنة الأولى من الحكم الشيوعي: فقد عادت يوغسلافيا تحكم من بلجراد مرة أخرى، وكان الصرب يسيطرون على الحزب الشيوعي الحاكم وعلى القوات المسلحة، ولكن المطامع الصربية لا تقف عند حد فقد شعروا أنهم لم يحصلوا على جائزتهم بعد انتهاء الحرب حيث انفصلت عنهم مقدونيا لتصبح جمهورية وحدها في إطار الاتحاد اليوغسلافي، ومقدونيا وإن لم تكن أرضاً صربية في الأصل إلا أنها وقعت تحت الاحتلال الصربي بالقوة سنة ١٩١٢-١٩١٣م، وضمت إلى مملكة صربيا آنذاك، كذلك كان مصير "فويفدينا" التي تحتوي على أقل من ٥٠٪ من الصرب ولكنها كانت جزءاً من مملكة صربيا سنة ١٩١٨، فلما جاءت يوغسلافيا الشيوعية جعلت "فويفدينا" كياناً سياسياً يتمتع بحكم الذاتي في إطار الاتحاد اليوغسلافي وكذلك كان الأمر بالنسبة لكوسوفا.

ولكن بعض القوميين الصرب المتطرفين كانوا ينظرون إلى هذه الأمور باعتبارها إجراءات معادية للصرب، رغم أن يوغسلافيا نفسها أصبحت صربية.

ورغم أن "تيتو" لم يغير الحدود بين الجمهوريات كما كانت على عهد الدولة العثمانية والإمبراطورية المجرية النمساوية، إلا أن الظروف أصبحت مهيأة لبروز نظرية المؤامرة في العقلية الصربية، هذه النظرية كانت تذهب إلى أن "تيتو" (وهو نصف كرواتي ونصف سلوفيني) قد تآمر ضد مصالح صربيا التاريخية، نمت هذه المشاعر بقوة خلال الستينات وأوائل السبعينات، الفترة التي جرت فيها تغييرات في الأوضاع الدستورية لكل من

"فويفدينا" وكوسوفا وأصبحا يتمتعان بحكم ذاتي أكثر من ذي قبل، ثم جاء دستور ١٩٧٤م ليمنحهما صلاحيات مماثلة لصلاحيات الجمهوريات اليوغسلافية الأخرى بما في ذلك التمثيل في المؤسسات الفدرالية.

كان "ألكسندر رانكوفيتش" مدير أمن "تيتو" يحكم كوسوفا بقبضة حديدية مستعينا بمجموعة كبيرة من البوليس السري الصربي حتى أقاله تيتو سنة ١٩٦٦م، فتغير الوضع هناك تغيراً دراميا، حيث تمرد السكان المسلمون ضد الموظفين الصرب وامتدت الاضطرابات في أنحاء كوسوفا سنة ١٩٦٨ موجهة ضد الاستبداد الصربي، وشعر الصرب أمام الأمواج الهائلة من المسلمين الثائرين أنهم أقلية صغيرة في كوسوفا فهاجر الآلاف منهم إلى صربيا. ومع استمرار التعنت الصربي والثورة من جانب السكان وصلت الأوضاع في كوسوفا في أوائل سنة ١٩٨٠ إلى حالة تشبه الكارثة، وأصبح اللجوء إلى الاحتلال العسكري هو الشغل الشاغل للقومية الصربية، وهكذا بدأت النعرات القومية القديمة تنبعث من جديد، وتعالت في الخطاب الصربي نغمة توحيد كل الصرب في دولة واحدة، واتخذت قضية منح المسلمين وضعاً قومياً في يوغسلافيا- بدلاً من أن تكون حلاً منطقياً للغالبية العظمى من سكان البوسنة- أبعاداً درامية في الكتابات الصربية المحمومة، وتحول العداء للإسلام والمسلمين ليصبح جزءاً لا يتجزأ من الحملة القومية الصربية الجديدة.

كان العداء للإسلام والسلمين عنصراً من مكونات الثقافة الصربية على مر العصور ولكنه ظل نائماً حتى جاء "ميلوسفيتش" وأعوانه من غلاة القوميين الصرب فأيقظوا الفتنة النائمة.

في رواية بعنوان "Noz" أي السكين نشرها الكاتب الصربي "فوك دراسكوفيتش" في أوائل الثمانينات نزعة عنصرية عدوانية تطفح بالعداء السافر للإسلام والمسلمين. ووجدت الكنيسة الأرثوذكسية فرصتها لإحياء المشاعر الدينية، فأخذت تبث المشاعر التي خمدت في الثقافة الأدبية والسياسية بدعاوى وادعاءات تاريخية عريضة حول كوسوفا التي تضم عظام الشهداء، والتي بها أقدم الأديرة الأرثوذكسية وأقدم الكنائس.

ومع إحياء الأرثوذكسية جاء الحديث عن "الشتنك" وكان الحديث عنها محرماً أثناء حكم "تيتو" باعتبارهم فاشيين، فأصبح القوميون الصرب يتحدثون عنهم باعتبارهم أبطالاً. وفي هذا السياق نشر "دوبريتشا كوسيتش" في سنة ١٩٨٥ رواية فيها تمجيد وتعاطف مع الأيديولوجي الشتني "دراجيسا فاسيتش"، وفي نفس السنة أقيم احتفال كبير في أكاديمية العلوم الصربية بمناسبة صدور كتاب عن "الشتنك" ألفه المؤرخ "فيسيلين ديوريتش". وكانت هذه المناسبة نقطة تحول هامة وإشارة إلى أنه قد آن الأوان لأن يحتضن المثقفون في بلجراد القومية الصربية المنبعثة بدلاً من الفكر الماركسي الذي التزموا بها زمناً طويلاً، وكما تحول

قادة الحزب الشيوعي أمثال "ميلوسفيتش" من الماركسية والولاء للحزب الشيوعي إلى الولاء للقومية الصربية بين عشية وضحاها، كذلك فعل المثقفون الماركسيون الذين ساروا خلف قادتهم السياسيين حيثما توجهوا حتى أصبحوا من غلاة الدعاة إلى القومية الصربية.

ففي يناير سنة ١٩٨٦ وقع مائة من الأكاديميين والكتاب البارزين في بلجراد شكوى أشاروا فيها بعصبية وحدة إلى (العدوان الألباني) والمجازر التي يرتكبها الألبان ضد الصرب في كوسوفا وهكذا انبعثت المرارات الصربية القديمة دفعة واحدة أمام جماهير الشعب الصربي وقد أصبح أسيراً للحملات الإعلامية المنظمة التي أطلقها "ميلوسفيتش" ورجاله.

يصادف المرء في يوغسلافيا مؤسسات ذات أسماء كبيرة مثل "الأكاديمية الصربية للعلوم" فيظن أنها مؤسسة معنية بالدراسات والأبحاث ولها مناهج في البحث، ولكنه يصدم عندما يكتشف حقيقة اهتمامات هذه المؤسسة ونوعية الأفكار والمعلومات التي تصدر منها. ففي أواخر عامد ١٩٨٦ صدرت مذكرة من هذه الأكاديمية قام بإعدادها لجنة من بين أعضائها الكاتب العنصري "كوستيش"، امتزجت فيها الأحزان الصربية حول كوسوفا باتهامات صريحة لسياسات "تيتو" تزعم أن هذه السياسات كانت تهدف إلى إضعاف صربيا، وادعت أن "القوميات كانت تقام من أعلى"، ولم يكن في هذا إشارة إلى القومية الصربية، وإنما إلى القوميات الأخرى التي تشكل الاتحاد اليوغسلافي: الكرواتية، والمقدونية والسلوفينية، وقومية مسلمي البوسنة والجبل الأسود. بمعنى أن هذه كلها قوميات مزيفة ولا يصح إلا القومية الصربية.

وادعت المذكرة أن الشعب الصربي في أنحاء يوغسلافيا شعب واحد وكيان واحد فائق ومتميز، وله حقوق تاريخية تتجاوز الحدود السياسية والجغرافية، فقضية وحدة الشعب الصربي وتكامله وشرفه وثقافته في يوغسلافيا كلها قضية تفرض نفسها فوق كل الاعتبارات لأنها تتعلق بالحفاظ على هذا الشعب وبقائه ونموه". (٤٩)

وسوف نرى أن ما قامت به صربيا لتوحيد الشعب الصربي في يوغسلافيا وفقاً لمذكرة "الأكاديمية الصربية للعلوم" هو الذي أدى في النهاية إلى القضاء على يوغسلافيا وإلى تدمير جمهورية البوسنة.

---

(٤٩) أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص٢٠٧.

التحول من الشيوعية إلى القومية :

هذا المناخ الذي ساد في صربيا خلال السبعينات والثمانينات رفع درجة الحساسية عند مسلمي البوسنة. وكانت الحكومة الشيوعية في البوسنة تعمل من ناحيتها وفق سياساتها التقليدية التي تتركز حول القضاء على أي انبعاث إسلامي جديد في البوسنة، وأدى هذا إلى زيادة النقد العلني الصادر من علماء المسلمين للنظام الشيوعي، وكان رد الفعل من جانب السلطات البوسنوية اتخاذ مزيد من الإجراءات القمعية ضد أي نشاط فكري إسلامي . ولتبرير هذه الإجراءات بدأ الشيوعيون حملة دعائية تدور حول محورين: المحور الأول تشويه الرموز الدينية من قادة الاتجاه الإسلامي والمثقفين الإسلاميين بنشر أخبار كاذبة عنهم، أما المحور الثاني فكان يتجه إلى الطعن في العقيدة الإسلامية وتشويه مقاصدها.

ففي سنة ١٩٧٩ دأب "درويش سوسيتش" على نشر مقتبسات من كتاب كان يؤلفه في صحيفة "أسلوبودينيا" التي تصدر في سراييفو زعم فيه أن مجموعة من رجال الدين المسلمين كانت تتعاون مع "الأستاشا" الكرواتية ومع النازيين الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، وعندما تصدت لهذه الحملة صحيفة "بريبورود" لسان حال الجمعية الإسلامية هب لنجدة "سوسيتش" "فؤاد محيتش" الأستاذ بجامعة سراييفو، وجاء معه يعززه أبرز السياسيين المسلمين الشيوعيين "حمدي بوجيراتش" فأدلى بسلسلة من الأحاديث العامة شن فيها هجوماً حاداً على ما أسماه "الجامعة الإسلامية".

ولعله كان يقصد "الأمة الإسلامية" باعتبارها الموضوع المحوري في كتابات "علي عزت بيجوفيتش" كما ضمنها كتابه "الإعلان الإسلامي"، ولم يكن هذا الكتاب حدثاً جديداً، إنما هو مجموعة من المقالات نشرت في مجلة "تاكفين" خلال أواخر الستينات وأوائل السبعينات، جمعها ابنه "بكر" ونشرها تحت عنوان جامع هو "الإعلان الإسلامي" سنة ١٩٨٠. فجاء الشيوعيون سنة ١٩٨٣ أي بعد مرور عشرين عاماً على نشر هذه المقالات وقدموا علي عزت مع اثني عشر مفكراً إسلامياً آخر إلى المحاكمة بتهم جري تلفيقها بمعرفة وزارة الداخلية، فحكم عليهم بالسجن مدة بلغت أربعة عشر عاماً، ولكنهم أمضوا ف السجون ستة أعوام فقط بعد أن تدخلت جمعية حقوق الإنسان اليوغسلافية لإعادة

المحاكمة، حيث وضعت أمام المحكمة وثائق وأدلة على تلفيق السلطات للتهم وعلى تزوير شهادة الشهود.[٥٠]

المهم أن "حمدي بوجيراتش" كان سعيداً بالنتائج التي ترتبت على محاكمة قادة الفكر الإسلامي في البوسنة وتغييبهم في السجون، مما عزز موقفه السياسي في يوغسلافيا حيث كان يشغل منصب نائب رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اليوغسلافي وكان يطمح في أن يعتلي منصب رئيس جمهورية يوغسلافيا، ولكن خاب أمله، فقد كان هناك رجل آخر في صربيا يرنو إلى هذا المنصب ويخطط له بإحكام شديد، ذلك هو "سلوبودان ميلوسفيتش".

وجد "سلوبودان ميلوسفيتش" فرصته السانحة في تحطيم قوة الشيوعيين المسلمين في يوغسلافيا بإثارة قضية شركة "أجرو كوميرش" التي كان يمتلكها "فكرت عبديتش" عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في البوسنة وكانت هذه الشركة تعمل في تجارة الأغذية والحاصلات الزراعية لا في يوغسلافيا وحدها بل في أوروبا الشرقية كلها، وكانت تعتبر واحدة من أكبر ثلاثين شركة في يوغسلافيا تضم ثلاثة عشر ألف موظف. اتهمت هذه الشركة بالتلاعب في ملايين الدولارات وكان لها "قائمة إكراميات" تضم عدداً كبيراً من الأسماء البارزة في الحزب الشيوعي من بينهم "هاكيا" ابن "حمدي بوجيراتش" الذي كان يتناول مرتباً ثابتاً من الشركة على استشارات وهمية. وكان من نتيجة الحملة الدعائية التي خطط لها "ميلوسفيتش" في وسائل الإعلام الصربية ضد شركة "أجروكوميرش" أن استقال فكرت عبديتش من لجنة الحزب الشيوعي في البوسنة، والأهم من ذلك استقالة "حمدي بوجيراتش" من الحزب الشيوعي المركزي في بلجراد، وبذلك ضرب "ميلوسفيتش" عصفورين بحجر واحد: فقد أزاح من طريقة شخصية منافسة له على المنصب الذي يتطلع إليه في قمة السلطة اليوغسلافية، وكان "بوجيراتش" يشغل أيضاً مركزاً خطيراً آخر باعتباره رئيس اللجنة الدستورية التي كلفت بإجراء تعديلات في دستور يوغسلافيا، وخشي "ميلوسفيتش" أن يقف "بوجيراتش" عائقاً في طريق التعديلات الدستورية التي كان يخطط لها بحيث تؤدي إلى تحقيق مشروعه في إقامة "صربيا الكبرى" تحت اسم "الاتحاد اليوغسلافي الجديد".

---

[٥٠] تفاصيل هذه النقطة منشورة في كتاب محمد الأرناؤوط في كتابه "الإسلام في يوغسلافيا"، وملخصة في كتاب الإعلان الإسلامي (تحقيق وترجمة) محمد يوسف عدس. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨.

أدت هذه الضربة القاصمة إلى انـهيار اقتصاد البوسنة خصوصاً في المنطقة الشمالية الغربية، وامتد الانهيار إلى الصناعات الكبرى في البوسنة فأغلقت أبوابها، مثل مصنع الألومنيوم الذي كان يضم أربعة آلاف عامل ويعتبر أكبر مصنع ألومنيوم في أوروبا كلها.

في هذا الجو من الاضطرابات السياسية والصراع على السلطة كانت ديون يوغسلافيا تتفاقم، وبدأ الاقتصاد اليوغسلافي الذي أقامه "تيتو" على القروض من الدول الغربية ينهار.

أظهرت قضية "أجروكوميرش" فساد الطبقة الشيوعية الحاكمة التي أخذت- منذ استيلائها على السلطة- تنمو وتتضخم مصالحها كل يوم، وتتحول إلى أسر منتفعة بالحكم والثراء. كان أعضاء هذه الطبقة من الشخصيات التي ساعدت "تيتو" في الوصول إلى السلطة ورأت من حقها أن تشارك في التمتع بالسلطة وما توفره من امتيازات. ولم يقتصر الأمر على حدود هذه الطبقة المحظوظة بل تعداها إلى شبكات أخرى منتفعة تشارك في السلطة والنفوذ. ولقد وجد الذين التحقوا بالحزب الشيوعي فيما بعد أن من مصلحتهم إزاحة هذه الطبقة المسيطرة لكي يطفوا هم على القمة ويصلوا إلى مراكز النفوذ. في غضون هذه الفترة التي تلت وفاة "تيتو" كان حماس الشباب للحزب الشيوعي والفكر الماركسي قد بدأ يفتر وبدا في سلوكهم علامات الكراهية والتمرد على الطبقة الحاكمة وعلى الأوضاع الجارية، وتجلى ذلك في إضرابات العمال ضد الحكومة في بلجراد وغيرها من المدن.

كان هذا الضغط الشعبي المتنامي ينظمه ويدفعه قائد صربي جديد هو "سلوبودان ميلوسفيتش"، كان أولى خطواته أن يضع مؤيديه مكان أولئك القادة الذين أخذوا يتساقطون واحداً بعد الآخر؛ فعل هذا في "الجبل الأسود" وفي كوسوفا و "فويفدينيا". وفي مارس ١٩٨٩ جعل الجمعية الوطنية الصربية تصدر قراراً بإلغاء الحكم الذاتي لكل من كوسوفا "وفويفدينيا" فأثارت هذه الإجراءات ثورة عارمة وموجة من المظاهرات في كوسوفا حيث لجأت القوات إلى تمزيقها وقمعها بالقوة.

ومن خلال هذه الاضطرابات والفتن التي أشعلها "ميلوسفتش" أخذ نجمه يصعد يوما بعد يوم. كان ظهور هذه الشخصية الجديدة على مسرح السياسية اليوغسلافية أكبر العوامل التي تحولت بسببها شعوب يوغسلافيا من السلم إلى الحرب ومن الولاء للأيديولوجية الشيوعية إلى التعصب للقوميات المتطرفة. وقبل أن ننظر في طبيعة هذه الشخصية وحقيقة أثرها في مجرى الأحداث التي أدت إلى الانـهيار السريع للدولة الاتحادية التي أقامها تيتو في يوغسلافيا نحاول أن نلخص أبرز العوامل التي أسرعت بتحول السلطة إلى قبضة الغلاة من القوميين الصرب:

أولاً- الانهيار الاقتصادي في يوغسلافيا وما أشاعه من تذمر.

ثانياً- الإضراب العام الذي قام به المسلمون في كوسوفا احتجاجاً على التغييرات الدستورية التي أصابت وضعهم في الصميم.

ثالثاً- الإحساس بالخطر على القومية الصربية نتيجة التركيز في الكتابة والإعلام على هذه النقطة التاريخية الحساسة.

رابعاً- الفوضى الضاربة التي جعلت الناس يبحثون عن قيادة قوية حازمة لإخراج الناس من الأزمة.

خامساً- ظهور سياسيين طموحين تمرسوا باللعبة السياسية في الأحزاب الشيوعية.

سادساً- اجتماع السلطة في يد "الزعيم الأوحد" سلوبودان ميلوسفيتش.

سابعاً- توحد القوى الصربية المبرمجة إعلامياً بحيث أصبحت مهيأة لاستخدامها في السيطرة على يوغسلافيا أو في تمزقها.

وقد استطاع "ميلوسفيتش" أن يستخدمها بالفعل في تحقيق الغرضين معاً.

سلوبودان ميلوسفيتش:

في مدينة صغيرة مغمورة تسمى "بوجاريفاك" ولد "سلوبودان ميلوسفيتش" في سنة ١٩٤١، ينتمي أبواه إلى جمهورية الجبل الأسود (مونتنجرو)، فهل كان من الصدفة أن ينتمي إلى نفس الموطن الأصلي تلميذه وتابعه ومنفذ خططه في البوسنة "رادوفان كراجيتش"؟.

خلفية "ميلوسفيتش" الأسرية مليئة بالجوانب السوداء فقد فشل أبوه في الحصول على وظيفة قسيس بالكنيسة الأرثوذكسية، وثارت إشاعات مختلفة حول أسباب فشله. وتضخمت عنده هذه الإشاعات حتى افترست حياته العقلية فانطلق يهذي متخبطاً في شعاب الجبال يتحدث إلى الصخور، وفي يوم من الأيام بعد مرور عشرة أعوام على حادثة فشله أنهى حياته بطلقة مسدس. وتمر الأيام على "ميلوسفيتش" عندما وصلته رسالة وهو في بلجراد تخبره بأن أمه قد قتلت نفسها شنقاً في غرفة الضيوف بمنزل الأسرة، وكان له عم حميم يعمل جنرالاً في الجيش قام هو أيضاً بالانتحار برصاصة أطلقها على رأسه.

هذه الأحداث التي أحاطت بأسرته ضيقت نطاق أصدقائه ذلك إذا كان له أصدقاء على الإطلاق، فالذين عرفوه أثناء الدراسة بالجامعة وصفوه بأنه كان يميل إلى العزلة عن الناس،

ولا يعرف عنه أنه مارس أي نشاط رياضي. ولكن كانت له صديقة حميمة تنتمي إلى أسرة شيوعية بارزة في يوغسلافيا، هي "ميريانا ماركوفيتش". تزوجها "ميلوسفيتش" وكان لقاء متوافقاً، فميريانا هي الأخرى تنتمي إلى أسرة ذات تاريخ مأساوي أيضاً. كانت أمها شيوعية متحمسة عملت في "ميلشيات" تيتو أثناء الحرب العالمية الثانية، قبض عليها عملاء "النازي" الألمان أثناء الاحتلال الألماني وتلقت في الاعتقال تعذيباً شديداً أدى بها إلى الوفاة.[٥١]

الطريقة التي ارتقى بها ميلوسفيتش حتى وصل إلى قمة السلطة تبدو في الظاهر سهلة ميسرة، ففي سنة ١٩٥٩ إلتحق بالحزب الشيوعي الذي كان يسمى "رابطة الشيوعيين"، وكان عمره في ذلك الوقت ثمانية عشر عاماً، وأثناء دراسته الجامعية أشرف على نشاط الحزب في كلية القانون حتى تخرج سنة ١٩٦٤.

عمل بعد تخرجه في قسم المعلومات بمجلس مدينة بلجراد متخصصاً في الشئون الاقتصادية، ثم عين مديراً لشركة "تينوجاز" سنة ١٩٧٠، وشغل بعد ذلك وظيفة مدير بنك بلجراد ثم انتقل إلى فرع البنك بمدينة نيويورك، فكان لهذه النقلة الكبيرة أثر بارز في مسيرته السياسية، حيث تمكن من إجادة اللغة الإنجليزية واكتسب خلال عمله خبرات هامة في التعامل مع الأمريكيين ومع أبناء أوروبا الغربية، مما أضاف إلى رصيده من الدهاء والمكر المعهودين عنده.

كان ميلوسفيتش يعرف نقاط القوة والضعف في منافسيه أكثر مما يعرفون هم عنه مما جعله يتفوق عليهم في الصراع السياسي على السلطة، ففي سنة ١٩٨٢ تمكن من التفرغ للعمل السياسي في "رابطة الشيوعيين" حتى أصبح قائداً لفرع الرابطة في بلجراد سنة ١٩٨٤، ثم قائداً لفرعها في صربيا كلها سنة ١٩٨٦، وبعد ذلك بعام واحد أصبح المرشح التالي لرئاسة جمهورية صربيا مكتسباً- إلى جانب ذلك- مركز الرجل القوي في يوغسلافيا بلا منازع.

حتى ذلك الوقت كان الرفيق "ميلوسفيتش" حريصاً على أن يظهر بقوة تمسكه بالمبادئ الشيوعية وبالحزب الشيوعي وبولاء التابع الأمين لنصائح سيده "إيفان ستامبوليتس" رئيس جمهورية صربيا.

كانت أول لمحة عبقرية لميلوسفيتش أنه أدرك أسرع من نظرائه من القادة الشيوعيين أن الشيوعية- وقد انهار الاتحاد السوفيتي- أوشك نجمها على الأفول، وأن الفرق بين

---

[٥١] قصة حياة "سلوبودان ميلوسفيتش" مستقاة من كتاب "بيترماس" أنظر: Mass, Peter. Love Thy Neighbor: A Story of War. London: Macmillan, 1996.

يوغسلافيا وغيرها من هذه الدول أنه كانت أكثر يساراً بانفتاحها على المساعدات الغربية، وكانت أكثر تحرراً بابتعادها عن مركز العالم الشيوعي في موسكو، ومن ثم استطاع النظام اليوغسلافي أن يصمد لفترة أطول. ولكن ميلوسفيتش كان على يقين بأن هذا النظام مصيره إلى الانهيار- عاجلاً أو آجلاً. ثم كانت لمحته العبقرية الثانية أنه كان على يقين بأن الطريق الوحيد لنجاته بنفسه من الانهيار الشيوعي والبقاء في السلطة أن يلعب بورقة القومية الصربية بل أن يرتفع إلى ذروتها كقائد مخلص لصرب داعياً إلى نسيان يوغسلافيا والتركيز على قتال الأعداء الجدد: المسلمين والكروات.

ولم يكن على ميلوسفيتيش أن يفكر في خطة عمل له كما فعل هتلر في ألمانيا، ذلك لأن "الأكاديمية الصربية للعلوم والآداب" قدمت له خطة جاهزة سنة ١٩٨٦، على شكل مذكرة مشهورة تبناها "ميلوسفيتش" باعتبارها "المنفتسو" الذي يحقق الأيديولوجية الصربية في إقامة صربيا الكبرى على حساب الشعوب المجاورة. وبدلاً من أن ينهض المثقفون الصرب بمعارضة هذا الجنون القومي فإذا بهم يزيدونه اشتعالاً.

وعندما أخفق "ميلوسفيتش" في المحافظة على جمهوريات يوغسلافيا في إطار الاتحاد اليوغسلافي الجديد الذي ابتدعه لتحقيق الهيمنة الصربية على هذه الجمهوريات لجأ إلى الحرب.

لم يعبأ "ميلوسفيتش" بالعواقب الوخيمة التي قد تؤدي إليها خططه الإجرامية، ولم يهتم أن تؤدي هذه الخطط إلى انهيار يوغسلافيا أو تدمير مدن في كرواتيا بل إلى تدمير دولة بأكملها مثل البوسنة طالما أن هذه الخطط توطد سلطته الشخصية وتحكم قبضته على صربيا، وطالما كانت تحقق حلمه في قيام دولة صربيا الكبرى. لم يكن "ميلوسفيتش" يأبه بالانتحار ولم يكن يفكر في النتائج الخطيرة لاستراتيجيته العدوانية على المدى الطويل.

ولم يفهم الناس خارج يوغسلافيا حقيقة الخطر الذي يمثله "ميلوسفيتش" فقد كان كثير من الخبراء في تاريخ البلقان وسياساته يعتقدون أنه لا مناص من تفجر العنف القومي في يوغسلافيا وأن "ميلوسفيتش" كان مجرد ممثل لهذا الانفجار وليس مهندسه وصانعه. وكانت نظريتهم بسيطة وسطحية: فالقوميات التي تتألف منها يوغسلافيا كانت تحفزها الرغبة دائماً في القضاء على بعضها بعضاً نتيجة للصراع القومي والأحقاد التاريخية المتراكمة عبر العصور، وأن موت "تيتو" قد أدى إلى انطلاق هذه الأحقاد التي كان قد وضعها من قبل في ثلاجة النظام، هنالك استطاع الناس أن يصلوا إلى تحقيق مأربهم بقتل بعضهم البعض الآخر إلى درجة الإبادة الجماعية.

في هذه النظرية كان دور "ميلوسفيتش" مجرد دور العامل المساعد في التنفيذ، فإذا هو لم ينهض بهذا الدور فقد كان شخص آخر كفيل بأن يقوم به. ومعنى هذا أن الحرب كانت قدراً لا مفر منه، وأنه أمام هذا القدر المحتوم لم يكن أمام الغرب اختيار إلا أن يقف من الحرب متفرجاً، ولما كان يدير هذه الحرب الطرف الأقوى وهو الصرب فإن الصرب هم المنتصرون لا محالة في نهاية هذه اللعبة.

لعل أحداً لم يلتفت مبكراً إلى أن هذا الاعتقاد الشائع لم يأت من فراغ، وأن "ميلوسفيتش" كان هو المهندس الحقيقي لهذه الأكذوبة الكبرى التي رحب بها الغرب، فهذه القيادات الغربية كانت بحاجة إلى من يؤكد لها هذا المعنى لأنها لم تكن تريد أن تتخل فيما كان يجري في يوغسلافيا على أي حال، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالمطامع الصربية في أرض البوسنة.

لا شك أن العبقرية الشيطانية لميلوسفيتش هي التي خلقت الصراع أولاً ثم قامت بإدارته وتوجيهه في كل مرحلة من مراحله، تأكد هذا في دوره الخبيث في التلاعب بالجماهير وتعبئتها بالضغائن والأكاذيب، وفي التلاعب بالقيادات الصربية ودفعها لتحقيق مطامعه الشخصية تحت شعارات قومية متطرفة، وفي طريقة إدارته للصراع السياسي في يوغسلافيا، وفي قدرته على تمزيق النسيج الاجتماعي المتآلف في البوسنة، وذلك باستقطاب فريق منه وجره إلى دوامة العنف القومي، وتسليط هذا العنف على الفريق الآخر الذي تعايش معه في أمن وسلام زمناً طويلاً.

هذه الأعمال المروعة تحتاج إلى جهود خارقة وعبقرية شيطانية لا تتوفر بهذا القدر إلا لشخص مثل "ميلوسفيتش".

لم يكن ما حدث في البوسنة نتيجة اضطرابات عرقية أو دينية تنشأ تلقائياً، أو نتيجة أحقاد وضغائن كما زعم البعض، إنما هي من عمل رجل يتمتع بعبقرية شريرة استطاع أن يجند له أعواناً على شاكلته ينفذون له خططه من أمثال "رادوفان كراجيتش" و "راتكو ملاديتش" و "أركان" و "شيشلي" وغيرهم.

كان الأمر يتطلب قدراً هائلاً من المهارة وقدراً مناسباً من الحظ لكي ينجح "ميلوسفيتش" في مهمته، أما مهارته فقد تبينت لنا ملامحها فيما ذكرنا، وأما الحظ فقد تمثل في قادة الدول الغربية الذين أرادوا أن يتجنبوا الانغماس في الصراع اليوغسلافي فأفسحوا الطريق لميلوسفيتش واسعاً لكي ينفذ خططه في الاستيلاء على البوسنة وإبادة شعبها.

مليوسفيتش شخصية انتهازية بطبيعتها، يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، وقد مارس أسلوبه الانتهازي في كل مسيرته السياسية من بدايتها إلى اليوم، فحتى سنة ١٩٨٦ لم يكن

أحد يسمع باسم ميلوسفيتش لا في يوغسلافيا ولا خارج يوغسلافيا، وكل مـا فـي الأمـر أنـه كان عضواً مخلصاً في الحزب الشيوعي، وفي هذه الفترة نقل عنه أنه انتقد الذين يتمحكـون بالقومية قائلاً: "إن القومية هي الورقة التي يلعب بها كـل أعـداء يوغسـلافيا الاشـتراكية". وفي غضون عام واحد بدأ يدرك أن الاشتراكية ويوغسـلافيا فـي طريقـهما إلـى الطـلاق، وأن الرهان الرابح سوف يكون على حصان القومية، هنالك تحول "ميلوسفيتش" بقدرة قادر فغـير عقيدته وتحول من رفيق اشتراكي إلى دكتاتور قومي في اللحظـة الحاسـمة الدقيقـة، حـدث هذا يوم ٢٤ إبريل سنة ١٩٨٧، لحظة ذات أبعاد غيبية.

كان "ميلوسفيتش" آنذاك لا يزال رئيساً للفـرع الصربـي لرابطـة الشـيوعيين، سـافر إلـى كوسوفا وهي من أتعس مناطق يوغسلافيا، خصوصاً بعد إلغاء الحكم الذاتي ممـا ترتـب عليـه أن أصبحت السلطة في يد صرب كوسوفا الذين يمثلون أقل من ١٠٪ من السكان، وقد دأبت هذه الأقلية على الشكوى ربما لكونهم أقلية مرعوبة من انتفاضـة إسـلامية تمزقـهم فلـم يكـن هناك أسباب حيقيقة لشكواهم، ولكن كان هناك من يخطـط لفتنـة ويـراد لـهذه الشـكوى أن يطفو صوتها على سطح الأحداث وأن يتردد صداها قوياً مؤثراً في الكتابات الصربية والإعلام الصربي، وفي هذا دعوة سافرة لإثارة الجمـاهير الصربيـة ضـد مسـلمي كوسـوفا، وقـد تكفـل التاريخ الذي جرى تزييفه دائماً بنسج الأساطير حـول قداسـة كوسـوفا ومكانتـها فـي قلـوب الشعب الصربي.

كان ميلوسفيتش قد أعد المسرح في كوسوفا لبدايـة انطلاقـه القومـي، حيـث خـرج مـن اجتماع للمجلس المحلي هنـاك ليواجـه جمـهوراً كبـيراً مـن الصـرب حشـد خصيصـاً لـهذه المناسبة في ساحة المجلس الخارجية، ورفع يده بقبضة الملاكـم فلـوح بـها إلـى الجمـاهير صائحاً: "لن يجرؤ أحد بعـد اليـوم أن يضـرب الصـرب.. لا أحـد.." وسـرت صيحتـه بيـن الجماهير الحاضرين وغير الحاضرين في أنحاء يوغسلافيا كما تسري النار في الهشيم.

أصبح "ميلوسفيتش" من تلك اللحظة حامي حمى الصرب ورافع لواء القومية الصربيـة لا ينازعه في هذا المركز منازع. وقد وصفه زملاؤه بأنه كان لا يزال يغلـي كـالموقد عندمـا عـاد إلى بلجراد، وكان أول شيء قام به متحصناً بدوامة الهوس الجماهيري التي أطلقها أن يطرد سيده وأستاذه وناصحة الرئيس "إيفان ستامبوليتش".

كانت هذه أول وثبة لميلوسفيتش لتعزيز مركزه بين الجمـاهير شـعر فيـها بقدراتـه علـى التأثير الجماهيري فامتلأ بثقة مطلقة، وشرع يستعد لوثبته الثانية علـى نفـس المسـرح الـذي ارتبط في الأذهان بقداسة أسطورية. وسـننظر فـي الفصـل التـالي إلـى تفـاصيل هـذه الوثبـة ونتتبع أبعادها التي أدت إلى تمزيق يوغسلافيا وانهيارها وإلى تدمير البوسنة بنفس السـلاح

الذي كان "تيتو" قد أعده للدفاع عن يوغسلافيا وصيانتها ضد العدوان الخارجي، أعني الجيش الفدرالي ليوغسلافيا.

يوظف "ميلوسفيتش" الأساليب الثورية الغوغائية قافزاً على العوائق لتحقيق طفرة في الوصول إلى هدف معين فإذا فشل يعود إلى "تكتيك" العمل من خلال القنوات الشرعية بعد أن يتدخل في تغيير بعض عناصرها ليضمن سيرها في الاتجاه الذي يريده، ففي مارس ١٩٩١ ثار الطلبة ضده في مظاهرات عارمة مطالبة بإسقاطه، فتوجه "ميلوسفيتش" بطلب إلى رئيس الجمهورية الفدرالي "بوريساف يوفتش" لإعلان حالة الطوارئ في البلاد وفض المظاهرات بالقوة فلما رفض، ثار "ميلوسفيتش" غاضباً وراح يعلن في التلفاز "أن صربيا لن تخضع لمجلس الرئاسة بعد اليوم" وذلك بعد أن طرد ممثلي الجبل الأسود وكوسوفا وفويفدينيا وبدأ يخطط لإقالة رئيس الجمهورية، وظن أنه بتلك الإجراءات قد تمكن من تحقيق انقلابه الدستوري، إلا أن "يوفتش" استطاع أن يعود إلى المجلس ومن ثم تراجع ميلوسفيتش من حافة الهاوية إلى لعبته الدستورية من جديد، فعين عميلاً له ممثلاً غير قانوني لكوسوفا في المجلس الرئاسي كان جاويشاً معروفاً بإدمانه للمخدرات، دخل الانتخابات بإيعاز من "ميلوسفيتش" فلم يحصل إلا على ٠,٠٣٪ من أصوات الناخبين، ولكنه كان مجرد وسيلة وصوتاً مضموناً في المجلس لتمرير القرارات التي يريدها ميلوسفيتش.

انهيار يوغسلافيا (١٩٨٩-١٩٩٢):

في ٢٨ يونية سنة ١٩٨٩م تجمع بضع مئات الألوف من الصرب في موقع معركة كوسوفا التاريخية المسمى جازيمستان "Gasimestan" خارج مدينة "بريشتينا" عاصمة كوسوفا احتفالاً بمرور ستمائة عام على هذه المعركة التي جرت بين الأتراك العثمانيين وبين الصرب سنة ١٣٨٩م وانسحقت فيها القوات الصربية وقتل الأمير "لازار" قائد الصرب.

قبل ذلك بعدة أسابيع جرت حملات إعلامية مخططة لإثارة المشاعر القومية الصربية تمهيداً لهذه المناسبة: أخرجت عظام الأمير "لازار" من قبره ووضعت في صندوق ليطوف بأنحاء صربيا بحيث أصبح مزاراً للناس من كل فج عميق، فلما استقرت العظام في فناء دير "جراتشا نيتشا" (جنوب بريشتينا) كان الناس يقفون صفوفاً لتحية عظام الأمير، وفي تلك الأثناء كانت تباع حول الدير صور على هيئة أقانيم للسيد المسيح والأمير "لازار" و "سلوبودان ميلوسفيتش" جنباً إلى جنب. وفي الاحتفال بساحة المعركة كان يصحب "ميلوسفيتش" أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية بملابسهم الموشاة بأشرطة سوداء لامعة، وفرقة

من المغنين الصرب بأرزيائهم الشعبية التقليدية، وتناثر في الساحة أفراد البوليس السري بلباسهم التقليدي والنظارات الشمسية.

وهكذا بعد ستة قرون يأتي "سلوبودان ميلوسفيتش" لإحياء ذكرى معركة كوسوفا ويقول للجماهير المحتشدة: "إننا نعود إلى المعركة مرة أخرى، إنها ليست معركة مسلحة وإن كنا لا نستبعد أن يحدث هذا" وزأرت الجماهير بالموافقة..

كانت هذه نقطة تحو رمزية في تاريخ يوغسلافيا حصل فيها ميلوسفيتش على كثير مما كان يسعى إليه: حصل على مركز بارز في صربيا لا يطاوله إليه أحد، مستخدماً في ذلك الأساليب الغوغائية مع الخطاب القومي للصرب، وفي الحكومة الفدرالية اليوغسلافية التي تتألف من ثمانية أصوات تمثل جمهوريات ومناطق يوغسلافيا أصبح في قبضته أربعة منها هي أصوات صربيا والجبل الأسود و "فويفودينيا" وكوسوفا، وبالتعويل على قدرته في الضغط على مقدونيا صار بوسعه أن يتلاعب كيفما شاء بالحكومة الفدرالية، وأن يعيد صياغة الدستور الفدرالي في اتجاه هيمنة صربيا على الجميع.

غير أن هذه الإجراءات المكيافلية التي أوصلته إلى هذه النقطة الباهرة من الانتصار هي نفسها التي جعلت المناطق الأخرى التي لم تقع تحت سيطرته في يوغسلافيا تتنبه لاتخاذ موقف أكثر صلابة، وتضع طاقة أكبر لمقاومة اتجاهات "ميلوسفيتش" الخطيرة؛ فقط انبثقت القومية الكرواتية قوية كرد فعل لانطلاق القومية الصربية، كان "ميلوسفيتش" قد أطلق العنان للكتابات التي كانت ممنوعة في الماضي بل شجع الهجوم على القيادات الكرواتية حيث اتهم رئيس الحزب الشيوعي الكرواتي خلال أجهزة الإعلام الصربية بأنه من "الأستاشا" النازية. هذه الحملة الدعائية ضد القيادات الكرواتية أعطت الفرصة لظهور دكتاتور آخر في كرواتيا هو "فرانيو توجمان"، وكان "توجمان" جنرالاً في جيش التحرير اليوغسلافي بقيادة "تيتو". اجتهد في التمييز بين "الأستاشا" وبين القومية الكرواتية التي تسعى للتخلص من هيمنة بلجراد، وركب هو أيضاً موجة القومية الكرواتية.

وبصرف النظر عن الأبعاد التاريخية ظهرت آنذاك مخاوف من مخاطر المستقبل المنظور، وانطلقت في الأجواء شرارات ذات دلالات خطيرة، منها ذلك التصريح الذي أدلى به "دبريتشا كوسيتش" في يولية ١٩٨٩م لأحد الصحفيين بأن أجزاء من كرواتيا لابد من إعادتها إلى صربيا.[٥٢]

---

[٥٢] أنظر "نويل مالكوم"، المصدر السابق، ص٢١٣.

في تلك الأثناء كانت "سلوفينيا" وهي الأكثر التصاقاً بنموذج غرب أوروبا بسبيل ترتيب أوضاعها لحماية نفسها من المراحل التالية للانقلاب الدستوري الذي يطبخه "ميلوسفيتش" على نار هادئة، ففي سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٩م قامت سلوفينيا بإعداد دستور جديد وأصدرته بالفعل لتعطي بذلك لنفسها حق السلطة التشريعية؛ بمعنى أن يكون القانون السلوفينيّ له الأولوية في التنفيذ على القانون الفدرالي، وكان في هذه الخطوة إشارة واضحة على إمكانية انسحاب سلوفينيا من يوغسلافيا.

بينما يجري هذا في يوغسلافيا كان الانهيار الدرامي للنظم الشيوعية في شرق أوروبا يتوالى على شاشات التلفاز ليلة بعد ليلة، أما الأحزاب المعارضة التي كانت تظهر على استحياء سنة ١٩٨٨ بأعداد قليلة فقد أ صبحت تتدفق كالسيل المنهمر؛ ففي يناير ١٩٩٠م خرج الأعضاء السلوفينيين من الحزب الشيوعي، وأنشأوا حزباً جديداً سموه (حزب التجديد الديمقراطي) وفعل نفس الشيء شيوعيو كرواتيا الذين سموا حزبهم (حزب الكروات الديمقراطي)، وشرعت كل من سلوفينيا وكرواتيا الترتيب لإجراء انتخابات متعددة الأحزاب في ربيع ١٩٩٠م، وأجريت الانتخابات بالفعل في موعدها، وكان من نتيجتها فوز "فرانيو توجمان" رئيساً لجمهورية كرواتيا.

تظاهر "ميلوسفيتش" بأنه يركب موجة الديمقراطية فغير اسم حزبه الشيوعي إلى اسم (حزب الصرب الاشتراكي)، وبدأ يتحدث عن انتخابات عامة تعددية في صربيا، ولكنه أجل الانتخابات حق نهاية العام مستفيداً بالوقت لتحسين صورته حيث هبطت شعبيته خلال النصف الأول من عام ١٩٩٠ نتيجة لتصادمه مع الطلاب، ولعله كان ينتظر ميلاد كارثة قومية ليضع قدمه فيها كمنقذ للشعب.

كانت أولى أولويات "ميلوسفيتش" هي أن يسيطر على يوغسلافيا من خلال التكوين السابق للحزب الشيوعي والحكومة الفدرالية التي فصلها على مقاسه وبذل في ذلك جهداً خارقاً، ولكن ذوبان الحزب الشيوعي اليوغسلافي بين يوم وليلة كما تذوب قطعة الثلج تحت أشعة الشمس، وانقسام السياسة اليوغسلافية إلى عدة أحزاب قومية مستقلة في مختلف الجمهوريات، وظهور معارضة قوية داخل مجلس الرئاسة اليوغسلافية من ممثلي الجمهوريات الذين أزعجهم توجهات "ميلوسفيتيش" الخطيرة، كل هذه حال بين "ميلوسفتيش" وبين تحيق اختياره الأول وهو السيطرة على يوغسلافيا موحدة تحت هيمنة صربية، ومن ثم لجأ إلى تأليف كيان جديد تحت اسم (الاتحاد اليوغسلافي الجديد) أو بالأحرى صربيا الكبرى الممتدة الأطراف، وهو اختياره الثاني.

كانت سلوفينيا وكرواتيا قد صممتا على الانفصال الكامل وكانت المباحثات بينهما وبين أطراف أوروبية غربية تدور في الخفاء لتدعيم موقفهما وكان الأمر يستدعي بعض الوقت لمزيد من الاستعداد لمواجهة غضبة "ميلوسفيتش" الذي يملك في قبضته الجيش اليوغسلافي الفدرالي بكل سطوته وأسلحته وولاء قادته الصربيين، لذلك ذهبا يفاوضان "ميلوسفيتش" لإيجاد صيغة كونفدرالية ليوغسلافيا بدلاً من الصيغة الفدرالية السابقة بحيث تكون السلطة الحقيقية في يد حكومات الجمهوريات، بينما تقتصر المؤسسات الفدرالية على التنسيق بين هذه الجمهوريات ولكن "ميلوسفيتش" لم يبد أي اهتمام بهذه المشروعات.

موقف الرئيس علي عزت بيجوفيتش :

وقفت البوسنة إلى جانب سلوفينيا وكرواتيا في موضوع تغيير الدستور لمواجهة هيمنة الصرب وتلاعبها بيوغسلافيا، ولكن "علي عزت بيجوفيتش" رئيس جمهورية البوسنة لم يكن يذهب مع سلوفينيا وكرواتيا إلى آخر "الشوط" لأنه رأى بثاقب نظره أنهما يخططان لانفصال كامل عن يوغسلافيا وأن هذا الانفصال إذا تحقق سيكون كارثة على البوسنة، فالبوسنة جمهورية ناشئة وضعيفة وإذا خرجت سلوفينيا وكرواتيا فمعناه أن تبقى البوسنة وحدها تحت رحمة صربيا وهو يراها تنكل بالمسلمين في كوسوفا، وإذا حدث نزاع مسلح بين صربيا وكرواتيا فإن البوسنة سوف تتمزق وتطحن في رحى هذه الحرب، والسبب في ذلك بسيط؛ فهو يرجع إلى التركيبة القومية الفريدة في البوسنة حيث توجد بها أغلبية مسلمة ٤٥٪ و ٣١٪ ممن يسمون أنفسهم صرب البوسنة و ١٧٪ ممن يسمون أنفسهم كروات البوسنة. عاشت هذه العناصر الثلاثة على مر العصور في تآلف نسبي اعتبره الكتاب الأوروبيون نموذجا لا مثيل له في منطقة البلقان المشحونة بالعداء والاضطرابات العرقية. ولذلك رأى "علي عزت" أن جمهورية البوسنة بتركيبتها القومية وامتزاجها الفسيفسائي يمكن أن تكون منطقة سلام وجسراً تعبر عليه محاولات التقريب والوفاق بين العدوّين اللدودين الصرب والكروات، ولكن إذا قام النزاع المسلح بينهما فسوف ينحاز صرب البوسنة إلى صربيا وينحاز كروات البوسنة إلى كرواتيا، ويدور الصدام بينهما على أرض البوسنة نفسها فتتمزق وحدتها ويكون أكبر ضحايا هذا الصدام هم شعب البوسنة المسلم.

لهذا كان "علي عزت" أحرص رؤساء الجمهوريات على الحفاظ على وحدة يوغسلافيا وعلى سلوك مسلك سلمي سياسي لحل أزمتها تجنباً لوقوع الحرب التي لا يعرف أحد- إذا ابتدأت- متى تنتهي وكيف تنتهي.[٥٣]

---

[٥٣] أنظر "ميشاجليني" في كتابه سقوط يوغسلافيا

وبعد أن أقنع علي عزت رئيس جمهورية مقدونيا تقدما معاً باقتراح إلى رؤساء جمهوريات يوغسلافيا في اجتماعهم سنة ١٩٩١ بمشروع حل وسط ينهي الأزمة ويمنع تفجر الموقف المتأزم بين سلوفينيا وكرواتيا من ناحية وبين الصرب من ناحية أخرى، وقد تضمن هذا المشروع النقاط التالية:

١- أن تتحد جمهوريات الصرب والجبل الأسود في اتحاد فيدرالي خاص بهما.

٢- تتحد جمهوريتا كرواتيا وسلوفينيا في اتحاد كونفدرالي.

٣- تتحد جمهوريتا البوسنة ومقدونيا في إطار اتحادي يتفقان على صيغته فيما بعد.

٤- إيجاد إطار يوغسلافي موحد يضم الاتحادات الثلاثة، بشرط أن تتمتع جميع الجمهوريات في داخله بالسيادة والاستقلال.

بذلك يضمن المشروع بقاء الكيان اليوغسلافي من جهة ويحقق الحرية والاستقلال للجمهوريات من ناحية أخرى، وقد حظى هذا المشروع بتأييد مجموعة الدول الأوروبية باعتباره الحل الوحيد الذي يمنع الانزلاق إلى مخاطر الحرب الأهلية، ولكن رفضه "ميلوسفيتش" بكل صلف لأنه يعوق تطلعات صربيا إلى الهيمنة والتسلط، وبالأخص يحول دون رغبة صربيا في القضاء على دولة البوسنة والهرسك وإنهاء الوجود الإسلامي بها، وهذا ما كان يخطط له "ميلوسفيتش".

الزلزال يصل إلى البوسنة :

أشرنا فيما سبق إلى أن الأحزاب الشيوعية بدأت تتفكك في أوروبا الشرقية على أثر الزلزال السياسي الذي اجتاح الاتحاد السوفيتي، وعندما وصلت موجة الزلزال إلى يوغسلافيا كانت القوميات المحلية تطل برأسها لتبحث عن مكان لها فوق الأنقاض.

ففي البوسنة كما في معظم جمهوريات يوغسلافيا السابقة تلاشى الحزب الشيوعي في أوائل سنة ١٩٩٠م، وفي يوليه من نفس العام أنشأ صرب البوسنة (وحدهم) بإيعاز من "ميلوسفيتش" حزباً سموه "حزب الصرب الديمقراطي" نفس الاسم الذي أنشأه صرب كرواتيا في منطقة "كرايينا" تمهيداً للاستقلال عن كرواتيا، وأنشأ كروات البوسنة بإيعاز من "فرانيو توجمان" رئيس جمهورية كرواتيا حزباً أسموه "اتحاد كرواتيا الديمقراطي"، ووجد علي عزت أن المسلمين أصبحوا وحدهم بدون حزب بل أصبحوا بين شقي رحى "ميلوسفيتش" و

Glenny, Misha: The Fall of Yugoolovia . London: Penguin : Books, 1992. P.153 .London: Penguin

"توجمان"، فأنشأ علي عـزت "حـزب العمـل الديمقراطـي" وكـان هـو الحـزب الوحيـد فـي البوسنة الذي يقوم علـى أسـاس وطنـي خـالص غـير متـأثر بتوجيـهات أو نفـوذ مـن خـارج البوسنة، وقد تبنى هذا الحزب سياسـة الحفـاظ علـى وحـدة البوسـنة مـن مسـلمين وصـرب وكروات.

العجيب في الأمر أن يتهم الصرب الكروات "على عزت" بسـبب إنشـائه لحـزب العمـل الديمقراطي بأنه يعتزم إقامة دولة إسلامية أصولية في البوسنة، وهو اتهام باطل لا أساس له ولا سند، فمثل هذه الخطة لم ترد في برنامج الحزب ولا في أي نص كتبه علي عـزت. أمـا من الناحية العملية فإن "علي عزت" بعد فوزه في انتخابات رئاسة الجمهورية قـام بتشـكيل حكومة ائتلافية من الأحزاب الثلاثة وكان يستطيع أن يفعل خـلاف ذلـك إذا شـاء، إلا أنـه كان حريصاً على وحدة البوسنة.

لكن "رادوفان كراجيتش" زعيم حزب الصرب الديمقراطي كانت لـه خطـة أخـرى اتفـق على تنفيذها مع "سلوبودان ميلوسفيتش".

ميلوسفيتش يضرب دستور يوغسلافيا :

كان الجو السياسي في يوغسـلافيا فـي أواخـر عـام ١٩٩٠م عشـية اسـتلام علـي عـزت السلطة ملبداً بالغيوم، فقد تفجر الصراع بين صربيا من ناحية وبين "سلوفينيا" وكرواتيـا مـن ناحية أخرى، لدرجة أن صربيا بـدأت تفـرض رسـوماً جمركيـة علـى البضـائع الـواردة مـن كرواتيا وسلوفينيا، إلى جانب هذا اسـتطاع "ميلوسـفيتش" أن يسـتولى علـى قـدر كبـير مـن الميزانية الفدرالية ليوغسلافيا لينفقه في صربيا وحدها، وبذلك نسـف خطـة رئيـس الـوزراء الفدرالي "أنتي ماركوفيتش" للإصلاح الاقتصادي ومعالجة التضخم المالي.

عقدت سلوفينيا فـي ديسـمبر ١٩٩٠ اسـتفتاءً عامـاً علـى الاسـتقلال حظـى بنسـبة ٨٩٪ موافقة من المواطنين، وحاول البعض أن ينسب هذا الاتجاه (الاستقلالي) إلى ألمانيا، ولكـن الأسباب الحقيقية له تكمن في تصرفات بلجراد غير المسئولة مما جعل سلوفينيا تـرى أنـه ليس لها مستقبل اقتصادي مع بلجراد، وكان "ميلوسفيتش" في أوائل سـنة ١٩٩٠م يكشـف عن بعض نواياه عندما هدد بأن أي محاولة لتغيير الوضع "الفدرالي" إلـى "كونفدراليـة" فـي يوغسلافيا ستضطره لضم البوسنة وكرواتيا بالقوة، وهو تهديد مقصود به كل جمهورية ترغب في الانفصال.

وعلى الرغم من ادعاء "ميلوسفيتش" بالحرص على الدستور الفدرالـي نـراه دائـب العمـل على ضرب هذا الدستور والعبث به وتغييره لصالح صربيا وحدهـا. ففـي يونيـه ١٩٩٠ ألغـى

الجمعية الوطنية في كوسوفا وجعلها تابعة لصربيا. وذهب في تناقضه إلى مدى أبعد من ذلك حيث طرد ممثل كوسوفا المنتخب من مجلس الرئاسة اليوغسلافي وعين مكانه جاويشاً سيئ السمعة ليجمع بين فائدتين ضم كوسوفا وجعلها جزءاً تابعاً لصربيا من ناحية، والاحتفاظ بالمظهر الخارجي لشرعية مجلس الرئاسة لتحقيق مآربه التوسعية من ناحية أخرى.

جاءت أول إشارة دالة على استراتيجية "ميلوسفيتش" الجديدة في منطقة "كنين" الكرواتية وهي جزء من قلعة صربية قديمة، كما جاءت إشارات أخرى من إقليم "كراينيا" على حدود شمال غرب البوسنة وهي جزء من كرواتيا وإن كانت تضم أغلبية صربية. نظم هؤلاء الصرب أنفسهم أثناء انتخابات كرواتيا في إبريل ١٩٩٠ في حزب سمى "حزب الصرب الديمقراطي" بإيعاز من ميلوسفيتش، الذي دعى قادته إلى بلجراد وحرضهم على إذاعة تصريحات معادية لكرواتيا متذرعاً ببعض التغييرات التي قامت بها السلطات الكرواتية حيث اتخذت لنفسها علماً جديداً عليه رموز تمثل "الأستاشا" ولكن هذه الرموز نفسها كانت رموز العلم الوطني لكرواتيا القديمة (منذ ٤٠٠سنة)

ومن التغييرات التي أحدثتها كرواتيا أن الحكومة بدأت تطرد الشيوعيين من أجهزتها، وقيل إن الحملة كانت تستهدف الصرب بالذات وأن الكروات قد طردوا الصرب بالجملة من وظائفهم، وكان الصرب يحتلون وظائف بنسبة تفوق نسبتهم السكانية في جمهورية كرواتيا، حيث كانوا يشغلون ٤٠٪ من عضوية الحزب الشيوعي و ٦٧٪ من قوات الشرطة.

وفي صيف ١٩٩٠ استولى على قيادة "حزب الصرب الديمقراطي" مجموعة من المتطرفين الصرب كانوا يعملون لحساب "ميلوسفيتش". وفي أغسطس على وجه التحديد أجرى الحزب استفتاء بين صرب "كرايينا" على الحكم الذاتي، ذلك رغم أنف الحكومة الكرواتية التي بادرت بإعلانها أن الاستفتاء غير قانوني ولن تعترف بنتائجه.

أخذت بوادر التحرش بالحكومة الكرواتية تتضح أكثر من قبل عندما ظهر في شوارع "كنين" أفراد من الصرب المسلحين بمساعدة الجيش الفدرالي المرابط هناك تحت قيادة الجنرال "راتكو ملاديتش" وهو واحد من أخطر أتباع "ميلوسفيتش" كان له دوره في تدمير المدن الكرواتية الأثرية، ودور أبشع في تدمير البوسنة بعد ذلك، ويعتبر الآن مجرم حرب مطلوب للعدالة أمام المحكمة الدولة بلاهاى

حاولت السلطات الكرواتية الاستيلاء على إمدادات السلاح التي وقعت في حوزة الشرطة المحلية الصربية، فهبت بلجراد تحذر صرب "كرايينا" بأن "الأستاشا" الكرواتية تدبر لهم مذبحة. والحقيقة أنه سيناريو مدبر بإحكام حيث طلب صرب كرايينا الحماية من الجيش

الفدرالي، ولم يضيعوا وقتهم بل شرعوا يطلقون النار على الشـرطة الكرواتيـة لإثارتـها حتـى ترد بالمثل ويبدو الموقـف مـبرراً لتدخـل الجيـش الفدرالـي بحجـة فـك الاشـتباك وحمايـة السكان.

وفي يناير ١٩٩١ كان قادة الصرب المحليين يطلقون على منطقة "كرايينا" "منطقة صرب كرايينا المستقلة" وشكلوا لهم برلماناً خاصاً. وبعد ذلـك بشـهرين حـاول الصـرب المسـلحون الاستيلاء على المنـتزه القومـي المسـمى "بليتـافيتش" وهـو أكـبر وأهـم منطقـة سـياحية فـي كرواتيا، وكان هذا العمل تحدياً مباشراً وسافراً للحكومة الكرواتية، وحدث تبادل إطلاق نـار بين الصرب المهاجمين وبيـن شـركة الحراسـة الكرواتيـة. وعلـى أثـر ذلـك أمـرت الرئاسـة الفدرالية الجيش (رغم اعتراض كرواتيا) باحتلال المنتزه وإعادة السـلام للمنطقـة. والملاحـظ أن جميع المناطق التي دخلها الجيش الفدرالي بحجة فض الاشتباك وإعادة السلام سواء في كرواتيا أو في البوسنة بعدها كانت تسلم إلى المليشيات الصربية المحلية.

هذه الوقائع وغيرها تحتاج إلى التحليل والتأمل لأن الذي وقع في كرواتيا علـى الحـدود الشمالية الغربية للبوسنة يمثل السيناريو الذي تكرر حدوثه في البوسنة بعد ذلك.

انسحاب سلوفينيا وكرواتيا واشتعال الحرب :

من العوامل التي أسرعت بإطلاق شرارة الحرب أن الممثل الكرواتي في مجلـس الرئاسـة اليوغسلافي كان من المفترض أن يتولى رئاسة المجلس في مايو ١٩٩١ بطريقة تلقائيـة وفقاً لأحكام الدستور الفدرالي، ولكن صربيا رفضت التخلي عن مقعد الرئاسة، وأثبتـت بسـلوكها مرة أخرى أنها لا تبالي أن تشل النظام الفدرالي، وهي التي تدعـي أنـها تدافـع عنـه. هـذا الموقف الصربي دفع كرواتيا للمسارعة بإعلان استفتاء عام للاستقلال (في ١٩ مـايو ١٩٩١م) نتج عنه الموافقة بأغلبية ٩٢٪.

وفي ٢٥ يونيه أعلنـت كـل مـن سـلوفينيا وكرواتيـا رسـمياً الاسـتقلال والانسـحاب مـن يوغسلافيا. وفي صباح اليوم التالي مباشرة دخلـت طوابـير ودبابـات الجيـش الفدرالـي إلـى سلوفينيا، وكان قادة الجيش الفدرالي وهم من الصرب- يشاركون "ميلوسفيتش" فـي أهدافـه ويأتمرون بأوامره. ولكن سلوفينيا أظهرت مقاومة قوية منظمة محكمـة التخطيـط، ممـا جعـل ميلوسفيتش يتراجع ويسقط سلوفينيا من حسـابه ويسـحب الجيـش مـن أراضيـها. ذلـك لأن أجندة "ميلوسفيتش" العدوانية كانت تتجه إلى أهداف أخرى أيسر منالاً وأقرب إلى أحلامه في إقامة صربيا الكبرى.

كانت خطوة "ميلوسفيتش" الثانية تبدأ من "كريينا" لضرب كرواتيا والاستيلاء على أراضيها، وكانت خطته تشمل عنصرين: التهديد العسكري من ناحية والتنسيق مع المليشيات الصربية المسلحة في جيب كرايينا.

وفي أواخر أغسطس ١٩٩١م تصاعدت حدة التهديدات إلى درجة اشتعال حرب واسعة النطاق، وبالفعل شرع الجيش الفدرالي يدك مدينة "دوبرفنك" التاريخية في سبتمبر ١٩٩١م.

أضيفت لهذه الحرب سمة أخرى كأنها كانت (بروفة) لاستخدامها بعد ذلك في البوسنة، تمثل هذا في استخدام مليشيات غير رسمية في الحرب، ذلك لأن الاستراتيجية الصربية كانت تستدعي طرد الكروات من بعض المناطق بواسطة الاضطهاد والإرهاب للسكان حتى يضطروا لإخلاء هذه المناطق، فيما عرف بعد ذلك باسم "التطهير العرقي". والهدف من وراء التطهير العرقي هو ربط الجيوب الصربية بعضها ببعض بمناطق آمنة خالية من أي عناصر غير صربية.

هذه المليشيات هي نفسها التي استخدمت في إثارة الشغب والهجوم على المنتزه القومي القريب من "كرايينا"، وكان وزير داخلية صربيا "ميهالي كيرتس" قد كلف في وقت مبكر بإقامة معسكرات لتدريب هذه المليشيات تحت اسم "حرس المتطوعين الصرب" وقد اختير لقيادتها شخصية مشهورة في عالم الإجرام عرف باسم "أركان" ولكن اسمه الحقيقي هو "جليكو رازنياتوفيتش".

كان "أركان" هذا مجرماً من طراز المافيا مطلوباً من قبل البوليس الدولي "الإنتربول" لتورطه في عدد كبير من الجرائم، وكانت تحيط به شبهات باعتباره عميلاً للمخابرات السرية الصربية للتجسس على اللاجئين من المعارضة الصربية في الخارج وتصفيتهم جسدياً.

عرفت هذه المليشيات باسم "نمور أركان"، وكان يقوم بتمويلها في البداية وزير داخلية صربيا حتى أصبحت قادرة على تمويل نفسها بنفسها، وذلك من خلال عمليات النهب الواسعة التي قامت بها في القرى والمدن الكرواتية حيث تم الاستيلاء على العديد من الشاحنات الضخمة المحملة بالبضائع والمال المنهوب.

وظهرت عصابة أخرى على غرار المليشيات الشتنك أقامها صربي متطرف هو "فويسلاف شيشلي"، كان قد حوكم سنة ١٩٨٥ لنشره كتاباً اقترح فيه تقسيم يوغسلافيا إلى شطرين وتوزيع أراضي البوسنة بين صربيا وكرواتيا. وأصبح بعد ذلك قائداً لحزب متطرف سماه "الحزب الصربي الراديكالي" كنوع من المزايدة بينه وبين "ميلوسفيتش" في السياسة القومية. والحقيقة أنها كانت عملية تبادل مصالح فيما بين الرجلين: فميلوسفيتش هو الذي

رتب الأمور لضمان نجاح "شيشلي" في عضوية برلمان صربيا في يوليه ١٩٩١، ليكون سنداً له في تنفيذ خططه.

مؤشرات المؤامرة الصربية :

في مقابلة مع مراسل صحيفة "دير شبيجل" الألمانية (أغسطس ١٩٩١) استعرض "شيشلي" آخر صورة استقرت عليها خطته السياسية وخلاصتها: أن تقوم صربيا بضم كل من البوسنة ومقدونيا والجبل الأسود ومعظم أراضي كرواتيا، ولما سأله الصحفي: ماذا يحدث لو قاوم المسلمون خطتك هذه وهم شعب مستقل؟" فرد "شيشلي" قائلاً: في هذه الحالة سنقوم بطردهم خارج البوسنة فسأل الصحفي: "إلى أين؟"، قال: "إلى تركيا".

بمثل هذه الأفكار التي أصبحت تلوكها ألسنة صرب البوسنة علناً أصبح معالجة مشكلة البوسنة بالأساليب السياسية بعيد المنال. وقد هيأ هذا المناخ لكراجيتش أن يعلن أن أجزاء كبيرة من البوسنة سوف تنفصل عنها لتحلق بالمنطقة الصربية المستقلة في كرايينا (التي أصبحت فيما بعد جمهورية صرب كرايينا) فلما وجه الرئيس علي عزت النقد إلى هذه التصريحات انتهزها "كراجيتش" فرصة وأعلن أن ممثلي حزبه في مجلس الرئاسة البوسنوية سيقاطعون اجتماعات المجلس اعتباراً من ذلك اليوم.

وفي سبتمبر ١٩٩١ قامت مجموعة متطرفة من قيادة حزب "كراجيتش" بافتعال حوادث إطلاق نار، ثم سارعت بطلب حماية الجيش الفدرالي الذي لم يتوان في التدخل الفوري حيث أرسل مائة سيارة مدرعة إلى غرب الهرسك كما أرسل رتلا آخر من السيارات المدرعة إلى مركز الاتصالات في "نيفيسينيا"، وخمسة آلاف جندي مشاه من "سراييفو" إلى الهرسك.

وبحلول آخر سبتمبر كانت هذه القوات قد أقامت بالفعل حدود المنطقة الصربية المستقلة في الهرسك كما رسمها "ميلوسفيتش".

كان الجيش الفدرالي قد جمع حشوداً كبيرة لجعلها قاعدة انطلاق من حدود البوسنة إلى مدينة "دوبرفنك" الكرواتية، وخرج مئات من صرب البوسنة بقيادة عمدة "تريبينيا" لمساعدة الجيش الفدرالي في ضرب المدينة.

لم يكن هذا هو العمل العسكري الوحيد للجيش الفدرالي في هجومه على كرواتيا من أراضي البوسنة فقد اتخذ من مدينة "بنيا لوكا" البوسنوية معسكراً للتدريب على دباباته وأصبحت في أغسطس ١٩٩١م موقعاً لضرب المدن الكرواتية.

وفي نهاية سبتمبر كان طابور مسلح للجيش الفدرالي يتجه إلى "فوكا فار" وعند مروره في منطقة "فيشيجراد" حاول بعض المدنيين من المسلمين والكروات إيقافه ففتح النار عليهم.

ولما أصبح الوضع بالنسبة للحكومة البوسنوية فوق الاحتمال أعلن الرئيس "علي عزت" في أوائل أكتوبر أن البوسنة تقف على الحياد بين صربيا وكرواتيا، فهب "كراجيتش" يشجب هذا التصريح معلناً أنه معاد لصربيا، وأن حرب كرواتيا حرب على مصاصي الدماء الفاشيين، وأضاف أن الحكومات ذات السيادة هي التي تستطيع أن تعلن الحياد. ولم يكن في كلام "كراجيتش" شيء من الصدق سوى عبارته الأخيرة. ولذلك شرعت الجمعية الوطنية (البرلمان البوسنوي) يناقش موضوع السيادة بجدية. ولم يكن المقصود هو الاستقلال التام وإنما مجرد سيادة تشريعية في إطار الوحدة اليوغسلافية، بحيث تستطيع جمهورية البوسنة- من الناحية القانونية النظرية على الأقل- أن تصدر قرارات تتجاوز حقوق الجيش الفدرالي في استخدام أراضيها لأغراض عسكرية.

وكرد فعل لهذا أخرج "كراجيتش" في ١٤ أكتوبر نواب حزبه من البرلمان الذي صوت في جانب السيادة. وبعد أيام قليلة أنشأ "كراجيتش" وحزبه ما سمى باسم "جمعية الصرب الوطنية" في "بنيا لوكا" لتكون في حماية الجيش الفدرالى الذي يعسكر هناك، وكان هذا الإجراء محاولة للاستكمال الصوري للمؤسسات اللازمة لإعلان دولة صرب البوسنة المستقلة.

وهكذا يتكرر نفس السيناريو الذي حدث في كرواتيا على أرض البوسنة حسب خطة "ميلوسفيتش" وأعوانه:

١- إعلان منطقة حكم ذاتي (مستقلة).

٢- تسليح السكان الصرب.

٣- اختلاق حوادث احتكاك محلية هنا وهناك.

٤- نباح إعلامي غوغائي لا ينقطع.

٥- الاستنجاد بالجيش الفدرالي للتدخل وحماية الصرب من الهجوم الموهوم.

٦- إقامة مجلس وطني (برلمان) مستقل للصرب.

ولم يشك أحد من المراقبين والصحفيين أن هناك خطة واحدة هي التي تنفذ هنا وهناك. وتأكد الأمر باليقين في مؤتمر حزب "ميلوسفيتش" "الحزب الاشتراكي الصربي" في بلجراد يوم ٩ أكتوبر ١٩٩١م.

التكتيك الصربي في العدوان على البوسنة :

كان التكتيك العدواني الذي اتبعه الصرب في كرواتيا هو نفسه الذي اتبعوه في إشعال الحرب ضد البوسنة:

أولاً– بث روح التطرف بين السكان الصربيين، وذلك بواسطة القذائف الإعلامية الكاذبة دون توقف، وتغذية الخوف عند الجماهير خلال وسائل الإعلام وبمساعدة القادة المحليين، بحيث أن كل إجراء اتخذه الرئيس "توجمان" في كرواتيا كان يوصف بأنه إرهاب الأستاشا.

ثانياً– تخويف الأهالي من خطر قادم ثم افتعال هذا الخطر، حيث يمضي هذا التكتيك في مراحل نمطية على النحو التالي:

إطلاق رصاصة مثلاً على حافلة ركاب شرطة خارج قرية ما ثم الإسراع بتحذير سكان القرية إلى أن الشرطة تخطط الهجوم عليهم، وفي جو الفزع الذي شاع يوزع النشطاء أسلحة على السكان للدفاع عن أنفسهم. فإذا حضرت الشرطة بأسلحتها ظاهرةً أصبح من السهل إشعال شرارة البدء في معركة، فإذا بدأت المعركة بين الشرطة ومثيري الشغب المحترفين انحاز الأهالي– الذين كانوا على الحياد– إلى جانب المشاغبين.

ثالثاً– التكتيك الثالث عبارة عن حيلة بسيطة واضحة: خلق حوادث عنف مفتعله ثم الاستغاثة بالجيش الفدرالي لفض الاشتباك كوسيط محايد. في حين أن هذا الجيش بتكوينه الذي يهيمن عليه ضباط صربيون وبولائه لبلجراد كان يعمل بتوجيهات مباشرة من "سلوبودان ميلوسفيتش".

لقد بدأ الاستيلاء على أراضي كرواتيا بالفعل قبل عام من إعلان كرواتيا الاستقلال في يوليه ١٩٩١م. وكانت الحجة الصربية المعلنة هي أن "الأستاشا" الكرواتية تهدد صرب كرواتيا.

في هذه النقطة الأخيرة بالذات لا يوجد في البوسنة مثيل لها، ولذلك كان من الضروري اختراع اتهام آخر يهدد صرب البوسنة، فبدلاً من التخويف من إرهاب "الأستاشا" اخترع قادة الصرب إرهاب ما سموه بـ "الأصوليين المسلمين" أو المجاهدين.

أشرنا فيما سبق إلى مؤتمر "الحزب الاشتراكي الصربي" الذي انعقد في بلجراد برئاسة "ميلوسفيتش" يوم ٩ أكتوبر ١٩٩١م، في هذا المؤتمر انكشفت نوايا "ميلوسفيتش" تجاه يوغسلافيا، وظهرت أطماعه واضحة في إنشاء دولة صربيا الكبرى. فقد تحدث نائب رئيس الحزب الفيلسوف "ميها بلو ماركوفيتش" فوصف بوضوح أمام المؤتمر طبيعة التقسيم الذي كان يخطط له هو وسيده "ميلوسفيتش" قال:

"في دولة يوغسلافيا الجديدة سيكون هناك ثلاثة وحدات فدالية على الأقل هي صربيا والجبل الأسود ومنطقة البوسنة وكنين الموحدة (أي المناطق التي يسكنها صرب البوسنة وصرب كرواتيا على الحدود بين الجمهوريتين البوسنة وكرواتيا). ويمضي ماركوفيتش فيحدد مصير المسلمين قائلاً: "إذا شاء المسلمون أن يبقوا في دولة يوغسلافيا الجديدة فسيسمح لهم بذلك أما إذا أرادوا الانفصال فيجب أن يفهموا شيئاً، وهو أن دولة مسلمي البوسنة ستكون محاصرة بأراضي صربية من كل أقطارها".[٥٤] يقول نويل مالكوم.. معلقاً على هذا: "إن خطة "ميلوسفيتش" إذن هي إقامة دولة يوغسلافيا اسما ولكنها في الحقيقة دولة صربيا الكبرى مع وجود محمية تجمع المسلمين في وسطها ".[٥٥]

مثل هذا الكلام الذي صرح به الصرب مبكراً ظهر فيما بعد سنة ١٩٩٣م وكان محور مناقشات علنية في إطار المفاوضات السياسية التي كانت تدور في قصر الأمم المتحدة بجنيف حول مصير مسلمي البوسنة.

ولكن للأسف الشديد أن هذا الإعلان الواضح الصريح لأهداف الحرب الصربية- التي لم تكن قد بدأت بعد- لم يلتفت إليه القادة الأوروبيون، كما تجاهله الوسيط المفاوض للاتحاد الأوروبي "لورد كار نجتون" الذي ظل محافظاً على اعتقاده بأن ثمة صيغة فدرالية لا تزال ممكنة في يوغسلافيا، وكان هذا الاعتقاد الخاطئ هو الصخرة التي تحطمت عليها جهوده السياسية وسر فشله الذريع في مهمته السلمية.

ففي الوقت الذي كانت الأحداث تتسارع نحو الحرب ينعقد في ٧ سبتمبر ١٩٩١م مؤتمر للمفاوضات برئاسة "لورد كار نجتون"، وتعين لجنة تحكيم من كبار القانونيين، ويتم إعلان أسس المفاوضات بين الأطراف اليوغسلافية على النحو التالي:

١- عدم تغيير الحدود الداخلية بالقوة.

٢- ضرورة الحفاظ على حقوق الأقليات.

٣- العناية الكاملة بجميع المصالح والطموحات المشروعة لشعوب يوغسلافيا.

كما أعلن المؤتمر أن أي خلافات لا تحسمها المفاوضات تحال إلى لجنة التحكيم.

هذه المبادئ لم يلتفت إليها أحد خلال المفاوضات التي جرت بعد ذلك، ولم يظهر أثرها مطلقاً في الحلول التي قدمها لورد كار نجتون نفسه، ولا أخذها المجتمع الدولي

---

[٥٤] أنظر نويل مالكوم في مقاله بصحيفة "إسبكتاتور" اللندنية ص ١٤ إلى ص ١٥بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٩١م تحت عنوان :
"Wating for a war"

[٥٥] هذا الاقتباس لماركوفيتش مأخوذ من تقارير صحيفتي "بوربا" و "بوليتكا" الصربية (اليوغسلافية).

(وأعني به الدول الأوروبية) في الاعتبار في أي وقت من بداية المفاوضات حتى انتهت الحرب باتفاقية دايتون للسلام سنة ١٩٩٥م.

طالبت حكومة البوسنة في ١٠ سبتمبر ١٩٩١م من الاتحاد الأوروبي إرسال مراقبين إلى أراضيها لأن مليشيات صرب البوسنة يدعمها الجيش الفدرالي بدأت تستولى على أراضي البوسنة، كما طالب الرئيس "علي عزت بيجوفيتش" بإنشاء منطقة منزوعة السلاح بعرض ستة أميال على طول نهري "يونا" و "سافا" بين جمهوريتي كرواتيا والبوسنة، وذلك لتجنب الصدام المسلح بين صربيا وكرواتيا الذي كان يقوده الجيش الفدرالي من أراضي البوسنة. ولكن لم يستجب أحد لنداء البوسنة ورئيسها.

وفي يوم ١٩ سبتمبر اقترح الرئيس الألماني كول والرئيس الفرنسي ميتران إرسال قوات سلام إلى يوغسلافيا تعمل في منطقة منزوعة السلاح تحت إشراف اتحاد غرب أوروبا، ولكن عارضت بريطانيا هذا الاقتراح لأنه يمثل في نظرها التزاماً طويل الأمد، وتقصد أنه باهظ التكاليف وهي لا تريد أن تتكلف شيئاً لإيقاف هذه الحرب ولتذهب البوسنة إلى الجحيم. هذا الموقف العنيد لبريطانيا ظل قائماً طوال مراحل العدوان الصربي على البوسنة لم تتزحزح عنه قيد أنملة.

وفي يوم ٢٥ سبتمبر تبنى مجلس الأمن مشروع قرار فرنسي (هو القرار رقم ٧١٣) بحظر جميع أنواع الأسلحة ليوغسلافيا، وطلب وقف أعمال العنف مباشرة، وطلب من "دي كويار" سكرتير عام الأمم المتحدة آنذاك للتوسط.

كان لهذا القرار تأثير هزيل على الجيش الفدرالي الذي يملك ترسانة هائلة من السلاح كما يملك صناعة حربية ضخمة، ولكن أثره على كرواتيا كان شديداً رغم أنها استطاعت أن توقف زحف القوات الفدرالية في كثير من المواقع في غرب وشمال شرق كرواتيا، ولو كان لديها السلاح الكافي لاستطاعت أن تدافع عن مدن مثل "فوكوفار" التي دمرت الحرب جميع مبانيها تقريباً قبل أن تدخل عصابات "أركان" لمسح المدينة. وسوف نرى أن هذا الحظر كان بمثابة الضربة القاضية التي وجهت إلى البوسنة عندما بدأ الهجوم الصربي عليها.

استطاعت كرواتيا الحصول على أسلحة من دول حلف وارسو ومن إسرائيل بمال تكفلت به دول أوروبية، وكانت الضربة التي أصابت خطط "ميلوسفيتش" في كرواتيا هي الاعتراف الدولي بكرواتيا وسلوفينيا الذي وافقت عليه دول الاتحاد الأوروبي بضغوط مكثفة من جانب ألمانيا.

ووضع مجلس الأمن الأراضي التي احتلها الجيش الفدرالي والمليشيات الصربية ضمن "ملاذات آمنة" تحت رعاية الأمم المتحدة، وظل هذا الوضع في كرواتيا قائماً لمدة طويلة. ولم يكن الاعتراف الدولي بكرواتيا وحده ليردع صربيا عن تنفيذ خططها العدوانية ولكنها شعرت بجدية الدول الأوروبية لاتخاذ إجراءات عملية قوية لرد العدوان فأوقفت عملياتها العسكرية، ولم تنسحب من كل الأراضي الكرواتية كما فعلت مع سلوفينيا، على أمل أن تلعب بورقة "كرايينا" في مرحلة المفاوضات السياسية. ثم توجهت بكل قواها لتنفيذ خططها تجاه البوسنة.

كان أكثر ما تخشاه البوسنة أن تبقي وحدها تحت رحمة صربيا في الاتحاد اليوغسلافي المزعوم فذهبت تسعى بدورها إلى الاستقلال.

وكان الاتحاد الأوروبي يدرك هذه الحقيقة مما جعله يسمح باستقبال طلبات من جمهوريات يوغسلافيا غير سلوفينيا وكرواتيا، ولكنه اشترط على البوسنة أن تجري استفتاء على مسألة الاستقلال. وفي هذه المرحلة جاء "لورد كار نجتون" يشكو من أن الاتحاد الأوروبي– الذي اختاره لعملية التفاوض– هو الذي ضرب مهمته في مقتل. والحقيقة أن مقترحات هذا الرجل لم يكن قبولها ممكناً من جانب كرواتيا أو سلوفينيا، ولا يمكن أن ترضى طموحات صربيا التوسعية، ومن ثم فإن خطته كانت فاشلة منذ البداية، وكان كل ما تذرع به "كار نجتون" من أسباب لتمسكه بخطته أن "ميلوسفيتش" و"كراجيتش" ينتظران لحظة إقدام البوسنة على إعلان استقلالها لبدء مرحلة الحرب من أجل تقسيم البوسنة.

والحقيقية أن التخطيط العسكري لصربيا لم يكن ابن الساعة الراهنة وإنما كان تخطيطاً مسبقاً، فقد كان الجيش الفدرالي قد استولى على جميع مراكز الاتصال في البوسنة في خريف ١٩٩١م، كما أقام القاذفات الثقيلة حول جميع المدن البوسنوية بما في ذلك العاصمة سراييفو في شتاء ١٩٩١-١٩٩٢.

ولما هدأت المعارك في كرواتيا انسحبت دبابات وقاذفات القنابل التابعة للجيش الفدرالي من كرواتيا– بموافقة الأمم المتحدة– إلى البوسنة. وقد أقدم الرئيس علي عزت بخطوة خطيرة إذ سمح للجيش الفدرالي بمصادرة الأسلحة القليلة التي في يد قوات الدفاع المحلية في البوسنة، مؤكداً لقادة الجيش الفدرالي حسن نواياه، بعد أن تم الاتفاق على مصادرة الأسلحة التي في حوزة المليشيات الصربية أيضاً. ولكن الجيش الفدرالي كان يخادع علي عزت لأن قادته كانوا ضالعين مع ميلوسفيتش في التآمر على البوسنة.

استقلال البوسنة :

جاء الدليل القاطع علي ضلوع هذا الجيش في المؤامـرة الصربيـة يومـي ٢٩ فـبراير وأول مارس، عندما أجرى الاستفتاء العام على استقلال البوسنة؛ فبينما كان "كراجيتـش" وحزبـه يمنعون صرب البوسنة من الاشتراك في الاستفتاء ويقيمون المتاريس في الشوارع لمنع وصـول صناديق الاقتراع إلى مقـار اللجـان فـي المنـاطق التـي تسـيطر عليـها المليشـيات الصربيـة، أسقطت طائرات الجيش الفدرالي منشورات تدعو السكان إلى مقاطعة الاستفتاء.

مع كل ذلك أدلى حوالي ٦٤٪ من السكان المؤهلين بأصواتهم بمـا فـي ذلـك لآلاف مـن صرب البوسنة على استقلالها، وكان السؤال على وجه التحديد هو: هـل أنـت موافـق علـى استقلال وسيادة دولـة البوسـنة والهرسـك، دولـة يتسـاوى فيـها جميـع المواطنيـن مسـلمين وصرب وكروات وغيرهم ممن يعيشون فيها؟ وصوت المواطنون جميعاً: نعم.

فـي صبـاح ٢ مـارس ١٩٩٢ نفـس اليـوم الـذي أعلنـت فيـه نتيجـة الاسـتفتاء أقـامت المليشيات الصربية المتاريس في الشوارع، واتخذ القناصة مواقعهم قريباً من مبنـى البرلمـان في "سرايفو"، وخلال ٢٤ ساعة بدا كأن الاستيلاء العسكري على البوسـنة قـد بـدأ. ولكـن خرج عشرات الألوف من المواطنين إلى الطرقـات فـي مواجهـة القناصـة ولأمـر مـا أجـهض الانقلاب. كان تبرير المتمردين لإقامة المتاريس واتخاذ هذه الإجراءات العدوانية هـو إطـلاق النار على شخص صربي بواسطة شابين مسلمين في عرس اليوم السابق، هذه الواقعة اتخذت سبباً لشجب ما أسماه المتطرفون الصرب بالإرهاب الإسلامي.

كان التكتيك مفضوحاً وفجا ولذلك توقف فور خروج الجماهير وهتافها ضد المتطرفين من حزب "كراجيتش"، وسقط اختيـار الانقـلاب للاسـتيلاء علـى السـلطة فـي البوسـنة. وبقـي الاختيار الثاني أمام الصرب: وهو تقسـيم البوسـنة إمـا بالوسـائل العسـكرية وإمـا بالوسـائل السياسية المدعومة بتهديد القوات المسلحة. ظل هذا الاختيار الثاني فـي الأفـق حتـى آخـر أسبوع من شهر مارس، وكان الأمر يتوقف إلى حد ما على موقف كروات البوسنة.

لاحظ المراقبون السياسيون وجود درجة من التوازي الملحوظ بين موقف الصرب وموقـف الكروات من البوسنة، ففي مارس ١٩٩١م اجتمع كل مـن الرئيـس "ميلوسـفيتش" الصربـي، ورئيس كرواتيا "توجمان" لمناقشة الوجوه المحتملة لتقسيم يوغسلافيا، وكان تقسيم البوسـنة على جدول الأعمال. ولكن التوازي في المواقف كان جزئياً فقط: فقـد ذهبـت صربيـا شـوطاً أبعد في هذا السبيل وفي وقت مبكر أكثر، حيث أقام صرب البوسنة منطقة مستقلة في مايو

١٩٩١م، وأقاموا برلماناً مزعوماً في أكتوبر ثم أعلنوا قيـام جمهوريـة صربيـة فـي ٢٧ مـارس ١٩٩٢م.

أما قرناؤهم الكروات فلم يعلنوا استقلالهم في المنطقة التـي سـموها (هـير سجبوسـنا) إلا في يوليه ١٩٩١م أي بعد ١٣ شهراً مـن أعمـال الصـرب العدوانيـة، فـي ذلـك الوقـت كـان "ستبان كليويتش" هو زعيم كروات البوسنة الذي كان يدعم سياسـية المحافظـة علـى حـدود البوسنة، وقد صوت حزبه مع حزب "علي عزت بيجوفيتش" بالنسبة للاستقلال، ولـم يكـن كروات البوسنة يؤيدون تقسيمها إلى كانتونات منفصلة لاعتقادهم أن هذا لا يمكن أن يتـم إلا بحرب مدمرة لا أحد يعرف إلى ماذا تنتهي.

ولكن كانت توجد مجموعة من المتطرفين في هذا الحـزب بقيـادة "مـاتي بوبـان" تعمـل على تقوية مركزها داخله وكان يسـاندها الرئيـس "توجمـان" نفسـه حيـث تدخـل لتنصيـب "بوبان" مكان "كليويتش" في قيادة الحزب، وتبنى "بوبـان" خطـاً قوميـاً كرواتيـا متشـدداً، وبدا كأن كروات البوسنة قد أخـذوا يتبعـون النمـط الصربـي السـائد ويسـتجيبون لمبادراتـهم بنفس الأسلوب تقريباً.

وهكذا عندما أصدر حزب الصرب خريطته المقترحة لتقسيم البوسنة إلـى كانتونـات فـي ديسمبر ١٩٩١ استجاب حزب الكـروات بـإصدار خريطتـه الخاصـة، حـدد فيـها ٣٠٪ مـن أراضي البوسنة للكروات، وأصبح من الواضح تماماً أن فكـرة تقسـيم البوسـنة هـي السـائدة وليست فكرة وحدتها.

كانت هذه الفكرة قائمة في ذهن "كراجيتش" عندما ذهب مع سـيده "ميلوسـفيتش" إلـى النمسا في فبراير ١٩٩٢م لمناقشة مستقبل البوسنة، فقد كانوا يتحدثون عـن التقسـيم لا عـن اتحاد كونفدرالي، أما "كار نجتون" والاتحاد الأوروبـي فكـانوا لا يزالـون يعملـون فـي إطـار سياسي اتحادي للبوسنة في مؤتمرات "بروكسل" و "لشيونة" خلال مارس ١٩٩٢م، وفـي ٩ مارس كان الوفد الصربي هو الذي يرفض مقترحات "كار نجتون"، وفي أواخر الشـهر نفسـه كان الاتحاد الأوروبي يضغط في اتجاه حل بتقسيم عرقي[٥٦] علـى أسـاس الخطـة الصربيـة، حيث قبلتها الأطراف الثلاثة بصفـة مبدئيـة علـى أسـاس استئناف المفاوضـات لمزيـد مـن التفاصيل، ولكن الحزب الكرواتي رفضها في ٢٤ مارس وتبعه بالرفض حزب على عزت في

---

[٥٦] الأصح أنه تقسيم على أساس ديني لا عرقي ولكننا نستخدم هنا المصطلحات التي جرت في الكتابات الصحفية وعلى ألسنة الكتاب والسياسيين في وقتها.

اليوم التالي. أما سبب رفض الكروات فهو أن الخطة لا تعطيهم سوى ١٧٪ فقط من الأراضي وتترك نصف كروات البوسنة في كانتونات غير كرواتية.

بينما وجد المسلمون- بعد تأملهم في هذه الخطط بإمعان- أنها خطط مستحيلة التحقيق لأن تقسيم البوسنة بهذه الطريقة سيجعل مئات الألوف من السكان تحت رحمة المتطرفين من كل جانب.

لقد صوت البوسنويون على دولة ديمقراطية مستقلة لمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات. وبصرف النظر عن المزاعم الصربية الدعائية التي تروج فكرة أن البوسنة قد أصبحت في قبضة فاشية، فإن أحداً من المراقبين المحايدين لم يلحظ أي دليل يؤيد هذه المزاعم، ولم يصدر أي مشروع أو قانون يشتم منه رائحة عنصرية، ولا حتى عبر عنه أحد من أعضاء الحكومة البوسنوية ضد أي مجموعة قومية أو دينية . وكيف يمكن تصور حدوث شئ كهذا في حين أن مجلس رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك يتألف من عدد متساو من الأعضاء الصرب والكروات والمسلمين، كما أن مجلس الوزراء به مزيج من الوزراء ينتمون إلى هذه الفئات الثلاثة، ويوجد برلمان منتخب به معارضة قوية.

ولكن الهوس الدعائي للإعلام الصربي وللسياسيين المتطرفين من صرب البوسنة الذين جعلوا الحقوق الصربية هي القيمة المطلقة- هذا الهوس الدعائي هو الذي قضى تماماً على آخر الشكوك في نفوس صرب البوسنة أنهم واقعون تحت تهديد المسلمين والكروات، حتى أصبح الكثير من الناس يشعرون فعلاً بأن خطراً ما قد أوشك أن يهبط عليهم من السماء.

وعندما وصل الأمر في عقول الناس إلى هذا الحد، أصبحت الخطوة العسكرية التالية مجرد خطوة عادية وبسيطة، وهذا هو الهدف الأكبر للدعاية الصربية.

الفصل الخامس

تدمير دولة وإبادة شعب (١٩٩٢-١٩٩٣)

في ٦ إبريل ١٩٩٢م اعترف الاتحاد الأوروبي باستقلال البوسنة، ولم يكن في وسعه أن يفعل خلاف ذلك إذا أراد أن يحافظ على مصداقيته أمام شعوبه؛ فقد سبق أن اعترف باستقلال جمهوريتين انفصلتا عن يوغسلافيا وهما كرواتيا وسلوفينيا.

ساء هذا الاعتراف بعض المعلقين السياسيين المتعاطفين مع صربيا فادعوا أن البوسنة كانت دائماً جزءاً من كيانات أكبر منها، وأنها لا تستطيع أن تكون دولة بذاتها– كما يزعمون– لأنها تضم ثلاثة شعوب مختلفة. وهذا معناه أن الدولة ذات الشعب الواحد هي وحدها الدولة الجديرة بهذا الاسم، على هذا المقياس تعتبر سويسرا والهند بل بريطانيا نفسها دولاً غير مؤهلة لاكتساب اسم دولة، لأنها جميعا تتألف من شعوب مختلفة ولغات مختلفة.

وليس في تاريخ البوسنة ما يشير إلى ضرورة أن تفرض عليها سلطة أكبر منها تحتويها لتمنعها من تدمير نفسها من الداخل، لكن التاريخ يشهد بعكس ذلك تماماً: فلم يهدد البوسنة بالانقسام أي صراع داخلي بين طوائف سكانها أو بين طبقاتها، بل كان التوافق والانسجام بين هذه الطوائف والطبقات أبرز وأكثر اتصالاً عبر التاريخ منه في البلاد المجاورة الأخرى. وإنما جاء التهديد دائماً من عناصر خارجية، من أخطرها الصراع القومي بين صربيا وكرواتيا، وهو الصراع الذي نشب بينهما منذ أواخر القرن التاسع عشر وظل مشتعلاً حتى اليوم. هذا الصراع جعل السياسة البوسنوية شديدة التعقيد؛ فقد دأبت صربيا على التأثير في أرثوذكس البوسنة أن يفكروا في أنفسهم باعتبارهم صرباً، ودأبت كرواتيا على التأثير في كاثوليك البوسنة بأن يفكروا في أنفسهم باعتبارهم كرواتاً لا بوسنويين. ولا يهم إلى أي مدى بلغ هذا التأثير مبلغه من عقول الناس وقلوبهم، ولكن المهم أنه أصبح جزءاً من الثقافتين الصربية والكرواتية.

وحرب البوسنة أكبر دليل على ذلك، فما كان لهذه الحرب أن تشتعل لولا تدخل صربيا في الشئون الداخلية للبوسنة، وكان على "ميلوسفيتش" أن يبذل جهوداً خارقة، وأن يوظف إمكانيات صربيا العسكرية والإعلامية التي ورثهما من دولة يوغسلافيا المنهارة، لاقناع فريق من صرب البوسنة للانحياز إلى جانب مخططاته العدوانية الرامية إلى القضاء على مسلمي البوسنة وكرواتها، تمهيداً للاستيلاء على أراضيها، واختار "ميلوسفيتش" عميلين له من

صرب البوسنة لأداء هذه المهمة: أولهما "رادوفان كراجيتش" جعله قائداً سياسياً لصرب البوسنة، وفي مرحلة لاحقة قام بتعيين "راتكو ملاديتش" وكان جنرالاً في الجيش الفدرالي لقيادة العمليات العسكرية في البوسنة. وقد ظهرت أدلة مبكرة على أن "ميلوسفيتش" يزود صرب البوسنة بأسلحة من خلال تابعه "رادوفان كراجيتش" رئيس الحزب الصربي القومي في البوسنة، وبواسطة وزير داخلية صربيا "ميهالي كيرتس" حدث هذا في شهر يوليه ١٩٩١، وجاءت مؤشرات مؤكدة في أغسطس ١٩٩١ عندما أظهر رئيس الوزراء الفدرالي المعزول "أنتي ماركو فيتش" شريط تسجيل لمحادثة تليفونية يتضح فيها صوت "ميلوسفيتش" وهو يخبر "كراجيتش" أن الشحنة الثانية من الأسلحة ستأتيه من الجنرال "نيقولا أوزيلاتش" قائد القوات الفدرالية في "بينا لوكا".[٥٧]

من ذلك الحين لم يعد هناك شك في أن أعمال "كراجيتش" في البوسنة كانت موجهة خطوة خطوة بواسطة "ميلوسفيتش" رئيس جمهورية صربيا. ولم يخف "كراجيتش" هذه العلاقة، بل كان يفخر بها ويتباهى، حيث أخبر أحد الصحفيين البريطانيين في مقابلة صحفية أنه يتحدث مع "سلوبودان ميلوسفيتش" على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع.[٥٨]

الانزلاق نحو الحرب :

في يوم الاعتراف الدولي بالبوسنة (٦ إبريل ١٩٩٢) أعادت المليشيات الصربية نفس العملية التي أجهضها الشعب في سراييفو قبل شهر مضى عندما حاصرت البرلمان. وفي هذه المرة أيضاً خرج إلى الشوارع مالا يقل عن مائة ألف بسنوي يمثلون جميع الطوائف: مسلمين وأرثوذكس وكاثوليك (صرب و كروات) في مظاهرات احتجاج عارمة ضد المليشيات المسلحة وكانت الشعارات المرفوعة تقول: "ليذهب المتطرفون الصرب والكروات إلى صربيا وكرواتيا.. إننا جميعاً نريد أن نحيا هنا معاً في سلام.. نريد أن تبقى البوسنة حرة موحدة..، ولو كان الأمر مرهوناً بالحوار والديمقراطية لاستطاعت الجماهير أن تكسب أهدافها الوحدوية السلمية ضد الأقلية المتطرفة، ولكن المؤامرة كانت أوسع نطاقا وأبعد من أن يحسمها الحوار الديمقراطي.

في هذا المشهد الوحدوي الجليل كانت الجماهير تهتف للوحدة والديمقراطية ولكن على الطرف الآخر كان المتطرفون يتحاورون بطلقات الرصاص المتقطعة في سماء سراييفو، ولم

---

[٥٧] أنظر م. مازور Mazower, M. The war in Bosnia. London, 1992

[٥٨] أنظر مقال م. فري في مجلة (The Spectator) البريطانية عدد ١٧ أغسطس ١٩٩١، من ص ١١ إلى ص ١٣.

تكن هذه أول الطلقات في البوسنة فقد كانت العمليات الإرهابية دائرة في "بنيا لوكا" و "بوسانسكا برود" و "موستار".

تقدمت المظاهرات السلمية فدخلت البرلمان واحتلته، وخشى "كراجيتش" من زحف المتظاهرين على مقر إقامته في فندق "هوليداي" فاستغاث بمليشياته لحمايته، ولكن استطاعت شرطة البوسنة القبض عليهم ففر "كراجيتش" هارباً إلى المرتفعات المحيطة بسراييفو وشرع يقصف المدينة ليؤكد للحكومة البوسنوية أنها لا تسيطر على الوضع في سراييفو.

كان كل شيء قد تم تدبيره من قبل لاحتلال العاصمة وإعلان الانقلاب العسكري الصربي ضد حكومة "علي عزت بيجوفيتش" الذي كان غائباً يحضر المفاوضات في لشبونه مع رؤساء جمهوريات يوغسلافيا السابقة.

زحفت القوات الصربية النظامية بالدبابات والطيران لاحتلال العاصمة فلما أصبحت في وسط المدينة انطلقت مفاجأة لم تكن في الحسبان، فقد كان السكان المسلحون في انتظار الغزاة ليمطروهم بوابل من الرصاص من كل جانب فتوقف الزحف، وحاصر الأهالي القيادة الصربية وتمكنوا من اعتقال أحد جنرالاتهم. وفي أثناء الحصار عاد الرئيس "علي عزت" من لشبونه فاحتجزته القوات الصربية في مطار سراييفو كما كان مرتباً في خطة الانقلاب، ولكن مع فشل الانقلاب واعتقال الجنرال الصربي في سراييفو تغيرت الخطة وآثر الصرب إنقاذ الجنرال الأسير في مقابل إطلاق سراح الرئيس علي عزت.

كان أشأم تطور للأحداث هو ظهور "مليشيات أركان" في مدينة "بيليينا" في أوائل شهر إبريل ١٩٩٢م. وهي عصابات مسلحة تسليحاً مكثفاً ومدربة على أعمال العنف الإرهابية، معظمهم من صربيا لا من صرب البوسنة. كانوا قد أنهوا عمليات "تطهير عرقي" في مدينة "فوكوفار"، وكان بعضهم قد دخل مدينة "بنيا لوكا" في أواخر مارس حيث استولوا عليها ووضعوا الحواجز في الشوارع بعد أن أمطروها بوابل من الرصاص لإرهاب السكان المدنيين.

والآن يجيئون إلى المدينة المسلمة الآمنة "بيليينا" ليبدءوا عمليات "التطهير العرقي" على حد تعبيرهم. فأخرجوا السكان من بيوتهم ومن المسجد الكبير تحت تهديد الأسلحة وبالضرب المهين. وفي ٣ إبريل جاءت التقارير بأن المياه والكهرباء قطعت عن المدينة وأن جثث القتلى منتشرة في الطرقات.[٥٩]

---

[٥٩] "التيمز" اللندنية في ٤ إبريل ١٩٩٢ The Times

كان الهدف الأول هو إرهاب المسلمين حتى يفروا من المدينة، وأما الهدف الثاني من هذه الأعمال فهو أن يعتاد صرب المدينة على العنف، ويشاركوا في ممارسته دون خوف من العواقب، ثم تجنيد الشباب منهم في مليشيات "أركان" لتحقيق هذه الأهداف لم يكن القتل الجماعي ضرورياً في هذه المرحلة بل كان يكفي عدد قليل من القتل العشوائي، ومع ذلك تذكر التقارير الأولية في هذه المرحلة أن أكثر من مائة مسلم قتلوا وألقيت جثثهم في الشوارع أمام أعين المارة.

اختار الصرب "بيلييينا" في أول حملاتهم لأهميتها الاستراتيجية، فهي قريبة من الحدود الصربية و تقع على رأس طريقين: أحدهما يخترق شريطاً عريضاً يمر عبر شمال البوسنة، وكان الصرب يزعمون احتلاله لربط صربيا بقاعدة عسكرية لهم في "بنيا لوكا"، ثم يمتد ليربطها بالمنطقة المحتلة في "كرايينا" الكرواتية. أما الطريق الآخر فيخترق شريطاً آخر من الأرض يمر في شرق البوسنة ممتداً على حدودها مع صربيا ويشتمل على عدد من نقاط العبور اللازمة للإمدادات من صربيا إلى المناطق التي يسكنها أغلبية صربية في البوسنة والهرسك.

في أيام قليلة خضعت مدن أخرى كثيرة ذات أغلبية سكانية من المسلمين على طول الشريط الشرقي للبوسنة لنفس المعاملة التي جرت في "بيلييينا" بعد أن اجتاحتها عصابات: "نمور أركان"، و "النسر الأبيض" بقيادة "ميركو يوفيتش"، و "الشتنك" بقيادة "شيشلي"، كلها كانت تخوض في دماء المسلمين العزل. وفي حالات عديدة كما حدث في الأسبوع الثاني من إبريل في الهجوم على "زفورنك" استلزم الأمر أن تقصف وحدات من الجيش الفدرالي المدينة لعدة أيام حتى هدأت مواقع المقاومة الشعبية تماماً ثم أطلق الصرب عصاباتهم لإكمال المهمة مع السكان المدنيين العزل من السلاح.

نجحت هذه الحملات الإرهابية حيث هرب ٩٥٪ من المسلمين من ديارهم في مدن كبيرة مثل "زفورنك" و "فيشيجراد" و "فوتشا" بنهاية شهر إبريل وفرض عليها الصرب احتلالاً كاملاً.

استخدمت صربيا سيكولوجية الإرهاب- كما ذكرنا من قبل- لإخلاء الأرض من سكانها أولا، ولإقناع الصرب المحليين بأن عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويشاركوا في العمليات الوحشية ضد جيرانهم المسلمين، وكانت "بلجراد" تهيئ المناخ لذلك بواسطة الراديو والتلفاز تحذر صرب البوسنة من "الأستاشا" الكرواتية ومن المجاهدين الأصوليين المسلمين،

وقد رأى صرب البوسنة على مدى الشهور التسع السابقة صوراً تلفازيـة حيـة لجثـث مئـات القتلى والقرى المحترقة في كرواتيا.[٦٠]

كان المقصود بمشاهدة العنف تخويف الفلاحين من صرب البوسنة واقناعهم بـأن العنـف قادم إليهم من أعدائهم وأنه تهديد حقيقي لا مفر منه وكل ما كان مطلوباً بعد ذلك لاستكمال السيناريو هو تلفيق بعض حوادث محلية أمام الفلاحين الصرب، وسوف يقبل الفلاحـون أي أخبار كاذبة يلقنها لهم النشطاء من رجال العصابات الصربية.

مثال ذلك ما جاء في تقرير من مدينة "فوتشا" كتبه "أندريـا جتنشـيتش" مراسـل وكالـة "رويتر للأنباء" يصور فيه كيف تم تدبير هذا السيناريو: "تقول امرأة صربية: (هل ترى هـذا الحقل؟) وهــي تشـير إلـى واد منحـدر بجـانب نـهر درينـا.. (كـان مـن المفـترض أن يبـدأ المجاهدون من هناك ومعهم قوائم بأسماء الصرب الذين سيقتلون).. تقـول المـرأة وهـي تكـرر اعتقاداً سائداً بين سكان القرية وبين الرجال المسلحين جميعاً: (لقد كان اسم ابني على هذه القائمة لذبحهما كمـا تذبـح الخنـازير، وكـان اسـمي علـى قائمـة المجـاهدين للاغتصـاب)" ويسـألها الصحفـي إذا كـانت قـد رأت بنفسـها هـذه القوائـم فتقـول: (إن النـاس قـد رأوهـا وأخبروني) ثم يعلق قائلاً: "لم ير أحد ممن سألتهم هذه القوائم المزعومة ولكن هذا لمن يمنع أحداً منهم من الاعتقاد المطلق بوجودها دون أي استفسار أو تحري".[٦١]

إذا كان هذا شأن الفلاحين الصرب البسطاء فهل كان قـائد الجيـش الفدرالـي فـي شـرق البوسنة الجنرال "ميلان جوفا نوفيتش" يؤمن بهذه الفرية؟. يذكر صحفي إنجليزي أنه بينما كان رجال الجنرال يقومـون بطـرد السـكان المسـلمين مـن ديـارهم فـي مدينـة "فيشـيجراد" البوسنوية كان يتبجح ويزعم أنه لا يزال يقف على أرض يوغسلافية ثـم يسـتمر فـي مزاعمـه الكاذبة فيقول: "لقد كان هنا تمرد قام به المسلمون، وكان مدبراً له منذ فترة طويلة مستهدفاً المواطنين الصرب" يقول الرجل هذا وهو يعلـم أنـه كـذب، فـالذي كـان واضحـاً أن العمليـة العملاقة المنسقة بإحكام بين القوات الصربية النظاميـة والعصابـات الصربيـة الإرهابيـة هـي التي كان مخططا لها منذ قت طويل. وعلـى حـد قـول أحـد المثقفيـن المحلييـن: "بالنسـبة

---

[٦٠] أنظر "ميشا جليني"، المصدر السابق، ص ١٦٦. كان ميشاجليني مراسلاً للتلفزيون البريطاني (BBC) في وسط أوروبا، وعمل مع صحيفة الجارديان ثلاث سنوات لتغطية أخبار المنطقة، كان يتنبأ في مقالاته المبكرة بانهيار يوغسلافيا واندلاع الحرب فيها مكث في يوغسلافيا سبعة أشهر ابتداء من يونيه ١٩٩١ وتجول في أنحائها وشهد جبهات القتال.

[٦١] أنظر "ميشا جليني"، نفس المصدر، ص ١٦٦.

للسرعة التي تم بها هذا العمل ومستوى التنسيق العالي الذي تكشف عنه، إنما يدل دلالة قطعية على أنه لم يكن عملاً عفوياً بأي حال".[٦٢]

باستخدام عنصر المفاجأة وبالتفوق العسكري الهائل للصرب، استطاع الجيش الفدرالي ومليشياته الاستيلاء على أكثر من ٦٠٪ من أراضي البوسنة خلال الأسابيع الأولى من الغزو. صحيح أن أعداداً قليلة من صرب هذه المناطق قد اشتركوا في هذه العمليات، ولكن هذا الغزو الواسع النطاق قد تم- بما لا يدع مجالاً للشك- بواسطة قوات الجيش الفدرالي النظامي الصربي والمليشيات الصربية التي دربت وجهزت وجاءت من خارج البوسنة، وقد استخدمت في هذا الغزو الطائرات الحربية للجيش الفدرالي، لقصف مدن "كوبريس" و "دوبوي" و "توزلا"، وتم كل ذلك بتوجيه من بلجراد.[٦٣]

ورغم كل الأدلة والشواهد التي تؤكد حقيقة الغزو الصربي للبوسنة فإن التصريحات الرسمية الصادرة من "ميلوسفيتش" ومن قادة الجيش الفدالي كانت تحتوي على زعمين فاسدين:

أولهما أن الجيش يعمل فقط كقوة سلام تفصل بين المتقاتلين المحليين.

وثانيهما أنه لا توجد وحدات من الجيش الصربي تعبر إلى البوسنة.

في حين يؤكد شهود العيان أنه ليس فقط القوات غير النظامية هي التي تعبر من صربيا إلى البوسنة، بل إن تجمعات كثيفة من القوات الصربية النظامية تتدفق داخل حدود البوسنة شاملة للأفراد والدبابات والقاذفات في اصطخاب شديد لا يمكن إخفاؤه أو إنكاره.[٦٤]

في ٢٧ إبريل ١٩٩٢م أعلن "ميلوسفيتش" وحكومة "الجبل الأسود" إنشاء دولة فدرالية جديدة (باسم الاتحاد اليوغسلافي الجديد) تتألف من دوليتهما فقط، وقد جعل هذا وضع الجيش الفدرالي في البوسنة في موقف غريب. فهو لا يستطيع الآن أن يتظاهر بحفظ السلام في أرض يوغسلافية.

ولتحسين هذا الوضع أعلن "ميلوسفيتش" في أوائل مايو أنه سيسحب كل الجنود الذي هم أصلاً مواطنون من صربيا "والجبل الأسود" أما أولئك الصرب من أصل بوسنوي فسوف يبقون في جيش جمهورية صرب البوسنة (المزعومة) بأسلحتهم ومعداتهم تحت قيادة

---

[٦٢] أنظر "نويل مالكوم"، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

[٦٣] أنظر نويل مالكوم، نفس المصدر، ص ٢٣٨.

[٦٤] أنظر تقرير الصحفي الإنجليزي "فيليب شيرويل" بصحيفة "الديلي تلجراف" "The Daily Telegraph" عدد ١٦ إبريل ١٩٩٢م.

الجنرال "راتكو ملاديتش". وهكذا استطاع "ميلوسفيتش" أن يبقى على جيش صربيا في أراضي البوسنة، ويعين له جنرالاً من أعوانه، ويخترع لذلك جمهورية في داخل جمهورية البوسنة، لا يعترف بها أحد ولا سند لها من القانون. ولكنها مجرد عملية تجميل زائفة يغازل بها الساسة الأوروبيين، في وقت كانوا مشغولين بأمور أخرى داخلية أكثر إلحاحاً.

ففي الأيام الأولى الحاسمة من إبريل ١٩٩٢ كانت بريطانيا تتهيأ لعملية انتخابات عامة، وكان المعلقون السياسيون مشغولين بهذه الانتخابات، وعندما أفاقوا من الانتخابات لم يستطيعوا أن يروا أمامهم سوي فئات متناحرة يقاتلون بعضهم بعضا.

أما الولايات المتحدة فقد كانت انتخابات الرئاسة على الأبواب (بعد سبعة أشهر)، وكانت إدارة "بوش" مترددة في اتخاذ قرار بشأن البوسنة قد يؤثر على عملية الانتخابات تأثيراً سلبياً، ومن ثم قبلت بدون مناقشة مزاعم القادة الأوروبيين بأن النزاع في يوغسلافيا هو شأن أوروبي.

المقاومة البوسنوية :

بدأت قوات الدفاع المحلي لحكومة البوسنة من نقطة الصفر، وفي إبريل ١٩٩٢م أخذ حوالي (٣٥٠٠) رجل مسلح القيام ببعض أعمال المقاومة، ولكن المقاومة الملموسة كانت تقع على عاتق كروات البوسنة، فقد كانوا على درجة أكبر من الاستعداد خصوصاً في منطقة غرب الهرسك، بعد أن انضم إليهم عدد من مليشيات كرواتية، فتجمع من أولئك وهؤلاء خمسة عشر ألف مقاتل استطاعوا صد الهجوم الصربي على منطقة موستار وإبعاده، وقد انضم إليهم في هذه العمليات خمسة عشر ألف آخرين من جنود جيش كرواتيا جاءوا بصحبة عدد قليل من الدبابات وبعض المدافع.

وفي ١٦ يونية وقع كل من "علي عزت بيجوفيتش" رئيس البوسنة والرئيس الكرواتي "فرانيو توجمان" تحالفاً عسكرياً بين بلديهما يسمح باستخدام القوات الرسمية للجيش الكرواتي بالعمل داخل البوسنة، واستطاعت القوات المشتركة في شمال البوسنة وقف التقدم الصربي، واضطرته إلى التراجع في مناطق أخرى.

ولكن كانت النوايا السياسية للقادة الكروات محوطة بالشك، فقد ألح الكروات على الرئيس "علي عزت" لأسابيع عديدة أن يوافق على إعلان اتحاد كونفدرالي بين كرواتيا والبوسنة، إلا أنه رفض الإقدام على مثل هذه الخطوة، حتى لا يعطي الفرصة للادعاءات الصربية أن تجد آذاناً صاغية عند صرب البوسنة، الذين لا يزالون يقفون مع البوسنويين غير منحازين للقوميين الصرب، وكان لا يزال منهم أعداد كبيرة في البوسنة، ففي سراييفو

وحدها كان يوجد منهم ستون ألف نسمة آثروا البقاء مع جيرانــهم مـن المسـلمين والكـروات رغم الحصار الصربي ورغم القصف المستمر والتجويع المفروض علـى سكانها، وكـان "علـي عزت" يؤمن بأن حكومته يجب أن تمثل صـرب البوسـنة كمـا تمثـل المسـلمين والكـروات، ولذلك حرص على إبقاء الوزراء الصرب في حكومته حتى بعد اندلاع الحرب.

وقد أثار هذه الموقف المتسامح من جانب الرئيس "علي عزت" القادة الكروات. حتى أن "مات بوبان" قائد قوات كروات البوسنة بدأ يضع ضغوطـاً علـى الحكومـة البوسـنوية خـلال شهري يونيه ويوليه ١٩٩٢م، للموافقة على الاتحاد الكونفدرالي، وذلـك عـن طريـق التلويـح بسحب قواته من التحالف، وكذلك التهديد بإعاقة إمدادات السلاح الوارد إلى البوسنة علـى قلته. وفي أوائل يوليه أعلن "بوبان" إنشاء ما أسماه "المجتمـع الكرواتـي هرسـيج- بوسـنيا" باعتبارها منطقة مستقلة، وشرع يستخدم العملة الكرواتيـة كمـا رفـع فيـها العلـم الكرواتـي، متعللاً بأن هذه مجرد مرحلة مؤقتة وأنها سوف تعود في النهاية إلى البوسنة.

كان الرئيس "توجمان" كثيراً ما يعلن أن حدود البوسنة لا يجب المساس بــها، رغـم أن بعض مستشاريه العسكريين وعلى رأسهم وزير دفاعه "جويكو شوشاك" كانوا يحبـذون فكـرة الاستيلاء على جزء من أراضي البوسنة، ولكن بقية الوزراء مـع أغلبيـة المعارضـة الكرواتيـة يرفضون هذه الفكرة.

ويمكن وصف موقف "توجمان" بأنه موقف "انتهازي عقلانـي" بمعنـى أنـه كـان يراقـب اتجاهات القوي العالمية وموقفها من البوسـنة، فـإذا سـمحت هـذه القـوى بهزيمـة البوسـنة وباستيلاء صربيا على أراضيها، فإن "توجمان" سوف يسرع بالانقضاض على البوسـنة لينـال جزءا من الكعكة المقسمة، أما إذا لم يـرى إشـارات فـي هـذا الاتجـاه فسـوف يتوقـف عنـد حدوده الكرواتية. كذلك كانت هناك مشكلة لتوجمان على الأراضي الكرواتية نفسها، حيـث بقيت أوضاع المناطق التـي أعلـن صـرب كرواتيـا اسـتقلالها فـي "كرايينـا وسـلافونيا" غـير واضحة، وكان مصيرها لا يزال معلقاً بين يـدي الأمـم المتحـدة، ولذلـك رأى "توجمـان" أن يجعل من البوسنة ورقة يساوم بها عند تقرير مصير هذه المناطق.

أما موقف المجتمعَ الدولي فقد كان شديد الاضطراب بصفة عامة أو بالأحرى كان سلبياً. فعندما بدأ العدوان على البوسنة كانت الأمم المتحدة بسبيل إنشاء مكتـب لـلإدارة المركزيـة لها في سراييفو، وإقامة بعض قواعد لها في المدن بشمال البوسنة، وذلك لتوجيـه عمليـات حفظ السلام في المناطق المتنازع عليها بين صربيا وكروتيا. ولكن جاء بطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة في مايو ١٩٩٢ ليعلن إلغاء استخدام أراضي البوسـنة لـهذا الغـرض، وفـي ١٦ مايو على وجه التحديد انسحبت القوات التابعة للأمم المتحدة مـن البوسـنة، والأدهـى مـن

ذلك أن بطرس غالي بعد أسبوعين من الانسحاب أعلن في تصريح غريب قال فيه بأن الجيش الصربي والمليشيات الصربية في البوسنة قوات مستقلة وليس لها علاقة ببلجراد، وهي نفس المزاعم الكاذبة التي روج لها "سلوبودان ميلوسفيتش" عبر وسائله الإعلامية، كان يفعل ذلك سعياً وراء التنصل من جريمته العدوانية على البوسنة، كما كان يستهدف أن يجنب صربيا أي حصار يوقع عليها حيث كانت الولايات المتحدة تدعو إلى هذا الحصار في مجلس الأمن ورفضته بريطانيا وفرنسا بحجة أنهما يريدان منح "ميلوسفيتش" فرصة لإنهاء العنف في البوسنة.

والحقيقة أن الحظر كان مفروضاً على صربيا (من الناحية النظرية) منذ ٣٠ مايو ١٩٩٢م إلا أن أثره على المجهود الحربي كان ضئيلاً إلى درجة الانعدام، فلم تنقطع الإمدادات البترولية وغيرها من الإمدادات عن الطريق البري من اليونان، ولا انقطعت الإمدادات من روسيا وأكرانيا عبر نهر الدانوب.

التخاذل وسوء الفهم :

كان موقف القيادات السياسية في أوروبا موقفاً عجباً حيث أقاموه على أساس اعتقاد معلن هو "أن ما يحدث في البوسنة ليس إلا نتيجة صراع مسلح ومن ثم فيهو مشكلة عسكرية لا سياسية)وقد بدا واضحاً أن الساسة الأوروبيين لا يريدون أن يفهموا مشروع "ميلوسفيتش" في إقامة صربيا الكبرى وإنما رأوا شيئاً واحد: (أناساً يطلقون النار على أناس آخرين) ومادام هناك أناس من الطرفين يطلقون النار فكلاهما ملام وكلاهما يستوي في درجة الإثم، ومن ثم جاء تصريح "لورد كار نجتون" المفاوض الأوروبي في يوغسلافيا حيث قال: "كل الأطراف مذنبون بالنسبة لما يحدث في البوسنة والهرسك" وهو تصريح يكشف عن سوء فهم عميق للأمور زاده تأكيداً بتصريح آخر قال فيه: ريثما نتوصل إلى وقف إطلاق النار فلا حاجة إلى لوم طرف دون آخر. هكذا كان التركيز الذي تسمرت عليه جهود الدول الأوروبية هو (وقف إطلاق النار)، وبناء عليه بلغ عدد اتفاقات وقف إطلاق النار خلال بقية عام ١٩٩٢م أكثر من مائة مرة، كان صرب البوسنة هم الذين ينقضونه في كل مرة، وقد أصبح هذا عرضا مرضياً واضح الدلالة على سوء فهم الغرب للجانب السياسي في مأساة البوسنة، وترتب على الانحراف في الفهم انحرافات أخرى كثيرة أدت في النهاية إلى تدمير البوسنة. ويعلق "نويل مالكوم" على هذا قائلاً: "لأن الحرب اعتبرت في أساسها مشكلة عسكرية فحسب وأن سببها شيء سماه الغرب: (العنف الذي اشتعل بين طرفين) لذا اتجهت جهود الغرب إلى محاولة أطلقوا عليها (التقليل من كم القتال)".

ويرى "مالكوم" أن هذا الموقف الغربي كان من أهم الإسهامات الأوروبية في تدمير البوسنة، ويعني مالكوم بذلك- على وجه التحديد- رفض الغرب رفع الحظر على تسليح حكومة البوسنة حتى يتسنى له "التقليل من كم القتال" ولو على حساب طرف واحد هو الضحية.

فرضت الأمم المتحدة هذا الحظر على يوغسلافيا في سبتمبر ١٩٩١م، عندما كانت يوغسلافيا لا تزال- من الناحية النظرية على الأقل- دولة واحدة. ولكن الأمم المتحدة نفسها في ٢٢ مايو ١٩٩٢ اعترفت بالبوسنة دولة مستقلة مختلفة عن يوغسلافيا، ومع ذلك ظلت تطبق الحظر على البوسنة كأن شيئاً لم يتغير. صحيح أن الحظر كان يشمل صربيا أيضاً، لكنها كانت الدولة المعتدية، وكانت من البداية في وضع متميز، حيث كان لديها مخزون مكدس من أسلحة الجيش الفدرالي ومعداته، وكانت تملك الصناعة الحربية التي ورثتها أيضاً من يوغسلافيا السابقة، وحتى تلك المصانع الحربية التي تقع في ضواحي "سراييفو" حرصت صربيا على الاستيلاء عليها خلال الأيام الأولى من الغزو، يضاف إلى ذلك أن الجيش الفدرالي- قبل الحظر- كان قد تعاقد على شراء أكثر من أربعة عشر ألف طن من الأسلحة من إسرائيل، وفي هذا وحده دليل على أن صربيا كانت تدبر للعدوان وتستعد له منذ وقت طويل.

ومن ثم فإن الحظر الذي لم يكن له أي تأثير على الوضع العسكري لصربيا وبالتالي لم يكن له أي تأثير على القدرات العسكرية لصرب البوسنة، هذا الحظر كان بمثابة حكم بالإعدام على دولة البوسنة، وقد وصفه "عمرو موسى" وزير الخارجية المصري أصدق وصف- في بعض تعليقاته على الوضع المأسوي للبوسنة- حين قال إنه "تكتيف ثم إجهاز".

ظلت البوسنة تستغيث بالمجتمع الدولي وبالدول المسلمة لإمدادها بالسلاح، واستجابت بعض الدول المسلمة لهذا النداء، حيث كشفت تحقيقات الكونجرس الأمريكي أن إيران أمدت البوسنة ببعض الأسلحة، وكانت لا تزال تحت سيطرة البوسنة بعض مصانع للذخيرة، كما استطاعت القوات البوسنوية أن تستولى على أسلحة صربية في معارك مايو شمال مدينة "توزلا" حيث أسرت هذه القوات طابوراً صربياً كاملاً بمعداته وأسلحته. ولكن الذي كان ينقص الجيش البوسنوي دائماً هو الأسلحة والمدافع المضادة للدبابات والطائرات. في سبتمبر ١٩٩٢م أصبح الجيش البوسنوي يملك دبابتين وحاملتي أفراد، بينما كان الصرب يملكون في داخل البوسنة ٣٠٠ دبابة و ٢٠٠ مصفحة و ٨٠٠ مدفع و ٤٠ طائرة صربية،

وجاء في تقرير آخر خلال يونيه ١٩٩٣م أن أصبح عدد ما استولى عليـه الجيش البوسنوي أربعين دبابة وثلاثين مصفحة والكثير من الأسلحة الخفيفة.

أما الكروات فكانوا يملكون خمسين دبابة وأكثر من مائة مدفع. وبرغم هـذا الوضع غير المتوازن وبرغم استمرار تدفق الوقود والإمدادات إلى القوات الصربية فقد بدت القوات البوسنوية والكرواتية المشتركة في وضع أكثر تنظيما في أواخر مايو ١٩٩٢م وخلال تسعة أشهر استطاعت هذه القوات أن تكبح جماح القوات الصربية كبحاً يكاد يكون كاملاً، وفي بعض المواقع تمكنت القوات المشتركة من إجبار الصرب على التقهقر من مواقعهم في الهرسك خلال مايو ويونيه، ومن حول "جوارشده" خلال أغسطس، وفي ممر "برتشكو" شمال شرق البوسنة خلال خريف ١٩٩٢م وفي بعض مناطق وادي "درينا" شرق البوسنة في يناير ١٩٩٣م.

ولو استطاعت حكومة البوسنة أن تمارس حقها كأي دولة أخرى في الحصول على الأسلحة للدفاع عن شعبها، لكان من الممكن أن يتراجع الصرب عن كثير من المناطق التي احتلوها في البوسنة، إن لم يكن الإخفاق الكامل لمخططات قادتهم، فعلى الأقل إلى النقطة التي يتحقق فيها الصرب أنهم لن يستطيعوا الاحتفاظ بالأراضي التي استولوا عليها أثناء غزوهم الخاطف، وبذلك كان من الممكن أن تنتهي الحرب خلال أربعة إلى ستة شهور، ولكن هذا لم يحدث لأن السماح بأسلحة لحكومة البوسنة لقى معارضة شرسة من ساسة أمثال "دوجلاس هيرد" وزير خارجية بريطانيا الأسبق، الذي كان يردد دائماً مقولته الشهيرة بأن السماح بأسلحة للمسلمين دفاعاً عن أنفسهم سوف يطيل أمد الحرب ويجلب مزيداً من الدماء، وهو يقصد دماء الصرب التي يحرص على ألا تراق، فما كان لدوجلاس هيرد وأمثاله أن يعبأ بدماء المسلمين ولو سالت أنهاراً.

تقارير عن المجازر الوحشية :

كان "حارس سيلاجيتش" وزير خارجية البوسنة السابق يطوف بعواصم الدنيا ويعقد الندوات ويدلي بالتصريحات في محاولة لتنبيه الرأي العام العالمي إلى أن مجزرة كبرى تدور على أرض البوسنة وأن الصرب يخوضون في بحر من دماء المسلمين في حرب إبادة لم تشهد أوروبا مثلها من قبل، ولكن القليل من الناس هم الذين صدقوا "حارس سيلاجيتش" أن مجازر كهذه يمكن أن تحدث في قلب أوروبا، حتى تمكن عدد من الصحفيين والمصورين الأبطال الوصول إلى بعض معسكرات الإبادة الصربية في شمال البوسنة، ولأول مرة تفجرت صور الإجرام الصربي ضد المسلمين على شاشات التلفاز أمام الشعوب الغربية وأمام ساستهم

الذين لم يستطيعوا مواصلة الإنكار والتخفي. فقد كانوا على علم بهذه المجازر إن لم يكن في تفاصيلها ففي وجودها على أرض البوسنة وعلى نطاق واسع:

كانت هناك تقارير كثيرة أمام الأمم المتحدة من ممثليها في يوغسلافيا، وفي ٢٩ مايو ١٩٩٢م رفعت جماعات حقوق الإنسان العالمية تقارير بخصوص انتهاكات حقوق الإنسان ضد السكان المدنيين المسلمين، وحالات قتل بينهم لا حصر لها، وفي أوائل يونيه ١٩٩٣ أصدرت حكومة البوسنة قائمة بها ٩٤ موقعاً لمعسكرات صربية تحولت إلى سجون ومراكز احتجاز، وعدد تقديري عن الذين قتلوا في هذه المعسكرات يبلغ ٩٣٠٠ نفس، ولم يكن هذا الرقم في الحقيقة يمثل إلا نسبة ضئيلة للعدد الحقيقي الذي قتل من المدنيين، ولكنه العدد الذي استطاعت حكومة البوسنة أن تحصل على وثائق تؤكده في ذلك الوقت. أما الواقع فقد كان أوسع نطاقاً وأكثر عدداً فإن آلافاً من السكان المدنيين قتلوا بالقصف المدفعي، وآلافاً آخرين أحيط بهم وقتلوا أو ذبحوا أو ألقى بهم أحياء في مقابر جماعية ثم أهيل عليهم التراب.

وسوف نعود إلى هذه النقطة بتفصيل أكثر في سياق هذا الكتاب.

المهم أن مثل هذه التقارير كانت موجودة أمام الساسة الغربيين وكان بعضها تقارير مفصلة عن معسكرات اعتقال مخصصة للقتل المنظم، وتقارير أخرى موثقة عن مبان خصصت للنساء من أجل الاغتصاب المنظم، فقد كان الاغتصاب أحد الأسلحة الصربية التي استخدموها في حربهم لإبادة المسلمين.

ولكن أحداً من الساسة الغربيين لم يلتفت إلى هذه التقارير حتى "جورج بوش" الرئيس الأمريكي السابق عندما واجهته الصحافة بهذه الحقائق قال: "إننا نحقق في الأمر" وكأنه لا يعلم شيئاً من قبل ويريد أن يعرف الآن!.

الانفجار الإعلامي :

بدأ الرأي العام العالمي يستيقظ على الحقائق المروعة التي فجرتها وسائل الإعلام العالمية حقائق موثقة بالصور متدفقة على شاشات التلفاز في كل ركن من أركان العالم. هناك فقط بدأ الساسة يعبرون عن استيائهم، فدعى "لورد أوين" إلى توجيه ضربات جوية ضد القوات الصربية. وأضطر "دودجلاس هيرد" لأول مرة أمام صيحات الصحافة بالتدخل الفوري إلى القول بأن "هناك تبريرات كافية للعمل إذا حكمنا بأن بضعة أيام من العمل

العسكري الحاد سوف تنتهي هذه الآلام".[٦٥] هنا يعترف "دوجلاس هيرد" لأول مرة متناقضاً مع تصريحاته السابقة بأنه ربما كان صحيحاً (زيادة حجم القتال) لفترة قصيرة في سبيل إنهاء الحرب على المدى الطويل، ولكنه حتى في هذا الموقف لا يزال معارضاً تسليح البوسنة رافضاً القصف الجوي للقوات المعتدية.

أمام الانفجار الإعلامي وصيحات الرأي العام- كما تعكسه الصحافة البريطانية بالتدخل لوقف المجازر في البوسنة.. ماذا فعلت بريطانيا؟

كانت بريطانيا في ذلك الوقت تتولى رئاسة دورة الاتحاد الأوروبي، بهذا الاعتبار دعت إلى مؤتمر دولي بالاشتراك مع الأمم المتحدة لمناقشة الوضع في يوغسلافيا، انعقد في لندن في آخر أسبوع من شهر أغسطس ١٩٩٢م، حضره رؤساء جمهوريات صربيا وكرواتيا والبوسنة وأصدر المؤتمر توصياته على النحو الآتي:

أولاً- اعتراف جمهوريات يوغسلافيا السابقة بالبوسنة والهرسك.

ثانياً- احترام الحدود الحالية (القائمة).

ثالثاً- ضمان حقوق الأقليات والمجموعات العرقية.

رابعاً- حقوق اللاجئين في العودة إلى ديارهم.

خامساً- إنشاء قوات حفظ السلام تحت رعاية الأمم المتحدة.

في هذا المؤتمر بدا شلل الغرب أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، فإن صربيا مضت تنفذ خططها في البوسنة دون اعتبار لأي شيء، والجدير بالذكر أن "جون ميجور" رئيس الوزراء البريطاني حصل على وعد من "مليوسفيتش" برفع الحصار المضروب على مدن البوسنة وقراها ووعد آخر بوضع الأسلحة الصربية الثقيلة تحت رقابة الأمم المتحدة، وظن "جون ميجور" أنه قد حصل على وعد محترم وأخذ يتحدث به إلى وسائل الإعلام. والذي حدث أن الصرب لم يرفعوا الحصار عن المدن والقرى، ولم يضعوا أسلحتهم تحت رقابة الأمم المتحدة. والمضحك في الأمر أن الصرب أولوا رقابة الأمم المتحدة للأسلحة الصربية على أنه قيام أفراد الرقابة بمراقبة الأسلحة الثقيلة المحيطة بسراييفو ليل نهار وهي تطلق قذائفها على سراييفو. وهذا بالفعل ما قامت به الأمم المتحدة فقد انحصر عمل مراقبيها على تسجيل عدد القذائف التي يطلقها الصرب على المدينة ونوعها وساعة اطلاقها كل يوم.

ومن الإجراءات التي أتفق عليها في مؤتمر لندن أيضاً: إحكام الحصار على الإمدادات القادمة إلى صربيا عبر الدانوب، وفي هذا لم يحدد الغرب كيف سينفذ هذا الحصار وبالتالي

---

[٦٥] أنظر صحيفة الديلي ميل "The Daily Mail" عدد الأحد ٩ أغسطس ١٩٩٢م.

لم ينفذ شيئاً منه، ومن الإجراءات الأخرى إعلان منطقة حظر طيران فوق البوسنة، ولم يفكروا في طريقة لتنفيذها، وسوف نتناول القرارات التي اتخذها مجلس الأمن وحلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي بشأن البوسنة: كيف اتخذت وكيف أنها لم تنفذ والأسباب الكامنة وراء ذلك كله!.

الشيء الوحيد الذي تم تنفيذه مما أتفق عليه في مؤتمر لندن هو تعيين "لورد دافيد أوين" السياسي البريطاني الفاشل مفاوضاً عن الاتحاد الأوروبي بدلاً من "لورد كار نجتون"، وكان أول شيء فعله "اللورد أوين" أنه تراجع عن موقفه السابق فأسقط تأييده للتهديد بعمل عسكري ضد الصرب وبدأ يتعامل معهم كطرف مساو للآخرين في المفاوضات، بمعنى أنه لا يوجد معتدٍ ولا ضحية.

سبق أن ذكرنا أن المجتمع الدولي متمثلاً في دول الغرب قد أخفق في فهم الأسباب الأساسية وراء الصراع في البوسنة، أو أنه فهم ولكنه لا يريد أن يتدخل في حلّه، فالنتيجة واحدة، لذا أصبح التأكيد موجهاً لنوعين من الأشياء: حل عسكري لمشكلة عسكرية (انحصر في وقف إطلاق النار)، وحل إنساني لمشكلة إنسانية انحصر في توصيل الطعام للجائعين والدواء للمرضى. وقد لحق الفشل الذريع بالحل الأول، ونجح الحل الثاني نجاحاً جزئياً، وتم التلاعب به حتى أصبح وسيلة من وسائل الضغط السياسي على حكومة البوسنة للقبول بما لا يجوز القبول به.. ثم تأتي مشكلة "التطهير العرقي" الذي قام به الصرب على أوسع نطاق وأصبحت تلوكه الألسنة في كل مكان، إلا أن دول الغرب أغمضت عنه عينيها واعتبرته نتيجة تابعة للعمليات العسكرية، متغافلة أن التطهير العرقي سياسة استراتيجية صربية، وأن وسيلة تحقيقه هي العمليات العسكرية وليس العكس. وكان هدف هذه الاستراتيجية هو إلحاق الأراضي الخالية بسلطات صرب البوسنة، ثم إلحاق جميع هذه الأراضي في مرحلة تالية بصربيا الكبرى.

فالتطهير العرقي كان جزءًا مركزياً في المشروع السياسي الذي جاءت الحرب لتحقيقه، وهو تعبير سياسي يقصد به الصرب عملياً إبادة السكان غير الصرب واستئصالهم من وطنهم بوسائل وحشية كالقتل والاغتصاب والتعذيب والإرهاب والطرد.

خطة فانس- أوين :

في أكتوبر ١٩٩٢م اشترك كل من "لورد أوين" وزميله "سيروس فانس" مفاوض الأمم المتحدة في مفاوضات مع أطراف النزاع فاستطلعوا آراء الصرب والكروات والمسلمين، وجاء بأول مقترحات مفصلة في محاولة للوصول إلى شيء يرضي الجميع. خلاصة هذه

المقترحات تقضي بتمزيق البوسنة إلى كانتونات على أساس عرقي، تدير شئونها بنفسها كشأن أي حكومة مستقلة بما في ذلك الشرطة، وكل ما يتبقى للحكومة المركزية هو القيام بالدفاع الوطني والعلاقات الخارجية، وعندما وصل الفرقاء إلى جنيفة في يناير ١٩٩٣ كان موضوع "الدفاع الوطني" قد حذف من صلاحيات الحكومة المركزية تحت ضغوط صربية.

فماذا بقي من قيمة لخطة "فانس- أوين"؟ ربما إصرارها على حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم في البوسنة، وألا تُضم المناطق المخصصة لصرب البوسنة إلى دولة صربيا في المستقبل، ولكننا نجد في تفاصيل الخطة تناقضا صريحاً مع هذين المبدأين، وتصادما مع الواقع العملي حتى أصبح عودة المسلمين إلى ديارهم في المناطق التي يسيطر الصرب عليها أمراً مستحيلاً.

هذه الخطة فوق ما فيها من عيوب خطيرة تتعارض مع وحدة البوسنة وسيادتها، فالتعديل الذي اقترحه الصرب وتبناه "فانس" و "أوين" في مفاوضات يناير لم تكن متناقضة فحسب بل أصبحت بالفعل ضارة وخطيرة، حيث شملت الخريطة علامات عرقية موضوعة على الأقسام العشرة، مما أعطى انطباعاً بأن الحدود لم تصل إلى صيغتها النهائية بعد، حيث يوجد في وسط البوسنة مناطق يختلط فيها المسلمون والكروات اختلاطاً شديداً، وكانت هذه العلامات العرقية نذير شؤم بانطلاق الصراع بين المسلمين والكروات.

وهكذا ساهم الغرب بعد حظره السلاح على البوسنة بخطته العرقية لتكون مساهمته الثانية في تدمير البوسنة، وذلك لتوسيع رقعة الصراع الدموي بين المسلمين والكروات هذه المرة، فانطلقت بذلك شرارة حرب أهلية حقيقية بينهما، وقضت على التحالف الكروات المسلم، الذي كان بمثابة حاجز ضد الغزو الصربي.

لقد وُجدت بعض نُذر سابقة: عندما هدد "بوبان بعدم التعاون في فك الحصار الصربي علي سراييفو .. وحدثت إحتكاكات خلال شهر أكتوبر بين المسلمين والكروات في ترافنك و بروزور" وتبادل المسلمون والكروات الاتهامات لسقوط "يايتش" في أيدى الصرب دون مبرر، هذا الموقف المتوتر انقلب إلى قتال صريح بعد ظهور خطة "فانس- أوين" في أوائل سنة ١٩٩٣ فقد حاصرت القوات الكرواتية وحدات من جيش المسلمين في "جورنيا فاكوف" وفي منطقة بين "فيتيز" و "كسيلياك" والتحم المسلمون والكروات في عمليات طرد متبادل، وهي مناطق متنازع عليها في خريطة "فانس- أوين" وفي أبريل ١٩٩٣م تصاعدت الاشتباكات إلى قتال دموي بين المسلمين والكروات في مناطق "ترافنك" و "فيتيز" و "زنيتشا" في وسط البوسنة.

كل هذا كان أثراً من آثار خطة "فانس- أوين" كما صرح بذلك "تاديوز مازويسكي" في تقرير له عندما قال: إن خطة فانس- أوين هي التي فجرت هذه الاشتباكات العرقية.

كانت القوات الصربية قد بدأت في التقهقر من مناطق كثيرة خصوصاً منطقة "براتوناتش" بوادي نهر "درينا"، ولكن انهيار التحالف البوسنوي الكرواتي بسبب خطة "فانس- أوين"، وبسبب الحظر الغربي على تسليح البوسنة شجع الصرب على تصعيد هجماتهم من جديد ضد الجيوب المسلمة في شرق البوسنة وبخاصة على "سربرنيتشا" ، "جيبا"، كانت "سربرنيتشا" في العصور الوسطى من أكثر مدن البلقان ازدهاراً، الآن تحولت إلى معسكر هائل للاجئين تفوح منه رائحة قذرة، وأما مدينة "جيبا" فعندما توقف القصف الصربي عليها دخل المراقبون الدوليون إلى المدينة ليجدوها خالية تماماً من السكان كمدن الأشباح، ووجدوا أن من بقي حياً من سكانها قد فرّ إلى الجبال يعتصم بالكهوف، استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة بما التقطوه من طعام ألقت به الطائرات الأمريكية على المنطقة.

تحت تأثير هذه الضربات القاتلة تحركت حكومة البوسنة في مارس وإبريل ١٩٩٣م نحو الموافقة على خطة فانس- أوين رغم بشاعتها، فقد اتضح للبوسنويين أنه لا أمل في أن يتزحزح الغرب عن قرار حظر تسليح البوسنة. وقد عبر الأمريكيون والألمان عن رغبتهم في إلغاء هذا الحظر، ولكن "دوجلاس هيرد" يأتي ليلقى بكل ثقله لتغيير رأيهما، فقد تسمرت بريطانيا على "خطة فانس- أوين" وجرجرت دول الغرب للموافقة على موقفها المتصلب حتى لا يفكر في أي حلول آخر سوى هذه الخطة، رغم أنها كانت تبدو- حتى للأعمى- بأنها خطة لا يمكن تنفيذها.

لم يكن أحد يؤمن بتنفيذ هذه الخطة بعد بريطانيا سوى "ميلوسفيتش" الذي رأى فيها مرحلة أولى يمكن الانطلاق منها إلى المرحلة التالية بضم أراضي البوسنة إلى صربيا الكبرى، ومن ثم ذهب يحث عميله "رادوفان كراجيتش" على قبولها والتوقيع عليها في اجتماع خاص انعقد في أثينا يوم ٢ مايو ١٩٩٣م، وقد عبر عن هذا أصدق تعبير "دراجوسلاف رانتيتش" المتحدث الرسمي باسم رئيس جمهورية يوغسلافيا الجديدة "دوبراتشا كوسيتش" عندما قال: إنها فقط خطوة أولى.. فلن تستمر طويلاً.. إن أحداً لا يصدق هذه الخطة حتى لورد أوين نفسه"، ثم أضاف مستخفاً: "إن المسلمين سينعمون بمعسكرات إيواء مثل معسكرات ليسوتو الإفريقية، فهذه ليسوتو البلقان.. وسوف يحصل الصرب في النهاية على كل ما يريدون".[٦٦]

---

[٦٦] أنظر تقرير تيم جودا، صحيفة التيمز اللندنية The Times ٣ مايو ١٩٩٣م.

ورغم هذا فقد كان هناك كثير من السياسيين الصرب يعتقدون بأنهم يستطيعون تحقيق ما يريدون في البوسنة حتى بدون الوقوف عند محطة "فانس- أوين" هذه، ومن ثم عارضوا موافقة كراجيتش وحشدوا أنفسهم في برلمان صرب البوسنة المزعوم الذي قرر إجراء استفتاء عام بين الصرب في ١٥ مايو على هذه الخطة وتم رفضها بالفعل، رغم تهديدات "ميلوسفيتش" بإغلاق الحدود ووقف الإمدادات، ولكنه كان مجرد كلام حيث رفض "ميلو سفيتش" أن يقوم أفراد من قوات الأمم المتحدة بمراقبة هذا الإغلاق على الحدود بين صربيا والبوسنة.

أما آخر حكم بإعدام دولة البوسنة فقد صدر في واشنطون يوم ٢٢ مايو ١٩٩٣، وذلك في اجتماع وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة: فقد أسقط المجتمعون فكرة التهديد بضربات جوية ضد الصرب، كما أسقطوا فكرة تطبيق خطة "فانس أوين" بالقوة، وبدلاً من ذلك اتفقوا على تجميع المسلمين أو الباقي منهم وعددهم مليونان من البشر في "ملاذات آمنة" يسمح لهم بالبقاء فيها غير مسلحين تحت حماية قوات الأمم المتحدة، وفي نفس الوقت لم يتضمن قرار هذه المجموعة أي إجراء برد العدوان الصربي على هذه الملاذات، وإنما تضمن فقط أن ترد قوات الأمم المتحدة على النار بالمثل إذا تعرض أفراد هذه القوات للنار من قبل الصرب.

كان "علي عزت" رئيس البوسنة آخر من يعلم بهذا الموقف الدولي العجيب، حيث لم يعبأ الوزراء حتى بمشاورته في الأمر، فلم يلبث أن أصدر بياناً قال فيه: "إذا لم يكن المجتمع الدولي مستعداً للدفاع عن المبادئ التي أعلنها باعتبارها الأساس الذي قام عليها في الأصل فليصرح بذلك علانية لشعب البوسنة ولشعوب العالم أجمع، ويعلن للعالم أن المبدأ الجديد للسلوك الدولي هو أن القوة وحدها هي أول الحجج وآخرها".

وإذا كانت الجريمة الكبرى التي أُرتكبت ضد البوسنة قد خططت لها القيادات الفاشية من غُلاة القوميين الصرب فإن المجتمع الدولي بصمته أحياناً وبسلوكه المائع ومواقفه المتحيزة في أحيان كثيرة، كل هذا شجع الصرب على ارتكاب جريمتهم والتمادي فيها، وساهم- ولا يزال يفعل- في حماية المجرم ليفلت من العقاب. أحاول فيما يلي أن ألخص أبرز معالم التدمير التي أصابت البوسنة شعباً وأرضاً من جراء الحرب العدوانية التي فرضها الصرب على البوسنة:

أولاً- فقدت البوسنة من أبنائها مائتي ألف قتيل، وعشرات الآلاف من المعوقين والمصابين.

ثانياً– أكثر من مليونين من سكان البوسنة، اقتلعهم الصرب من أراضيهم وديارهم ليصبحوا لاجئين مشردين في شعاب الأرض، يتكدّسون في أسوأ معسكرات إيواء عرفتها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.

ثالثاً– بين ثلاثين إلى خمسين ألف امرأة وطفلة تعرضن لعمليات اغتصاب وحشي منظم، فقدت نسبة كبيرة منهنّ حياتهن أثناء الإغتصاب أو بعده وإما بأيديهن فراراً من العار أو بأيدي معذبيهن في أغلب الأحيان، أما الباقيات منهن على قيد الحياة فإن مشكلاتهن النفسية والعقلية والاجتماعية من أعقد المشكلات التي يواجهها المجتمع البوسنوي الآن.

رابعاً– عشرات الآلاف من الأطفال اليتامى اجتثت عائلاتهم من الوجود، ودمرت الحرب بيوتهم وبيئاتهم الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وتركت الحرب بصماتها المروعة على عقولهم الغضة ووجداناتهم.

خامساً– مئات من القرى والمدن أُحرقت ودمرت بأكملها فلم يعد لها أثر، وأصبح من العسير على أهلها التعرف عليها لو استطاعوا العودة إليها.

سادساً– مئات المساجد دمرت عمداً بتفجيرها، ثم جاءت "البلدوزورات" الصربية في اليوم التالي لتكنس أنقاضها وتسوي بها الأرض.

سابعاً– عشرات المؤسسات الثقافية والمباني الأثرية والقناطر التاريخية، والوثائق والمخطوطات، كل هذا دُمّر تدميراً كاملاً لمحو ذاكرة الشعب المسلم إلى الأبد.

ثامناً– دُمّرت البنية الأساسية للبوسنة وتحتاج اليوم إلى ما يقرب من مائة مليار دولار أمريكي لإعادة بنائها من جديد.

هذا هو حصاد الجريمة التاريخية التي ارتكبها "سلوبودان ميلوسفيتش" وأعوانه.

تزييف التاريخ وتزييف حرب :

إذا كانت عبارة "تزييف التاريخ" واضحة بذاتها فإن عبارة "تزييف حرب" قد لا تكون بمثل هاذ الوضوح، وأعني بهذه العبارة هنا استخدام وسائل الإعلام لخلق عدو وهمي غير حقيقي متمثلاً في فئة أو شعب من الشعوب، وشحن عقول فئة أخرى أو شعب آخر بمشاعر الخوف والكراهية والرغبة في الانتقام من الفئة الأولى، وذلك عن طريق حشد الأكاذيب واختلاق وقائع وافتعال مواقف، مع التعتيم الإعلامي الكامل على كل ما يتصل بالفئة (العدو) من حقائق وأخبار وكل مالديها من وسائل للرد على هذه الأكاذيب. بمعنى آخر: يهدف التزييف هنا إلى خلق حالة من الحرب في العقول تمهيداً لشن حرب حقيقية على الأرض.

وسنرى أن تزييف التاريخ وتزييف الحرب موضوعـان متصلان متكـاملان فـي المسلسـل المأساوي للبوسنة، وأن تجليات العبقرية الصربية تبـدو علـى أقـوى مـا تكـون فـي تزييـف التاريخ وتزييف الحرب بالمعنى الذي أوردناه.

ولسنا ندري على وجه اليقين أيهما الأستاذ المبتدع وأيـهما التلميـذ المتّبـع: الصهيونيـة في فلسطين أم الصرب في البوسنة، فإن التشابه بينهما لا تخطئه عين الخبير، أم أنها حالة من العُصاب يصيب فئات من البشر بالبارانوبا الجماعية تحـت ظـروف حضاريـة وتاريخيـة معينة، يقع تحليلها على عاتق فلاسفة التاريخ وعلماء النفس!؟

لاحظ بعض المفكرين أن الضمير الصربي يقوم على مجموعة كبيرة من الأساطير لعـل مـن أهمها أسطورة معركة كوسوفا التي ألمحنا إليها من قبل.

الأساطير والأحقاد:

أشرنا فيما سبق إلـى بعـض الجوانـب مـن معركـة كوسـوفا (١٣٨٩م) التـي وقعـت بيـن الأتراك العثمانيين وبين الصرب، وكيف اكتسبت في التاريخ الصربي أبعاداً أسطورية لا سند لها من الواقع، فكل ما عرف من أمر هذه المعركة على وجـه التـأكيد أن القتـال فيـها كـان بالغ العنف وأنها شهدت خسائر فادحة في الأرواح من كلا الطرفيـن، وأن كـلا مـن "لازار" ملك الصرب و "مراد" سلطان العثمانيين قُتـلا فـي المعركـة، وأن أرض المعركـة تُركـت فـي حوزة الجيش العثماني بقيادة "بايزيد بن السلطان مراد، وأن بازيد بدوره رحـل إلـى بـلاده ليحسم أمر خلافة أبيه بين اخوته. أمّا عدا ذلك فقد ذهبـت الروايـات المختلفـة فيـه شـتى المذاهب، فلم يُعرف على وجه اليقين: ممّن تألف جيش كل من الطرفين؟ وكـم كـان حجـم الجيشين؟ وكيف تطورت أحداث المعركة؟ وما هي نقاط التحـول الهامـة فـي سـير القتـال؟ ومتى وكيف قتـل "لازار" أو "مـراد؟ وهـل انتـهت المعركـة بهزيمـة سـاحقة للصـرب أم أن نتيجتها كانت متعادلة؟.

الملفت للنظر حقاً هو أن المؤرخين الصرب بدلاً مـن أن يلجـأوا إلـى البحـث التـاريخي الموثق عن الحقـائق استـهوتهم الأسـاطير الشـعبية فردّدوهـا، بـل جعلـوا منـها أيديولوجيـة

قومية، وهكذا أصبحت معركة كوسوفا طلسما سحرياً للهوية القومية للصرب.[٦٧] ويميل المؤرخون الصرب المحدثون إلى التفسير الرومانسي لهذه المعركة رغم قيامه على تزييف واضح للواقع، والسبب أنهم يرون في هذا فائدة أكبر بالنسبة لتحقيق الأهداف القومية.

وفي هذا الصدد يدافع "دوبريتشا كوسيتش" أب القومية الصربية الحديثة عن نزعة الصرب إلى إنكار الحقائق التاريخية والتضحية بها في سبيل الوصول إلى أهدافهم القومية حيث يقول: "إن نجاحات الصرب التاريخية تُعزي إلى حيلهم وتلاعبهم بالتاريخ أكثر من اعتمادها على أسلحتهم".[٦٨]

وقد رأينا أن أسطورة كوسوفا قد أُستخدمت بطريقة مقصودة كمصدر أيديولوجي لتدعيم عمليات الإبادة الجماعية ضد المسلمين، وكيف استخدمت في العقيدة السياسية القومية للقوات الصربية المعرفة باسم "شتنك" فأول جملة فيها تقول: "إننا نتبع خطوات فرسان كوسوفا"، وكيف استغلها "سلوبودان ميلوسفيتش" في حملته الإرهابية ضد مسلمي البوسنة عد احتفاله بمرور ستمائة عام على المعركة حيث أعلن يومها: "إن المعركة من أجل تحقيق آمال شهداء كوسوفا سوف تستمر بكل الوسائل، ولن يهزم الصرب بعد اليوم".

الذي يؤكده "نويل مالكوم" في هذا الكتاب هو أن التاريخ ليس هو سبب الحروب المتفاقمة في البوسنة وإنما السبب هو جهل الغرب وأخطاؤه الفاحشة في معالجة هذه الحرب. ويرى المؤلف أن إعادة الفحص الدقيق لتاريخ البوسنة أصبح ضرورياً لإزاحة سُحب سوء الفهم الذي أحاط بالبوسنة وتاريخها والذي شاع في الكتابات التاريخية غير الممحّصة. ويؤكد المؤلف أن البوسنة كانت بوتقة انصهار لأوروبا العصور الوسطى والعصر الحديث، حيث ألتقى الإسلام والمسيحية والتقت الكاثوليكية الرومانية بالأرثوذكسية الشرقية، فتداخلت فيها الخطوط الفاصلة بين الديانات والعصبيات العرقية. ويرفض "نويل مالكوم" كلّيةً فكرة "الصراع الحتمي" والقول بأنه " لا يمكن لهذه العناصر المختلفة التعايش معاً"، وغير ذلك من الأفكار التي يتبنّاها ويروّج لها الساسة الغربيون في محاولة يائسة لتبرير عدم تدخلهم لوقف الحرب التي وصفوها خطأً بأنها "حرب أهلية". غير أن المتأمل في حقيقة واحدة سرعان ما يكتشف زيف هذه المقولة "فقد استغرق الصرب ستة أسابيع فقط لكي يكملوا الاستيلاء على أكثر من ٦٠٪ من أرض البوسنة ولم يتم هذا على يد مليشيات صرب البوسنة ولكن على يد الجيش الفيدرالي الذي يسيطر عليه الصرب وبمساعدة بعض

[٦٧] أنظر نويل مالكوم في كتابه عن كسوفو، المصدر السابق، ص٥٨.

[٦٨] أنظر فكرت كارسيتش، المصدر السابق.

العصابات الإرهابية مثل "نمور أركـان" وهـم جميعاً مـن داخـل صربيـا نفسـها وليسـوا مـن البوسنة. وهكذا يرى "مالكوم" أن الخطر لا ينبثق تلقائياً من التاريخ، وإنما يكمن فـي عقـول القادة المتمرّسين بالإرهاب الفكري والدجل السياسي والغوغائية، وتروّج لـه وسـائل الإعـلام الضخمة التي يملكونها ويتسلطون بها على الشعوب ويحركون الناس وفق أهوائـهم لارتكـاب أبشع الجرائم باسم الوطنية والتطهير العرقي والمجد القومي.

ويعزّز هذه النظرة "هـ. ت. نوريس" في كتابـه "الإسـلام فـي البلقـان"[69] فـهو يـرى أن التوافق بين فئات السكان فـي البوسـنة كـان واضحـاً علـى مـدى السـنين، ويعتـبر البوسـنة نموذجاً فذاً للانسجام الديني والعرقي في منطقة البلقان كلها. كمـا يـرى أن مـا حـدث فـي البوسنة خلال الحرب كان نتيجة لحملات إعلامية مدبرة أشار إلى نماذج منها، كما اقتبس جزءًا من كتاب للدكتور "محمد موفق الأرناؤوط" تحت عنوان "النظرة الصربيـة إلـى الإسـلام في الثمانيات"[70]

وقد رأينا الرجوع إلى الأصل العربي للكتاب والإشـارة بشـيء مـن التفصيـل إلـى الجـهد الذي قام به الدكتور "محمد موفق" في هذا المجال فقد ذكر أنه جمع عـدداً كبـيراً مـن بيـن آلاف المقالات التي نشرتها صحف بلجراد مثل "بوليتكا" و "نين" و "دوجا"، وهي مقالات تتميز بالإثارة سواء في عناوينها أو مضمونها (عن الإسلام والمسلمين) وذلـك بـهدف إحيـاء الأحقاد الدفينة لدى الشعب الصربي ضـد الإسـلام والمسـلمين، مـن خـلال تجسـيم الخطـر الإسلامي والمبالغة في تضخيمه. ومن هنا برزت الحلول التي تبّرر كـل شـيء للتخلّـص مـن الطرف الآخر بكل وسيلة متاحة.

ويشير محمد موفق إلى مقابلة صحفية كنموذج لهذه المقـالات قـامت مجلـة "دوجـا"[71] بتنظيمها مع الدكتور "ميروليوب إيفتيتش" Meroliub Jeftec[72]، ويلحظ المؤلف أن الصرب يستخدمون هذا النوع من اللقاءات وسيلة لشن حملة على الإسلام بصفة عامة وعلى المسلمين في يوغسلافيا بصفة خاصة.. ويستخلص منها أربعة عناصر خطيرة:

---

[69] أنظر "هـ. ت. نوريس" Norris, Harry T. Islam in The Balkans. London. Hurst. 1993.P.295

[70] أنظر محمد موفق الأرناؤوط في كتابه: الإسلام في يوغسلافيا من بلجراد إلى سراييفو. عمّان، الأردن: دار البشير للنشر، ١٩٩٣.ص ٢٤١-٢٤٥.

[71] مجلة "دوجا" Duga عدد رقم ٩ في ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩، (عن المصدر السابق).

[72] د. ميروليوب إيفتيتش أستاذ مساعد بكلية العلوم السياسية بجامعة بلجراد ومؤلف كتاب بعنوان "الجهاد الحالي كحرب".

١- أن انبعاث الإسلام "الأصولي" في يوغسلافيا قد حدث نتيجة للعلاقات التي أقامها تيتو مع الدول الإسلامية.. وهكذا يتحول بعض اللوم إلى "تيتو" كجزء من الحملة التي كانت قائمة ضده في ذلك الوقت.
٢- أن العرب والمسلمين لديهم استراتيجية للسيطرة على العالم وإقامة دولة عالمية واحدة.. وأنهم لكي يحققوا هذا سوف يحاولون إحياء الإسلام في يوغسلافيا.
٣- أن الإسلام بطبيعته يسمح بإبادة الآخرين المخالفين له.. ومن ثمّ يصبح تصّور سيطرة المسلمين في يوغسلافيا هاجساً مرعباً.
٤- أن المسلمين في البوسنة قد خانوا جنسهم وتاريخهم باعتناقهم الإسلام، وهذا على حد قول محمد موفق، هو أخطر الاتهامات، حيث أصبح المسلمون بمقتضاه مسئولين عن أخطاء أجدادهم الذين اعتنقوا الإسلام منذ أربعمائة أو خمسمائة عام مضت.

تجاوزت الآثار التراكمية للسعار الإعلامي الصربي حدود صربيا لتنفذ إلى قلب أوروبا، فتلقتها جهات صهيونية وبروتستانتينية حاقدة وراحت تؤجج النار في الجمرات الخابية ليحترق فيها الإسلام والمسلمين. فقد سرت في أنحاء أوروبا شائعة مؤداها أن الصراع الذي اندلع في البوسنة هو أول انفجار في معركة طويلة بين المسلمين والمسيحيين للسيطرة على العالم، وسوف تنتهي في "أرمجدّون" بالهزيمة الساحقة للمسمين.[٧٣]

لقد فعل الصرب ما فعلوه في حرب البوسنة بالمسلمين من قتل وإبادة وهم يمارسون عملياً مبدأ يستبعد إمكانية التعايش بين جماعات تختلف في انتمائها الديني أو القومي، بينما وجدنا على الناحية الأخرى أن المسلمين البوسنويين طالما أعلنوا صراحة رغبتهم في إقامة دولة مدنية ديمقراطية متعددة الأديان والقوميات، وأن دولة البوسنة لن تصبح جيباً إسلامياً مناوئاً لأوروبا، وإنما على العكس سوف تعني بالاختلاف في النسيج الفسيفسائي الممتزج للمجتمعات التي تحيا في سلام وتعاون.[٧٤]

فما الذي قلب موازين الأمور وجعل المعتدي ضحية بريئة وجعل الضحايا مجرمين يستحقون العقاب؟.

للإجابة على هذا السؤال قدمنا فيما سلف شيئاً من التفاصيل عن الحملات الدعائية التي شنها الصرب ضد الإسلام والمسلمين في يوغسلافيا السابقة بصفة عامة وفي البوسنة بصفة

---

[٧٣] أنظر "فرانسين فريدمان"، المصدر السابق، ص٢٤٨.

[٧٤] أنظر "مارك تومسون" Tompson, Mark: A Paper House: The Ending of Yugoslavia. London: Ventage, 1992.

خاصة، هذه الحملات التي أثيرت في عقد الثمانينات مهدت لظهور القومية الصربية العنصرية وتمكينها في الساحة السياسية، وهي التي هيأت عقول فريق من الجماهير الصربية للفتك بالمسلمين.

ولكن يبقى السؤال: كيف استطاعت العناصر القومية المتطرفة في صربيا أن تتحكم هذا التحكم في وسائل الإعلام وتقضي على هامش الحرية التي كانت تتحرك فيه، وكيف أدارت الحرب الإعلامية بعد ذلك لتدفع بالبوسنة إلى مصيرها المأساوي؟

للإجابة على هذا وضع كاتب بريطاني مشهور هو "مارك تومسون" كتاباً ضمّنه دراسة مستفيضة عن هذا الموضوع جعل عنوانه: "تزييف حرب: وسائل الإعلام في صربيا وكرواتيا والبوسنة"[(٧٥)]

كتاب تزييف حرب ليس تقريراً نمطياً إنما هو قصة مفصلة ذات أبعاد مروّعة للطريقة التي سلكتها وسائل الإعلام في صربيا وكرواتيا، وكيف كانت وسائل الإعلام من أفتك الأسلحة التي استخدمت في حرب البوسنة. ويؤكد مؤلف الكتاب "أن هذه الحرب ما كان لها أن تبدأ أو تستمر بدون الحملات الإعلامية الشرسة التي قامت بها كل من حكومتي صربيا وكرواتيا".

دخلت وسائل الإعلام في دوامة الخطر عندما تمكنت سلطات ذات نزعات قومية عنصرية من الاستيلاء على هذه الوسائل لكي تستخدمها أداة في الحرب لبث الخوف والكراهية والتحريض على العنف.

كانت الحملات الإعلامية التي أطلقتها وسائل الإعلام الصربية في أواخر الثمانينات (١٩٨٦-١٩٨٩) تحمل مضموناً أطلق عليه "الثورة الثقافية الصربية"، وكان الهدف من هذه الثورة هو استثارة شعب تقوقع في سلبيته وقد تمكنت الكراهية في قلبه للسياسات المخادعة وللساسة المخاتلين، وذلك لإقناعه بأن ما يجري ليس من السياسة وإنما على حد زعم "ميلو سفيتش": "إن ما تناقشه اليوم لا يمكن إطلاق كلمة سياسة عليه، إنما هو مسألة أرض الآباء والأجداد". ويصف هذا التحول في الخطاب السياسي "إيفان تشولوفيتش" بقوله: "لقد تغيرت في هذا الخطاب الصورة الذاتية للشعب (من الشعب العامل إلى الشعب الصربي)".[(٧٦)]

---

(٧٥) أنظر مارك تومسون Tompson, Mark. Forging war: The Media in Serbia, Crootia and Bosnia Hersegovina. London: Article 19, International Centre Against Censorship, 1994.

(٧٦) أنظر "مارك تومسون"، تزييف حرب ص٥٢.

تجنبت لغة الخطاب الإعلامي المصطلحات الاشتراكية الرصينة لصالح لغة غوغائية لا منطق لها لغة حافلة بالأسئلة الاستنكارية وعلامات التعجّب، لغة معبّأة بمزاعم رسالية (شعب الأقدار يواجه مصيره)، مشحونة بالتهديد والوعيد بمصير مظلم.. وفي خلفية ذلك كله تتدفق بكائية متصلة مفعمة بنغمة الحسرة على الذات، مترعة باتهامات مروّعة لا تستند على أي دليل أو تحقيق، من قبيل: (المؤامرة الدنيئة).. وإثارة مناخ من التحريض على العنف، كانت لغة الخطاب الإعلامي في لُبّها لغة حرب قبل أن يدرك أحد أن الحرب قادمة في يوغسلافيا.

أصدر "ميلوسفيتش" مجموعة من القوانين والقرارات لتطويق وسائل الإعلام المملوكة للدولة وطرد منها جميع الكتاب والصحفيين الذين لم يبدوا ولاءهم التام لتوجهاته السياسية، ثم تحول إلى وسائل الإعلام المستقلة حتى سقطت جميعها في قبضته، ولم يكتف بهذا بل أخذ بوجه التهديدات العلنية لمراسلي الصحف الأجنبية في بلجراد، وعندما أنذر حلف الأطلسي بضرب أهداف صربية في البوسنة ألغت حكومة بلجراد تصريحات ثلاثة عشر صحفياً أجنبياً كانوا يعملون في صربيا، كما هدّدت بإغلاق مؤسسة "سوروس Sorros في بلجراد وكانت المموّل الرئيسي للصحافة المستقلة في جمهوريات يوغسلافيا السابقة.

ويعلق على هذا الوضع الصحفي الصربي المستقّل "ميلوس فاسيتش" حيث قال: "لو حدث مثل هذا في الولايات المتحدة نفسها وقامت عصابات (الكوكلوكس كلان) بالاستيلاء على جميع محطات الراديو والتلفاز، فإن اندلاع حرب في الولايات المتحدة واقع لا محالة في غضون خمس سنوات فقط".

بعد أن تمت لميلوسفيتش السيطرة الكاملة على وسائل الإعلام وأحكم قبضته على السلطة السياسية في صربيا و "الجبل الأسود" وكوسوفا وفويفدينا بدأ ينفذ خططه التوسعية في كرواتيا ثم البوسنة، وهو مطمئن إلى أن وسائل الإعلام تتحرك رهن إرادته وطوع مشيئته.

نماذج من التزييف الإعلامي :

بعد أن طرد من وسائل الإعلام مئات الصحفيين الأحرار امتلأت بفئات من المنافقين والمتهوسين والمذعورين وفقدت حريتها تماماً- شرعت صحيفة "بوليتكا" بالتحريض على الحرب عن طريق تكثيف الضباب حول الأحداث الجارية في البوسنة، والضرب على أوتار الخوف والكراهية، واستغلال جهل الناس بالحقائق في تضليل الشعب الصربي.[٧٧]

---

[٧٧] أنظر مارك تومسون، نفس المصدر، ص٨١.

في ٨ إبريل ١٩٩٢ زحف الجيش الفدرالي نحو منطقة "زفورنك" واستولى عليها. كان المسلمون يشكلون ٥٩٪ من السكان بينما يشكل الصرب ٣٨٪ فقط، وكان هدف الغزو إخلاء هذه المنطقة من سكانها المسلمين لحساب الأقلية الصربية، علاوة على الأهمية الاستراتيجية لموقع المدينة لوجودها على الممر الذي يربط جمهورية صربيا بالجيوب الصربية الأخرى.

تركزت مقاومة المسلمين حول قلعة قديمة تسمي "كولاجراد" وتمكنت هذه المقاومة من الصمود أمام الجيش الفدرالي عشرين يوماً، ولكن سرعان ما انهارت المقاومة تحت سيل من القصف المدفعي المتواصل، وخرج من المدينة إثنا عشر ألف من السكان المسلمين يهيمون على وجوهم فرار من جحيم "زفورنك". واستطاع الناجون أن يصفوا الجرائم الوحشية التي ارتكبها الصرب ضد السكان الآمنين، وأن يصفوا العمليات الإرهابية والتعذيب والقتل، والنهب العلني لممتلكات المسلمين الذي تم على أوسع نطاق.

فماذا كتبت صحيفة "بوليتكا" عن هذا الغزو الصريح للجيش الفدرالي؟ كتبت الصحيفة في ٦ إبريل: "الصرب يجمعون ممتلكاتهم ويرحلون من "زفورنك" بسبب التوتر". وفي ٩ إبريل كتبت: "لاسلام لأن المسلمين الأصوليين قد بدءوا الهجوم على مجلس المدينة في زفورنك". ونلاحظ هنا أن "بوليتكا" تردد نفس المصطلحات الاستفزازية التي يستخدمها القوميون المتطرفون في صربيا.

في اليوم التالي (١٠ إبريل) كانت الصحيفة تحمل عنوان: "القوات الصربية تسيطر على مدينة "زفورنك"، وعلى الصفحة السادسة عنوان: "زفورنك تحررت"، ثم يمضي الخبر قائلاً: "استولى الصرب على جميع المنشآت الحيوية.. ويجري التطهير المعتاد في أنحاء المدينة.. ويقول المراسل إنه بدلاً من أن يقبل المتمردون الإنذار الذي وُجّه إليهم شرعوا يطلقون النار على قوات الدفاع المدنية. لم تذكر الصحيفة شيئاً مفيداً عن حكاية "التطهير المعتاد" ولا نتائج هذا التطهير الذي ترتب عليه مجازر للسكان المسلمين وطردهم من المدينة.

وهكذا تمضي الصحف الصربية في سيناريو الأكاذيب، تخفي الحقائق وتملأ عقول الجماهير بأخبار ملفّقة ووقائع مزيفة، وتستثير فيهم مشاعر الغضب باتهامات للمسلمين باطلة.

في ١١ إبريل أنكرت الصحف الصربية التقارير المنشورة في صحافة سراييفو عن "زفورنك" التي دمرها الصرب زاعمة أنه "لا يوجد دليل على وقوع ضحايا". ونفت "تايнوج" اليوغسلافية (نقلاً عن وزير الدفاع) نفياً قاطعاً أن المسلمين قد عُذّبوا في "زفورنك".

وفي ١٢ إبريل تعلن صحيفة أخرى: "القوات الصربية تبذل جهوداً خارقة لإخراج أعداد كبيرة من المسلمين المسلّحين تسليحاً جيداً من "كولا جراد" وأن الشيء الوحيد الذي تحطم هو زجاج النوافذ فقط.

وفي ٢١ إبريل تعلن "بوليتكا" أن: "قوات المسلمين لا تزال تطلق النار من بعيد"، وفي ٢٦ إبريل ظهر خبر صغير: "كل شيء هادئ في "زفورنك"". وفي اليوم التالي (٢٧ إبريل): "الدفاعات القوية للمتطرفين المسلمين في "زفورنك" سقطت، والآن ترتفع أعلام يوغسلافيا وصربيا على القلعة، و "شعور بالارتياح على جانبي نهر درينا (يعني في صربيا والبوسنة)، ويمضي الخبر قائلاً: "رفض المتطرفون كل نداءات الجيش الصربي بالاستسلام، كما رفضوا الدعوة إلى السلام ولم يكن هناك بُدّ من إطلاق النار عليهم ليستسلموا" وقد اعترف أسرى الحرب بأن جيش علي عزت يعمل فيه جنود من بنجلادش".

في ٢٨ إبريل أعلنت الصحف أن المليشيات الصربية قد انسحبت من "كولا جراد" واتجهت إلى قرية قريبة حيث فتحت النار عليها، وفي اليوم التالي أعلنت: "أن العلم اليوغسلافي يرتفع فوق القرية، وتحاول القوات الصربية فك أسر المسلمين العزّل من السلاح الذين تحصنوا أسفل المنازل خوفاً من سلطات حكومة البوسنة الظالمة.

وهكذا انطمس كل أثر للمصير المأسوي لهذه المدينة المنكوبة التي تعرضت للتخريب والمذابح والسلب والنهب والتعذيب، وكأن شيئاً من هذا كله لم يحدث قط، وبدلاً من ذلك طالعتنا الصحف الصربية بسيناريو آخر مختلف تماماً: "انتهي الاضطراب والتوتر الذي أحدثته قوات المسلمين الأصوليين باختفائهم من الوجود، وتلاشت سطوتهم وتحطمت خططهم الإجرامية لاستعباد الصرب المحليين".[٧٨]

بنفس الطريقة هوجمت مدن "فوتشا" و "سربرنيتشا" و "بيلييناً" و "فيشيجراد" و "بريدور"، وبنفس الطريقة وردت أخبار هذا الغزو التتري في الصحف الصربية فيضاً من الأكاذيب الإعلامية بلا منطق ولا دليل.

لم يكن مصير الإعلام في كرواتيا بأفضل من مثيله في صربيا، فقد سقط في قبضة الدولة وحزبها الحاكم خلال سلسلة من الإجراءات والقوانين التعسفية. وركزت الرسالة الإعلامية على تضخيم الشعور القومي المتطرف والعداء للصرب وللمسلمين على السواء، وتطور هذا العداء إلى عمليات وحشية ضد المسلمين في بعض مراحل حرب البوسنة بغية استئصال المسلمين من بعض المدن والقرى التي أحرقها الكروات على من فيها من الأحياء، كما أقام

[٧٨] أنظر مارك تومسون، نفس المصدر، ص٨٢.

الكروات معسكرات إبادة على النمط الصربي. وتحقق الآن محكمة لاهاي مع اثنين من مجرمي الحرب الكروات في هذه الجرائم، فلم يعد الأمر خافياً على أحد. ولكننا قد نحتاج إلى كتاب آخر لبحث الجريمة الكرواتية في البوسنة، ومن ثم نكتفي بإيراد الملاحظات التالية:

١- الجريمة الكرواتية لا يمكن مقارنتها بحجم الجريمة الصربية الكبرى وأبعادها المأساوية الشاملة في البوسنة.

٢- كان العدوان الصربي هو الأصل الذي شجع فريقاً من المتطرفين الكروات على ارتكاب جرائمهم ضد المسلمين.

٣- أثبت المسلمون قدرتهم على مواجهة الهجمات الكرواتية وألحقوا بهم الهزائم مما ترتب عليه مصالحات وتحالف فيما بينهما.

٤- يأمل المسلمون على المدى البعيد أن تتولى المعارضة المعتدلة السلطة في كرواتيا بينما تمثل المعارضة في صربيا أسوء العناصر القومية المتطرفة.

الإعلام في البوسنة:

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كان ممكناً لوسائل الإعلام في البوسنة أن تجاري مثيلاتها في صربيا وكرواتيا في هذه الحرب الإعلامي؟

والإجابة التي يقدمها "مارك تومسون" صريحة واضحة وبسيطة، أن هذا كان مستحيلاً. والسبب في ذلك بسيط أيضاً: فلم تكن القيادة البوسنوية من طراز القيادة الصربية أو الكرواتية ذات توجّهات توسعية عدوانية، ولم يكن في مشروعها إقامة سلطة شمولية دكتاتورية على غرار السلطة في صربيا أو كرواتيا، وإنما كان مشروع القيادة البوسنوية ينطوي على بناء دولة ديمقراطية متعددة الأديان والقوميات، ومن ثم خلا برنامجها من أي اتجاه لاحتكار وسائل الإعلام أو سلبها شيئاً من حريتها.

ويعبر عن هذا الموقف "نرزوك تشوراك" مدير المركز الصحفي في سراييفو لأحد الصحفيين الأجانب قائلاً: "إن الحكومة لا تسيطر على وسائل الإعلام" ويعلل ذلك بقوله: "نحن لم نستوعب بعد أهمية المعلومات في وقت الحرب.. ثم إن لدينا هنا ديمقراطية أكثر مما ينبغي".[٧٩]

لم تكن البوسنة ديمقراطية في عهد "علي عزت بيجوفيتش" أكثر مما ينبغي فحسب، بل كانت حسنة النية أو حسنة الظن بجيرانها أكثر مما ينبغي أيضاً. وكان أكثر ما وُجّه إلى

---

[٧٩] أنظر مارك تومسون، نفس المصدر ص٢٢٠.

"علي عزت" من نقد يأتيه من هذه الناحية، بمقدار ما كان يأتيه بسبب اعتماده أكثر مما يجب على موقف الغرب والمجتمع الدولي في مساندة قضية بلاده العادلة ومساعدة حكومته في الدفاع ورد العدوان عن بلاده.

يمضي "مارك تومسون ليكشف عن موقف القائمين على الإعلام في البوسنة الذي اتسم بحسن الظن إلى درجة السذاجة فيكتب عن صحفي سابق في سراييفو يقول: "لقد كنا نستخدم تقارير وكالة أنباء "تانيوج" اليوغسلافية بدون تردد أو تحقّق، حتى تبين لنا أن تقارير الوكالة تتناقض مع واقع الأحداث كما شاهدناها وكما وقعت في خبراتنا اليومية.

في هذه الفترة كان تلفاز البوسنة نفسه يستخدم لغة محايدة في خطابه الإعلامي وهو ينقل أخبار العدوان، لدرجة أن الصحفي "زلاتكو ديجاريفيتش" أبدى دهشته في مقاله اليومي بصحيفة "أسلوبودينيا" في ٢ يونيه ١٩٩٢م قائلاً: "إن الصحفيين يريدون أن يعرفوا متى سيبدأ تلفاز البونسة والهرسك يسمي الأشياء بأسمائها ويستخدم عبارات عن الحرب تنطبق على حقيقة ما يجري في الواقع.. ذلك لأن تلفاز البوسنة وهو يرفع شعار الاعتدال قد تجنب تحديد اسم المعتدين الحقيقيين في هذه الحرب".

ولكن كانت هناك أبعاد أعمق وأشد تعقيداً في أزمة الإعلام والإعلاميين البوسنويين مما يبدو على السطح، فبعض الإعلاميين من صرب البوسنة بدءوا يفكرون في الانتقال إلى الجانب الصربي ومن ثم تركوا الباب مفتوحاً لتحقيق هذه الإمكانية في وقت لاحق، لقد بقي عشرات الألوف من صرب البوسنة في وطنهم لم يلحقوا بالجانب المعتدي من القوميين المتطرفين، ولكن الذين كانوا يعملون في وسائل الإعلام البوسنوية تميزوا بوضع لا يحسدون عليه فقد كانوا يخشون من العقاب الذي ينتظرهم على أيدي أعوان "ميلوسفيتش" و "كراجيتش" إذا هم نطقوا بالحقيقة، وقد رأوا بأعينهم أن محطات الإذاعة والتلفاز في البوسنة كانت مستهدفة بالقصف الصربي. ولما أعلن الإذاعي "تربويفتش" لأول مرة أن الصرب هم المعتدون، وصفته الصحف الصربية بأنه "صحفي جهادي" وتعني هذه العبارة عند الصرب أنه "مسلم إرهابي" وقد اضطر "تربويفتش" إلى نقل أسرته من سراييفو إلى مكان مجهول خوفاً من الانتقام الصربي، فلما قتل أبوه في ظروف غامضة كان الشك يحوم حول جيرانه الصرب الذين انتقموا من الأب لفعلة ابنه الذي صرح بالحقيقة.

ظل الإعلام البوسنوي غير قادر على التعبير عن الواقع بوضوح حتى بعد أن رحل الجيش الفدرالي عن البوسنة لأنه كان مكبلاً بالخوف- لا من حكومة البوسنة- ولكن من مخططات العدوان الصربي الذي قضى على حرية الفكر والإعلام في بلجراد وأخذ يضيّق الخناق على سراييفو.

بعد أن ثارت العاصفة الإعلامية الصربية في أواخر الثمانينات وتكاثفت سُحبها الداكنة فوق كوسوفا ثم سلوفينيا وكرواتيا كان "جوران ميلتش" ينصح زملاءه قائلاً: "لا تتورطوا في هذا المستنقع ولا تتعرضوا لهذه الأحداث الدموية، يكفيكم أن تهتموا بالأخبار الاقتصادية وما شابه ذلك".

نتيجة لذلك الموقف كان تأثير الإذاعة والتلفاز البوسنويين على الجماهير عكس تأثير الإذاعة والتلفاز في بلجراد وزغرب على جماهير صربيا وكرواتيا؛ ففي صربيا وكرواتيا كان الإعلام يهيئ الجماهير للحرب ويحرضهم على الكراهية والحقد، بينما كان تأثير الإعلام البسنوي بمثابة نزع السلاح النفسي للجماهير.

كانت توجد عوامل أساسية لهذا الشلل الإعلامي يلخصها مارك تومسون في الآتي:

أولاً- العامل السياسي:

كان موقف حزب العمل الديمقراطي (المسلم) هو الاستمرار في التفاوض للإبقاء على فتيل القنبلة منْعا لانطلاقها. وفي آخر ديسمبر من العام نفسه ذهب كبار قادة الجيش إلى سراييفو وأكدوا للرئيس علي عزت أن الجيش الفدرالي لن يتدخل لفرض حل على البوسنة بالقوّة، وفي أوائل ١٩٩٢م سمح الرئيس علي عزت للجيش الفدرالي بتجريد وحدات الجيش البوسنوي من السلاح تأكيداً لحسن نواياه واعتقاداً منه أن أوروبا لن تسمح بغزو البوسنة وأنها ستقف إلى جانب الحق.

ثانياً- العامل النفسي:

الاعتقاد بأن الجيش الفدرالي لا يمكن أن يتحول ضد البوسنة برغم ما قام به في كرواتيا، وأن المجتمع الدولي وأوروبا بصفة خاصة لن يسمحا بنشوب حرب في يوغسلافيا، وكان هذا الاعتقاد سائداً بين الصحفيين البوسنويين.

ثالثاً- العامل المهني الوظيفي:

كان يعمل في سراييفو في أواخر الثمانينات عدد من الصحفيين أكثرهم اعتاد الحياة في نظام شمولي يتلقى توجّهاته من السلطة المركزية، وكانوا يشعرون بخطورة التحول الرهيب إلى القومية المتطرفة، وكان بعضهم لا يستطيع أن يتصور هذا الخطر أو يخطر على باله أن ينتقل إلى جمهوريتهم فقد كان ولاؤهم المطلق ليوغسلافيا وللجيش الفدرالي.

رابعاً- العامل الثقافي:

ويتمثل في ميل البوسنويين إلى روح الفكاهة والارتفاع بأنفسهم عن روح التعصب القومي الذي تفشّى في صربيا وكرواتيا.. ونتيجة لذلك كان البوسنويون يميلون إلى الانتفاع بالشك لثقتهم بأنفسهم أمام دعاوى القومية الزائفة عند الصرب والكروات.

في أوائل مايو ١٩٩٢م تصاعدت التهديدات الصربية للعاملين في حقل الإعلام بالبوسنة، وأخذ عدد منهم يهجر سراييفو حيث التحق بوظائف إعلامية في جمهورية صرب البوسنة المزعومة، وأصبح من الصعب على الباقين أن يذهبوا إلى أعمالهم فقد كانت الشوارع مفتوحة لنيران القناصة الصرب وقذائفهم،ولم تسلم محطة التلفاز من القذائف الصربية، وكانت النتيجة فوضى عارمة سُرقت فيها معظم الأجهزة ونقلت إلى محطة تلفاز صرب البوسنة.[٨٠]

لم يختلف مصير راديو البوسنة عن مصير التلفاز ولا كان موقفه من تناول الأحداث مختلفاً؛ فخلال الشهر الأول من الهجوم الصربي حرص الراديو على أن يذيع وجهات نظر جميع الأطراف بما في ذلك الحكومة والصرب والكروات والجيش الفدرالي ليوغسلافيا، مع أقل تعليق ممكن من جانب المذيع، وكان "تودور دوتينا" مدير إذاعة صرب البوسنة يتلفن لإذاعة سراييفو لإذاعة حديثه على الهواء مباشرة، ولكن القادة المتطرفين لم يعجبهم وجود إذاعة تسمح للرأي الآخر أن يصل إلى الجماهير، ففي منتصف إبريل ١٩٩٢م اتصل "دوتينا" بإذاعة سراييفو وأنذرهم إذا لم يتركوا ذبذبات محطتهم لصالح راديو الصرب فسوف يضرب راديو سراييفو، وفي أكتوبر ضربت محطات الإرسال بالفعل.

شهود عيان :

بفضل جهود بطولية من بعض الصحفيين وأفراد مجهولين من عمليات الإغاثة الدولية تسربت إلى العالم الخارجي أنباء المذابح الصربية لشعب البوسنة. وكان أول من تحدث عن هذه المذابح هو الصحفي "راي جوتمان" مندوب صحيفة "نيوز داي" News Day الأمريكية في تقرير له عن وجود معسكرات صربية سرية في شمال البوسنة تجري فيها أعمال تعذيب وحشية وقتل على نطاق واسع ضد السكان المسلمين. وكان "إدْ فوليامي" Ed Vuliamy مندوب صحيفة الجارديان البريطانية وفريق من مصوري محطة "ITN" للتلفاز البريطاني هم أول من دخل هذه المعسكرات، ومن هذا الوقت بدأ العالم يسمع عن معسكرات "أومراسكا" و "مانتشا" و "ترنوبوليا".

كانت صدمة العالم أمام المشاهد المروعة والتقارير المأساوية عن مجازر البوسنة صدمة يصعب وصفها بالكلمات، ويصعب على العقول تصديقها، وأصبحت الحاجة ملحّة إلى مزيد من التأكيد ومزيد من الفهم لما يجري في البوسنة من أحداث. من هنا بدأ الصحفيون

---

[٨٠] أنظر مارك تومسون، نفس المصدر، ص٢٣١.

ومندوبو وكالات الأنباء العالمية يتدافعون إلى البوسنة رغم المخاطر الأمنية فيها ورغم سقوط ضحايا من الصحفيين والمصورين برصاص المليشيات الصربية، التي ساءها أن تتسلل إلى مسرح الجرمية عيون أجنبية ، هذه العيون هي التي أيقظت الرأي العام ليضغط على حكومات الدول الغربية لاتخاذ موقف جاد لرد العدوان الصربي وإيقاف المجازر.

يقول "دافيد ريف"[81] لقد طُلب مني أن أذهب إلى البوسنة لأكتب لصحيفتي عن شيء اسمه "التطهير العرقي"، ولم أكن أعرف حينذاك ماذا يعني هذا المصطلح، فلما شهدت الأوضاع المأساوية في البوسنة واطلعت على المجازر الصربية للبوسنويين في ربيع ١٩٩٢م، كنت أتصور أنه بمجرد أن أبعث إلى وطني بأخبار هذه المذبحة فسوف تنهض دولتي لتقف ضد هذه المذبحة وتمنع استمرارها، ولكني تعلمت أول درس ورأيت أنه كان يجب عليّ أن أفهم أفضل مما فعلت، فلا أومن بقوة الحقيقة المجرّدة التي لا يدعمها سلاح. تعلمت هذا وأكدته الأحداث خلال العامين التاليين حتى شتاء ١٩٩٤م، وبقي على أن أضم صوتي إلى أولئك الذين كانوا أكثر شجاعة مني أولئك الذين خاطروا بحياتهم ليقدموا شهادتهم على ما يحدث في البوسنة وهم على يقين بضرورة أن تبقى قضية البوسنة حية متوهجة. ويمضي "دافيد ريف" يتحدث عن تجربته فيقول: "كان من الضروري أيضاً أن أقرر لماذا ظللت أنا وعدد كبير من الكتاب الغربيين والمصورين وصحفيين من تلفازات العالم نقاوم نصائح أصدقائنا وحتى رؤسائنا بالكف عن الذهاب إلى البوسنة التي تزداد المخاطر فيها يوماً بعد يوم، فنحن لم نكن نعتقد فقط أن ما كان يحدث في البوسنة مأساة فكل الحروب مأساوية– ولكن كنا نذهب لأننا أدركنا أن القيم التي تمثلها جمهورية البوسنة والهرسك جديرة بالحياة والبقاء، فالمثل العليا لمجتمع التزم في حياته بالتعددية الثقافية بالمعنى الحقيقي والممارسة أكثر مما حدث في الولايات المتحدة نفسها، والتزم بالتسامح، والفهم العميق أن الهوية الوطنية تُستمد من المواطنة المشتركة لا من الانتماء العرقي، هذه المثل هي بالضبط القيم التي ندعيها نحن في الغرب لأنفسنا... لقد اقتنعت خلال إقامتي ومشاهداتي في البوسنة واحتكاكي بأهلها، ولازلت مقتنعاً حتى الآن بأننا (أعني العالم الغربي) ليس علينا التزام أخلاقي بالدفاع عن استقلال البوسنة فحسب، ولكن لنا مصلحة حقيقية في هذا الدفاع أيضا... وللأسف خسرنا هذه المعركة، ولكن بقي علينا التزام آخر: أن ندلي بشهادتنا أمام العالم، التزام إزاء الذين قضوا نحْبهم والذين بقوا على قيد الحياة. إن قضية البوسنة كانت وستظل قضية عادلة، وكان يجب أن تكون بحق قضية الغرب منذ البداية، وكان التدخل

---

(81) أنظر دافيد ريف في مقدمته لكتابه عن البوسنة:

Rieff, David. Slaughter House: Bosnia and The Failure of the West. London: Vintage U.k.,1955.

إلي جانب البوسنة بمثابة الدفاع عن النفس بالنسبة للغرب وليس صدقة يتصدّق بها على أناس غرباء".

يقول "دافيد رييف" في موضع آخر: "قاتل شعب البوسنة ثلاثة أعوام كاملة قتالاً عنيداً مستميتاً للحفاظ على طبيعة البوسنة متعددة الأعراق والأديان وكان هذا مثار إندهاش من المراقبين، ولكنهم أثناء ذلك كانوا يُقتلون لا لجريمة ارتكبوها وإنما لمجرد أنهم مسلمون وشردوا لمجرد أنهم مسلمون".

ويقول في موضع آخر على لسان رجل قانون من بلجراد: "لو كان علي عزت ملاكا فإن الحرب كانت قادمة إليه لا محالة" ثم يمضي متحسّرا: "إن البوسنة يعيش فيها شعب يمثل فضائل فريدة وتسامحاً فريداً في وسط البلقان، وهي بذلك تمثل دولة نموذجية كان يجب الحفاظ عليها وكان يجب إنقاذها".[٨٢]

تؤكد هذا المعنى كاتبة أمريكية هي "فرانسين فريدمان" فتقول باختصار: "البوسنة والهرسك هي بوتقة الانصهار اليوغسلافية"[٨٣]

ويقول كاتب آخر: "ارتحلت في أنحاء البوسنة لمدة خمسة عشر عاماً وعشت مع المسلمين والصرب والكروات في مدنهم وقراهم، ولا أستطيع أن أصدق تلك المزاعم التي تدعي أن البلاد كانت تغلي بالكراهية والأحقاد العرقية كما يحلو للبعض أن يقول، ولكن بمتابعتي لبرامج الراديو والتلفاز في بلجراد خلال الفترة من ١٩٩١ إلى ١٩٩٢م أستطيع أن أفهم كيف أن صربيًّا عاديا من البوسنة أصبح يؤمن أن هناك خطراً يهدد حياته من عصابات الأستاشا الكرواتية أو من المجاهدين الأصوليين أو غير ذلك".[٨٤]

يقارن "ميشاجليني" بين أهم أربعة رؤساء جمهوريات يوغسلافيا هم: "ميلوسفيتش" الصربي و "توجمان" الكرواتي و "كوتشان" السلوفيني و "علي عزت" البوسنوي، فيقول عن الثلاثة الأول: كانت أخطاء هؤلاء الرؤساء الثلاثة وطماحاتهم القومية بالإضافة إلى تعطش ميلوسفيتش إلى السلطة والسيطرة- هي الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انهيار يوغسلافيا سريعاً وهي التي جلبت الكارثة على البوسنة" وأما عن "علي عزت" فيقول "ميشاجليني" إنه كان هو وشعبه ضحية بريئة، ثم يمضي فيقول: "إن علي عزت الذي يؤمن بإمكانية

---

[٨٢] أنظر دافيد رييف، نفس المصدر، ص١٢.

[٨٣] أنظر فرانسين فريدمان، المصدر السابق، ص٢٢٧.

[٨٤] أنظر نويل مالكوم، المصدر السابق، ص٢٥١.

التعايش بين جميع المواطنين رغم اختلاف دياناتهم وقومياتهم في إطار وحدة وطنيــة قائمـة على الديمقراطية والحرية الدينية هو الذي رفض تقسيم البوسنة على أساس ديني"[٨٥]

حقيقة الجيش الذي لا يقهر :

الزعم بنقاء جنس مـا عـادة مـا يكـون مقدمـة لدعـوى اسـتعلائية عنصريـة موجهـة ضـد مجموعة بشرية أخرى وربما ضد جميع البشر، هذا درس تاريخي لا يجـب أن ننسـاه، فقـد كانت مثل هذه المزاعم دائماً مصدر ويلات وكوارث أصابت الإنسانية، وجرت بسـببها دمـاء الأبرياء والضحايا أنهاراً، حدث هذا في التـاريخ القديـم كمـا حـدث فـي التـاريخ الحديـث والمعاصر:

كان الرومان قديماً يعتبرون أنفسهم السادة الأحرار وبقيــة العـالم برابـرة وعبيـد، واعتـبر الرجل الأبيض في أوروبا نفسه السيد وبقية البشر عبيداً له، وجاء الاستعمار الغربي لتحقيـق هذه النظرية في الواقع، فأباد شعوباً وطمس حضارات في أمريكا واستراليا، واقتلـع ملاييـن البشر مـن أوطانـهم وبيئاتـهم فـي أفريقيـا ليحولـهم إلـى عبيـد وأدوات لزراعـة الأرض فـي الولايات المتحدة الأمريكية. ورأى هتلر أن عرقـه الألمـاني هـو أنقـى هـذه الأعـراق البيضـاء وأولاها بالسيادة والسيطرة فأعلن حربه على الجميـع وأخضـع العـالم لمجـازر عُرفـت باسـم "الحرب العالمية الثانيـة". ومـا حـدث للشـعب العربـي فـي فلسـطين علـي يـد الصهيونيـة العالمية– باسم الحقوق التاريخية المقدسة لليــهود فـي أرض فلسـطين– فيـه مـن الاسـتعلاء العنصري أرزله ومن الممارسات اللاإنسانية أبشعها. وليست كارثة البوسنة المعـاصرة ببعيـدة عن هذة الغوابات، بل هي أقرب ما تكون إلى كارثة فلسطين شبهـا، فقد استند العدوان فـي كليهما على مزيج من المزاعم العنصريـة والأكـاذيب الأسـطورية وتزييـف التـاريخ وتحريـف الحقائق، وأدى العدوان عليهما في النهاية إلى نفس النتائج المدمرة، حتـى وصـف الجيـش الصربي بأنه الجيش الذي لا يقهر أخذ نفس الوصف الذي أطلق على جيش إسرائيل.

ولكن مأساة البوسنة فاقت جميع النماذج السابقة عليها فــي أن حوادثـها وقعـت تحـت سمع وبصر العالم كله على شاشات التلفاز، ولم يستطع الصرب إخفاء جرائمهم البشـعة فـي البوسنة كما استطاعت إسرائيل.

فما حقيقة هذا الجيش الصربي الذي لا يقهر؟

كان يحلو للقادة السياسيين في أوروبـا وعلـى الأخـص فـي بريطانيـا أن يتشـدقوا بـهذا الكلام في أجهزة الإعلام لتخويف شـعوبهم مـن التدخـل فـي البوسـنة وإقنـاع الـرأي العـام

---

[٨٥] أنظر ميشاجليني+ Glenny, Micha. The Fall of Yugoslavia. London: Penguin Books, 1992.P153

بالمبررات التي تمنعهم من التورط مع الصرب، ولذلك طالما كانوا يرددون خرافة أن الصرب قاتلوا جيش هتلر القوي وأوقعوا به خسائر فادحة في حين أنهم يعلمون أن الألمان لم يعبأوا بقوات تيتو، ولم تكن المواقع التي سيطر علها في يوغسلافيا تدخل في نطاق إستراتيجيتهم العسكرية، ولذلك لم يدخلوا معه في أي معركة وإنما تركوا هذه المهمة لقوات الأستاشا الكرواتية المدعومة من ألمانيا بالسلاح وبالقيادة والتوجيه.

نعود إلى السؤال الذي طرحناه آنفا: ما هي حقيقة الجيش الصربي الذي لا يقهر؟

لا أذكر على وجه التحديد متى سمعت ولا ممن من المحاضرين في بريطانيا قال في أحد المؤتمرات عن البوسنة: أن الصرب يقاتلون حقا كأحسن ما يكون القتال فقط ضد النساء والأطفال والمدنيين المجردين من ا لسلاح، ويفتقد الجيش إلى الانضباط والكفاءة التنظيمية، أما الذي يحرك الجنود والضباط ف الميدان فهي الخمر والأناشيد والدعاية القومية. وقد حدثت في هذا الجيش مائة وخمسون ألف حالة هرب من الخدمة، مثل هذا الجيش لابد أنه يعاني من انهيار في روحه المعنوية.

كتب "مارك ألموند" أستاذ التاريخ في "أوربيك كوليج" بجامعة أكسفورد يقول: "إن صرب اليوم تدفعهم الرغبة في الانتقام من هزائمهم أمام المسلمين منذ قرون مضت إلى ارتكاب أعمال وحشية لا مثيل لها، ولكن ما مدى قوة وشراسة هؤلاء الأبطال القوميين؟ إنهم يشربون الخمر ويتعاطون المخدرات التي توفرها لهم عصابات المافيا المتحالفة مع "ميلوسفيتيش"، بينما يقومون بقتل الأطفال واغتصاب أمهاتهم، ولكنهم لا يظهرون أدنى شجاعة أو مقدرة إذا ووجهوا بقتال حقيقي أمام خصم يقاتلهم من موقع متكافئ.. بل ذُكر عنهم أنهم يسارعون بالفرار من مواقعهم لمجرد إشاعة تصل إليهم بأن طائرة أمريكية على وشك الهجوم إن حفنة من المقاتلين المسلمين مسلحين ببنادق قديمة من الحرب العالمية الثانية تمكنت من وقْف غزوهم لمدينة سربرنيتشا" ومنعهم من دخولها لمدة ثمانية أشهر" وأصبح أسلوبهم الوحيد في القتال هو الجلوس على التلال المحيطة بالقرى والمدن وقصفها عشوائياً بالمدفعية والدبابات حتى يتم تدميرها تماماً، ثم ينزلون إليها ليغتصبوا نساءها ويقتلوا أطفالها ويذبحوا رجالها العزل".[٨٦]

أما شاهد العيان الذي زار البوسنة ثلاث مرات وعاين الجبهة حول سراييفو في حماية الضباط البريطانيين وتحت مظلة قوات الأمم المتحدة فهو "بادي آشداوين" زعيم حزب معارض في بريطانيا هو "حزب اللبراليين الديمقراطيين"، وهو مثقف لامع ومتحدث لبق،

---

[٨٦] أنظر "الديلي ميل" الصادرة في بريطانيا ١٩/٤/١٩٩٣م "The Deily Mail"

وصاحب خبرة عسكرية فقد كان في السابق ضابطاً في الجيش، يقول: "إن وصف الصرب بأنهم مقاتلون شرسون أكذوبة كبرى، فقد رأيتهم بنفسي في الجبال المحيطة بسراييفو، وحيثما ذهبت- في الصباح أو المساء- أراهم سكارى يقصفون المدينة ويدمرونها لا لشيء إلا للمتعة والتسلية" ثم يقول: "لقد أوضحت هذه الحقائق في خطابي إلى "جون ميجر" (رئيس الوزراء).. وأراهن أن هؤلاء الصرب بمجرد أن يسمعوا صوت طائرة سيفرون إلى الأحراش ولن تراهم في مواقعهم مرة أخرى"

ومع ذلك لا يمل قادتهم من أمثال "كراجيتش" و "ملاديتش" من إنذار العالم وتوجيه الوعيد إلى الدول الكبرى بالويل والثبور... وفي عالم وحشي لا يرحم يتستر عليهم ويبارك جهودهم في خبث ودهاء "أليس من حقهم أن يتدللوا ويتصرفوا كما يحلو لهم!".[87]

التطهير العرقي وأساليب الإرهاب:

لن ندخل في متاهة التعريف بمصطلح "التطهير العرقي" عند الصرب، إذ يكفي أن نرى ماذا صنع الصرب في البوسنة باسم "التطهير العرقي"، حتى نفهم ماذا حدث، وحتى هنا فإننا لا نستطيع أن نحصر كل ما صنعوه، فقد أُلِّفت في ذلك كتب كثيرة، كل كتاب تناول عنصراً واحداً أو أكثر من عناصر "التطهير العرقي" مثل: اغتصاب النساء، ومعسكرات الاعتقال، والحرب الإعلامية، إلى غير ذلك من موضوعات.

وكل ما نستطيع تأكيده هنا هو أن سياسة الصرب في "التطهير العرقي" استهدفت طرد السكان من وطنهم وإحلال صربيين مكانهم وذلك باستخدام وسائل وأساليب إجرامية جمعت بين أساليب هتلر النازية وأساليب استالين الشيوعية معاً، وتفوقت عليهما أحياناً في وحشيتها وقذارتها.

وسنتناول فيما يلي بعض نماذج ذات دلالة واضحة على طبيعة "التطهير العرقي" وأساليبه الصربية.

"بنيا لوكا" ولجان الكوارث:

تعتبر مدينة "بنيا لوكا" ثالث أكبر مدينة في البوسنة بعد العاصمة "سراييفو"، وكانت مركزاً للصناعات الخفيفة والتجارة، فهي السوق الرئيسة للحاصلات الزراعية في المنطقة، تتمتع بوجود عدد من الفنادق الفاخرة والمساجد والكنائس. ولذلك كانت منطقة جذب للطبقة الوسطى من السكان. إنها لا تحتوي على معالم سياحية مثل مدينة "موستار" ولا يخيّم عليها جو مراكز الصناعات الثقيلة كما في مدينة "توزلا" و "زنيتشا". ولكنها تتمتع

---

[87] أدلى بادي آشداون "Bady Ashdown" بهذه التصريحات في برنامج "بنوراما" بالتلفاز البريطاني في ١٩٩٣/٤/١٩م.

بحياة اجتماعية خصبة يمتزج فيها سكانها من المسلمين والصرب والكروات في سلام، حتى فاجأتها الحرب وهبط عليها شياطين التطهير العرقي.

سقطت المدينة في يد القوات الصربية بقيادة الجنرال "راتكو ملاديتش" في إبريل ١٩٩٢، وبدأ "التطهير العرقي"، ليس كحادثة أو بعض حوادث تقع في فترات زمنية قصيرة متقطعة ثم تتلاشى، وإنما كإجراءات إدارية وقانونية تنفيذا لسياسات استراتيجية بعيدة المدى، ذلك قبل أن تتدفق دماء المسلمين أنهاراً على يد السفاح الصربي "ملاديتش".

استولي الصرب على إدارة المدينة ومرافقها وأنشأوا "لجنة الكوارث" ولم تكن هناك كارثة تستدعي إقامة لجنة لها، اللهم إلا أن يكون استيلاء الصرب على المدينة هو الكارثة الحقيقة بعينها.

شرعت اللجنة في إصدار عدد من القوانين والقرارات بقصد تهميش الوجود غير الصربي في "بنيا لوكا" (من الأغلبية المسلمة والأقلية الكرواتية)، وتحويل الجميع بالتدريج إلى قطعان من المنبوذين والمشردين، ليصبحوا بعد ذلك عرضة للإهانة والقتل في عرض الطريق.

هذه العمليات المرحلية كانت تحدث في محيط تم فيه التعتيم الإعلامي إلى أقصى مداه، فقد سيطر الجيش الصربي على وسائل الإعلام من إذاعات ومحطات تلفاز وصحف، وقاموا بعمليات تشويش على جميع الإذاعات الأخرى خارج المدينة، ومنعت الرقابة دخول أي صحف أخرى في المنطقة سوى الصحف الصربية. وبدأت أعداد كبيرة من الصرب تتدفق إلى المدينة بعد أن طُردهم الكروات من مناطق أخرى.

كانت الفكرة الشائعة التي تروجها إذاعات الصرب أن جميع المسلمين إرهابيون يتربصون بجيرانهم من الصرب لقتلهم، وبدلاً من أن نرى صرباً يُقتلون وفقا لهذه الشائعات، وجدنا حوادث قتل للمسلمين في شوارع "بنيا لوكا"، بدأت بأفراد متفرقين هنا وهناك، ثم أخذت هذه الحوادث- بمرور الوقت- تزداد، مع حوادث قتل أخرى في المدن المجاورة، في "بريدور" و "سانسكي موست" وغيرهما، ولم تستطع السلطات الصربية إنكار هذه الحوادث، ولكن نسبتها- بإصرار عجيب- إلى مثيري الشغب الذي يشوهون بأعمالهم صورة الصرب الأبرياء! ، أو تزعم أن عناصر إجرامية لا سيطرة للسلطات عليها قد تسببت في وقوع هذه الحوادث، وأن السلطات لن تدّخر وسعاً في سبيل البحث عن هذه العناصر وتقديمها للعدالة. وطبعاً لم يحدث أن تحققت هذه الوعود أبداً، فالذين قاموا بهذه العمليات من المليشيات الصربية المعروفين لدى السلطات، وهذه المليشيات وإن كانت تتبع قيادات مختلفة، إلا أن المسألة لم تكن سوى تقسيم عمل بين جهات متعددة لمؤسسة إجرامية واحدة تنفّذ سياسة مرسومة.

لم يبدأ التطهير العرقي في "بنيا لوكا" بأسلوب القتل الجماعي العلني، لأن احتمال مقاومة هذا الأسلوب من جانب الصرب المعتدلين كانت واردة. ولذلك آثر المخططون الكبار أن يكون التطهير العرقي على مراحل، ومن ثم استهلّت لجنة "الكوارث" عملها بمنع كل من هو غير صربي من الاحتفاظ أو الوصول إلى مركز رئيسي في إدارة أي مؤسسة أو مصنع، ثم تلت ذلك بطرد غير الصرب من أي وظيفة قيادية أخرى في المدينة، بما في ذلك رؤساء العمال والمحاسبين والكتبة في الدواوين الحكومية. وفي المصانع أستبعد كل شخص غير صربي من أي وظيفة لها علاقة بالنواحي المالية أو الاقتصادية، إمّا استبعاداً نهائياً وإما بمنحة عملاً متواضعاً لا علاقة له بخبرته أو تعليمه. حتى الأطباء غير الصرب– رغم مسيس الحاجة إليهم. أستبعدوا من أعمالهم.

وهكذا استطاع الصرب أن يقضوا تماماً على طموحات الطبقة الوسطى في "بنيا لوكا" بل القضاء على هذه الطبقة واجتثاثها من الجذور، كل ذلك من خلال عمليات مرحلية مخططة.

تلى هذا قرار من "رادوفان كراجيتش" بتجنيد كل المسلمين الذكور في الجيش لحرب جيش البوسنة المسلم، بحجة أن المسلمين إذا كانوا يريدون أن يعيشوا مع الصرب فلابد أن يحاربوا مع الصرب عدوّهم المشترك، أما الأعمال التي أسندت للمسلمين فكانت حفر الخنادق وغيرها من الأعمال الشاقة.

لا يجب أن ننسى أن فقد وظيفة في بلاد لا تزال تحكمها أوضاع نظام إشتراكي يعتبر في حد ذاته كارثة شخصية وأسرية في آن واحد، فالوظيفة الثابتة والمسكن الثابت هما كل حياة وأمل أي موظف أو عامل. الأمر يختلف في النظام الرأسمالي الأوروبي والأمريكي حيث يستطيع الفرد أن ينتقل من مكان إلى مكان، أو من ولاية إلى ولاية أخرى ليجد عملاً مناسباً حيثما يرغب، وإذا فقد عمله في مصنع ولم يجد عملاً آخر في بلده تصرف له تعويضات حكومية للإنفاق على نفسه وعلى أسرته. أما بالنسبة للمسلمين والكروات في "بينا لوكا" فعندما فقدوا وظائفهم فقدوا أحقّيتهم في العيش والمواطنة مرة واحدة. فبدون الوظيفة تحرم الأسرة من الحصول على السلع التي توفرها الجمعيات التعاونية داخل المصانع والمؤسسات الحكومية. وبدون المرتب بدأت الأسر تنفق من مدخراتها وتبيع ممتلكاتها لشراء الحاجيات الضرورية من السوق السوداء بأسعار مرتفعة حتى جفت مواردهم وأصبحوا غير قادرين على إعالة أنفسهم.

كان الطرد من الوظيفة مجرد خطوة، ثم كانت الخطوة التالية خطاب من الإدارة التي يتبعها الموظف بضرورة إخلاء المسكن الذي يشغله، فالشخص الذي أخلى وظيفته لا يحق له الاحتفاظ بالمسكن الحكومي أو المسكن المدعوم من الحكومة، ولم يعد له حق في التأمين

الصحي الذي توفّره الدولة، وبذلك تحول المواطنون المسلمون إلى مشردين غرباء في مدينتهم. وهكذا- خلال قرارات بسيطة مرحلية يتحول الإنسان من "لا صربي" إلى "لا مواطن".[٨٨]

وفي السوق السوداء تحولت كل ثروات ومدخرات المسلمين والكروات إلى جيوب الطبقة المستغلّة من الصرب الذين احتكروا بيع السلع في هذه السوق.

خلال هذا التحول المرحلي كانت تجري أعمال الإرهاب والتحرش بالمسلمين في الشوارع على يد المليشيات الصربية، وكان من بين أفراد هذه المليشيات مجرمون عتاة وهاربون من تنفيذ الأحكام، وكثرة من السكارى والمدمنين يجوبون شوارع المدينة صباح مساء حاملين مختلف الأسلحة والسكاكين، ويدقّون على أبواب ونوافذ بيوت المسلمين لابتزازهم بطلب رشاوي مالية أو عينية تحت تهديد السلاح وإلا تعرضوا للإيذاء.

في هذه الأثناء حاولت وكالة غوث اللاجئين دخول المدينة ولكنها مُنعت منعاً نهائياً لفترة نصف عام كامل، أمضاها المواطنون المسلمون في يأس مطبق بدون وظائف وبلا مستقبل وتحت ظروف استغلال يومي وإهانة من السلطات وإرهاب مستمر على يد العصابات الصربية.

وقد حاول بعض القادرين مساومة العصابات الصربية لتهريبهم خارج المدينة المطوّقة مقابل رشاوى مالية بلغت ألف مارك ألماني عن كل فرد، حيث تمكّن البعض منهم من الهرب عن هذا الطريق إلى كرواتيا وإلى بلاد أخرى. أما قيادات فرع الحزب الحاكم في "بنيا لوكا" فقد حاول "علي عزت" التفاوض لإخراجهم من المدينة دون جدوى، فتمكن بعضهم من الهرب وقُتل أكثرهم بلا محاكمات أو تحقيق.

تخريب العلاقات بين الصرب والمسلمين :

رغم اندلاع العنف والانتهاكات الوحشية التي أصابت البوسنة ظلت مدينة تريبينيا ملاذاً للسلام والأمن في وسط الصراع الدموي الدائر في البلاد على مدى عشرة أشهر، فقد عاش المسلمون مع جيرانهم الصرب في وئام، وقد صمم الجميع على أن يبقوا أصدقاء وألا يتحولوا عن هذه الصداقة إلى العداء مهما حدث في يوغسلافيا.

ويحكي شاهد عيان كيف تبخّر هذا الحلم الجميل في الهواء، أما الشاهد فهو "لويس برانسون" مراسل صحيفة "صنداي تيمز The Sunday Times، كتب في عددها الصادر في ٧ فبراير ١٩٩٣ يقول: في الأسبوع الماضي تدفق آلاف المسلمين المروّعين تجاه الشرق نحو

[٨٨] أنظر دافيد رييف، المصدر السابق، ص٩١.

جمهورية "الجبل الأسود" هاربين من عمليات التطهير العرقي بعد أن هبطت على المدينة العصابات الصربية التي مزقت المدينة الجميلة الهادئة. بدأت العصابات الصربية بتوجيه بنادقها أولاً إلى السكان الصرب باعتبار هم أصدقاء العدو المسلم. كانت أحوال المدينة قد بدأت تتغير منذ الشهر الماضي عندما ظهر صرب غرباء عن المدينة تبين أنهم تابعون لمليشيات السفاح "فويسلاف شيشلي" المعروفة باسم "البطة الحمراء"، ثم لحقت بهم مليشيات "الشتنك"، وقد فرغ الجميع من مهمات إرهابية في كرواتيا ثم توجهوا إلى البوسنة، أخذ قادة المليشيات يبحثون عن سكان من صرب المدينة يمكن استمالتهم للعمل معهم، واستطاع اللاجئون أن يحددوا أشخاصاً بعينهم تطوعوا بالفعل للعمل مع الغرباء، بعضهم من رجال البوليس وآخرون من المدرسين والأطباء، وكان الغرض من ذلك هو إضعاف الوحدة بين عناصر السكان من الصرب والمسلمين؛ بدأ المسلمون يتلقون مكالمات تليفونية كل مساء تهدّدهم بالموت، مع أوامر بالرحيل عن المدينة أو الاستعداد للموت، وصحب هذه المرحلة تصعيد في الإرهاب تمثل في أعمال "البلطجة" التي وُجهت إلى بيوت المسلمين وأصدقائهم الصرب.. تقول امرأة عجوز بيضاء الشعر "إنهم يجيئون في مجموعات من عشرة إلى اثنتى عشر" "بلطجي" مسلحين، انهالوا عليّ وعلى زوجي المريض الملازم لفراشة ضرباً مبرحاً، وأخذوا يبحثون عن أي نقود في البيت ليستولوا عليها

"قد تطلب الشرطة بالتليفون ولكنهم عندما يسمعون اسمك ويعرفون أنك مسلم يجيبون بأن الرقم خطأ ويغلقون الخط". لقد اضطرت المرأة المسلمة لبيع بيتها بما يساوي مائة جنية إسترليني فقط وقبلت عشر جنيهات ثمناً لسيارتها، تقول "بعْنَا ما استطعنا بيعه بأثمان بخسه وتركنا ما لم نستطع بيعه في البيت وخرجنا هائمين على وجوهنا".

وحاول شاب صربي يدعي "سرجان ألكسيتش" هو ابن قسيس أرثوذكس- أن يدافع عن صديق له مسلم في المدرسة، فقامت المليشيات الصربية بضربه بكعوب البنادق ضرباً مميتاً أمام مركز الشرطة ولم يتحرك أحد الضباط الذين شهدوا الجريمة لإنقاذه حتى تركته العصابة بين الحياة والموت.

وقُتل اثنا عشر مسلماً على الأقل أمام بيوتهم، ثلاثة منهم من أسرة "توبسبا سيتش"، قتلوا جميعاً على يد مجموعة يقودها مدرس صربي من الجيران سبق لهذه الأسرة نفسها أن قامت بمساعدته في تجديد بيته .. وبلغت حملة الإرهاب ذروتها عندما أحرق رجال العصابات الصربية المسجد التاريخي الكبير الذي أقيم منذ خمسمائة سنة، احترق المسجد في يوم ٢٧ يناير وهو يوم من أقدس أيام الصرب" يوم القديس "سافا"، يقول "كمال بوبيتش" وهو في التاسعة والعشرين من عمره: "عندما رأيت المسجد يضرب بالقنابل

بواسطة جنود سكارى عرفت أن الوقت قد حان للرحيل من الجحيم.. في لحظة احتراق المسجد احترق كل شيء في داخلي" انهارت نفسي ولم أعد قادراً على المقاومة التي التزمت بها على مدى ثلاثة عشر شهراً.. خلعت ملابس العسكرية ورحلت خارج المدينة أضمّد جراحي".

في أثناء ذلك بذل الصرب كل ما يستطيعون من جهد لإخفاء حقيقة ما يحدث في "تريبنيا"، فمنعوا دخول الصحفيين الأجانب لعدة أسابيع، ولكن الحقائق تسربت مع اللاجئين في مدينة "روزاي" وهي مدينة أغلب سكانها من المسلمين، تجمع فيها أربعة آلاف لاجئ منهم ثمانمائة طفل في سنّ يقل عن أربعة عشر سنة.. ماتت امرأة من شدة البرد، ويعتقد عمدة المدينة أن الأوضاع الصحية تتدهور في المدينة وأن المرض ينتشر فيها، فالمدينة صغيرة لا يزيد سكانها عن اثنتي عشر ألف نسمة وإذا لم تأت إليها المساعدات فوراً فسوف تتعرض للمجاعة والأوبئة.. حاول البعض اللجوء إلى خارج البلاد ولكن يقول أحد اللاجئين واسمه "بوبيتش": "إن أتوبيسا مملوءا باللاجئين المسلمين توجه إلى المجر ولكنه مُنع من الدخول إليها فارتد عائداً أين نذهب الآن.. أنا لا أدري.. كل ما أعلمه الآن أن الصرب قد انقلبوا علينا ولم يعد في مقدورنا أن نعيش معهم".[٨٩]

كانت المليشيات الصربية تنوّع في تكتيكها حسب طبيعة المنطقة التي يمارسون فيها عملياتهم ووفقاً للمصير الذي رسمته القيادة للمنطقة، ففي المناطق التي لم توضع في قائمة التدمير الكامل وبها أسر صربية قليلة، كانت المليشيات الصربية تدخل بيوت هذه الأسر فترغمهم على حمل أمتعتهم والتحرك فوراً لنقلهم إلى أماكن أخرى قُتل سكانها المسلمون أو أُرغموا على هجرها ليسكنها الصرب من بعدهم.

وفي البلاد الأخرى التي يختلط فيها السكان الصرب والمسلمون، ولم يفكر هؤلاء الصرب في الانضمام إلى المليشيات الصربية لحرب المسلمين، أو كانوا يرفضون الانضمام، كانت هذه المليشيات تقتحم منازلهم، فيخرجون رجلاً من الأسرة ويقدمون إليه سلاحاً، قد يكون بندقية وقد يكون مجرد سكين حاد كل بحسب مهارته، ثم يأمرونه بالذهاب فوراً إلى جاره ليقتله، فإذا امتنع الرجل قتلوه بالرصاص أمام أسرته.

ويعترف الجنود الصرب للصحفيين الأجانب باستخفاف بأن قتل اثنين أو ثلاثة من الصرب الممتنعين كفيل بأن يجعل الرابع والخامس يذعن للأوامر دون مناقشة، بل يتطوّع

---

[٨٩] أنظر "لويس برانسون" في مقال بعنوان: "صرب يقتلون الصرب بينما يفر المسلمون" في عدد ٧ فبراير ١٩٩٣ بمجلة The Sunday Times

بعد قتل جاره فيسأل: من تريدونني قتله من المسلمين؟. وهكذا بمجرد أن يمارس الشخص العادي عملية القتل مرة أو مرتين حتى يدخل في دائرة العنف التي لا نهاية لها.

فرز الضحايا وإبادة الصفوة :

في عام ١٩٩٢م كان المسلمون في شمال البوسنة يقتلعون من بيوتهم بالجملة ثم يجمعون في ساحات واسعة لتجرى عملية فرز مخططة حيث يقسّمون إلى ثلاثة مجموعات: تتألف المجموعة الأولى من أصحاب المهن كالأطباء والمهندسين والمحامين والمعلمين إلى جانب الشخصيات البارزة في المدينة والشباب الأقوياء القادرين على حمل السلاح، كان الصبي يؤمر بالوقوف ثم تُقاس قامته بطول البندقية فإذا ارتفعت رأسه قليلاً عن مستوى البندقية يؤمر بالذهاب إلى القسم الأول، هؤلاء جميعاً كانوا يُعزلون وحدهم ثم تجرى عليهم أعمال القتل الوحشي أفراداً أو جماعات، كانت هذه العمليات تجرى بينما أجهزة الإعلام الصربية تنفث في المجتمعات الصربية أكاذيبها ليل نهار فتخترع لهم قصصاً لم تحدث عن حوادث قتل ارتكبها المسلمون ضد الصرب، وكيف شوى المسلمون صربياً وهو حي، وعن أناس أُغرقوا في دمائهم، إلى آخر هذه الأكاذيب حتى لا تهن عزائم الصرب وهم يمارسون أبشع الجرائم في قتل المسلمين.

كان التأكيد دائماً على ضرورة التخلص أولاً من الصفوة حتى إذا عادت البوسنة تحت أي ظرف من الظروف وبأي شكل من الأشكال لا تجد من المسلمين الأكفاء من يستطيع إدارة شئونها[٩٠]، ولم ينج من هذا المصير من سكان شمال البوسنة إلا الذين حالفهم الحظ وقدّر لهم أن يتمكنوا من الهرب خارج البوسنة، وإلا كان من الممكن القضاء على الطبقة الوسطى المهنية من المسلمين قضاء مبرماً.

أما الذين لم يُقتلوا مع هذه الفئة الأولى فقد كانوا يُقسمون بدورهم إلى قسمين: فكان القسم الأول يودع فيما يسمى "معسكرات مباحث الأمن"، حيث يخضعون لعمليات تجويع وتعذيب وتصفية جسدية من كل لون، أما القسم الأخير فمعظمهم من الفلاحين وفقراء المدن وكانوا يحملون من البداية علامات تميزهم عن الآخرين تمهيداً لإطلاق سراحهم في الغابة ليقطعوا مئات الأميال فراراً من الجحيم، فمنهم من كان يموت من الإجهاد والجوع، ومنهم من كان يصل إلى مراكز إيواء بدائية في انتظار رحمة من المجتمع الدولي. كان الصرب يحتفظون من هذه الفئة بعينات تُحشد في معسكرات يطلقون عليها "المعسكرات المفتوحة"

---

[٩٠] تقول فرانسين فريدمان كان المقصود بإبادة الصفوة المسلمة أن يحرم المجتمع البوسنوي من قياداته عندما تنتهي الحرب، وقد وصفت هذه العملية بمصطلح "elitocide"، أنظر: فرانسين فريدمان، المصدر السابق، ص٢٢٢.

وهي مصممة لاستقبال أفراد من الهيئات الدولية مثـل "الصليـب الأحمـر" للاطـلاع علـى مـا يجري فيها، وكان من المقدّر أن تعطف عليهم الـهيئات الدوليـة فتـأخذهم إلـى معسـكرات اللاجئين خارج البوسنة فلا يعودون إليها بعد ذلـك، ممـا كـان يخـدم أهـداف الصـرب فـي اقتلاع المسلمين من البوسنة.

الهاربون من الجحيم إلى الجحيم :

في تقرير للمراسلة الصحفية "جنين دي جيوفـاني" مـن مدينـة "ترافنـك" يصـف رحلـة العذاب التي واجهها مئات الألوف من مسلمي البوسنة تقول المراسلة:[٩١]

"في هذا الأسبوع تواجه البوسنة أسوأ كارثة بشرية في الحرب، حيث يتدفـق المسـلمون خارج مدنهم وقراهم فارّين من الموت عبر طُرق جبلية مغطاة بالجليد، معرضين طوال الوقـت لنيران القناصة والمدافع الصربية.. وتقول الأمم المتحدة إن كارثة اللاجئين فـي البوسـنة لـم يُشهد لها مثيل منذ كارثة الأكراد بعد حرب الخليج عندما هرب مئات الألوف إلى الجبال" ، "يذكر أحد اللاجئين الفارّين من مدينة "يايتش" التي استولى عليها الصرب: إنه كان في مجموعة من مائتي لاجئ سقط مهم ثلاثون برصـاص القـوات الصربيـة أثنـاء عبورهـم الطـرق الجبلية"، وطُوّق خمسة آلاف في قريـة" كـاريولا" المدمّـرة وتُركـوا فـي العـراء تحـت البـرد القارص والمطر، وطبقاً لتصريحات مدير هيئة الإغاثة بالأمم المتحدة: يوجـد مـا يقـرب مـن أربعين ألف لاجئ على الطريق يشكلون طابوراً يصل طوله إلى عشرة أميال، استطاع بعضـهم أن يهرب من "كاريولا" لا يزالون فيها حتى مساء أمس... لقـد تمكـن مـا يقـرب مـن عشـرة آلاف من الوصول إلى مناطق آمنة بعـد أن هربـوا مـن الغـارات التـي شـنّتها عليـهم القـوات الصربية التي استولت على المدينة بعـد خمسـة أشـهر مـن الحصـار... آلاف مـن اللاجئيـن وصلوا بالفعل إلى ترافنك على أقدامهم وبعضهم على ظـهور الخيـل أو فـي شـاحنات للنقـل وأتوبيسات، وقال ممثل الأمم المتحدة في زغرب: "لقد كانوا في العـراء علـى الطريـق لمـدة ثلاثة أيام، والجو شديد البرودة والمطر غزير.. وقد أرسلنا إليهم مئـات الأطنـان مـن الطعـام والبطاطين".

وتمضي المراسلة الصحفية تصف معسكرات الإيواء فتقول: "إن "ترافنك" التي تكتظ بمـا فيها من اللاجئين الذين بلغ عددهم خمسة وعشرون ألفاً ليس بها مرافق أو أماكن لاستيعاب مزيد من اللاجئين، وقد وجدنا منقوشاً على أحد أبواب هذه المعسكرات الـذي يـأوي ثلاثـة آلاف لاجئ من عمليات سابقة للتطهير العرقي عبارة تقول: "مرحباً بك فـي الجحيـم" وإنـه

---

[٩١] أنظر الصحيفة البريطانية "صنداي تيمز" عدد أول نوفمبر ١٩٩٢ تحت عنوان: Bosnians flee alang icy rood to hell

لجحيم حقاً فليس بهذا المعسكر سوى ثلاثة دورات مياه وليس به مياه جارية، والتيار الكهربائي منقطع... ويتحدث الذين بقوا أحياء أنهم قطعوا خمسين كيلو متراً سيراً على الأقدام في مناطق يرتفع فيها الماء البارد والوحل إلى مستوى الرّكب... وقالت سيدة تُدعى "ترامبسا مولانوفيك" وكانت تحمل طفلين على ذراعيها: "لم نكد نخرج من بيوتنا فراراً من الموت حتى بدأ الصرب يطلقون علينا النار حيث كانت طلقات الرصاص تتناثر حول أقدامنا، وقال "مصطفي سيفا": "تركنا خلفنا كل شيء وهربنا خوفاً من الذبح، وآخر مشهد رأيته عندما ابتعدنا كانت مدينة "يايتشي" تشتعل فيها النيران".

تقول المراسلة: "التقينا في مستشفى "ترافنك" بستيفن جرينوود (عمره ٢٥ سنة) من كنت Kent ببريطانيا الذي انضم إلى جيش البوسنة منذ خمسة أشهر مضت وقد أصيب في انفجار قذيفة مدفع، يصف معركة "يايتش" بأنها كابوس رهيب. قال: أمضى المدنيون أياماً وليالي طويلة في مخابئ تحت الأرض وقد أوشكت المدينة كلها أن تُدك تحت وطأة الضربات الصاروخية المتصلة".

قامت بعثة من التليفزيون البريطاني بتحقيقات واسعة النطاق في البوسنة خصوصاً في مدن "بريبدور" و "كوزاراتش" و "أومراسكا" أذيعت في مساء يوم ٣ فبراير ١٩٩٣م مصحوبة بالصور والمقابلات الصحفية التي تم بعضها في "زغرب" داخل معسكرات اللاجئين البوسنويين حيث وُجدت بقايا أسر مسلمة يصفها الصحفي بأنها كانت أسراً سعيدة تحيا حياة طيبة محترمة في مدينة تسمى "كوزاراتش"، يلتقي الصحفي بنساء فقدن أزواجهن، وبرجل تلاشت أسرته كلها ولم يبق لديه سوى الصور والذكريات، يقول اللاجئون: إن الصرب يتمتعون بقتل الناس وضربهم وتكسير أرجلهم... كان بالمدينة أربعة وعشرون ألفاً قُضي عليهم مع مسلمين آخرين من سكان وادي كازار. وتنتقل الكاميرا إلى منظر صربي في المدينة المهجورة يحمل غسّالة ملابس كهربائية سرقها من أحد بيوت المسلمين، سأله الصحفي: لماذا فعلت هذا؟ قال الصربي: أخذتها لأستخدمها.. كانت بيوت المسلمين تُعلَم بعلامة (+) ثم يأتون في اليوم التالي فيقومون بتخريبها ثم حرقها.

سأل الصحفي طبيبة المعسكر وهي زوجة عمدة "كازاراتش" السابق (مسلم): لماذا أمر زوجك المسلمين ألا يقاوموا هجوم الصرب على المدينة؟ قالت: كان زوجي يؤمن بالسلام، ويعتقد أنه بعد أن اعترف المجتمع الدولي بجمهورية البوسنة فإن الأمم المتحدة ودول أوروبا سوف ينهضون جميعاً لمساعدتنا وإعادة الأمور سلمياً إلى نصابها.. دخل الصرب المدينة فقبضوا على عمدتها فلم نعرف مصيره حتى الآن، ثم استولوا على مركز الشرطة واعتقلوا الضباط والشرطة من المسلمين والكروات، وعينوا سفّاحاً صربيا عمدة للمدينة ليتولى القضاء

علـى المسـلمين بطريقـة نظاميـة.. كـان الصـرب مدربيـن ومجـهزين لـهذه العمليـات. سـأل الصحفي أحد الفتيان: ماذا رأيت؟ قال: أخذوا مجموعة مـن الرجـال وأدخلوهـم فـي منزل كبير ثم أخرجوهم جثثا هامدة بعثروها في الطريق العام ليشاهدها أهل المدينة.

وفي مدينة أخرى أخذوا النساء من بيوتهن فساقوهن كالأنعام إلـى حقـل خـارج المدينـة وتركوهن هناك بلا طعام ولا شراب، وعطف عليهن بعض الأهالي مـن الصـرب فـأعدوا لـهن طعاماً ولكن منعتهم المليشيات الصربية وضربوهم لينصرفوا إلى بيوتهم. وأخذوا مجموعة مـن الرجال فجعلوهم في معسكر للتحقيق، للوصـول إلـى معلومـات بشـأن اشـتراكهم فـي قـوات عسكرية أو عن وجود أسلحة مخبأة في المدينـة، كـل ذلـك تـم تحـت الإرهـاب والتعذيـب المستمر، ثم قتلوا أكثرهم.

تتوقف الكاميرا عند شاب مسلم تمكن من اللجوء إلى لندن.. يقول للصحفـي: "كـان لنـا أصدقاء وجيران من الصرب وقد عجبنا كيف تحولوا بين يوم وليلة إلى أعـداء يشـتركون مـع القوات الصربية في ضربنا وتعذيبنا".

وفي معسكر "أومراسكا" عندما قيل أن رجالاً من منظمة حقوق الإنسان قـادمون للتفتيـش أخرج الصرب من بقى في المعسكر أحياء وساقوهم إلى الخطوط الأمامية ثم هددوهم بالبنادق وأمروهم أن يذهبوا إلى إخوانهم المسلمين، وأخذوا عدداً منـهم فنقلوهـم إلـى معسـكر سـري آخر تابع للجيش الصربي. يقول الصحفي "لقد صادفنا وجود صور لعمليات التعذيب مهربـة من معسكرات الإبادة، وأغلب الظن أن الصرب هم الذين قاموا بتهريبها لتخويـف المسـلمين في أماكن أخرى فيسارعوا بالهروب من البلاد"، وتحدث السـكان المسـلمون النـازحون مـن أومراسكا يقولون: كان هناك ضابط صربي متخصص في اغتصاب الأشياء الثمينـة فـهو دائم البحث عنها مع ضحاياه. وذكروا أن الصرب سمحوا للصحفيين بتصويـر مدينـة "أومراسـكا" بعد أن قاموا بإحراقها حتى تغيرت ملامحها. فلما عُرض علينـا الفيلـم لـم نسـتطع التعـرف على شيء في المدينة" ويعلق الصحفي: "كان الهدف هو تيئيس المسـلمين مـن العـودة مـرة أخرى إلى بلدهم فلن يجدوا فيها مكاناً لهم". وسأل الصحفيون عمدة "أومراسـكا" عـن عـدد القتلى وهم عدة ألوف.. قال: "لا يوجد عندنا قتلـى وإنمـا جميعـهم موتـى.. وعندنـا وثـائق رسمية بموتهم موتاً طبيعياً".

وفي شهادة لرئيس الصليب الأحمر الدولي يقول: "حدثت عمليات وحشية في المدينة، وهي وحشية لم أشهد مثلها في أي مكان بالعالم، لم يعد في المدينة نظام قضائي ولـو وُجـد فلن يجرؤ أحد على الشكوى.. قام الصليب الأحمر بعملية مبادلة للأسرى فسمح الصرب لنـا بإخراج خمسمائة من المعتقلين فلما وضعوا الأسرى في السيارات وجدنا أنهم ينقصـون مائـة

وثلاثون شخصاً فسألنا الصرب أين هؤلاء؟ قالوا إنهم أحياء، فطلبنا رؤيتهم ولكنهم رفضوا وأصروا على الرفض، ولا نعلم أين ذهبوا".

ويعلق الصحفي: إن الضباط والقادة المسئولين عن العمليات الوحشية معروفون جميعاً لأهالي المنطقة بالاسم، كما يعرف الأهالي الدور الإجرامي لكل واحد منهم بالتفصيل وعلى رأسهم عمدة المدينة وهو سفاح صربي له سوابق في الإجرام مشهورة".

معسكرات الإبادة :

أشرنا فيما سبق إلى أن أول من كشف عن وجود معسكرات إبادة يجري فيها الصرب عمليات وحشية واغتصاب ومجازر للمسلمين هو الصحفي "راي جوتمان" مراسل صحيفة "نيوز داي" الأمريكية، وكان أول من دخل هذه المعسكرات هو الصحفي "إدْ فوليامي" مراسل صحيفة "الجارديان" البريطانية ومعه فريق من مصوري محطة التلفاز "ITN" البريطانية. ومن تلك اللحظة بدأ العالم يسمع عن معسكرات "أومراسكا" و "مانتشا" و "ترنوبوليا"، وأخذ الصحفيون ومندوبو وكالات الأنباء العالمية يتدفقون على البوسنة لمعرفة الحقائق من مصادرها.

ليس من الممكن الإحاطة بكل ما حدث في هذه المعسكرات من جرائم بشعة، فذلك يحتاج إلى كتب لا كتاب واحد، وليس من اليسير على نفسي أن أخوض في ذكر بعض أنواع الجرائم الوحشية ضد الأطفال والنساء والمرضى فقد بلغت بشاعتها إلى حد يصعب على عقل سويّ أن يصدّق أنها صدرت بالفعل من أناس مهما بلغت نفوسهم من قسوة وانحراف، يصعب على نفسي أن أسرد على القارئ قصصا تقزّزت منها وأنا أقرأ عنها، حسبي أن أشير إلى عينات من الجرائم العجيبة التي سوّغتها نفوس البشر عندما يتوارى فيها الضمير وتسقط هيبة القانون وتأخذ السلطة دور المحرّض على الجريمة فتعاقب من يتردد في الإقدام عليها وتكافئ من يسرف في القتل ويبالغ في القسوة.

وفيما يلي نماذج من هذه الجرائم كتب عنها الصحفي "جون مولين" في صحيفة الجارديان البريطانية.[٩٢]

من هذه النماذج ما ورد تحت عنوان "أبشع أنواع التعذيب تمارسها فتاة وهي تضحك" يقول: إنها فتاة صربية جميلة الوجه في سن الثامنة عشر من ينظر إليها لا يصدق أنها تستطيع قتل فأر ولكنها فعلت مع البشر أسوأ من القتل، كانت تستخدم زجاجات مكسورة تفقأ بها عيون أبناء البوسنة الأبرياء في معسكرات الإبادة في "لوكا" بمدينة "برتشكو"

[٩٢] أنظر صحيفة الجارديان البريطانية ص٦، عدد أغسطس ١٩٩٢م

ويقول أحد الهاربين من المعسكر سابحاً عبر نهر سافا إلى كرواتيا: "إن (مونيكا) لا تفقأ العيون فقط ولكنها تقطع الأنوف والآذان وقد مارست هوايتها البشعة على خمسمائة شاب بسنوي مكتّفين في المعسكر. "مونيكا" هذه هي ابنة امرأة فاجرة تعمل "مومساً" في المدينة، ويصف الضحايا مونيكا بأنها أكثر المجرمين قسوة في ممارسة التعذيب ضد الشبان المسلمين أداتها التعذيب زجاجة مكسورة تقطع بها في وجوه ضحاياها وتفتح بطونهم وهي تضحك كأنها تستمتع بهذه الأعمال الوحشية" وترجع مأساة برتشكو إلى أوائل مايو ١٩٩٢ عندما دخلت القوات الصربية المدينة وشرعت في تطويق أربعين ألفاً من السكان المسلمين والكروات، ثم أخذت على الفور في تنفيذ برامجها الوحشية في إبادة السكان غير الصربيين.

الدكتور "ميرساد" أستاذ جامعي من البوسنة في الخمسين من عمره تمكّن من الفرار واللجوء إلى "لندن" يقول: "أخذت إلى معسكر التعذيب في "لوكا" وحُبست في مكان كان يستخدم من قبل مخزناً للأطعمة، وضُربت ضرباً مبرحاً" وأضاف: "إن التعذيب الوحشي كان من نصيب الشبان في سن العشرينات".. قال الصرب "إننا سنقضي عليكم جميعاً" ذلك لأنهم كانوا يعتزمون طردنا من بيوتنا لتطهير "برتشكو" من التلوّث العرقي كما يزعمون، كان الصرب أشد قسوة وأشرس فتكا مع الشباب الذين تشككوا في انتمائهم إلى المنظمة الإسلامية التي كان أعضاؤها مكلّفون بالدفاع عن المدينة.. كانوا يضربون الناس بعصى طولها أكثر من المتر وهي ثقيلة غليظة حتى أن الواحد منهم كان يحملها بيديه معاً، وقد شاهدت بنفسي كيف ظلّ الصرب يضربون ثلاثة من المسلمين من أهالي "برتشكو" على رءوسهم حتى سقطوا موتى أمام أعيننا ونحن مكبلون بالأغلال". كانوا يطلقون الكلاب الجائعة على الشبان فتنهش أجسامهم العارية بوحشية وهم يصرخون حتى الموت.. قذف الصرب أجساد هؤلاء القتلى في النهر.. وذكر لنا بعض أصحاب المزارع على الضفة الكرواتية أنهم التقطوا هذه الجثث ودفنوها في مقابر جماعية" ويقول الدكتور ميرساد "كان الصرب يأخذون بعض الناس قهراً لتقديم دمائهم للمستشفيات، فلا يزالون يصفّون دماءهم حتى يُقضى عليهم.. وهكذا يتفنّنون في تعذيب الناس كأنهم تعلموا أساليب التعذيب في مدارس متخصصة".

وخلال العشرين يوما التي قضاها "د. ميرساد" في السجن فقد خمسة عشر كيلو جراماً من وزنه حيث اقتصر الطعام الذي قُدّم إليه في المعسكر على خبز شديد الجفاف يصعب مضغه ونادراً ما يُقدم مع الخبز الجاف شُربة أو فاصوليا، لقد رأى بنفسه عشرين شخصاً يُقتلون ولكنه يعلم أن ما يزيد عن خمسين شخصاً من المعتقلين يموتون كل يوم من الجوع"

يقول "د. ميرساد"[٩٣]: " بعد عشرين يوما في المعتقل قرر عشرة منا الهرب سباحةً عبر نهر سافا الذي يقع على مسافة قصيرة من المعسكر.. كنا في الحظيرة وكان الباب مفتوحاً ولم يكن هناك سوى حارسان فقط ويبدو أنهما لم يكونا يتوقعان من المعتقلين الضعاف المذعورين أن يفعلوا شيئاً كهذا.. اندفعنا خارج الباب وكان هناك عدد كبير من المعتقلين حولنا فحدث هرج ومرج.. ولم نكد نصل إلى حافة النهر حتى قذفنا بأنفسنا في الماء وبدأنا السباحة بكل قوة باقية في أجسامنا.. وسمعنا طلقات الرصاص مصوبة في اتجاه النهر وقتل بعضنا بالفعل وتمكن البعض من الوصول إلى الضفة الأخرى من النهر حيث استقبلنا الكروات واستطعنا إعداد أوراق السفر قبل أن نصل إلى بريطانيا بعشرة أيام"

وفيما يلي شهادة صحفي آخر هو "إدْ فوليامي"[٩٤] الذي يعتبر أول صحفي يدخل معسكرات الإبادة، إنه يصف أوضاع المعتقلين كما شاهدها في معسكر أومراسكا:

"اقتربت من شاب واهن البنية غائر العينين وهو يلتهم حبات قليلة من اللوبية في طبق به ماء كأنه حيوان جائع وذراعيه النحيلتين ترتعشان.. سألته عن أحواله فرد قائلاً: "أنا لا أريد أن أقول أكاذيب ولكني لا أستطيع قول الحقيقة".. كان وقت الغداء في معسكر "أومراسكا" الذي يديره البوليس الصربي للمعتقلين المسلمين بالقرب من "بريبدور" في شمال شرق البوسنة.. يبدو على النزلاء هزال مفزع.. عظامهم ناتئه.. جلودهم مرتخية كأنها خرق بالية ملتفّة حول أذرعتهم.. الفكّان بارزان والخدود غائرة.. عيونهم تملؤها نظرات زائغة لسجناء لا يعرفون ما الذي سيقع لهم بين لحظة وأخرى.. خرج المعتقلون من زريبة كبيرة مبنية بالصفيح كل ثلاثين شخص في مجموعة.. وقفوا جميعاً تحت الشمس الحارقة.. صفّهم حارس السجن في طوابير.. ثم شرع في برنامج تدريبات مثيرة للشفقة.. جرى المعتقلون في طابور واحد عبر فناء المعسكر ثم دخلوا المطعم تحت رقابة رجل بوليس صربي بدين ضخم الجسم يحمل مدفعاً رشاشاً وهو جالس خلف غرفة زجاجية.. لم نسمع صيحات أو أوامر إذ يبدو أنهم يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه بدقة.. أحضرت قصعة كبيرة بها فاصوليا

---

[٩٣] أنظر صحيفة الجارديان البريطانية عدد ٧ أغسطس ١٩٩٧م

[٩٤] أنظر مقال "إد فوليامي" في "الجارديان" البريطانية عدد ٧ أغسطس ١٩٩٢. وأنظر أيضاً كتابه:

Ed Vulliamy. Seasons in Hell: Understonding Bosnian's War. London: Simon and Schuster, 1994.

هذا الكتاب من أفضل ما كتب في تصوير مآسي شعب البوسنة والكشف عن جرائم الصرب الوحشية ضد المسلمين وقد أكسبته تغطية حرب البوسنة جائزة الجارديان عام ١٩٩٢م إلى جانب جوائز أخرى حصل عليها من الصحافة البريطانية ومن منظمة العفو الدولية. ومن قبل عمل مراسلاً في رومانيا وبرلين والعراق، وتابع المافيا في إيطاليا وحصل على جائزة الجمعية الملكية للتليفزيون البريطاني.

مسلوقة في الماء وأعطى لكل معتقل قطعة من الخبز الجاف" وجلس المعتقلون على مائدة حديدية فالتهموا طعامهم في دقائق قليلة صامتين.. وفي سرعة وطاعة شكّلوا طابوراً واحداً وخرجوا سراعاً ليختفوا داخل زريبة الصفيح.. لم تأخذ الوجبة أكثر من خمس دقائق، ويظهر أنها الوجبة الوحيدة المسموح بها في اليوم كلّه.. لم تكد المجموعة الأولى تختفي حتى خرجت مجموعة أخرى من المعتقلين تجري عبر الفناء متجه نحو المطعم.. وهكذا.. كان معسكر "أومراسكا" منجما ومصنعاً للحديد وهو الآن أحد أشهر المعسكرات التي تضعها حكومة البوسنة على رأس قائمة معسكرات التعذيب البالغ عددها سبعة وخمسون معسكراً.

يقول "إدْ فوليامي": "لم يسمح الصرب بزيارة هذه المعسكر لأحد قبلنا، لم يسمحوا للصليب الأحمر الدولي ولا الأمم المتحدة ولا أي صحافة أخرى بدخول المعسكر قبل أن نصل إليه يوم الأربعاء الماضي (٤ أغسطس ١٩٩٢م) جاءت الدعوة المفاجئة وغير المتوقعة لزيارة معسكر "أومراسكا" من قائد صرب البوسنة "رادفان كراجيتش" أراد بها أن يتحدى صحيفة "الجارديان" ومحطة التلفاز البريطانية (ITN) في اتهاماتهما بشأن تعذيب المسلمين.. التقينا في المعسكر بشخص يدعي "سيبا كودين إليزوفيتش" وكان يتناول طعامه فقال (سأتناول طعامي أولاً ثم أتحدث إليكم).. لم نعرف إذا كان مسلماً أو غير مسلم وقد لاحظنا أنه لا يبدو عليه أنه عانى من الضرب أو التعذيب.. انتهى "سيبا كودين" من طعامه واستأنف حديثه فقال: (كل يوم هنا مثل كل يوم.. إننا لا نفعل شيئاً.. فقط ننتظر حتى يأتي وقت الطعام.. لقد ذهب الشيوخ والأطفال إلى أين؟ لا أعرف.. كنت في القوات المسلحة ولم أعتقل في معركة.. ولكن الجيش قبض عليّ وأنا في الطريق وأحضروني إلى هنا.. إننا نخضع الآن للتحقيق وقد ذكرت الحقيقة وآمل أن أكون بخير وإذا كنت مذنبا فسأخضع للعقوبة.. إنني أتحدث عن نفسي فقط.. لم يلمسني أحد).. حاولنا مناقشته ولكنه رفض الدخول في أي مناقشة.. وهنا تقدم بعض الجنود نحو المنضدة فهب الرجل واقفاً وخرج ليخلي المكان لمجموعة أخرى من المعتقلين.. الجميع مذعورون يرتعبون إذا توجهنا إليهم بالأسئلة.. وبعد أن جرّبنا الحديث مع "سيبا كودين" الذي فرضته إدارة المعسكر علينا لم نقبل التحدث مع الأشخاص الذين عينتهم لنا سلطات المعسكر، وحاولنا التحدث مع معتقلين اخترناهم بأنفسنا ولكن بعثت سلطات المعسكر في إستدعائنا على عجل للصعود إلى غرفة القيادة ليختصروا لنا المهمة ويلقنوننا المعلومات التي يريدون لنا أن نعرفها قالوا: (إن معسكر أومراسكا هو مركز للتحقيق مع الرجال الذين نشك في اشتراكهم في جيش المسلمين إننا نجمعهم ونأتي بهم هنا لنفرزهم ولنعرف إذا كانوا مقاتلين أو مدنيين..) قالوا كلاماً كثيراً لا معنى له محاولين إبعاد أي شبهة عن معسكرات التعذيب.. ويبدو أن

المعسكر قد أخلى من الحالات الملفتة للنظر، وأُعدّ خصيصاً للتأثير على الإعلام البريطاني.. ولذلك ذهبنا إلى "رادوفان كراجيتش" نسأله أن يسمح لنا بدخول زرائب الصفيح لنرى ماذا يحدث داخلها ولكنه اعتذر بطرق ملتوية.. وخرجنا بخفيّ حنين لم نستطع أن نرى زرائب الصفيح من الداخل ولم نعلم إذا كانت الاتهامات بأنها معسكرات على غرار معسكرات التعذيب الألمانية المشهورة في الحرب العالمية الثانية أم أنها مجرد مراكز للتحقيق فقط كما يزعم الصرب؟!

في أواخر أكتوبر ١٩٩٢، أي بعد حوالي ثلاثة أشهر من انكشاف المعسكرات السرية التي أقامها الصرب لإبادة المسلمين، كانت هذه المعسكرات لا تزال قائمة ولم يتحرك المجتمع الدولي لتصفيتها وإنقاذ المعتقلين الذين بقوا على قيد الحياة فيها، وفيما يلي نورد شهادة مراسلي صحيفة "التيمز" البريطانية كما تضمنتها الصحيفة في عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٩٢، كتب في ذلك المراسلان "آدم ليبور" و "ميشيل بنيون" رسالة من مدينة سبليت يقولان فيها:

"لا يزال الآلاف من مسلمي البوسنة المعتقلين تغصّ بهم المعسكرات الصربية في شمال البوسنة والهرسك لأن دول الغرب أخفقت في توفير الحماية لهم ورفضت إيواءهم في أراضيها، ومن ثم اضطر الصليب الأحمر الدولي إلى تأجيل عملية الإنقاذ التي كان يزمع القيام بها، ويتردد الآن بين موظفي الإغاثة الدولية حديثاً ساخطاً عن نفاق الحكومات الغربية الذي بلغ حداً لا يطاق.. لقد اكتسحت العالم موجة من السخط العارم بعد مشاهدة صور المعتقلين على شاشات التلفاز؛ هياكل عظمية تتحرك خلف أسوار من الأسلاك الشائكة.. ولا أحد يهمّ بتقديم المساعدة في إنقاذهم.. استقبلت "كرواتيا" حتى الآن سبعمائة ألف لاجئ مسلم من البوسنة وهي الآن ترفض استقبال المزيد حتى تقوم دول الغرب بنصيبها في إيواء اللاجئين.. ولكن الساسة الغربيين يحتجّون بأنهم إذا فعلوا هذا فإنهم سيشجعون المعتدين على التمادي في عمليات التطهير العرقي.. اتخذت ألمانيا موقفاً إيجابياً باستقبالها أكبر عدد من اللاجئين وبمحاولتها إقناع الدول الأوروبية- من خلال الاتحاد الأوروبي- تخصيص حصص مناسبة من اللاجئين لكل دولة دون جدوى، فبريطانيا بصفة خاصة (وهي رئيسة الدورة الأوروبية في ذلك الوقت) ترفض بإصرار هذه المبدأ، وكل ما تطوعت به أنها قبلت عدداً محدوداً من اللاجئين بدون تأشيرة دخول بصفة زوار لمدة ستة أشهر فقط. في حين تطوعت دول أوروبية أخرى بقبول بضعة آلاف من اللاجئين منها النمسا والمجر والسويد وهولندا.

اعترافات قاتل صربي :

نشرت صحيفة "نيويورك تيمز" في عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٩٢م تحت عنوان: "اعترافات قاتل صربي- الممارسات البربرية في قتل المدنيين الأبرياء" حقائق مذهلة.

هذه الاعترافات كانت أول ما ظهر من أخبار للعالم الخارجي على لسان جندي صربي يدعي "بورسيلاف هيراك"، كان واحداً من اللذين اشتركوا في المذابح والاغتصاب والأعمال البربرية التي استهدفت المدنيين من السكان المسلمين، ولم يكن اشتراكه في هذه . الانتهاكات البشعة من قبيل الصدفة وإنما كانت هذه هي مهمته التي يتناول عليها مرتبا شهرياً (يبلغ ستة دولارات ونصف) حسب أقواله التي أدلى بها في التحقيق وكررها أمام الصحفيين أكثر من مرة.

ورغم أن خبرات "هيراك" الإجرامية محدودة بمنطقة طولها لا يزيد عن عشرة أميال فقط على حدود "سراييفو" الشمالية- إلا أن المعلومات التي أدلى بها تكشف عن رؤية جديدة للطرق التي قتل بها الصرب عشرات الألوف من المسلمين المدنيين أكثرهم كانوا يعيشون في قرى ومدن لا يوجد بها شاهد مستقل.

إن التفاصيل التي ذكرها هذا الشاب الصربي للمحققين والتي كررها مرة أخرى أمام مندوبي صحيفة "نيويورك تيمز" على مدى سبع ساعات تغطي يوميات ستة أشهر من العنف البربري الذي اتسمت به الحرب البوسنوية.

يقول مندوب الصحيفة نقلاً عن كلام هيراك أنه عندما كان هو وزميلان صربيان آخران يستقلون سيارتهم في منطقة يسيطر عليها الصرب متجهين من "فوجوستشا" إلى "إليجا" على حدود سراييفو استوقفتهم عند حاجز في الطريق وحدة من جيش البوسنة المكلف بحماية "سراييفو" وقبضت على ركاب السيارة الثلاثة. وعندما بدأ المحققون يستجوبون هيراك اندفع يدلي باعترافاته ويحكي عن خبراته المروّعة بما في ذلك الحادث الذي استخدم فيها سكين صيد طولها ست بوصات ليقطع رقاب ثلاثة رجال مسلمين كما تذبح الحيوانات.

أول ما يتذكره هيراك بوضوح أكثر من أي شيء آخر كان في صباح مشمس في يوم من أيام يونيه ١٩٩٢ عندما ذهب مع اثنين من زملائه في مهمة حددها لهم القائد وتتلخص في قتل أفراد أسرة تتكون من عشرة أشخاص من بينهم فتاة صغيرة تبلغ من العمر عشر سنوات كانت تختفي وراء جدتها لتحتمي بها عندما فتح الصرب النار على الجميع.. يقول هيراك: "قلنا لهم في البداية لا تخافوا إننا لا نريد بكم شراً، فقط قفوا أمام الجدار، ولكننا في

الحقيقة كنا ننوي قتلهم، ولذلك لم يكد أحدنا يصيح "اضرب" حتى أخذت وضع استعداد وكانت يدي على الزناد فأطلقت ثلاث دفعات أوتوماتيكية.. ولا زلت أتذكر الطفلة الصغيرة بثوبها الأحمر وهي تتوارى خلف جدتها".. وقبل القبض عليه هو وزميليه كانوا قادمين من عملية قتل أخرى أنهوا فيها حياة أعضاء أسرة أخرى كانت مختبئة في أسفل منزلهم.

تشتمل قائمة الاتهامات الموجّهة إلى هيراك تسعة وعشرين جريمة قتل حدثت فيما بين شهري يونيه وأكتوبر ١٩٩٢، وثمانية جرائم اغتصاب لنساء مسلمات اعتقلهن الصرب ووضعوهن في سجن خاص بفندق مهجور خارج مدينة "فوجوستشا" على بعد سبعة أميال من "سراييفو". قال هيراك إنه هو مع عدد آخر من الجنود حرضهم القادة الصرب على اغتصاب نساء مسلمات بالسجن وعلى التخلص منهن بعد ذلك، وبالفعل أخذ النساء بعد الاعتداء عليهن فقتلوهن ثم ألقوا بهن من قمة التل وفي أماكن مهجورة. كذلك تشتمل قائمة المحاكمة أيضاً على ٢٢٠ تهمة قتل لمدنيين مسلمين، اعترف "هيراك" فيها بأنه كان مشاركاً أو مشاهداً لهذه الجرائم جميعاً وأن أكثر الضحايا كانوا من النساء والأطفال، بالإضافة إلى حادثة "أهاتوفتش" التي قتل فيها أربعة أطفال تقل أعمارهم عن اثنتي عشر سنة، وإثنتين من النساء المسنّات وأربعة رجال.

وصف "هيراك" عمليتين كُبريين للإبادة الجماعية للمسلمين قامت بها القوات الصربية في منطقة سراييفو:

كانت الأولى في أوائل يونية ١٩٩٢، فقد شاهد هيراك وحدة صربية تسمى "مجموعة البحث الخاصة" تضرب مائة وعشرين شخصاً من الرجال والنساء والأطفال بالمدافع الرشاشة في حقل خارج "فوجوستشيا"، قال هيراك: "لقد استخدمت القوات الصربية سيارات نقل القمامة لنقل جثث القتلى ثم وضعتهم في حفرة كبيرة بجوار السكة الحديدية في منطقة "راجلوفتش" بالقرب من "سراييفو" حيث كُوّمت الجثث ثم أُلقى عليها البترول وأشعلت فيها النار لتدمير ملامحها.

وفي الواقعة الثانية من وقائع القتل الجماعي- يذكر هيراك أنه رأى في شهر يوليه كيف ضرب الصرب ثلاثين رجلاً من "دونيا بوتشا" وهي قرية مسلمة على بعد ثلاثة أميال من شمال غرب "فوجوستشيا" يُضربون بالرصاص ثم رآهم يوضعون في فرن بمصنع الحديد والصلب في مدينة "إليياس" لتحرق جثثهم.. قال هيراك: "كان بعض هؤلاء الناس لا يزالون أحياء عندما أُلقيت جثثهم في الفرن.

ووصف هيراك أيضاً أنه رأى جثث ستين رجل مسلم استخدمهم الصرب دروعا بشرية عندما حاولت القوات البسنوية في أغسطس طرد القوات الصربية بعيداً عن جبل "زوتش"

على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم خارج مدينة "فوجوستشيا". كما تحدث عن واقعة أخرى ذكر فيها أنه أُخذ إلى مزرعة صغيرة خارج "فوجستشيا" مع ثلاثة آخرين من الشبان الصربيين حيث أطلعهم متطوع صربي اسمه "رستو يوستيفوك" في صباح أحد أيام يونيه الماضي- على أيسر طريقة لجندلة الخنزير وإلقائه على الأرض ثم القبض على أذنيه وإرجاع رأسه إلى الخلف حتى يسهل قطع رقبته، وقال لهم الرجل افعلوا هكذا مع المسلمين، وبعد أيام قليلة بدأ هيراك يطبق هذه الطريقة حيث تمكن من قطع رقاب ثلاثة من المسلمين بالقرب من "دونجا بيوتشا".

قال هيراك معلقاً على مقتل الأسر المسلمة في "أهاتوفيتشي": أن القادة الصرب وصفوا هذه العمليات الصربية بأنها تطهير للمنطقة وأنهم أمروا المقاتلين بألا يتركوا أحداً على قيد الحياة وأكدوا علينا أن "أهاتوفيتشي" ينبغي أن تتحول إلى أرض صربية نظيفة فذلك موقع استراتيجي هام، ويجب إبادة جميع سكانها المسلمين وأنه لا يجب أن يهرب أحد منهم، فإذا قضيتم عليهم جميعاً أحرقوا بيوتهم بحيث إذا نجا أحدهم لأي سبب فلا يجد بيتا يعود إليه.. إنها أوامر ولقد فعلت ببساطة كل ما أُمرت به..

ويعلق مراسل "نيويورك تيمز" قائلاً: "بدا هيراك خلال حديثه هادئاً يصف تفاصيل القتل بدون أي انفعال، وكان يتكلم بلا شعور بالندم إلا عندما تُستثار مشاعره فيبدو وجهه ممتقعا وعيناه غائرتين وهو يقضم أظافره ويعض عليها تلقائياً حتى اختفت بعض أظافره نهائيا.." يقول "هيراك" أن الأشباح كانت تطارده بالليل وخاصة أشباح الثلاثة المسلمين الذي ذبحهم: "إن الصور مرسومة في رأسي لا تفارقني كل ليلة، فإذا نمت قمت مفزوعا غرقا في العرق، ثم أنام ثانية فأقوم لأدخن سيجارة، كان أحد الضحايا اسمه عثمان.. وكنت أراه دائماً في كوابيس.. لقد كنت أحلم به في الليلة عشر مرات على الأقل وهو يتوسل إليّ بقوله (أرجوك لا تقتلني فعندي زوجة وطفلين يحتاجون إليّ".

كان "هيراك" يحكي قصصه على سبيل تقرير الواقع مع حرص على سرد التفاصيل وهو ينتقل من عملية قتل إلى عملية أخرى ومن واقعة اعتداء جنسي إلى واقعة أخري؛ فهو يذكر أسماء كثير من ضحاياه ويصف الأماكن التي تمّ فيها قتلهم وماذا كانوا يلبسون وماذا قالوا قبل أن يُقتلوا مباشرة. وعندما سؤل: ماذا قال للأم التي اغتصب ابنتها ثم قتلها؟ فأجاب: لاشيء.

يذكر "هيراك" أن المسلمين الذي قتلوا وهم مختبئين أسفل المنزل لم يتوسلوا إلى الصرب بألا يقتلوهم فيما عدا عثمان، أما المسلمون الآخرون فلم ينطقوا كلمة واحدة، "طرحناهم أرضاً وأمسك البعض بأرجلهم وهم صامتون ثم أخذت أقطع رقابهم.. مجرد قطع

صغير فيموتون على الفور كما فعلنا بالخنازير من قبل" وهو يمثل العملية بإشارة من يده.. هكذا..

كان هيراك يعود في قصصه دائماً إلى "قهوة سونيا" وهو فندق ومطعم يقع خارج مدينة "فوجوستشيا" على الطريق العام في الشمال بين "سراييفو" و "زغرب" العاصمة الكرواتية. قال: "كان مدير سجن النساء المسلمات الذي أقيم في الفندق ضابطاً صربياً يسمى "ميرو فوكوفيتش" وهو من القوميين المتطرفين من مليشيات "فويسلاف شيشلي" الذي أقام نظاماً للمليشيات الصربية لاغتصاب النساء المسلمات وقتلهن".

وصف "هيراك" كيف أنه هو وزملاؤه يتلقون تشجيع قادتهم الصرب الذين قالوا لهم: "إن اغتصاب النساء مفيد لرفع الروح المعنوية للجنود". وحدّد النساء اللائى اغتصبهن بالاسم، وأن أصغرهن كانت في سن المراهقة وأكبرهن في سن الخامسة والثلاثين، ويذكر أن "فوكوفيتش" قال لهم: "يمكنكم أن تفعلوا بالنساء ما تشاءون، ويمكنكم أن تأخذوهن من هنا ولا تعيدوهن إلينا فلم يبق لدينا طعام يكفيهن"، ويصف "هيراك" كيف أنه هو وأحد زملائه اعتدوا على امرأة في إحدى غرف الفندق ثم أخذوها تحت تهديد السلاح في سيارتهم إلى جبل "زوتش".. يقول: "وقفنا عند قنطرة صغيرة وقلت لها إنزلي فنزلت ومشت حوالي ثلاثة أمتار بعيداً عن السيارة وظهرها نحونا فأطلقت رصاصة عليها أصابت أعلى ظهرها أو رأسها ثم توجهت إلى جثتها بعد أن سقطت على الأرض فقط لكي أتأكد أنها هلكت.. كنا نترك بعض النساء المقتولات على جانب الطريق ونلقى جثث البعض الآخر في الغابة.. وكنت أذهب إلى الفندق مرة كل ثلاثة أو أربعة أيام.. فنجد نساء جديدات أسرهن المقاتلون الصرب.. ما عليك إلا أن تأخذ مفتاحاً وتدخل إلى إحدى الغرف.."



الفصل السادس

الموقف الأوروبي

الوهم الكبير:

ظن البوسنويون أنهم سقطوا فجأة في حفرة نتيجة خطأ فاحش أصابهم من حيث لا يحتسبون، فقد كان اعتقادهم أنهم ما داموا أوروبيين فإن هذا في حد ذاته كفيل بحمايتهم من أهول الحرب العدوانية، ذلك لأن أوروبا قارة متحضرة لا تسمح قيمها بحرب قذرة كالتي حدثت في البوسنة، فلما وقعت الحرب على رؤوسهم لم يفيقوا إلا على أهوالها وبشاعتها، فلما وجدوا أنفسهم في قلب الجحيم بدءوا يستيقظون من الوهم الكبير.

عُرف عن "مرجريت ثاتشر" (رئيسة وزراء بريطانيا سابقاً) أنها دافعت بحرارة شديدة عن حق شعب البوسنة في الدفاع عن نفسه، وهاجمت بشراسة سياسة بلادها وسياسة أوربا بصفة عامة لتقاعسها في رد العدوان الصربي وتراخيها في إنقاذ شعب البوسنة من المجازر الوحشية، وكان هناك شخصيات سياسية أخرى مرموقة مثل "بادي آشداون" وكثرة من المفكرين والكتاب الأوروبيين يتجاوبون مع هذه الدعوة.

عندما أعلنت كل من سلوفينيا وكرواتيا انفصالها عن يوغسلافيا السابقة وقامت صربيا بالاعتداء العسكري عليهما وقفت الدول الأوروبية ضد صربيا بحزم فانحسر العدوان.

أما بالنسبة للبوسنة فقد اختلف الموقف الأوروبي تماماً. اعترفت أوروبا- بعد تلكؤ- باستقلال البوسنة وسيادتها، ولكنها لم تنهض بما كان يُتوقع منها أن تقوم به عندما وقع العدوان الصربي عليها، حيث رفضت فكرة التدخل العسكري ضد العدوان ورفضت من ناحية أخرى رفع الحظر على تسليح البوسنة، وهذا ما كانت تنتظره صربيا لتمضي في خطتها لتدمير البوسنة وتمزيق وحدتها والقضاء على المسلمين وهي آمنة من أي تدخل عسكري.

شخصيات على مسرح الأحداث :

كانت بريطانيا في ذلك الوقت هي التي تقود أوروبا باعتبارها رئيسة المجموعة الأوروبية، وكان موقف بريطانيا من البداية هو الرفض الكامل والقاطع لأي شكل من أشكال العمل العسكري ضد الصرب، ولعل من أهم أسباب هذا الموقف أن بريطانيا قبلت وجهة نظر "بلجراد" دون مناقشة فيما يتعلق بطبيعة الصراع وحالة الحرب، حتى عندما أعلنت رفضها لنتائج الحل الصربي الذي ترتبت عليه وقوع كوارث بشعة على شعب البوسنة. ولا نريد أن نذهب أبعد من هذه النقطة لنبحث عن الأسباب الكامنة وراء اختيار بريطانيا الأخذ

بوجهة نظر بلجراد، وهي تعلم أن الصرب هم الذين اعتدوا على البوسنة، وهل لهذا الموقف المتحيّز علاقة بمواقفها التاريخية الثابتة تجاه الإسلام والمسلمين في العالم، فتلك مسألة أخرى لا مجال لبحثها في هذا الكتاب.

أبرز الذين تبنوا وجهة النظر الصربية من البريطانيين هم:

١- "لورد كارنجتون"[٩٥] أول وسيط دولي مُنتدب من قبل المجموعة الأوروبية لإجراء مفاوضات بين أطراف النزاع في البوسنة (أي المسلمين والكروات والصرب).

٢- "دوجلاس هيرد" وزير خارجية بريطانيا الأسبق الذي لعب أخطر دور في منع الدول الغربية من التدخل العسكري من ناحية، وإغلاق الطريق تماماً أمام أي محاولة لرفع حظر التسلح عن شعب البوسنة.

٣- "جون ميجور" رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، الذي حال دون التدخل العسكري الأمريكي وسعى جاهداً لإقناع الرئيس الأمريكي بعدم رفع حظر التسلح عن البوسنة الذي تبناه الكونجرس الأمريكي، وهو الذي زاد الأمور تعقيداً بإلحاق روسيا بالقوات الدولية في البوسنة .

٤- "لورد أوين" "الوسيط الأوروبي الثاني الذي خلف "لورد كارنجتون" بعد مؤتمر لندن في أغسطس ١٩٩٢ والذي تُنسب إليه خطة "فانس- أوين" في تقسيم البوسنة إلى كانتونات طائفية ابتدعها لإرضاء الصرب، وحاول بكل طاقته الضغط على القيادة البوسنوية لقبول خطة التقسيم، إنه كارنجتون الثاني.

٥- "مالكوم ريفكند" وزير دفاع بريطانيا الأسبق ثم وزير خارجيتها في أواخر عهد حكومة المحافظين بعد استقالة "دوجلاس هيرد".

هؤلاء الساسة لم يقتصر دورهم على تكتيف المسلمين والضغط على قيادتهم حتى تستسلم للمطالب الصربية في تقسيم البوسنة وإنما كان دورهم داخل بريطانيا جهداً إضافياً، كانوا في محولة دائبة للتأثير على الرأي العام البريطاني وتخويفه من عواقب التدخل العسكري في البوسنة حتى يكف عن مطالبة حكومته بالتدخل الحاسم لإنهاء المجزرة الصربية للمسلمين وكان من نتائج جهود هؤلاء القادة أن ظل "لورد أوين" يحث على عدم اتخاذ أي

---

[٩٥] صرح لورد كارنجتون بعد تنحيته من منصبه بأنه كان يعتقد دائماً "أن البوسنة والهرسك لا يصح أن تكون دولة مستقلة وكان من الخطأ أن يعترف المجتمع الدولي بأنها كيان ذو سيادة". هذا الاعتراف بالانحياز الشخصي ضد استقلال دولة البوسنة يفسر لنا لماذا انصبت جهوده على محاولة الضغط على حكومة البوسنة لقبول خطته في التقسيم ومن ثم التخلي عن السيادة وعن وحدة أراضي الجمهورية، كما يفسّر لنا سرّ اختيار بريطانيا له بالذات كوسيط أوروبي في عملية التفاوض.

إجراء ضد الصرب قد يضر بالتفاوض مــع "رادوفـان كراجيتـش" وظلـت الإذاعـة البريطانيـة والتلفاز (BBC) يقدمانه كل يوم تقريبا- باعتباره شاعراً ومفكراً مسيحياً، رغم علـم الجميـع أنه يكذب على المجتمع الدولي ويتلاعب به ولا يفي بوعوده، وأنه وراء عمليـات "التطـهير العرقي" الوحشية في البوسنة.

الافتراضات المزيفة :

فما هي الافتراضات التي أقامت عليها بريطانيا موقفها السلبي من العدوان على البوســنة وتبعتها في ذلك الدول الأوروبية؟

أولاً : أن ما يحدث في البوسنة إنما هو حرب أهلية بين ثلاثة طوائف عرقية متصارعة، وأن الصرب وإن كانوا هم الذين بـدءوا الحـرب إلا أن لـهم مطـالب مـبررة تسـتحق الاعتبـار والتحقيق.

وأن السلام في البوسنة يعتمد على التفاوض والدبلوماسية للوصول إلـى تسـوية دسـتورية ترضي متطلبات الأطراف الثلاثة وتظل من ناحية أخرى تحافظ علـى سـلامة أراضـي الدولـة ووحدتها. والحقيقة أن هذا الافتراض المركب افتراض زائف يسقط أمام أي تحليل موضوعـي جاد. فما حدث للبوسنة لم يكن حرباً أهلية، وإنما هو اعتـداء خـارجي واحتـلال واغتيـال، بدأ به الجيش الصربي المتسربل بعباءة الفدرالية فـي ذلـك الوقـت مكتسـباً شـرعية مـزروة، حيث انتشر في رقعة تزيد عن ٦٠٪ من مساحة أراضي البوسنة، وقام- فـي إطـار الخديعـة نفسها- بجمع أسلحة القوات المحلية للبوســنة فجـرد المسـلمين بذلـك مـن جميـع وسـائل الدفاع عن أنفســهم. وفـي نفس الوقـت شـرع فـي تدريـب وتسـليح مليشـيات "كراجيتـش" الصربية. ولم يكن في مقدور "كراجيتش" ومن معه من متمردي صرب البوسنة أن يحرزوا أي انتصار على الحكومة الشرعية للبوسنة التي يدعمها ٨٠٪ من السكان بما فيهم الصرب الذين صمدوا في وجه القوميين المتطرفين، وهم يشكلون أكثر مـن نصـف مجمـوع صـرب البوسـنة علاوة على أن ١٠٪ من قوات جيش البوسنة الوليـد هـم مـن صـرب البوسـنة، وبينـهم عـدد مرموق من الجنرالات ضمن قيادة الجيش، أما عصابة كراجيتش فقـد اعتمـدت فـي تمويلـها وتدريبها وإمداداتها على بلجراد، ولولا انضمام قوات من الجيـش الصربـي بقيـادة الجـنرال "ملاديتش" الذي قام بتعيينـه "ميلوسـفيتش" نفسـه لكـان لـهذه الحـرب مسـار آخـر، ولمـا استطاع "كراجيتش" أن يكون في وضع القوى الذي يُملي شروطه ويتحكم في قضية البوســنة وفي سير المفاوضات.

لم يقتصر موقف الحكومة البريطانية على ترويجها لسيناريو الحرب الأهلية وتصويرها ما يحدث في البوسنة من فظائع على أنه صراع بين أطراف ثلاثة متساوية في المسئولية، وإنما دأبت هذه الحكومة على التقليل من شأن حكومة البوسنة الشرعية، فظلت تتجاهل وضع "علي عزت" باعتباره الرئيس الشرعي لجمهورية البوسنة المنتخب من قبل الشعب، بل تعاملت معه بوصفه زعيم مسلمي البوسنة، متدنّية بمركزه ليتساوى مع مركز كراجيتش باعتباره زعيم صرب البوسنة، ولم تيّسر بريطانيا فتح سفارة للبوسنة في لندن، فلما جاء "حارس سيلاجيتش" وزير خارجيتها لم تخصص له أي نوع من الحماية أو الرعاية التي تخصصها لوزراء خارجية الدول الأخرى.

أما المطالب الصربية التي افترضت بريطانيا أنها مُبّررة فهي مطالب مردها إلى "ميلوسفيتش" وعميله "كراجيتش"، لم يكن لصرب البوسنة قضية تبرر الحرب أو العنف سعياً إلى اقتطاع أكثر أجزاء البوسنة، تمهيداً لضمها إلى صربيا الكبرى، ولم يكن هناك مصلحة لصرب البوسنة في تمزيق بلادهم إلى كانتونات طائفية؛ فالبوسنويون لم يألفوا الحياة في كانتونات معزولة بعضها عن بعض، وإنما الامتزاج بين المسلمين والأرثوذكس (الصرب) والكاثوليك (الكروات) كان هو الحال السائد، وكان الاختلاط في الزواج تقليداً ثابتاً في البوسنة منذ عهود طويلة، حتى وصلت نسبة الاختلاط الأسري إلى ٣٠٪ من مجموع السكان. وليس هناك سوى مجموعة قليلة من صرب البوسنة أصحاب نزعة قومية عنصرية هم الذين استهوتهم مخططات بلجراد ووجدوا من بينهم قيادة عميلة وطامحة في السلطة، كما وجدوا الدعم الخارجي الذي لا نهاية له من حكومة صربيا.

أما التسوية الدستورية السلمية التي كان يطبخها "لورد أوين" وصاحبه "سيروس فانس" في جنيف فكانت تسوية مصطنعة من جانب أوروبا والمجتمع الدولي بصفة عامة لتبرير عدم التدخل الإيجابي الفاعل لرد العدوان، ووقف تدخل صربيا في شئون جارتها الداخلية، وما كان التمادي في عملية المفاوضات، ومنع أي إجراء دولي حاسم ضد الاعتداء الصربي بحجة الاستمرار في عملية التسوية السلمية إلا غطاء للتواطؤ ضد شعب البوسنة، وإعطاء الفرصة للصرب لكي يجهزوا على البقية الباقية من المسلمين البشناق، وتحويل دولتهم في النهاية إلى ولاية تابعة لبلجراد كما فعل الصرب في كوسوفا".

ثانياً: من الافتراضات الأوروبية الخاطئة التي استمر التأكيد عليها أن الصرب قوة لا تُقهر، وأنهم كانوا السبب في إطلاق شرارة الحرب العالمية الأولي والثانية، وأن هزيمة المسلمين مصير محتوم. والتذكير دائماً بما جرى للقوات الألمانية خلال الحرب العالمية على يد القوات الصربية.

وقد سبق أن أشرنا إلى زيف هذا الافتراض بالكشف عن حقيقتين: الحقيقة الأولى أن الألمان لم يدخلوا مع الصرب في مواجهات أثناء الحرب وأن الكروات هم الذين فعلوا، والحقيقة الثانية أن الجيش الصربي الذي لا يقهر هو مجرد هراء. وبالنسبة لحرب البوسنة فإن ما حققه الصرب من مكاسب على الأرض إنما كان من خلال خديعة انتشار الجيش الفدرالي مبكراً في أراضي البوسنة وقيامه بنزع أسلحة القوات البوسنوية المحلية، ومن خلال الهجمات المفاجئة للمليشيات الصربية المدعومة في الأسابيع الأولى من الغزو، ولم ينجحوا بعد ذلك في مد سيطرتهم على مناطق أخرى في البوسنة إلا قليلاً، فقد تمركز الصرب بدباباتهم ومدافعهم الثقيلة حول المدن والقرى لحصارها وضربها بالقنابل والصواريخ من بُعد، وفرض الجوع والخوف على السكان العزل، ذلك في إطار غياب كامل لجيش بوسنوي مدرب ومسلح لفترة طويلة من الوقت. حتى أنشئ الجيش البوسنوي وبدأ يتحرك فتغيرت الصورة كثيراً، رغم حرمانه من الدبابات والمدافع الثقيلة.

ثالثاً: آخر الفروض الأوروبية الخاطئة تتمثل في الادعاء المتكرر بأنه لا توجد أدلة على تدخل جمهورية صربيا في الحرب في حين كان الجميع يعلمون، كما شاهد مراقبو الأمم المتحدة بأنفسهم واعترفوا في تقاريرهم بأن الدبابات الصربية وقوافل الإمدادات كانت تعبر الحدود من صربيا إلى البوسنة بصفة مستمرة، ولم يعد هناك أدنى شك في أن جيش كراجيتش يعتمد اعتماداً كلياً على بلجراد.

السياق التاريخي :

أشرنا ضمن الافتراضات التي أقامت عليها بريطانيا موقفها السلبي تجاه العدوان الصربي على البوسنة أن "هزيمة المسلمين مصير محتوم". هنا ينبغي أن نتوقف قليلاً لنتأمل الأبعاد التي تكمن في هذه العبارة. فمن حقنا أن نتساءل: لماذا كانت هزيمة المسلمين قدراً محتوماً عليهم؟ ألأن الجيش الصربي كما يزعمون قوة لا تقهر؟ لقد أوضحنا أن هذا الزعم خرافة لا تستند إلى دليل من الواقع. بل إن أحداث حرب البوسنة أظهرت أن جيش البوسنة بأسلحته الخفيفة وبما تيسر له من أسلحة ثقيلة متواضعة في عددها تمكن من طرد القوات الصربية من مواقع كثيرة، وصمد في وجه الحشود الصربية في معارك "بيهاتش" وغيرها من المعارك على قلة عدده وعدته، لدرجة أن "ميلوسفيتش" وهو يوجه إلى جنرالاته عبارات التوبيخ لهزائمهم المتلاحقة في وسط البوسنة قال لهم: "لو أن جيش البوسنة هذا لديه ما لديكم من أسلحة لرأيناه اليوم في بلجراد". حدث هذا في البوسنة رغم التجويع والحصار ورغم الحظر الدولي على تسليح المسلمين. هي إذن رغبة وإرادة من جانب الدول الأوروبية

في هزيمة المسلمين، وليست شيئاً نابعاً من طبيعة الأمور، لو شاءت الدول الأوروبية تغييرها لتغيرت. فالعناد الصربي كان من الممكن كسره، ولكن لم يكن لدى الدول الأوروبية رغبة في ذلك، (حتى لا يفلت زمام الموقف من يد الغرب) على حد تعبير "مالكوم رفكند" نفسه عندما سؤل في الولايات المتحدة لماذا لا تسمحون بتسليح المسلمين؟، فالموقف زمامه ينفلت في نظر "رفكند" وأمثاله فقط عندما يتسلح المسلمون ويتمكنون من الدفاع عن أنفسهم، وإبقاء المسلمين في موقف ضعيف هو هدف استراتيجي. لقد اضطر المسلمون تحت الضغوط الهائلة للقبول بخطة التقسيم ورفضها الصرب، ومع ذلك ظل الحظر.. فالمسألة لا تتوقف عند تقسيم البوسنة أو تمزيقها فحسب وإنما هو تكتيف المسلمين وتقديمهم فريسة سهلة لمن يسيطر عليهم بصفة دائمة سواء كانوا صرباً أو كرواتاً أو هما معاً.

وإذا وضعنا هذه الحقيقة في سياقها التاريخي كما تعيه دول الغرب وكما تتصرف بريطانيا في ضوئه استطعنا أن نفهم كلام "كولين ولسون" في صحيفة "الإندبندنت" البريطانية بتاريخ ١٩٩٣/٤/١٩م حيث كتب: "في الصراع المحتدم في يوغسلافيا لابد أن ينتصر أحد الأطراف في النهاية، ونحن نعلم من سيكون الطرف المنتصر، لذلك علينا ألا نتدخل لمنع أو تأخير هذا الانتصار بل على العكس- علينا أن نساعد ذلك الطرف لتحقيق النصر بسرعة، لكي نتجنب المزيد من إراقة الدماء، كما أن وجود قواتنا في صف الطرف المنتصر سيعطينا الحق والقدرة لكي نضمن توقف ارتكاب المذابح. قد يبدو هذا المنطق مُريعاً إلى حد كبير، ولكنه يستهدف الوصول إلى الممكن وليس إلى الأمثل في أرض تمزقها الكراهية". إن "كولين ولسون" لا يتحدث عن الأطراف حديثاً صريحاً فهو لا يسميها بأسمائها، ولكنه لم يستطع أن يخفي مقاصده في النهاية فقد أفصح في نهاية مقاله عن مكنون صدره عندما قال: "كان هناك في الماضي كيان اسمه الكتلة المسيحية عبر عن نفسه بالحملات الصليبية التي عادت بالكارثة وسببت لنا العار، واليوم يوجد كيان اسمه الإسلام ينمو أمامنا بوضوح ويزداد في كل يوم تعصُّباً.. في وجه هذا الكيان.. هل نستطيع بل هل نملك أن ننسى من نحن وماذا كُنّا؟!". انتهى كلام "كولين ولسون" في الصحيفة المعبرة عن حزب المحافظين الحاكم وعن الثقافة العنصرية المتعصبة التي تصدر عنها مواقف حكومته.[٩٦]

---

[٩٦] من أفضل ما كتب من تحليلات سياسية في الصحف العربية مقال للأستاذ فهمي هويدي عن دور بريطانيا المدمر في قضية البوسنة تحت عنوان: "بريطانيا والبوسنة: كشف الأوراق". نشر أولاً بالأهرام في ١٩٩٣/٥/٢٥. أنظر أيضا كتاب: شهادة القلم على مأساة العصر: البوسنة والهرسك القاهرة: نقابة الأطباء، لجنة الإغاثة الإنسانية، ١٩٩٤. ص١٠٤-١٠٩.

خطاب جون ميجور :

في يوليه ١٩٩٣ ثارت ضجة كبيرة حول خطاب تسربت نسخة مصورة منه إلى العالم الخارجي، وكان الخطاب موجها من "جون ميجور" رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت إلى "دوجلاس هيرد" وزير خارجيته، وذلك في أعقاب الحملة القوية التي قامت بها "مارجريت ثاتشر" رئيسة الوزراء السابقة ضد سياسة حكومة "جون ميجور" في البوسنة. كان الهاجس الأكبر والدائم لجون ميجور هو انقسام قيادة حزب المحافظين والتمرد عليه، وكان لماجريت ثاتشر نفوذ قوي في الحزب يخشاه جون ميجور، ومن ثم أراد أن يطمئن على تماسك وزرائه وتأييدهم لسياسته، وإظهارهم أمام المعارضة في البرلمان وخارجه بمظهر القوة والتلاحم. وفي هذا الخطاب يؤكد "جون ميجور" بأن سياسة الحكومة البريطانية لم تتغير، ويوصي وزير خارجيته بالثبات على هذه السياسة بشأن البوسنة مهما كانت الضغوط الدولية التي يتعرض لها، وتتلخص نصائح جون ميجور في النقاط الثلاثة الآتية:

١- لا توافق بريطانيا الآن ولا في المستقبل على "تسليح أو تدريب" المسلمين في البوسنة والهرسك.

٢- أن بريطانيا ستستمر في المساعدة على (فرض وتنفيذ) حظر الأمم المتحدة على توريد السلاح للمنطقة، وأنه من الأهمية بمكان التأكد من عدم نجاح أي جهور تقوم بها دول مسلمة أو مجموعات إسلامية بتسليح مسلمي البوسنة (وهو هنا يذكّر بألا يقع الغرب في خطأ تسليح المقاتلين المسلمين مرة ثانية كما فعل مع المقاتلين الأفغان في حربهم مع الاتحاد السوفيتي السابق).

٣- لا تسمح بريطانيا لأي دولة مسلمة بأي حال من الأحوال أن يكون لها تأثير على سياسة الغرب تجاه البوسنة. وأنه يجب الاستمرار في عملية المفاوضات التي يتولاها "فانس- أوين" مهما طال بها الزمن حتى تنتهي البوسنة والهرسك من الوجود كدولة قادرة على الحياة، وحتى يتم شرذمة سكانها، وعلى الأخص اقتلاع الاستقرار السكاني للمسلمين من جذوره، حتى يكون عاهة دائمة وشغلهم الشاغل مدى الحياة.

أنكر جون ميجور هذا الخطاب ونفى صدوره عنه رسمياً أو بصفة شخصية. وقد يكون صادقاً في ذلك، ولكن ما قيمة هذا الإنكار وذلك النفى إذا كان هذا الخطاب - سواء كان صحيحاً أو مزوراً- يعبر بالفعل أصدق تعبير عن موقف بريطانيا وسياستها التي التزمت بها تجاه العدوان على البوسنة؟

الصمت الشائن :

في مقال بصحيفة الجارديان (١٩٩٤/٢/١٠م) كتبت "ماجي أوكين" تحت عنوان: "هل من نهاية لصمتنا الشائن"*:

"في سبتمبر ١٩٩١ عندما اجتمع وزراء خارجية الدول الأوروبية لتقرير سياسة أوروبا في لاهاي كان إصرار بريطانيا على تحجيم الدور الأوروبي في البوسنة واضحاً. وكان "دوجلاس هيرد" هو الذي رفض رفضاً قاطعاً المقترحات بإرسال ثلاثين ألف جندي من القوات لوقف العدوان في البوسنة. وكانت بريطانيا هي التي اعترضت على دعوة الجنرال الفرنسي "موريّون" إلى عمل عسكري لوقف أعمال القتل في "سربرنيتشا"، وعندما أرسل الرئيس كلينتون وزير خارجيته "وارين كريستوفر" إلى دول أوروبا ليحشد دعماً لعمل عسكري في البوسنة، عاد بخفيّ حنين بفضل جهود بريطانيا". وتنتقل "ماجي أوكين" إلى الكشف عن منطلقات السياسة البريطانية تجاه البوسنة فتحصرها في ثلاثة:

١- اعتمدت بريطانيا أولاً على تكتيك إشاعة العبارات التاريخية لتخويف الرأي العام البريطاني من الانغماس في حرب يوغسلافيا السابقة. ذلك لأنه إذا سُمح للغضب أن يتفجر في البلقان فنحن أمام فيتنام أخرى، ومن ثم لابد من إغلاق الباب على مذابح البلقان، حتى تأكل النار بعضها وتنطفئ.

٢- عمل أقل ما يكن عمله (المساعدات الإنسانية مثلا) لتهدئة الرأي العام دون حاجة إلي الدخول في مخاطر من أي نوع سياسية كانت أو عسكرية. من أجل هذا استمرت لعبة المفاوضات طويلاً، علماً بأن "لورد كانجتون" وخلفه "لورد أوين" قد اعترفا بأنهما منذ بداية الشوط كانا يعلمان بأن مبادرتيهما محكوم عليها بالفشل، ولكن كما صرح دبلوماسي بريطاني: "كنا نعرف أن خطة "أوين- فانس" جثة هامدة، ولكن كان علينا أن نتشبث بأي قشة".

٣- وضع أجهزة الإعلام- التي تحذر من استمرار المجازر في البوسنة وتدعو الحكومة لعمل شيء إيجابي في سبيل إيقافها- وضع هذه الأجهزة وراء ظهرها والزعم بأنها تنشر الرعب والهذيان. وتصف "ماجي أوكين" هذا الموقف بأنه بمثابة "قتل الرسول".

---

* أنظر أيضاً ستيفن جلوفر في صحيفة Evening Standard، الصادرة في أول ديسمبر ١٩٩٤ في مقال بعنوان: الولايات المتحدة على حق ونحن مخطئون، يؤكد فيه أن سياسة بريطانيا في البوسنة مزيج من المخاتلة والنفاق.

وتمضي "ماجي أوكين" لتؤكد النتيجة المخزية لهذه السياسة السلبية فتقول: "إنها السياسة التي تركت أيدي قادتنا ملوثة بدماء المسلمين في البوسنة والهرسك". كانت كلمات السياسيين رخيصة رخص حياة البشر حيث يقول "ألان كلارك" وزير الحربية السابق: "إن محاولة إيقاف هذه المجازر أو محاولة تنفيذ مبادئ الأمم المتحدة والإصرار على فكرة عالم لا يُباد فيه مجتمع متحضّر بالقوة الغاشمة.. كل ذلك لا يساوي حياة جندي واحد من جنودنا" وتُعلّق ماجي أوكين عل ذلك قائلة: "لقد كان ألان كلارك- على الأقل- أميناً مع نفسه- عندما طرح مبادئ الأمم المتحدة وحياة البوسنويين جانباً. أما "جون ميجور" و "دوجلاس هيرد" وزير خارجيته فقد أخفيا نواياهما الحقيقية تحت ستار من التظاهر بعمل شيء، فكان مؤتمر لندن (في أغسطس ١٩٩٢) وكان استعراض "عملية إرما"[٩٧] نموذجين لهذا التظاهر".

ولقد نسيت "ماجي أوكين" أن تضم إلى هاتين الشخصيتين شخصية ثالثة وأعني بها "مالكوم رفكند" وزير الحربية البريطاني ففي لقاء تليفزيوني مساء الثلاثاء أول مارس ١٩٩٤م عندما سأله المذيع عن سر التغيير المفاجئ في سياسة حلف الأطلنطي الذي جعله يضرب الطائرات الصربية (التي أغارت على البوسنة يوم ٢٨ فبراير ١٩٩٤) رغم أن هذه ليست أول مرة ينتهك فيها الصرب قرار الأمم المتحدة بحظر الطيران فوق البوسنة حيث قاموا بانتهاك هذا الحظر مئات المرات لا مرة واحدة، فما الذي جدّ في الأمر؟ لم يعترف الوزير بأن حلف الأطلنطي كان جاداً في تهديده هذه المرة، وأن تهديداته السابقة كانت مجرد فرقعات إعلامية وأن الصرب كانوا يعلمون مقدماً من أصدقائهم في الحلف حقيقة هذه التهديدات.. وبطبيعة الحال لم يعترف الوزير بأن بريطانيا اضطرت مؤخراً لتغيير موقفها بالموافقة على قرار الحلف وإنما أجاب قائلاً: "السبب هو أن هذه كانت أول طائرات حربية صربية تطير في سماء البوسنة والهرسك".. لقد شاء الوزير أن يتجنب الصدق ولكن الوزير لا يجهل أن وكالات الأنباء العالمية كانت قد أذاعت في يوم ١٩٩٢/١٠/١٢ خبر إغارة الطائرات الصربية على مدينتي "جراداكاتش وبرتشكو" بشمال البوسنة، وضربتهما بالقنابل العنقودية، ثم جاءت بعد ذلك أخبار إغارات أخرى للطائرات الصربية استخدمت النابالم والغاز السام على مواقع مدينة أخرى. وكان أولى بمالكوم رفكند أن يتعاطف مع ضحايا هذه الاعتداءات

---

[٩٧] "إرما" اسم لطفلة مسلمة أصيبت بشظايا القذف الصربي على سراييفو الذي قتل أمها في الحال وعاشت الطفلة لسوء حظها حيث أجريت لها عمليات لاستخراج الشظايا من جسمها ولكنها ظلت في حالة إغماء مستمر نظراً لضعف إمكانات مستشفى المدينة فجاءت بها الحكومة البريطانية إلى لندن للعلاج في مظاهرة إعلامية كبيرة.

الوحشية أكثر من غيره فهو ينتمي إلى أبوين يـهوديين تعرّضـا لخطـر الإبـادة الهتلريـة فـي بولندا أثناء الحرب العالمية الثانية إلا أنهما تمكّنا من الهرب إلى بريطانيا.

طوال عامين من حرب البوسنة أرى "مالكوم رفكند" من أشد السياسيين ضراوة في تفنيـد كل حجة وراء المطالبة بعمل عسكري لإنقاذ المسلمين في البوسنة، ولـم يتفـوق عليـه سـوى "دوجلاس هيرد" بدهائه ووقفته الطاووسية والتواء منطقه.

الرأي العام :

إن المراقب للإعلام الغربي يدرك بوضوح أن ثمة فجـوة كبـيرة بيـن السياسـات الرسـمية للحكومـات وبيـن الـرأي العـام الـذي تحـرك ضمـيره الأخلاقـي والإنسـاني، فـأخذ يطـالب الحكومات باتخاذ عمل عسكري لإيقاف المذابح الجاعية والأعمال الوحشـية الموجّهـة ضـد المسلمين في البوسنة، أو رفـع الحظـر المفـوض علـي تسـليحهم حتـى يتمكنـوا مـن الدفـاع المشروع عن أنفسهم، كما يدرك أن الرأي العام في الولايات المتحدة كان أقوى منه فـي أي مكان آخر.. وأنا لا أزعم أنه بسبب هذا كان موقف الحكومة الأمريكية أكـثر تـأييداً لاتخـاذ إجراءات حاسمة لوقف العدوان الصربي. فلا شك أن هناك عوامل كثيرة تؤثر في اتخاذ مثل هذه القرارات وهناك توازنات تراعيها الحكومة الأمريكية قد تمتد على نطاق الساحة العالمية كلـها ولا تسـتطيع الولايـات المتحـدة أن تتجـاهل أن المقارنـة مسـتمرة فـي عقـول العـرب والمسلمين بين الحسم الفوري الذي أبدته الإدارة الأمريكية ولا تزال تبديه في حرب الخليـج وفي معاقبــة العـراق وشـعبه، وبيـن الـتراخي والـتردد الـذي ترتكـس فيـه بالنسـبة للقضيـة الفلسطينية ثم بالنسبة للمذابح اليومية لمسلمي البوسنة وهي قادرة على إيقافها.

التمرد على المواقف السلبية :

هناك فروق بين دول أوروبا من ناحية وبين الولايات المتحدة من ناحية أخرى خصوصـاً إذا قارنًا بين ما يحدث في المؤسسة الرسمية في بريطانيا وفي المؤسسـة الأمريكيـة. فبينمـا نجد أن المؤسسة الرسمية في بريطانيا متسقة مع سياستها المعلنة ولا تظـهر الانتقـادات إلا من خارجها، نجد أن المؤسسة الرسمية في الولايـات المتحـدة- علـى عكـس هـذا- تشـهد حالات من التمرد على الموقف السلبي الذي تتخذه الإدارة الأمريكية إزاء الحرب البوسنوية.

ونذكر في هذا المجال الدبلوماسي "فريمان هاريس" الـذي اسـتقال مـن وزارة الخارجيـة احتجاجاً على موقفها السلبي وعقد مؤتمراً صحفياً فـي اليـوم التـالي لاسـتقالته مـع النـائب "فرانك ما كلوسكي" مُطالباً فيه الرئيس كلينتون بان يحـثّ المجموعـة الأوروبيـة علـى طـرد

"لورد أوين" لأنه تجاوز صلاحياته تجاوزا صارخاً بمحاولاته المتصلة الضغط علـى المسلمين للقبول بتمزيق دولة البوسنة وتغيير حدودها وبذلك أصبح منحازاً للمصالح الصربية.

أعلنت وزارة الخارجية الأمريكيـة عـن استقالة أخـرى حيث استقال "جـون وسْترن" احتجاجاً على السياسة الأمريكية في البوسنة وقد صرح قائلاً: "إنني لا أستطيع أن أستمر في خدمة وزارة خارجيـة تقبل بالتقسيم المفروض بقـوة السلاح علـى دولـة أوروبيـة، ولا تتدخل ضد الإبادة الجماعية، ولا تتخذ أي إجراء فعّال ضد السياسيين الرسـميين فـي دولـة الصرب الذين يرتكبون هذه الجرائم". وفي العام السابق استقال "جـورج كينـي" مـن مكتب يوغسلافيا في الوزارة حيث قال: ؟رغم أنني لا أتحدث باسم زملائي إلا أننـي أودّ أن أؤكـد أنني لست وحدي أشعر هذا الشعور بأننا لا نفعل ما ينبغي أن نقوم به في هذه القضية".

الإرادة الغائبة :

على الرغم من كل شيء تبقى المواقف السـلبية للحكومـات الغربيـة ثابتـة متواطئـة مـع العدوان الصربي تبث في خطابها الإعلامي عبارات مكرورة، يلخصها "أنتونـي بـوردن" فـي هذه الفقرة: "إن الأوضاع على أرض البوسنة في غاية التعقيـد حتـى أنـه لا يمكـن عمـل أي شيء. وأن الحرب ليست إلا صراعاً عرقيا تغذيه أحقاد تاريخيـة بحيث لا يمكـن لأي قـوة خارجية أن تعترض طريقة. فإذا ظهرت اختيارات ممكنة للتدخل العسـكري يعترض القـادة الغربيون بحجة أنه لا توجد إرادة سياسية لدى أحد لتحمّل أي تكـاليف تـترتب علـى هـذا التدخل وعلى الأخص حياة الجنود. القضية إذن هي هذه الإرادة الغائبة.

ولم تغب هذه الحقيقة عن الساسة المسـلمين فـي البوسـنة وهـم يشـهدون أمامـهم تحيّز "لورد أوين" للصرب في محادثات السلام المزعوم ويتعرضون لضغوطه المتصاعدة على مـائدة المفاوضات في جنيف حيث قال "لورد أوين" لرئيس البوسنة بصراحة جارحة: "إنكم تأتون باعتراضات وشروط وأنتم مهزومون!" ويعني "لورد أويـن" بذلـك أن علـى قيـادة البوسـنة أن تخضـع لإرادة الصربـي المنتصر دون قيـد ولا شـرط. وكـانت القـوات الصربيـة المحـاصرة لسراييفو تتعمد تصعيد الضربات الموجهة للمدنيين أثناء جلسات المحادثات. فلما استعصت القيادة البوسنوية على هذه المحاولات الضاغطة اتجـه "لـورد أويـن" إلـى الكـروات يغريـهم بالتخلي عن المسلمين والتحالف مع الصرب للقضاء علـى مقاومـة جيـش البوسـنة، كوسـيلة لتركيع القيادة البوسنوية وإعادتها إلى مائدة المفاوضات والتوقيع قسراً على وثيقة التقسيم.

وكـان دور "لـورد أويـن" مـن موقعـه كوسيط أوروبـي فـي المفاوضـات أن يمسـك بزمـام المناورات السياسية لتدعيم المكاسب العسكرية الصربية، فهو لا يفتأ يكرر على مسامع وفـد حكومة البوسنة: "أن الأمر الواقع على الأرض هو المحكّ الوحيد لأي تسوية"[٩٨]

المساعدات الإنسانية :

اقتصر الجهد الأوروبي الإيجابي في مأساة البوسنة على نشاطين:

أولهما- الاستمرار في المفاوضات بدعوى الرغبة في الوصول إلى حل دبلوماسـي لحالـة أطلقوا عليها الحرب الأهلية في البوسنة حتى أصبح مجرد الاسـتمرار فـي المفاوضـات هدفاً في حد ذاته. وقد ألممنا بطرف من الظروف المأساوية التي أُجريت فيـها المفاوضـات وإلـى تعنت الصرب في جميع ما عُرض عليـهم مـن حلـول وتنـازلات، وكيـف أنـهم اتخـذوا مـن المفاوضات ستاراً لتحقيق مآربهم في تمزيق البوسنة والضغط على القيادة البوسنوية للخضـوع والاستسلام لرغباتهم. فقـد تحولـت دولـة البوسـنة إلـى جيـوب تـأوي تجمعـات المسـلمين المشردين ، جيوب منعزلة بعضها عن بعض، تحاصرهـا القـوات الصربيـة مـن كـل جـانب وتفرض عليها الجوع والخـوف، ولـم تنـج العاصمـة "سـراييفو" مـن هـذا الحصـار بـل كـان حصارها مشهداً يراه العالم كل يوم على شاشات التلفاز.

وثانيهما- توفير مواد الإغاثة من طعام ودواء إلى أهل البوسنة المحاصرين في الجيوب. وهي مناطق أطلق عليها اسم "الملاذات الآمنة" بقرار من الأمم المتحدة؛ وكان مـن المفـروض أن تقوم قوات الأمم المتحدة في البوسنة بحمايتـها وتوصيـل الغـذاء إليـها. وأصبـح توصيـل "المساعدات الإنسانية" هو الشغل الشاغل للإعلام العـالمي، ولكـن الـذي كـان يتحكـم فـي وصول هذه المعونات هم الصرب، إن شاءوا فتحوا لها الطريق بعد أن يستولوا منها علـى مـا يشتهون، وإن شاءوا منعوها فترتد قوافل الإغاثة على أعقابها ويبقى المسلمون جوعى شهوراً طويلة يأكلون من عشب الأرض.

الذين وُكل إليهم تنفيذ قرارات الأمم المتحدة هم قوات الدول الأوروبية في البوسنة، وقد أحضرت دول أوروبـا الأمـم المتحـدة إلـى البوسـنة لتوصيـل مـواد الإغاثـة والإشـراف علـى المفاوضات للوصول إلى حل سلمي وعلى وقف إطـلاق النـار. ولـم تفلـح الأمـم المتحـدة كمـا سنرى فـي أي واحـدة مـن هـذه المـهام، لأن الذيـن حـددوا مـهام الأمـم المتحـدة وحـددوا

---

[٩٨] أنظر "أنتوني بوردن" Borden, Anthony. Bloody Bosnia: A European Tragedy London: School of Slavonic and Eastern European Studies, Uouiersity of London, 1993. وأنتوني بوردون هو مدير معهد الحرب والسلام بلندن.

صلاحياتها وقاموا بتنفيذها في البوسنة هم قوات أوروبا بصفة أساسية. فكانت الأمم المتحدة بمثابة قناع أخفت به دول أوروبا وجهها القبيح، وكانت حكاية "المساعدات الإنسانية" هي ورقة التوت التي أرادت أوروبا أن تستر بها عورتها أمام العالم.

أصبحت "المساعدات الإنسانية" مجالاً للتلاعب ووسيلة للضغط على المسلمين في حالتين: بغية الإذعان في المفاوضات للإرادة الصربية، أو لوقف القتال عندما يبدو أن المسلمين يحققون انتصارات ملموسة على القوات الصربية. ولم يكن الصرب وحدهم في هذا التلاعب بل شاركتهم الدول الأوروبية فيه وكان جزءاً من سياستها في البوسنة. فبعد سقوط مدينة "كوبريس" في أيدي المسلمين خرج "لورد أوين" غاضباً يهدد ويتوعّد المسلمين بمنع مواد الإغاثة عنهم إذا استمروا في مقاومتهم وقتالهم للصرب قال: "إن الموارد التي تُنفق على البوسنة بدون فائدة قد يطلب المجتمع الدولي تحويلها إلى منطقة كوارث أخرى مثل روندا".

لم يكن هذا موقفاً فردياً للورد "دافيد أوين" وإنما هو موقف يتردد صداه في مجتمع الدول الغربية بأسرها، فقد حاولت المجموعة التي أطلق عليها دول الاتصال والمكونة من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا وألمانيا– حاولت إقناع حكومة البوسنة بأن انتصاراتها العسكرية لن تضمن لها الانتصار الكامل في أرض المعركة.[٩٩] وهذا معناه في خطاب هؤلاء السياسيين أنه لن يُسمح لحكومة البوسنة بالوصول إلى هذا الهدف. ولم يكن هذا الاتجاه بعيداً عن فهم "البنتاجون" الأمريكي فقد أهاج قادة البنتاجون الانتصارات التي حققها المسلمون على الصرب لزعمهم بأن انتصارات المسلمين قد تحملهم على الانتقام من السكان المدنيين الصرب كرد فعل للأعمال الوحشية التي سبق أن قام بها الصرب ضد السكان المسلمين. ولذلك نصح البنتاجون الإدارة الأمريكية أن تأمر بضربات جوية عقابية ضد المسلمين تقوم بها قوات حلف الأطلسي بحجة أن هذا سوف يُظهر الحلف بأنه يقف على الحياد بين القوى المتحاربة في البوسنة.[١٠٠]

كان الصرب يتحكمون في كل الطرق الموصلة إلى الجيوب المسلمة، ويحاصرون هذه الجيوب فارضين عليها الجوع فإذا جاءت قوافل الإغاثة مصحوبة بحراسها من قوات الأمم المتحدة منعوا دخولها إلى مناطق تجمعات المسلمين، وهنا تبدأ المفاوضات بين رجال الأمم المتحدة وبين الصرب، ويفرض الصرب شروطهم ومن هذه الشروط أن يقوموا بتفتيش

---

[٩٩] أنظر صحيفة الإندبندنت The Independent البريطانية الصادرة في ١١ نوفمبر ١٩٩٤م.

[١٠٠] أنظر مارك توسون" في مقاله بصحيفة "التيمز" البريطانية الصادرة في ١٤ نوفمبر ١٩٩٤م.

محتويات الإغاثة، وأن يحصلوا على نصف كمية الإمدادات والأموال القادمة في بعض الحالات، أو ربع الإمدادات كما جرت العادة في أغلب الأحوال، والأمر يتوقف على مزاج المليشيات الصربية واحتياجاتها المتغيرة، الذين يقومون بإغلاق الطريق مرة أخرى فلا يسمحون بمرور قوافل الإغاثة فترات مختلفة قد تكون بضعة أسابيع أو عدة شهور وقد تزيد عن العام كما فعلوا في منطقة "بيهاتش"، فإذا جاءت القوافل مرة أخرى تُرد على أعقابها أو تدور المفاوضات من جديد وينشغل العالم عن مأساة شعب البوسنة بأخبار قُطاع الطريق الذين يتحدون قوات الأمم المتحدة ويفرضون عليها الشروط.

أما بالنسبة لسراييفو فكانت تأتيها مواد الإغاثة بالطائرات، وكان الصرب يطلقون قذائفهم على المطار فتصيب هدفاً أو لا تصيب، ولكنها تأتي بالنتيجة الحتمية حيث تعلن قيادة الأمم المتحدة في البوسنة إغلاق المطار لأجل غير مسمى، ثم يترتب على ذلك بدء مفاوضات مع الصرب لتطول ما شاء لها الصرب أن تطول، ليتم تجويع العاصمة وكسر الإرادة السياسية للحكومة البوسنوية.

حدث كل هذا التلاعب في حين أن قوات الأمم المتحدة كانت لديها صلاحيات من مجلس الأمن وفقا لقراره رقم ٧٧٠ الصادر في ١٣ أغسطس ١٩٩٢م يسمح باستخدام جميع الوسائل بما في ذلك استخدام القوة لضمان وصول مواد الإغاثة. ومع ذلك يم يحدث مرة واحدة أن استخدمت قوات الأمم المتحدة القوة في ردع الصرب لمنعهم قوافل الإغاثة من الوصول إلى أهدافها. وكانت دول أوروبا وراء هذا الشلل الذي أصاب الأمم المتحدة وأعجزها عن القيام بواجباتها وتنفيذ قرارات مجلس الأمن. وكانت حجتهم في هذا التهاون هي أن يتجنبوا غضب الصرب وانتقامهم من الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين يحرسون قوافل الإغاثة.

وهكذا فشلت أوروبا فشلاً ذريعاً في كل ما زعم قادتها أنهم سيقومون به من أجل شعب البوسنة، بل تركزت جهودهم الفعلية في الاتجاه المضاد، بدءًا من رفضهم رفع الحظر عن تسليح المسلمين، وامتناعهم عن القيام بأي علم عسكري لوقف العدوان أو رفع الحصار القاتل عن سراييفو والمدن الأخرى في البوسنة، إلى سعيهم المتصل لتمزيق وحدة أراضي البوسنة من خلال خططهم في التقسيم، وانتهاء بالمشاركة في حصار المسلمين وتجويعهم من خلال التلاعب بما سموه "المساعدات الإنسانية".

من تصريحات السناتور "روبرت دول" الزعيم الجمهوري السابق في مجلس النواب الأمريكي (في ٣ ديسمبر ١٩٩٤) قال: "إن بريطانيا هي العقبة الأكبر التي تحول دون حل مشكلة البوسنة لأنها لا تريد أن تفعل أي شيء لوقف مطامع الصرب، وتحول هي وفرنسا

دون اتخاذ أي إجراء عسكري في مواجهتهم، الأمر الذي فاقم المشكلة وأدّى إلى فقدان الثقة في الأمم المتحدة وفي حلف الأطلسي".وقال في سياق آخر: "إن وجود القوات الدولية التي تمثل الوحدات الإنجليزية والفرنسية عمادها الأساسي لم يعد لها جدوى بعد أن فشلت تلك القوات حتى في حماية المناطق الآمنة وإزاء فشل هذه القوات وعجزها عن الحركة فإن وجودها هناك أصبح بمثابة دعم للموقف الصربي وليس عنصراً مساعداً في تحقيق السلام".



الفصل السابع

الموقف الأمريكي

من الصعب الحديث عن موقف أمريكي واحد وثابت من أول الصراع في البوسنة حتى نهايته، بل نشاهد خطوطاً متعرجة في السياسة الأمريكية وصلت في بعض المراحل إلى حد الانقلاب التام، وترتب على هذا أن بدت الولايات المتحدة الأمريكية في سياستها (المعلنة) مترددة متخاذلة، وضعيفة إلى حد العجز، مما أصاب الرأي العالمي والأمريكي بخيبة أمل كبرى في الدولة العظمى الوحيدة وفي النظام العالمي الجديد الذي بشّرت به وادعت أنها راعيته الأولى، وبالتأكيد كانت خيبة أمل المسلمين في البوسنة أكثر من الجميع.

من الأفضل إذن أن يكون حديثنا عن مراحل في تطور السياسة الأمريكية إزاء البوسنة ، وعن العوامل المختلفة التي أثرت في هذه السياسة . من هذه العوامل ما هو داخل الإدارة الأمريكية والكونجرس الأمريكي، ومنها ما يتصل بالعلاقات الأمريكية الخارجية كعلاقتها بأوروبا وبصفة خاصة بريطانيا وروسيا، وبدول العالم الإسلامي والرأي العام العالمي، وبطبيعة الحال فإن الرأي العام الأمريكي وانتخابات الرئاسة الأمريكية من أهم العوامل المؤثرة في تيار السياسة الأمريكية.

الإدارة الأمريكية :

بينما كانت صور معسكرات الموت في البوسنة تعرض على شاشات أجهزة التلفاز في بيوت الأمريكيين لتحدث صدمة عارمة بين جماهير المشاهدين، مما تردد صداه في الصحافة الأمريكية، كان البيت الأبيض منهمكاً في الإعداد لخوض معركة انتخابات الرئاسة التي سيحل موعدها بعد أشهر قليلة. كان "بل كلينتون" يوجه الاتهامات إلى الرئيس "جورج بوش" لتجاهله احتياجات المواطن الأمريكي البسيط، وأدرك بوش أنه إذا تحدث للجماهير عن ضرورة الدفاع عن البوسنة قد يخسر أصواتهم، وكانت إعادة انتخابه للرئاسة أهم عنده من إيقاف الحرب. ومن ثم بقيت مشكلة خطيرة وملحة كان عليه أن يواجهها: كيف يمكن للقوة الدولية العظمى أن تتجاهل المذبحة الجارية في قلب أوروبا؟

هنا يأتي دور "جورج كيني" ليفجر الموضوع بأكمله باعترافاته التي أعلنها حيث قال: "كانت تصريحات إدارة بوش عن كارثة يوغسلافيا بين شهري فبراير وأغسطس ١٩٩٢م تمثل أسوأ أنواع النفاق. أعلم أنني أنا الذي كتبت هذه التصريحات بأوامر من رؤسائي في

وزارة الخارجية على مدى سبعة أشهر.. كانت مسئوليتي أن أقدم مسودات معظم التصريحات العامة عن مشكلة البوسنة لوزارة الخارجية في واشنطن، وكانت مهمتي أن أجعل الولايات المتحدة تبدو وكأنها فاعلة ومعنيّة بالموقف، وفي نفس الوقت لا تكشف- من الناحية العملية حقيقة أنها لن تقوم بأي عمل جوهري لحل مشكلة البوسنة. لم يكن الهدف من البداية سياسة عامة جيدة وإنما مجرد علاقات عامة جيدة، وقد نجحت الإدارة نجاحاً كبيراً في هذا المجال، إذْ استطاعت أن تقلل من حدّة تأثير المشكلة على الجماهير وأن تحجب جوانبها الحقيقية عنهم". [١٠١]

لم تكن هذه مهمة سهلة ففي ٣ أغسطس ١٩٩٢ استجابت وزارة الخارجية لأول مرة بطريقة أكثر شرفاً وقوة عندما شجبت الأعمال الوحشية التي أذاعها لأول مرة الصحفي "رُويْ جوتمان" عن معسكرات الموت الصربية في صحيفة "News Day"، ولكن بعد يوم واحد ظهرت تعليقات الإدارة الأمريكية أقل حرارة، فبدلاً من تحريك الرأي العام ضد جرائم الصرب أعلنت أنه لا توجد أدلة كافية على التعذيب والقتل، ولكن خلال الأسابيع التالية تكاثرت الأدلة بشكل لا يمكن إنكاره، ومع ذلك ظلّت الولايات المتحدة على حالة من التراخي مما يجعلنا نتساءل: لم هذا الموقف السلبي؟ والإجابة بسيطة وهي أن الاعتراف بالواقع من شأنه أن يضع حكومة الولايات المتحدة في موقف المسئولية لاتخاذ إجراء يتلاءم مع التزامها القانوني بمقتضى اتفاقية الأمم المتحدة لسنة ١٩٤٩م لمنع جرائم الحرب والمذابح ومعاقبة مرتكبيها.

لم يستطع "كيني" أن يهضم ما كان يجري خلف الكواليس فاستقال من وزارة الخارجية وكتب في صحيفة "Washington Monthly": "لم يكن موظفو وزارة الخارجية مستعدين لاعتبار كلام الصحفيين صادقاً أو حجة، ومن ناحية أخرى لا تريد الوزارة أن تبحث بنفسها عن المعلومات الصحيحة.. ووصف "كيني" هذا الموقف بأنه أشبه بالأطفال الذين يسدّون آذانهم ويغلقون أعينهم عن العالم الخارجي ثم يتصايحون حتى لا تصل إليهم أصواته"، بسبب هذا خرج كيني من الوزارة ليكشف أكاذيبها، وعندما أعلنت استقالته في صحيفة "واشنطن بوست" بدأ الناس يتساءلون: من هو "جون كيني" هذا؟ ولماذا استقال؟

وبقيت نقطة: هل حقاً أن الإدارة الأمريكية ووزارة الخارجية لم تكن لديها معلومات رسمية عن جرائم الحرب البشعة التي ارتكبها الصرب ضد المسلمين في البوسنة؟ هذا ما سنتبينه في موضعه من هذا الفصل.

---

[١٠١] أنظر "بيتر ماس". Mass, Peter. Love Thy Neighbour: A story of war. London: Papernac, 1996. P.57.

كانت ظروف انتخابات الرئاسة الأمريكية أحد مصادر ارتباك الإدارة الأمريكية في فهم وتقدير خطورة المشكلة اليوغسلافية ولكنها لم تكن المصدر الوحيد لهذا الارتباك وإنما يوجد مصدران آخران لابد من الإشارة إليهما: يتمثل الأول في وزير الخارجية "جيمس بيكر" المهموم بطموحات أخرى، ويتمثل الثاني في سفيره في بلجراد "وارين زيمرمان" الذي استغلق عليه فهم الأوضاع المتغيرة في يوغسلافيا.

وزير الخارجية :

عندما استيقظت أمريكا على ضخامة الأزمة اليوغسلافية والضجة التي أثيرت حول معسكرات الموت وموجات الغضب العارم ضد الأعمال الوحشية التي دوت أصداؤها في الكونجرس الأمريكي كان وزير الخارجية الرجل المسئول عن سياسة الولايات المتحدة في البوسنة في إجازة يقضيها بعيداً في مزرعته، وكانت لدية أسباب مقنعة لإبعاد نفسه عن الجدل الدائر حول التدخل العسكري في البلقان، وهو الأمر الذي وصفه قادة "البنتاجون" بأنه مستنقع للقوات الأمريكية شبيه بفيتنام.

أول هذه الأسباب أن "جيمس بيكر" لم تكن متابعته لمشكلة يوغسلافيا كما ينبغي، وذلك نتيجة لنصيحة نائبه "إيجلبرجر" الذي كان سفيراً سابقاً للولايات المتحدة في بلجراد، خاصة وأن له مصالح عمل مع القيادات الصربية، وكانت نصيحته له هي المحافظة على وحدة يوغسلافيا، ولم يدرك بيكر إلا متأخراً- وبعد فوات الأوان- أن المحافظة علي يوغسلافيا دولة موحدة أمر مستحيل.

ثاني هذه الأسباب أن "جيمس بيكر" كان مشغولاً بعملية السلام في الشرق الأوسط التي كان يعتبر نجاحه فيها من أكبر آماله في اكتساب شهرة خالدة كرجل دولة على نطاق عالمي تتناسب مع شهرته كحلاّل للعقد، ولعله أدرك بحدسه أن مشاكل يوغسلافيا بما تنطوي عليه من خيوط متشابكة من عنصرية ودينية وقومية هي عقدة بلا حلول.

ثالث هذه الأسباب أنه كان يتوقع أن يرشحه بوش لوظيفة مدير حملته الانتخابية وسيترتب على هذا أن يستقيل من منصبه، فإذا حالفهما النجاح فإنه سيكتسب هالة جديدة بنجاحه الذي شقه في طريق السياسة، عندها سيكون له شأن آخر وربما فرصة أخرى للخوض آمنا في مشكلة البوسنة.

السفير وارين زيمرمان:

وصل "زيمرمان" إلى بلجراد سفيراً للولايات المتحدة في يوغسلافيا في ٩ مارس ١٩٨٩م بعد شهور قليلة من إلغاء صربيا الاستقلال الدستوري لكل من "كوسوفا" و "فويفودينا" والسيطرة على جمهورية "الجبل الأسود"، وبذلك أطاحت صربيا بالإطار الدستوري للبلاد، وأصبح من الواضح أن يوغسلافيا تتمزق، ومع الاعتراف الدولي بجمهوريتي كرواتيا وسلوفينيا في يناير ١٩٩٢م انتهت يوغسلافيا من الوجود بالفعل، ولكن شهادة وفاتها تأخرت قليلاً حتى تم استبعادها من عضوية الأمم المتحدة.

وعندما أُستدعي "زيمرمان" إلى واشنطن في ١٢ مايو ١٩٩٢م كان الجيش الفدرالي قد هاجم سلوفينيا ثم انسحب منها وكانت صربيا قد احتلت ربع أراضي كرواتيا، وبدأت قوات ميلوسفيتش الصربية تمارس حرب إبادة ضد شعب البوسنة والهرسك، وفي يناير ١٩٩٤م استقال "زيمرمان" من وزارة الخارجية مُحتَّجا على سلبيتها في البوسنة والهرسك. وألف كتاباً بعنوان "جذور الكارثة"[١٠٢] ظهر بعد توقيع اتفاقية ديتون للسلام، ويصف فيه تجربته اليوغسلافية خلال السنوات الثلاث التي قضاها سفيراً فيها، ويبرز وجهة نظره: لماذا انهارت يوغسلافيا؟. وترجع أهمية الكتاب إلى أنه يكشف عن جوانب غير منظورة من أخطاء السياسة الأمريكية في البوسنة كما يكشف عن سوء فهم زيمرمان نفسه للأوضاع المتغيرة في يوغسلافيا.

كان مدخل إدارة بوش الذي حمله زيمرمان معه إلى بلجراد يتلخص في معادلة بسيطة: "الوحدة والديمقراطية" وقد فهم "زيمرمان" أن وحدة يوغسلافيا مشروطة بتوجهاتها الديمقراطية "إننا ندعم وحدة البلاد فقط في سياق تقدمها الديمقراطي ونعارض أشد المعارضة وحدة مفروضة بالقوة أو قائمة فقط على القوة"، ولكن في أواخر ١٩٨٩م أصبح التفكير الأمريكي يميل إلى قبول الدكتاتورية العسكرية لصربيا مع الحفاظ على وحدة يوغسلافيا. أما الديمقراطية فيمكن أن تأتي في مرحلة تالية، وهنا سقطت السياسة الأمريكية في شبكة لغز محير؛ إذ كيف يمكن "دمقرطة" يوغسلافيا بينما بلجراد تستعد لشن حروب عدوانية؟ لقد أثبتت الأحداث أنه في غياب قوة مضادة قادرة على إلجام الآلة العسكرية لصربيا وكفَّها عن العدوان، فإن سياسة الحفاظ على وحدة يوغسلافيا مع التوجه الديمقراطي أصبحت مهمة مستحيلة. لقد استهانت الولايات المتحدة بالطموحات الصربية المنبثقة من فكر قومي

---

[١٠٢] أنظر زيمرمان Zimmerman, Warren. Origins of Catastrophe. New York: Times Books, 1996.

عنصري مستند إلى قوة عسكرية رهيبة لا كابح لـها، وهـذا الموقـف السـلبي فـي حـد ذاتـه ساعد على تمزيق يوغسلافيا بالقوة.

يشير "زيمرمان" في كتابه إلى أن هذا التغيـير فـي السياسـة الأمريكيـة كـان بنـاء علـى نصيحته هو، إذ أنه فور وصوله إلى بلجراد أرسـل برقيـة إلـى واشـنطن ينصحـها ألا تقـرن اللامركزية بالديمقراطية أو المركزية بالدكتاتورية، لأن هذه المعادلـة إن كـانت تنطبـق علـى الاتحـاد السـوفيتي الـذي كـان يمثـل دكتاتوريـة مركزيـة خانقـة، إلا أنـه لا ينطبـق علـى يوغسلافيا التي تتمتع جمهورياتها بصلاحيات دستورية وسياسية واسعة، وبها قوى سياسية مؤثرة على المستوى الفدرالي بل أحياناً على حساب المؤسسات الفدرالية في بلجـراد. كـان زيمرمان خالي الذهن منصرفاً عن فهم الأوضاع في هـذه الجمـهوريات باسـتغراقه فـي خضـم العاصمة الفدرالية وبعلاقاته المتشعبة مع رجال السياسة والفكر فيـها، ولـم يلحـظ أنـه كـان يتحرك في وسط صربي لا يوغسلافي خصوصاً وأن بلجراد أصبحت في النصـف الثـاني مـن عقد الثمانينات معقلاً للفكر القومـي الصربـي المتطـرف وأن الهيمنـة السياسـية فـي بلجـراد تحولت إلى يد حفنة من غلاة القوميين الصرب العنصريين.

أسس "زيمرمان" فكرة كتابه على مسـلّمة أو افـتراض أن انـهيار يوغسـلافيا يرجـع إلـى البناء الفدرالـي مـن جمـهوريات اسـتندت فـي شـرعيتها علـى أسـاس قومـي عرقـي، بـهذا الافتراض لم يستطع "زيمرمان" أن ينفذ إلى لب الحقيقة التـي تؤيدهـا أدلـة وفـيرة وهـي أن "ميلوسوفيتش" مستفيداً بانبعاث القومية الصربية العدوانية ومستنداً إلى قوة الجيش الفدرالي في سعيه المحموم للهيمنة على يوغسلافيا قد انتهى به الأمر إلى تدميرها، فالذي حفـر قـبر يوغسلافيا ليس اختلاف القوميات في جمهورياتـها وإنمـا الجيـش الفدرالـي الـذي احتضـن مطامح قومية واحدة ذات أطماع توسعية هي القومية الصربية.

وكان خطأ "زيمرمان" الآخر أنه فشل في تقدير المدى الذي انتـهك بـه "ميلـو سـفيتش" الدستور الفدرالي مما ترتب عليه أن أصبحت المؤسسات الفدرالية غير شرعية وغـير فاعلـة، وباستيلاء "ميلوسفيتش" على الكيانات السياسية الثلاثة (كوسوفا وفويفودنيا والجبل الأسود) أصبحت صربيا سياسياً أقوى أربع مرات من مثيلاتها من الجمهوريات الأخـرى، ومـع ولاء الجيش الفدرالي للقيادة الصربية أصبح يوجد علـى السـاحة وضـع جديـد أُغلقـت بـه تمامـاً صفحة يوغسلافيا التي عرفناها منذ سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٨٠م، ويمكن أن نطلق على هـذا الوضع الجديد بحق اسم "صربوسلافيا" أي صربيا المهيمنة على يوغسلافيا السابقة. لم يكـن لدى "زيمرمان" ما يكفي من الحس السياسي لكي يلاحظ هذا التغيـير الجوهـري فـي توزيـع

القوى– عندما جاء إلى بلجراد– ولذلك لم يدرك أن هذا الوضع الجديد هو الذي دفع بيوغسلافيا إلى الهاوية.

الذي حدث أن مسلك صربيا باستيلائها على كيانات سياسية ثلاثة وفرضها قوانين الطوارئ في كوسوفا ونزول الجيش بقوته وعسفه بالأهالي فيها أزعج الجمهوريات الأخرى ثم جاء تغيير الدستور تحت ضغوط صربيا ومناوراتها فزاد من يقين هذه الجمهوريات من اقتراب الخطر الصربي من رقابها، لذلك كان سعي هذه الجمهوريات إلى الاستقلال عن بلجراد اختياراً مبرراً وديمقراطياً. ولكن لأمر ما غير واضحة أسبابه كانت واشنطن تميل إلى قبول إعادة توزيع القوى لصالح صربيا، وبدلاً من إصرارها على رفع حالة الطوارئ التي تخضع لها كوسوفا قهراً فإنها اختزلت القضية إلى مشكلة "حقوق الإنسان"، لدرجة أن "زيمرمان" أعلن استياءه من زعيم حزب الأغلبية في الكونجرس (روبرت دول) ومن قرار الكونجرس بتعليق المساعدات الاقتصادية (في نوفمبر ١٩٩٠) إلى يوغسلافيا حتى تتحسن أوضاع الألبان (المسلمين) في كوسوفا، بل ذهب أبعد من ذلك إلى قبول المعتقد الأساسي للقومية الصربية وهو أن صربيا لها حقوق تاريخية خاصة في "كوسوفا" فكتب: "إن كوسوفا للصرب بمثابة القدس لإسرائيل... ومن ثم فإن قضية كوسوفا يمكن تسويتها يوماً ما بنوع من التقسيم". إن الذي يقرأ هذا الخلط العجيب والحقائق المقلوبة لا يدري أيقرأ في كتاب الصهيونية أم في كتاب دبلوماسي أمريكي؟.

إن "زيمرمان" يكشف في كتابه عن جهل ذريع بالجمهوريات اليوغسلافية وحقيقة الأوضاع والقوى التي تزخر بها:

- لم يفهم أن يوغسلافيا كانت مجرد دولة ولم تكن أمة ولا شعباً واحداً.
- ولم يفهم ما إذا كان صرب يوغسلافيا قد ولدوا قوميين متطرفين أم أنهم ببساطة (في سنة ١٩٩٠) قد ضللهم قادتهم، بل خدعتهم حفنة من المتطرفين المتآمرين ودفعتهم دفعاً إلى طريق الحرب؟

تردد أن الأمريكيين في مايو ١٩٩١ كانوا يعلمون أن الجيش الفدرالي كان يسلّح قوات كراجيتش ولم يفعلوا شيئاً، بل لم يحاولوا تنبيه علي عزت بيجوفيتش رئيس جمهورية البوسنة ولو تلميحاً بالمخاطر التي توشك أن تقع على رأس شعبه. فهل كان "زيمرمان" يعلم شيئاً عن هذا؟ إنه يقول في كتابه تعليقاً على استفتاء الاستقلال الذي جرى في البوسنة: "صربيا الآن لديها المبرر الذي تحتاج إليه للهجوم فقد كان ميلوسفيتش وكراجيتش– منذ ما يقرب من العام– مجهزين باستراتيجية شاملة لقطع ثلثي أراضي البوسنة وضمها إلى صربيا".

جورج بوش :

سواء كان الأمريكيون يعلمون أو لا يعلمون فإن السياسة الأمريكية تجاه البوسنة في آخر عهد الرئيس "جورج بوش" بدت مشوّشة لا تتسم بالحسم أو الجدية ولا القوة التي كانت تتسم بها في حرب الخليج الثانية .. ويتواءم هذا التراخي مع طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الولايات المتحدة، حيث كانت الإدارة في البيت الأبيض مشغولة بالإعداد للانتخابات القادمة على الأبواب، وقد استراحت إلى فكرة سائدة بأن مشكلة البوسنة مسألة أوروبية على الأوروبيين أن يجدوا لها حلاً، علاوة على أن هذه المشكلة لا تمثل أولوية في قائمة المصالح الأمريكية كما كانت الكويت.

كانت إدارة الرئيس بوش تقضي آخر أيامها في البيت الأبيض ولكنها احتفظت بمستوى من الاهتمام بالحرب البوسنوية، ففي ٩ أكتوبر صدر قرار مجلس الأمن رقم ٨٧١ بحظر الطيران الحربي في سماء البوسنة، ولم يذعن الصرب للقرار حتى أعلن جورج بوش عزمه على تطبيق القرار بالقوة، ولكن عاد الصرب مرة أخرى سيرتهم الأولى في الانتهاك والمماطلة عندما اطمأنوا إلى أن القرار مثل سوابقه لن يتم تنفيذه. وفي ٢٠ ديسمبر التقى "جون ميجور" بجورج بوش وأعلنا أنهما يدعمان قرار الأمم المتحدة بالحظر الجوي، وفي ٢٥ ديسمبر بعث بوش بخطاب إلى "ميلوسفيتش" حذره فيه أنه إذا أثار الصرب الصراع في كوسوفا ضد سكانها المسلمين فإن الولايات المتحدة ستستخدم قواتها فردياً ضد صربيا.

وبصرف النظر عن أن "كوسوفا" ليست هي البوسنة، أعني أنها ليست صميم المشكلة، فإن هذه التصريحات واللقاءات والتهديدات كلها تأتي في إطار الفكرة التي سبق أن أشرنا إليها وهي أن (تُرى الولايات المتحدة وكأنها معنيّة بالمشكلة ولا تدخر وسعاً في سبيل إيجاد حل لها).

مع نهاية عام ١٩٩٢م انتهي عهد الرئيس "جورج بوش" في البيت الأبيض وبدا عهد الرئيس الجديد "بل كلينتون" وإدارته.

بل كلينتون والإدارة الجديدة :

جاء الرئيس "بل كلينتون" إلى واشنطن يحمل على كتفيه وعوداً قطعها على نفسه للناخبين الأمريكيين أن تتوجه عنايته إلى الإصلاح الداخلي وأن لديه مشروعات ضخمة في هذا المجال سوف يبدأ في تنفيذها فور وصوله إلى البيت الأبيض. ولكنه في نفس الوقت كان قد وجه انتقادات حادة إلى الرئيس السابق "جورج بوش" لإهماله أزمة البوسنة وما

يجري لسكانها من مذابح ووعد أن يتدخل لوقف العدوان الصربي وتسليح المسلمين للدفاع عن أنفسهم.

الآن وقد استقر "بل كلينتون" في البيت الأبيض والعالم كله يتطلع إليه منتظراً قراراته الحازمة بينما عمليات "التطهير العرقي" الوحشي تتصاعد، حتى أن الأمم المتحدة كانت تقدر عدد الفارين من الموت خارج البوسنة بعشرة آلاف لاجئ كل يوم. وإذا بالتصريحات تتسرب من البيت الأبيض لتردد مقولة متكررة: أن الرئيس عاكف على دراسة اختيارات إدارته وأن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت، وطال الانتظار ولا قرار، وإنما شائعات بأن الإدارة الجديدة كالسابقة تعاني من التردد والارتباك.

كانت جماهير العالم الإسلامي وربما في مناطق أخرى من العالم تعيش وهماً كبيراً وهي تتطلع إلى الولايات المتحدة حامية حمى النظام العالمي الجديد، أن تحشد من حولها قوى عالمية سياسية وعسكرية لصد العدوان عن البوسنة وتحريرها كما فعلت من قبل في تحرير الكويت. ولكن الولايات المتحدة ما أرادت ذلك، ولو أرادت ما استطاعت، ولا الظروف متماثلة في حالتي الكويت والبوسنة،

لا يهم هنا حجم الكارثة وبشاعتها، ولا المبادئ والقوانين التي أقرها المجتمع الدولي، ولا مبادئ الأخلاق، ولا حتى مزاعم النظام الدولي الجديد. فالبوسنة مصنفة في دائرة أخرى بعيداً عن دائرة المصالح الحيوية ذات الأثر المباشر على الأمن القومي للولايات المتحدة، ولولا هياج الرأي العام الأمريكي بصفة خاصة والعالمي بصفة عامة لكان لها شأن آخر في حسابات الولايات المتحدة.

ومهما يكن الأمر فلم يكن طريق الرئيس بل كلينتون سهلاً، وذلك لاعتبارات كثيرة من أبرزها:

١- كانت إدارته منقسمة على نفسها في الرأي بإزاء مشكلة البوسنة، فبينما يوجد اتجاه يتزعمه "آل جور" نائب الرئيس، يذهب إلى ضرورة التدخل العسكري، وعلى وجه التحديد تسديد ضربات جوية لتدمير الأسلحة الصربية الثقيلة لإرغام الصرب على رفع الحصار عن العاصمة سراييفو وغيرها من الملاذات الآمنة، كان البعض يرى عدم التدخل وترك المسألة للأوروبيين باعتبار البوسنة شأن أوروبي، وكان البنتاجون يعارض بإصرار أي نوع من التدخل العسكري في البوسنة.

٢- لم تكن سيطرة بل كلينتون كاملة على الكونجرس الذي تهيمن عليه أغلبية من نواب الحزب الجمهوري المعارض بقيادة رجل شديد المراس هو "بوب دول"، وكان الكونجرس يضغط في اتجاه تسليح المسلمين وتجاوز قرار مجلس الأمن الذي

يفرض حظراً على توريد الأسلحة للبوسنة. وكان كلينتون يعلن في تصريحاتـه بأنـه يجب على المجتمع الدولي أن يقوم بتسليح المسلمين للدفاع عن أنفسهم ولكنـه لـم يتخذ أي خطوة عملية في هذا السبيل آخذا في اعتباره المعارضـة الشـديدة للـدول الأوروبية ولروسيا حليفة الصرب.

٣- عندما جاء بل كلينتون إلى السلطة كانت دول أوربـا بقيـادة بريطانيـا قـد اسـتقرت علـى موقـف ثـابت مـن أزمـة البوسـنة وهـو تقديـم المسـاعدات الإنسـانية والحـل السياسي، لا تدخل عسكري ولا تسليح للمسلمين، وقد تبلور الجهد الأوروبي أخيراً في اتفاقية سلام للبوسنة قائمة على التقسيم العرقي لأراضيها وإلغاء حكومة البوسنة ووضع العاصمة سراييفو تحت إدارة الأمم المتحدة. ولحمل الولايات المتحـدة علـى تبني هذا الاتجاه تكاثفت الضغوط الأوروبية على "بل كلينتون".

٤- كانت الضغوط على "بل كلينتون" تتجاذبه من أطراف متعارضة، فقد ضاعفت لجنة حقوق الإنسان في اجتماعها بجنيف ضغوطها عليـه موجهـة للبيـت الأبيـض نقـداً مريراً لتأخّره في الوصول إلى سياسة واضحة، مما أدى إلى تكثيف القتال والتطهير العرقي في البوسنة أكثر مـن أي وقـت مضـى.[١٠٣] بينمـا تركـزت ضغـوط بريطانيـا وفرنسا على التهديد بسحب قواتهما مـن البوسـنة إذا أحبطـت الولايـات المتحـدة خطة "فانس- أوين" للسلام، وجاء وزير خارجيـة ألمانيـا "كـلاوس كنكـل" ليبلـغ "كلينتون" عندما التقـى بـه فـي "واشـنطن": "أن خطـة جنيـف هـي آخـر فرصـة لنا.[١٠٤] أما رئيس الوزراء التركي "تورجوت أوزال" فإنه ينصح ويضغط فـي الاتجـاه الآخر: أن تقوم الولايـات المتحـدة بتسـديد ضربـات جويـة ضـد الصـرب وتسـليح المسلمين للدفاع عن أنفسهم.[١٠٥]

فما الذي حفز الحكومة البريطانية لتصعيد ضغوطها علـى واشـنطن بعـد وصـول كلينتـون إلى السلطة؟ هناك عدة عوامل أثارت قلـق الحكومـة البريطانيـة، وهـي التـي حفزتـها علـى تصعيد ضغوطها:

---

(١٠٣) أنظر "الجارديان" البريطانية، ٥ فبراير ١٩٩٣م.

(١٠٤) أنظر "الجارديان" البريطانية، ١٠ فبراير ١٩٩٣م.

(١٠٥) أنظر نفس المصدر، ١٠ فبراير ١٩٩٣م.

أولاً : في أثناء الحملة الانتخابية للرئاسة الأمريكية انتقد "كلينتون" الرئيس "جورج بوش" لأنه لم يتخذ موقفاً حازماً ضد الصرب في عملياتهم الوحشية فيما عرف باسم "التطهير العرقي" في البوسنة.

ثانياً : خروج تصريحات من الإدارة الجديدة بضرورة تسليح المسلمين.

ثالثاً : كان من المتوقع أن يناقش "كلينتون" في ٢٥ يناير ١٩٩٣م اختياراته بالنسبة للبوسنة مع مجلس الأمن القومي ورؤساء الجيش وسط إشارات توحي بأن "كلينتون" سيتخذ خطًا أكثر تشدداً في مواجهة بلجراد.

رابعاً : صرح موظفو إدارة "كلينتون" في كثير من المناسبات أن مشكلة البوسنة تحظى بأعلى أولوية في قائمة مناقشاته مع مجلس الأمن القومي.

خامساً : أعلنت مادلين أولبريت سفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة آنذاك أنها "تلاحظ بدهشة غياب موقف إيجابي لأوروبا، ودعت إلى محاكمة مجرمي الحرب في البوسنة". واتخذت بريطانيا هذا التصريح دليلاً على نفاد صبر الولايات المتحدة.

سادساً : أبدى "وارين كريستوفر" وزير الخارجية الأمريكي شكه في جدوى محادثات السلام.

سابعاً : تصاعدت احتمالات التشدد الأمريكي نتيجة لتقارير المخابرات الأمريكية عن معسكرات الموت الصربية، حيث أكدت هذه التقارير أن معسكرات الموت لا تزال تضم مالا يقل عن سبعين ألف سجين في حوالي ١٣٥ معسكراً متناثرة في أنحاء البوسنة، وأن هذه المعسكرات لا تزال قائمة رغم الوعود التي قطعها الصرب على أنفسهم بإغلاقها منذ خمسة أشهر.

ثامناً : تخشى بريطانيا أن يكون كلينتون على وشك أن يأمر بضربات جوية في البوسنة ويقوم بتسليح المسلمين خاصة بعد أن تعثرت المفاوضات في جنيف بسبب التعنت الصربي مما يجعل التدخل الأمريكي أكثر احتمالاً.

لذلك أرسل "جون ميجور" رئيس وزراء بريطانيا رسالة من ثلاث صفحات إلى الرئيس "كلينتون" يعارض فيها- تقريبا- جميع الخيارات التي تقوم الإدارة الأمريكية بدراستها، زاعماً بأن هذه الخيارات لن يكن لها فاعلية وأنها ستزيد العنف أكثر مما تجلب السلام، كما يشمل الخطاب على نصيحة بلقاء فانس وأوين والاطلاع على خطتهما للسلام في البوسنة وهما- على حد قول "جون ميجور"- الخبيران العالميان الرسميان في الموضوع، ولم

يئس "جون ميجور" أن يشير إلى كلينتون محـذراً أن التدخـل الأمريكـي المباشـر قـد يحفـز روسيا أيضاً للتدخل إلى جانب الصرب، وفي ذلك تعقيد للمشكلة.[١٠٦]

وقد طمأن الأمريكيون بريطانيا بأنه لا تسرّع في الأمر وأنه سيكون بينهما مشاورات.

الجدل حول خطة "فانس- أوين":

أصبحت خطة "فانس- أوين" في بؤرة الجدل السياسي بين بريطانيـا وأوربـا مـن جهـة وبين الولايات المتحدة من جهة أخرى، فقد عارضت الإدارة الأمريكية هذه الخطة أولاً على أساس أخلاقي لأنها- كمـا يبـدو- تكـرّس اسـتيلاء الصـرب علـى الأرض عـن طريـق الغـزو والتطهير العرقي. وقد ظل "كلينتون" رافضـاً للخطـة ولديـه تحفظـات بشـأنها حيـث قـال: "إنني أرفض أن تفرض اتفاقية على الأطراف المعنية وهم لا يوافقـون علـيها خصوصـاً عندمـا يجد المسلمون أنفسهم في وضع غير ملائم".[١٠٧]

وانتقد "كريستوفر" الخريطة الجديدة المقترحة لتقسيم البوسنة لأن الصرب وهم يشـكلون ٣١٪ من السكان سوف يحصلون بمقتضاها على ٤٢٪ من الأرض.

هذا النقد الأمريكى للخطة أشعل غضب "اللورد أوين" لأنه أعتقد أنه علـى وشـك إحـراز نجاح خارق سيسجل في تاريخه كرجـل مـاهر فـي صنـع السـلام، فـهو يـرى أن الأطـراف الثلاثة (الصرب والكروات والمسلمون) قـد وقعـوا علـى المبـادئ الدسـتورية للخطـة، واتفـق الكروات والصرب علي فك الاشتباك العسكرى ، ووقع الكروات علي خريطة التقسـيم وكـان الصرب على وشك التوقيع (كما يعتقد)، ولـم يبـق غـير المسـلمين فقـط فـهم الممتنعـون عـن التوقيع، ويرى "أوين" أن سبب امتناع المسلمين عـن التوقيـع ليـس لأن الخطـة فيـها ظلـم وإجحاف بهم ولكن لأن تردد الرئيـس كلينتـون وتصريحاتـه تحمـل لـهم الأمـل فـي تدخـل عسكري يعيد الحقوق إلى أصحابها. ومن ثم كان "أوين" يتحرق شوقاً للذهاب إلـى واشـنطن لمحاولة إقناع الأمريكييـن بخطتـه قبـل أن تتبلـور لديـها قـرارات وإجـراءات تدمـر فرصتـه الأخيرة في إنجاح صفقته التاريخية.

استجابة لضغوط بريطانيا قبل الرئيس كلينتون مقابلة لورد أوين فاتحاً أمامه فرصة عمـره لعرض خطته والدفاع عنها، وعندما وصل إلى واشنطن وجد نفسه في بؤرة اهتمـام الصحافـة والإعلام العـالمي، إنـها المناسـبة التاريخيـة بالنسـبة لـه فإمـا أن ينجـح فـي إقنـاع الإدارة

---

[١٠٦] أنظر الخطاب والتعليق عليه في صحيفة "صنداي تيمز" البريطانية، الصادرة في ٣١ يناير ١٩٩٣م.

[١٠٧] أنظر صحيفة "صنداي تيمز"، الصادرة في ٧ فبراير ١٩٩٣م.

الأمريكية بخطته ثم يتهيأ لاستلام جائزته كصانع ماهر للسلام وإما أن تفشل خطته ويكنسه التاريخ في ترابه.

لم يكن "لورد أوين" يمل من ترديد قوله بأن مقترحاته للسلام هي البديل الأمثل للتدخل المحفوف بالمخاطر، وقد استعرض خطته للرئيس كلينتون ورجال إدارته من هذا المنطلق، وجادل بقوة وهو يدافع عن قضيته بأسلوب "الكارثة" الذي تمرّس به عندما كان عضواً في مجلس العموم البريطاني: "فإما أن تفعل إدارة كلينتون ما يقترحه عليها وإما أن تقوّض فرصة إنهاء الحرب في البوسنة بسبب عدم إقرارها الاتفاقية التي طبخها هو مع سيروس فانس، ولا يوجد خيار ثالث".[١٠٨]

وأفرط لورد أوين في تصريحاته الصحفية محاولاً تسويق خطته باعتبارها الحل الوحيد الممكن، وألمح في كلامه بإشارات نقدية للسياسة الأمريكية المترددة تجاه البوسنة وعلى الأخص تصريحات الإدارة الأمريكية التي تمد للمسلمين بالأمل في تدخل وشيك ينقذهم من كارثتهم، ووصف هذا النوع من التصريحات بأنه طوق نجاة وهمي يُلقى إلى المسلمين فيتشبثون به رافضين كل ما يُقترح عليهم من حلول، وبذلك لا تساهم الولايات المتحدة في حل المشكلة وإنما- حسب رأيه- تزيدها تعقيداً وتطيل أمد القتال. ومنطق "لورد أوين" هذا هو في الواقع تجسيد لوجهة النظر الأوروبية التي ترى أن مفتاح الحل لمشكلة البوسنة يكمن في الإذعان الكامل لمسلمي البوسنة لما يُفرض عليهم من خطط يمليها الصرب حى ولو أدى ذلك إلى تمزيق البوسنة وتشريد المسلمين وتصفية الدولة، وهو في الحقيقة المشهد النهائي الذي تؤدي إليه بالضرورة خطة "فانس أوين" عند تطبيقها.

بعد مناقشة خطة "فانس أوين" في واشنطن انتهت الولايات المتحدة إلى تأجيل قرارها بشأن موقفها من خطة السلام، وصرح "كلينتون" للصحفيين بأن "أي شيء يزيد من فرصة حل كامل للسلام هو أمر هام، ثم أضاف بأنه يعتقد أن الإدارة الأمريكية تراجع الآن كل اختياراتها في هذه القضية، وعزّز تعليقات وزير خارجيته "وارين كريستوفر" السابقة الذي قال: لقد ورثت الإدارة واحدة من أصعب المشكلات في السياسة الخارجية يمكن تصورها.. وأنه سيأخذ بعض الوقت ليفحص عدالة وإمكانية خطة سلام "أوين- فانس"[١٠٩]

في ذلك الوقت كان "حارس سيلاجيتش" وزير خارجية البوسنة يتحدث في الكونجرس الأمريكي مؤكداً لأعضائه معارضة حكومته لخطة "فانس- أوين".

---

[١٠٨] أنظر صحيفة الجارديان،الصادرة في ٥ فبراير ١٩٩٣م.

[١٠٩] أنظر صحيفة الجارديان، الصادرة في ٥ فبراير ١٩٩٣م.

تعرض "لورد أوين" لهجوم صحفي عنيف خاصة من صحيفة "نيويورك تيمز" لما بدى أنه محاولة لاستعراض نفسه باعتباره الرجل الوحيد الذي يمكن أن ينقذ البوسنة، ووصفته الصحيفة قائلة: "إن وزير خارجية بريطانيا الأسبق رجل مغرور وأجْوف- وقد قرر أن يستخدم حيله وخدعه لزحزحة هذا الغرّ الذي لا خبرة له (تقصد بل كلينتون) عن أفكاره بخصوص البوسنة.." وأضافت الصحيفة "أن الرئيس كلينتون كان محقا عندما علق حكمه في القضية.. وهو لا يحتاج إلى سياسي فاشل ليس معصوماً من الخطأ في أحكامه السياسية فقد اشتهر عنه بأنه تسبب في هزيمة ساحقة لحزبه في الانتخابات العامة البريطانية سنة ١٩٨٧ نتيجة لنصائحه ومواقفه".[١١٠]

وتعترض الصحيفة على رأي "أوين" بأن مقترحاته للسلام هي البديل الأمثل للتدخل المحفوف بالمخاطر، تقول إنه رأي خاطئ بيّن الخطأ لأن أي اتفاق لابد أن تديره قوات كافية تشرف على تنفيذ بنوده. والرئيس الأمريكي يدرك تماماً أنه فور استجابته لهذه الضغوط وتوقيعه على الاتفاقية سيتحتم عليه أن يوفر قوات أمريكية لبعثة مستحيلة تلتحق بقوات الأمم المتحدة التي لا تملك صلاحيات نزع سلاح الأطراف المتحاربة أو إقرار سلام لا يعتزم أي طرف من هذه الأطراف أن يعيش فيه، ولذلك تنصح الصحيفة الرئيس الأمريكي بضرورة إصراره على تسوية أفضل، مشروطة بإمكانية نزع سلاح المعتدي وضمان الأمن لجميع شعب البوسنة الذي يرغبون في العودة إلى وطنهم وإعادة بنائه. وتنقد الصحيفة خطة أوين بأنها لا تتضمن شروطاً لمعاقبة مجرمي الحرب، فإذا أضيف إلى هذا معارضة الصرب لترتيبات الحدود حيث يقولون إنهم سيحاربون حتى يحصلوا على ما يريدون فإن قوات حفظ السلام ستكون رهينة لحرب أهلية مستمرة.

وتنتهي الصحيفة إلى الحكم على مشروع التسوية الأوروبية لمشكلة البوسنة بأنه مشروع يؤدي إلى أن يقوم مجلس الأمن بفرض إرادة دولة معتدية على دولة عضو في الأمم المتحدة لكي تصفّي نفسها لحساب هذه الدولة المعتدية. وتنصح الرئيس الأمريكي بأن يلتمس النصيحة من دائرته الخاصة ومستشاريه وأهم من ذلك من داخله هو نفسه، وألا يلتفت إلى النصائح المشكوك فيها.

---

[١١٠] أنظر الصحيفة الأمريكية The New York Times، الصادرة في ٤ فبراير ١٩٩٣م.

تقلبات السياسة الأمريكية :

بعد الهدوء النسبي للاستنفار الإعلامي الذي صاحب استعراض خطة "فانس- أوين" في واشنطن بدأت الصحف تحاول ضروباً من التخمين و الاجتهادات في تفسير بعض التصريحات أو الوقائع كمؤشر على اتجاهات السياسة الأمريكية المتوقعة. فنرى "الفاينانشيال تيمز" البريطانية الصادرة في ٥ فبراير ١٩٩٣ في تحليل لها تنتهي إلى أن إدارة كلينتون لم تستقر بعد على سياسة محددة، وترى أن السبب راجع إلى وجود خلافات كبيرة في الرأي، ولكنها تؤكد أن الولايات المتحدة سترفض أي محاولة لفرض خطة فانس- أوين" على مسلمي البوسنة إذا استمروا في رفضها، وتدعم رأيها بتصريح "دي مايرز" المتحدث الرسمي للبيت الأبيض أن الرئيس كلينتون لا يزال راغباً في تقديم اقتراحاته الخاصة التي تهدف إلى جعل اتفاقية السلام أكثر قابلية عند المسلمين.

وخرجت صحيفة الجارديان البريطانية في ١٠ فبراير ١٩٩٣ بعنوان رئيسي: "وافق كلينتون كارهاً على خطة البوسنة،ولكنه أبدى تحفظاً على الخطة من حيث أنها تكافئ الصرب على غزوهم واستيلائهم على أراضي البوسنة بالقوة، وأنها تؤدي إلى إلغاء الحكومة البوسنوية لتحل محلها إدارة تقسم البوسنة إلى عشرة كانتونات طائفية، وعلى هذا لن يكون هناك حكومة حقيقية للبوسنة ولذلك يقترح هذه التعديلات على الخطة:

١- إنشاء محكمة دولية لمحاكمة مجرمي الحرب.

٢- تشديد الحصار على صربيا ومنعها من نشر الصراع إلى كوسوفا ومقدونيا.

٣- تنفيذ حظر الطيران في سماء البوسنة بقرار من مجلس الأمن.

٤- إذا أجريت تسوية مقبولة من جميع الأطراف فإن الولايات المتحدة ستلحق بقوات الأطلسي مع آخرين لتنفيذ التسوية.

كانت الولايات المتحدة منذ بداية الصراع وهي تضع يدها في ماء بارد، وكأن الأمر لا يعنيها، ولكن اتضح لها أن الدول الأوروبية بدلاً من أن تعالج الأزمة زادتها تفاقما فطال أمد الحرب أكثر مما ينبغي وتمادى الصرب في مسلكهم العبثي واستهتارهم بالمجتمع الدولي وأدى هذا إلى اشتعال الرأي العام في كل مكان، وأهم من ذلك كله بقيت الضحية صامدة تقاتل بشراسة، وهذا بالذات كان من أهم الأسباب في تغيير موقف الغرب. تماسك البوسنويين وثباتهم علي حد وصف "برنارهنري ليفي" الكاتب الفرنسي الذي أدهشه هذا الصمود والاستخفاف بالتهديدات وبمخاطر الموت ورفض الاستسلام والركوع فقال متعجباً: "كيف نفسر ذلك وأي قيم تغذي هذه الروح وهذا العناد؟" ثم يجيب: "تلك قصة أخرى

ولكن من الواضح أنها العزيمة البطولية أو المجنونة للبوسنويين التي أفسدت حسابات أصحاب السياسة الواقعية بيننا وأرغمتهم على التفكير في شيء آخر في نهاية المطاف.[١١١]

أصبح واضحاً في هذه المرحلة من تطور السياسة الأمريكية تجاه البوسنة أنها على استعداد للمساهمة بطريقة مباشرة وفعالة في جهود السلام، وبدأت تظهر خطوط جديدة في معالم هذه السياسة، فأصبح الحديث لا يدور حول تسوية عادلة وإنما حول تسوية مقبولة من جميع الأطراف، وأن تقوم قوات الولايات المتحدة لا بضربات جوية ضد المواقع الصربية وإنما بحفظ سلام متفق على شروطه مسبّقا ومشتركة في ذلك مع قوات أوروبية وروسية وقوات دولية أخرى.

يلاحظ هنا أن التهديد بضربات جوية كان يتردد بقوة في حالات الالتهاب الحاد المفاجئ للرأي العام الأمريكي والعالمي نتيجة للانتهاكات المروّعة التي ارتكبها الصرب ضد السكان المدنيين كحادث الانفجار الصاروخي على سوق مدينة سراييفو في ٤ فبراير ١٩٩٤م وراح ضحيته مئات القتلى من النساء والأطفال والشيوخ، وكما حدث في الاعتداءات الوحشية بعد ذلك على "جوراشده" و "بيهاتش"، وغيرها من "الملاذات الآمنة"، ثم الاكتساح الدموي الرهيب على "جيبا" و "سربرينتشا".

الذي لم يفهمه الناس حقاً هو سر التنازلات الأمريكية التي وصلت إلى حد مذهل، في مرحلة من مراحل تطور السياسة الأمريكية تجاه أزمة البوسنة، ففي خريف سنة ١٩٩٤م كان جيش البوسنة قد استقام عوده وأخذ يضرب الصرب ضربات في الصميم موجعة ومؤثرة حتى أصبحت له اليد العليا في معارك كثيرة بفضل الانتصارات التي حققها في منطقة "بيهاتش" وفي عدد من جبهات القتال الأخرى، وكما يقول "عامر" سلطان" في الأهرام (٩ديسمبر ١٩٩٤م): "بدلاً من أن تسعى "مجموعة الاتصال" الخماسية الدولية للحفاظ على هذه الانتصارات كورقة ضغط على الصرب لدفعهم للتفاوض انشغلت بالسعي لوقف إطلاق النار وانتهز الصرب الفرصة فأطبقوا بمدفعيتهم وصواريخهم على بيهاتش وحرموا المسلمين من مكاسبهم في الزحف الأخير".

---

[١١١] أنظر صحيفة الإندبندنت البريطانية الصادرة في ٣١ يوليه ١٩٩٥م، وترجمة منى ياسين للمقال في صحيفة الشعب الصادرة في ١١ أغسطس ١٩٩٥م.



الفصل الثامن

دور الأمم المتحدة

الملهاة المأساوية :

"صامويل بيكيت" وهو أديب إنجليزي- كتب مسرحية كانت لها شهرة ذائعة في خمسينات القرن الماضي هي مسرحية "في انتظار جودو"، لقيت هذه المسرحية اهتماماً غير عادي من الأدباء والنقاد الذين ألحقوها بمسرح العبث الذي شاع في أوروبا ذلك الوقت، ولكن مؤلف المسرحية أصر على تسميتها "ملهاة مأساوية"، لأنه مزج فيها بين نوعين أدبيين مختلفين: المأساة المحزنة والملهاة المضحكة، وقديماً قال العرب- ربما بحس أدبي فائق- "شر البلية ما يضحك".

لم أجد في وصف دور الأمم المتحدة في البوسنة أصلح مما وصُفت به مسرحية "بيكيت" فهو دور عبثيّ، وهو ملهاة مأساوية؛ يتوقف الأمر على الزاوية التي ينظر منها الدارس لهذا الموضوع.

ولكي لا نتجاوز الموضوعية ينبغي أن نقرر من البداية أن الأمم المتحدة ليست حكومة عالمية مستقلة لها جيشها وتمويلها المستقل بحيث تتحمل كل المسئولية، إنما هي تركيبة من ممثلي دول العالم، تهيمن عليها حكومات الدول الكبرى التي تتحكم في قرارات مجلس الأمن وفي تنفيذ هذه القرارات، ويجب أن نشير هنا إلى أن هناك فجوة هائلة بين القرارات وبين تنفيذها، لأن تنفيذ قرارات مجلس الأمن يتوقف على إرادة الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. وعلى سبيل المثال وجدنا أن جميع قرارات مجلس الأمن الصادرة بشأن فلسطين منذ عام ١٩٤٧ حتى الآن لم يُنفذ منها قرار واحد سوى قرار التقسيم الذي تجاوزته إسرائيل باستيلائها على الأراضي الفلسطينية كلها بدون استثناء، مع بعض الأراضي الأخرى من الدول المجاورة. الأمر- بالنسبة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن- يخضع تماماً لإرادة حكومات الدول الغربية وعلى الولايات المتحدة بصفة خاصة.. وهذا مادلّت عليه التجربة.

في هذا الإطار من الفهم نستطيع أن ننفذ إلى أعماق السيناريو الخاص بقضية البوسنة: كانت الأداة المنفذة لقرارات مجلس الأمن في البوسنة هي قوات الدول الأوروبية بقيادة

بريطانيا وفرنسا بصفة أساسية، أما القوات الأخرى المصرية والبنغالية وغيرها فكانت رمزية وهامشية.

على كل حال لم تكن الأمم المتحدة إلا إطاراً أو مسرحاً تلعب عليه دول الغرب أدوارها في قضية البوسنة، أما القرارات الحقيقية التي نفذتها بالفعل فهي قرارات غير معلنة وإنما تُستنتج من الأدلة والشواهد، والصورة النهائية للحل الذي توصلت إليه هذه الدول كان أقرب صورة ممكنة لحصيلة التفاعلات المختلفة لهذه الأدوار والقرارات مع الواقع المتغير لعوامل أخرى لعلها تجاوزت حساباتهم نذكر منها مثلاً: الصمود العجيب لشعب البوسنة، والقوة والإجماع الذي اتسم به الرأي العام الغربي والعالمي في تعاطفه مع شعب البوسنة.

يجب أن نبرز هنا حقيقة قد تغيب عن ملاحظة الدارس أو المراقب وهي أن القوات الدولية في البوسنة كان ولاؤها الأول لقياداتها الوطنية، وسنرى أن الأفراد الذين خرجوا عن هذا الإطار عوقبوا وأعيدوا إلى بلادهم.

من هذا المنظور يجب أن نفهم دور الأمم المتحدة في البوسنة، فالعجز والشلل والتناقض والأخطاء والتواطؤ، وغيرها من الأوصاف التي وُصف بها دور الأمم المتحدة في البوسنة لم يأت من فراغ وإنما هو انعكاس تلقائي لدور الغرب في قضية البوسنة.

في ٢٠ نوفمبر ١٩٩١ طلبت حكومة البوسنة والهرسك إرسال قوات الأمم المتحدة إليها، ولكن مضى أكثر من خمسة أشهر تغلغل فيها الغزو الصربي في شرق البوسنة وشمالها وغربها ووسطها، عندئذ فقط قررت الأمم المتحدة في ٢٨ إبريل ١٩٩٢ أن تمدّ تدخلها إلى البوسنة، وكانت قواتها بالفعل موجودة في كرواتيا المجاورة تفصل بين القوات الصربية الغازية والقوات الكرواتية المدافعة. بل إن قيادة قوات الأمم المتحدة في يوغسلافيا (السابقة) كانت قد اتخذت من سراييفو مقرا لها، ولكن فور اندلاع العنف الصربي في البوسنة أمر السكرتير العام للمنظمة الدكتور بطرس غالي قواته بالانسحاب من سراييفو والتوجه إلى زغرب.

وصلت طلائع قوات الأمم المتحدة في ١١ مايو ١٩٩٢ إلي البوسنة، وظن أهل البوسنة كما ظن الناس خارج البوسنة أن "جودو" صامويل بيكيت قد وصل أخيراً لتخليص شعب البوسنة، في ذلك الوقت كان "التطهير العرقي" قد بلغ ذروته بعد أن اقتلع مليونين ونصف مليون بسنوي من بيوتهم وأرضهم ليصبحوا لاجئين، وبعد مقتل مائة وخمسين ألف من سكان البوسنة، ولكن كما يقول المثل الشعبي "كان أول القصيدة كفر" فعندما استغاث سكان العاصمة "سراييفو" بالأمم المتحدة لمساعدتهم في فك الحصار الصربي عن المدينة أعلن الجنرال الكندي "لويس ماكنزي" قائد قوات الأمم المتحدة في البوسنة أن حماية سراييفو

وحدها تحتاج إلى أربعين ألف جندي وهو لا يملك أكثر من عدة مئات من الجنود، هو يعني ببساطة أن هذه مهمة مستحيلة ولا أمل في الإنقاذ المنشود.[112]

فلما وجد الرئيس علي عزت بيجوفيتش أن الأمم المتحدة لن تسعف بلاده أرسل إلى مجلس الأمن في ٣ أغسطس ١٩٩٢م للسماح لحكومته باستيراد ما يلزمها من سلاح للدفاع المشروع عن شعب البوسنة، وفقاً للمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، ولكن مجلس الأمن لم يلتفت إلى طلبه، لأن قرار حظر التسلح على البوسنة هو القرار الوحيد الذي نفذته دول الغرب تنفيذاً حاسماً ولم تفرط فيه كما فرطت في جميع القرارات الأخرى.

توهم الناس كما شاع في الصحف العالمية أن قوات الأمم المتحدة في البوسنة كانت قوات "حفظ سلام"، ولكن لم يكن في البوسنة سلام للمحافظ عليه، وإنما كانت صلاحيات هذه القوات الدولية مقتصرة على توصيل مواد الإغاثة التي أطلق عليها "المساعدات الإنسانية"، ولما اشتكى البوسنويون أن هذه المساعدات لا تصل إليهم بسبب إعاقة الصرب لقوافل الإغاثة صدر قرار مجلس الأمن رقم ٧٧٠ يسمح للقوات الدولية باستخدام جميع الوسائل بما في ذلك استخدام القوة لضمان وصول مواد الإغاثة. هذا القرار لم ينفذ أبداً في البوسنة طوال ثلاثة سنوات رغم الإعاقة المستمرة لقوافل الإغاثة من جانب المليشيات الصربية، باستثناء حالة واحدة نفذ فيها قائد القافلة هذا القرار وتحمل نتيجة سلوكه الفردي. أما قوافل الإغاثة فقد بقيت تحت رحمة المليشيات الصربية إلى النهاية.

صدرت قرارات كثيرة من مجلس الأمن ومن حلف شمال الأطلسي تتعلق بالموضوعات التالية:

١- الحصار الاقتصادي على يوغسلافيا أو (صربيا والجبل الأسود عمليا).
٢- حظر الطيران الحربي في سماء البوسنة.
٣- الملاذات الآمنة وحمايتها.
٤- رفع الحصار عن مدينة سراييفو مشتملاً على غارات جوية على الأسلحة الثقيلة التي نصبها الصرب حول سراييفو.

---

[112] صدر هذا التصريح في ٢١ يوليه ١٩٩٢م.

الحصار الاقتصادي :

صدر قرار مجلس الأمن رقم ٧٥٧ في ٣٠ مايو ١٩٩٢م بفرض حظر كامل على صربيا والجبل الأسود شمل الآتي:

- قطع العلاقات التجارية.
- تجميد أموال الحكومة في الخارج.
- حظر توريد البترول.
- وقف تبادل النشاط الرياضي والثقافي.
- قطع الاتصالات الجوية.

وفي ١٠ يوليه ١٩٩٢م وافق كل من اتحاد غرب أوروبا وحلف الأطلسي على تولي المراقبة البوليسية للحصار الذي فرضته الأمم المتحدة عن طريق البحرية والطيران في البحر الأدرياتيكي، وكالعادة لم يشمل القرار ولا الموافقة صلاحيات لإيقاف السفن المشبوهة وتفتيشها، ولزم الأمر صدور قرار آخر في ١٦ نوفمبر ١٩٩٢م يسمح بالإيقاف والتفتيش، ثم صدر قرار آخر لتعزيزه في ٢٠ نوفمبر بالموافقة على إطلاق النار على السفن الرافضة للوقوف والتفتيش.

وهكذا يمضي المجتمع الدولي في صياغة قرار واحد مبتور يستغرق نصف عام تقريباً ثم لا ينفذ أبداً. ففيم إذن هذه القرارات والموافقات والجميع يعلمون أن إمدادات البترول والمؤن والأسلحة وغيرها لم يتوقف تدفقها إلى صربيا عبر أراضي اليونان التي هي عضو في حلف الأطلسي، وعبر نهر الدانوب شرقاً من روسيا وأوكرانيا ودول شرق أوروبا الأخرى؟ فلما كشفت الصحافة عن هذه الحقائق عاد المجتمع الدولي إلى مسلسل القرارات التي تولد ميتة، حيث صدر قرار مجلس الأمن رقم ٨٢٠ في (١٧-١٨ إبريل ١٩٩٣) بتشديد الحصار الاقتصادي على صربيا ومونتنجرو (الجبل الأسود)، وفي ٢٥ إبريل وافق وزراء خارجية المجموعة الأوروبية على تدعيم الحصار الاقتصادي بمضاعفة عدد المراقبين، ثم في ٨ يونيه ١٩٩٣ عقد مجلس حلف شمال الأطلسي ومجلس اتحاد غرب أوروبا اجتماعاً مشتركاً لأول مرة لبحث الإجراءات المشتركة لمراقبة عمليات تشديد الحصار، وهكذا مر عام كامل أو يزيد والمجتمع الدولي يشغل الرأي العام العالمي بقرارات وموافقات حول حصار وتشديد حصار بعيداً عن القضية الأساسية لمجازر البوسنة.

الحظر الجوي :

صدر قرار مجلس الأمن ٧٨١ في ١٩ أكتوبر ١٩٩٢ بحظر الطيران الحربي في سماء البوسنة، ولم يذعن الصرب حتى أعلن الرئيس بوش عزمه على المشاركة في تطبيق القرار بالقوة، فتوقف الصرب قليلاً، فلما تأكد لهم أن التهديد غير جدّيّ عادوا إلى خرق الحظر، ورغم موافقة حلف الأطلسي في ١٧ ديسمبر ١٩٩٢ على تدعيم قرار الحظر إلا أن بريطانيا أصرت على وضع شرط يبطل مفعول هذا القرار تماماً ألا وهو: "ألا يتعارض مع استمرارية المساعدات الإنسانية"، ولما كان الصرب لا يتوقفون عن إعاقة قوافل هذه المساعدات فقد أصبح هذا مبرراً لعدم التعرض للطائرات الصربية المغيرة على أراضي البوسنة خوفاً من تعنت الصرب في إعاقة هذه القوافل.

ويستمر مسلسل العبث للحظر الجوي: فقد وافق كل من الرئيس الأمريكي "جورج بوش" ورئيس الوزراء البريطاني "جون ميجور" في ٢٠ ديسمبر ١٩٩٢ على دعم الأمم المتحدة في الحظر الجوي، وفي ٢٧ ديسمبر أعلن وزير خارجية فرنسا أن بلاده قد تساهم في جهود حظر الطيران بالبوسنة، ثم صدر قرار آخر من مجلس الأمن في ٣١ مارس ١٩٩٣م (رقم ٨١٦) يسمح لطيران حلف الأطلسي بضرب الطائرات التي تنتهك أجواء البوسنة وإسقاطها، وعلّق تنفيذ القرار بمرور سبعة أيام، لماذا؟ الله وحده يعلم!

وفي ٢ إبريل ١٩٩٣ وضع حلف الأطلسي على اشتراكه في الضربات الجوية للطيران الصربي العسكري قيوداً ذات دلالة:

١- تحذير الطائرات أولاً لإبعادها عن المجال الجوي.

٢- ضربها فقط إذا أصرت على الرفض.

٣- القوات الصربية الرابضة على الأرض لا تُمس.

وسوف نرى نماذج من المهازل التي ترتبت على تطبيق القرار بهذه الشروط التي تفرغ مضمونه من الردع والمنع مما شجع الصرب على المزيد من العدوان والاستهانة بالمجتمع الدولي وبالأمم المتحدة بصفة خاصة.

الملاذات الآمنة :

ظهر أول اقتراح بإنشاء ملاذات آمنة في البوسنة على غرار ما حدث في كرواتيا بين الدول الأوروبية خلال يوليه ١٩٩٢، ولكن رُفض هذا الاقتراح بحجة عدم وجود إجماع على توفير القوات لحماية هذه الملاذات.

وفي ٢٢ مـايو ١٩٩٣ اجتمـع ممثلـو دول الولايـات المتحـدة وروسـيا وفرنسـا وبريطانيـا وأسبانيا وأقاموا خطة عمل مشتركة، حيث وُضع الخيار العسكري جانباً، وبدلاً منه: إنشـاء ملاذات آمنة لحماية تجمعات المسلمين، في ستة مواقـع هـي: "سـراييفو" و "جورشـدة" و "سربرينتشا" و "جيبا" و "توزلا" و "بيهاتش". وفي ٤ يونيه من نفس العام صدر قرار مجلس الأمن رقم ٨٣٦ فوّض فيه إرسال قوات إضافية لحماية السكان المسلمين في الملاذات الآمنـة الذين يحاصرهم الصرب. وخوّل لهذه القوات استخدام القوة المسـلحة للـرد علـى أي هجـوم يقع على هذه المناطق.

وفي ٨ يونيه وافق وزراء خارجية المجموعة الأوروبية الإثنا عشر بالإجمـاع علـى اقـتراح الملاذات الآمنة.

وفي ١٠ يونيه تبنى مجلس الأمن قرار رقم ٨٣٧ يخول إرسال مراقبين دوليين إلى صربيا والبوسنة استكمالا لبرنامج العمل المشترك الذي وُقّع في واشنطن يـوم ٢٢ مـايو ١٩٩٣م كمـا أشرنا سابقاً.

ومع تكرار انتهاك الصرب للملاذات الآمنة بالتجويع والقصف أعرب "ألان جوبيه" وزير خارجية فرنسا (في ١٣ يوليه ١٩٩٣م) عن أسفه أن قرار الأمـم المتحـدة رقـم ٨٣٦ الخـاص بالملاذات الآمنة في البوسنة لا يزال "حرفا ميتاً" بحسب تعبيره، وفي التعبير العربي "حبر على ورق".

في اليوم التالي أعلن المتحدث باسم حلف الأطلسي أن الطائرات الحربية للحلف بدأت في قاعدة إيطالية عمليات توفير غطاء جـوي لقـوات الأمـم المتحـدة التـي تحمـي المـلاذات الآمنة، ورأى الناس على شاشات التلفاز طائرات حربية عملاقة تقلع وتهبط وانتهى الأمر.

ويستمر مسلسل العبث هنا أيضاً، ففي ٩ أغسطس ١٩٩٣م (وفي بروكسـل) وافـق حلـف الأطلسي- تحت الضغط الأمريكي- على مبدأ التدخـل العسـكري فـي البوسـنة، علـى هيئـة ضربات جوية لحماية قوات الحمايـة الدوليـة! وتخفيـف الحصـار الصربـي علـى سـراييفو، وتدخلت بريطانيا لتضع شرطا مانعاً وهو: ترك قرار البدء بالضربـات الجويـة فـي يـد الأمـم المتحدة. وسنرى كيف تعامل رجال الأمم المتحدة مع هذا القرار وأمثاله.

حاولنا فيما سلف- أن نسـتعرض دور الأمـم المتحـدة مـن خـلال بعـض القـرارات التـي أصدرتها وأسلوب صياغتها لهذه القرارات وطريقة تنفيذها، أو بالأحرى عدم تنفيذهـا. ولكـن هذا الاستعراض في حقيقته إنما هو وصف خارجي لدور الأمم المتحـدة، ولكـي نقـترب مـن الروح التي تم التعامل بها مع هذه القرارات، لابد لنا من إطلالة داخل عقلية الأفـراد الذيـن وُكل إليهم تنفيذها: كيف فهموا هذه القرارات وكيف قاموا بتطبيقها على الواقع؟

"قوة الأمم المتحدة للحماية" هو الاسم الذي عرفت به قوات الأمم المتحدة في البوسنة، يقول "مراك جولدنج" وكان مدير إدارة عمليات حفظ السلام– أن هذه القوة تقتصر وظيفتها في البوسنة على "حماية أنشطة المساعدات الإنسانية أثناء الحرب".

لكن الذي حيّر رجال الأمم المتحدة من موظفي الإغاثة وأصابهم بالإحباط هو أن حكومة البوسنة تصر على عدم التسليم بالهزيمة. ويفهم هؤلاء الرجال أن عملهم هو توصيل مواد الإغاثة وأن الذي يعوق هذا الجهد هو استمرار الحرب، ومن الذي يجعلها مستمرة؟ والإجابة الجاهزة عندهم: حكومة البوسنة التي لم تكن مستعدة لقبول تمزيق الدولة، وذلك بالإصرار على مواصلة المقاومة.[١١٣]

في هذا المناخ الذي يلتوي فيه المنطق ليس عجيباً أن الكثير من موظفي الأمم المتحدة يشيرون إلى أن الصرب ليسوا هم وحدهم المذنبين في مأساة البوسنة. ومع إطالة أمد الحرب بدأ رجال الأمم المتحدة يعترفون بأن المسلمين هم الذين يتعرضون للمذابح، ولكن حجتهم أنه ليس لديهم صلاحيات لرد العدوان أو إنقاذ المسلمين.

من هذا المنطق رأى رجال الأمم المتحدة كما رأت أوروبا أن أمريكا بتلويحها بالتدخل العسكري ضد الصرب يمد في أمل المسلمين أن المساعدة الخارجية قادمة آجلاً أو عاجلاً، وهذا الأمل يجعلهم يصرون على المقاومة، وعلى أمريكا أن تعلن بصفة حاسمة أنها لن تتدخل لصالح المسلمين حتى تتوقف مقاومتهم العنيدة.

في ظل هذا المفهوم تلاشت القضية الأساسية للبوسنة– وهي قضية شعب اعتدت عليه قوة مسلحة غاشمة ويتعرض لمذابح يومية– في قضية هامشية هي توصيل مواد المساعدات الإنسانية بصرف النظر عن أي شيء آخر.

في لقاء تلفازي للصحفيين مع "فريد كوني" Fred Cuny أحد رجال الأمم المتحدة بقول: "إنكم تتهموننا بالتقصير لأننا لم نعمل للبوسنة أكثر مما عملنا ولكن الحقيقة أننا منذ أول عملية لحفظ السلام سنة ١٩٤٧م حتى الآن لم نخرج قط عن الصلاحيات التي خُوِّلت لنا من قبل مجلس الأمن.. عليكم إذن أن تلوموا حكوماتكم على ما يجري في البوسنة، فقد كان في إمكانهم أن يمنحونا صلاحيات أفضل، ولوموا أنفسكم أيضاً لأنكم لم تستطيعوا إقناع حكوماتكم بالتصرف الأمثل.. إنكم تظنون أننا نختفي وراء الصلاحيات المحدودة، ولكن هذه الصلاحيات هي التي توفر لنا الشرعية الوحيدة التي نملكها... فإذا كنتم ترون أننا قصّرنا في واجبنا نحو البوسنة، فاعلموا أننا لم نفعل أكثر مما فعلنا لأننا ببساطة نرى أن ما وراء

---

[١١٣] أنظر دافيد رييف، المصدر السابق، ١٣٩.

ذلك ليس من وظيفتنا ولا من حقنا.. وإذا فعلنا نكون قد تجاوزنا السلطات التي منحتها لنا الدول الأعضاء في مجلس الأمن.. وأنا أؤكد لكم إنهم لن يتحملوننا عندئذ طويلاً.

فهل صحيح أن موظفي الأمم المتحدة وقوات الحماية الدولية في البوسنة التزموا فعلاً بقرارات المجتمع الدولي وحرصوا على تنفيذها في حدود الصلاحيات المخوّلة لهم؟ أم أنهم تصرفوا بمقتضى تفسيرهم الخاص وكانت لهم أهواء وتحيزات وولاءات أخرى أفسدت مسلكهم في البوسنة مما جعل المعتدي الصرب أكثر ضراوة وأشد فتكا، وجعل الضحايا من شعب البوسنة أكثر معاناة وأسوأ حالاً؟

يقول "دافيد رييف" وهو صحفي أمريكي شاهد تصرفات الأمم المتحدة في البوسنة: "مهما حدث من تجاوزات فهي برئية، ولا تستطيع أن تفعل أكثر مما فعلت، ولا تقبل أي نوع من النقد يُوجه إليها، وإذا أخطأ أحد جنودها فالعيب ليس فيها وإنما في الحكومة الوطنية التي يتبعها هذا الجندي، وإذا بدت سياستها لا أخلاقية فإن اللوم لا يقع عليها وإنما على الصلاحيات التي خُوّلت لها من مجلس الأمن، وعندما ظهرت علامات الفساد في تصرفات قواتها فإنها تسارع بالنفي والتكذيب".[114] هذا الوصف لسلوك موظفي الأمم المتحدة يكاد يكون مطابقاً لحالة عصابية تتجلى فيها آليات الدفاع النفسي على أشدها، يقع تفسيرها في إطار علم النفس المرضي.

أعلنت الأمم المتحدة– كما أسلفنا– أن قواتها في البوسنة مخوّلة باستخدام القوة العسكرية إذا اعترض قوافل الإغاثة معترض، ولكن من الناحية العملية كانت هذه القوافل– كما علمنا– يوقفها الصرب عند نقاط تفتيش أقاموها على الطريق ولا يسمحون بمرورها إلا في النادر وبعد أن ينهبوا أفضل ما فيها، ومع ذلك لم تستخدم القوات الحامية لقوافل الإغاثة أي قوة لفتح الطريق. فبما يفسر رجال الأمم المتحدة في البوسنة هذا المسلك؟

يقول "سيرجيو فييرا دي مليو" وهو أحد كبار المسئولين في الأمم المتحدة: "استخدام القوة لتمرير قوافل الإغاثة يمكن أن ينجح مرة واحدة، وبعد ذلك تكون قد أصبحت في حالة حرب.. وفي كل الأحوال يكون مجهود الإغاثة قد انتهى".

إنها "دوجما" أو وهم يسيطر على مفهوم القوات الدولية، ويرتبون عليه تصرفاتهم إزاء الصرب، ولكن تنهار هذه "الدوجما" في المواقف التي وجد بعض أفراد القوات الحامية بعض الشجاعة في أنفسهم فجربوا الخروج منها فالجنود البريطانيون الذين وكل إليهم مصاحبة قافلة من موقعهم في قرية "كلاداني" إلى مدينة "توزلا" قرّروا الرد على الصرب

---

[114] أنظر دافيد رييف، المصدر السابق، ص ١٢١.

المتحصنين في الجبال المطلّة على طريق القوافل، وبعـد تبـادل النـيران لفـترة قصـيرة تـأكد الصرب من إصرار حُرّاس القافلة على حمايتها وتمريرها فتراجعوا على الفور. مثال آخر: في أواخر عام ١٩٩٣م عُين لقيادة كتيبـة مختلطـة مـن الجنـود النرويجيين والسـويديين ضـابط سويدي يدعي "هندريكسون" يقول: "إذا أوقفني الصرب عند نقطة تفتيش كنت أصيح فيـهم بقوة (إذا لم تتركونا نمـر أطحـت برءوسـكم جميعـاً)... كـانت المحاولـة تنجـح فـي أغلـب الأحوال.. عليك أن تكون خشناً حتى لا يستهينوا بك".[١١٥]

والواقع أن الأمم المتحدة لم تحاول أن تتعلم من هذه الدروس وإنمـا كـانت تسـتهين بـل تشوّه مبادرات مثل هؤلاء الضباط الذين يحاولون أن يفعلوا شيئاً أكثر مما هو مصرح لهم بـه. خذ على ذلك مثلا الجنرال الفرنسي "فيليب موريّون" الذي قرر أن يذهب إلى "سربرينتشـا" وهي ملاذ آمن حاصره الصرب وانهالوا عليه قصفا وتدميرا- قـرر الجـنرال أن يذهـب ويبقـى داخل المدينة حتى يجبر الصرب على إيقاف القصف وينقذ السكان المذعورين. فماذا فعلـت الأمم المتحدة؟ أعلن بطرس غالي سكرتير عـام الأمـم المتحـدة مـن نيويـورك: "إن الجـنرال موريون مُذْنب قد تجاوز حدود الصلاحيات المخوّلة له، وهكذا بـدلا مـن الثنـاء علـى رجـل استطاع أن ينقذ أرواح سكان عزّل استجاروا به فمنحهم بعض الأمن ولو لفترة محدودة، بـدلاً من ذلك كان الحديث- من البرج العالي- عن الذنوب وتجاوز الحدود والصلاحيات.

إن الجنرال الفرنسي لم يأمر جنوده بفتح النار على الصرب، ولكنه ببساطة عرّض حياته للخطر ودخل منطقة اعتقد أنه من واجبه كإنسان أن يجلب إليها بعـض الطمأنينـة أو يمنـع عنها بعض الخطر المحدق بـها، إنـه رجـل يتمتـع ببقيـة مـن سـمات الإحسـاس بالشـرف الديجولي واحترام الذات. ولكنه بعد شهور قليلة أُعفي من قيادتـه فـي البوسـنة وأُعيـد إلـى وطنه فرنسا، وقد أشيع حينذاك أن فرنسا قد استجابت لطلب السكرتير العام للأمم المتحـدة نفسه.

الذين أداروا عمليات الأمم المتحدة في البوسنة يعتبرون من أقـدر النـاس وأكـثرهم ذكـاء وألمعية ومن أكثرهم إدراكا لفداحة المجزرة التي جرت تحت أعينهم في البوسنة ولكن كانوا يعانون من تناقض وفصام بين إدراكهم لحقيقة المجزرة وبين مسـلكهم الـذي سـمح لفصولـها المأساوية أن تستمر. والأمر يحتاج إلى تفسير فبماذا يفسرون هم هذا الموقف؟:

صرح أحد المسئولين المدنيين في الأمم المتحدة بسراييفو فقال: "في هذه الوظيفة عليـك أن تتعلم المفاصلة بين الشعور والعاطفة من ناحية وبين السلوك من ناحية أخرى، فأنا أعلـم

---

[١١٥] أنظر "دافيد رييف"، المصدر السابق، ص١٦٩.

ماذا فعل الصرب في البوسنة.. رأيت جثث القتلى وسمعت عويل النساء.. ولكن ليس المهم عندي أين تتجه عواطفي ولا ماذا ينبغي أن أقول أو أرغب في أن يُعمل؟ فوظيفتي هنا لا هي محاربة الصرب ولا لعنهم.. إنني هنا لكي أساعد البوسنة بقدر ما أستطيع.. ولكي أتمكّن من هذا عليّ ألاّ أبدو متحيزا في المعاملة.. فالصرب والمسلمون عندي سواء.. ولكن لأن الصرب قد انتصروا في هذه الحرب وأنت في حاجة إلى إذنهم لأداء أكثر واجبات وظيفتك عليك (أقصد عليّ) أن أحافظ على علاقة طيبة معهم".[116] من هذا الإدراك الخاطئ للواقع ومن هذا التناقض الفصامي بين الشعور والموقف السلوكي دخل الفساد إلى حد العفن في علاقات رجال الأمم المتحدة مع صرب البوسنة.

في يوليه ١٩٩٣م استولت القوات الصربية على آخر جبلين هامين حول سراييفو هما جبل "إيجمان" وجبل "بليساتشا" وكانا يشرفان على طريق المطار، المدخل الوحيد الباقي إلى مدينة "سراييفو" وكانت تشرف عليه قوات الحكومة. وكانت الولايات المتحدة على وشك أن ترسل طائرات حربية لضرب المواقع الصربية في الجبلين، ولكن صديقان لكراجيتش من ضباط القوات الدولية هما البلجيكي "فرانسيس بريكمونت" ونائبه البريطاني "جاي دي فيرهايس"، أشار على "كراجيتش" بنصيحة شيطانية لا تمنع هذا الهجوم الوشيك فحسب ولكنها تقضي على أي محاولة مستقبلية لمعاقبة الصرب في هذا الموقع بالذات، وقد أخذ الصرب بهذه النصيحة فسمحوا لقوة فرنسية تابعة لقوات الحماية الدولية باحتلال الموقع وتراجعت القوة الصربية على مقربة منه بحيث يتعذر على أن غارة جوية أن تصيبهم وحدهم وإنما تصيب القوة الدولية معهم، بهذا الأسلوب من التعاون ساعدت قوات الأمم المتحدة الصرب أن يتجنبوا أي تدخل عسكري في هذا الموقع.

ياسوشي أكاشي :

"ياسوشي أكاشي" دبلوماسي ياباني ماكر كانت أعظم خبراته مع الأمم المتحدة في الحرب الأهلية القذرة في كمبوديا، تعامل مع "بول بوت" والخمير الحمر، وشاهد المجازر الوحشية والمقابر الجماعية وملايين الجماجم المدفونة، وخرج من كمبوديا سالما، لهذا رشحه "بطرس غالي" مبعوثا خاصاً له في البوسنة.

بعد أول اجتماع له مع "رادوفان كراجيتش" زعيم صرب البوسنة خرج يعلن للصحافة أنه: "يعتقد أن كراجيتش رجل سلام" وكان يفخر دائماً بالصداقة التي نمت بينهما. عجيب أن يستمر هذا الموقف بعد أن كشفت الأحداث أن "كراجيتش" مجرم حرب وأنه مرشح

---

[116] أنظر "دافيد رييف"، نفس المصدر، ص١٧١.

للمثول أمام محكمة مجرمي الحرب الدولية التي أنشأتها الأمم المتحدة نفسها في لاهاي. لذلك سماه الصحفيون: "متسوبتشي شتنك". ظل أكاشي- رغم كل الظروف والتطورات يؤكد أن العلاقات الشخصية الحميدة بينه وبين قادة الصرب فوق كل اعتبار، حتى بعد أن رفض الصرب بإصرار الامتثال لتهديدات الأمم المتحدة وإنذارها النهائي بالانسحاب من "جوراشده" في إبريل ١٩٩٤م كان أكاشي متأهباً دائماً لتأجيل تنفيذ التهديد الدولي إلى أي مدى يرغبه الصرب.

لحقت المهانة بالقوات الدولية عندما أسر الصرب مئات الجنود الدوليين وربطوهم في المواقع العسكرية كدروع بشرية، وعلى أثر ذلك قام المجتمع الدولي بتشكيل قوات جديدة سميت قوات الردع السريع.. في هذا الوقت أرسل "ياسوشي أكاشي" خطاباً سرياً إلى قادة الصرب في "بالي" يطمئنهم أن التفويض الممنوح لهذه القوات هو هو نفسه التفويض الممنوح لقوات الحماية وأنه لا تغيير في الأوضاع الجارية، يعني تمثيلية هزلية تحت عنوان مختلف.

وفي مايو ١٩٩٤م قام أكاشي باتفاقية سرية مع الجنرال الصربي "ملاديتش" سمح له بمقتضاها تحريك سبع دبابات عبر المنطقة المحظورة حول سراييفو لتعزيز خطوطه الأمامية في مواقع أخرى بالبوسنة، وكانت هذه خيانة لظاهر الإدارة المشتركة للأمم المتحدة ولحلف الأطلسي، ولما انكشف الأمر وتعرض أكاشي للنقد صرح "بطرس غالي" بأن أكاشي يتمتع بثقته، وتبريراً لهذا الموقف الأكاشي قال رجال الأمم المتحدة: لقد أخذوا شيئاً في مقابل شيء، والشيء الذي أخذه رجال الأمم المتحدة في زعمهم هو تحريك مائة وخمسين جندياً إضافياً إلي ملاذ "جوراشدة" ووضع مراقبين عسكريين على طول الخط الأمامي في برْتشكو" وهي منطقة في شمال شرق البوسنة كان يُعتقد أن الجنرال "ملاديتش" سيوجه اهتمامه إليها بعد جوراشدة".

وبينما كان أكاشي يحاول تهدئة الرأي العام خرج الصرب علناً يتحركون بعرباتهم ودباباتهم في المنطقة المحظورة في مظاهرة واضحة غير آبهين بشيء.

زعم الصرب أنهم لا يحاصرون "سراييفو"، وإنما يحتلون الأجزاء التي اعتادوا أن يعيشوا فيها قبل الحرب، وأنهم لا يعتدون وإنما يدافعون عن أنفسهم ضد اعتداءات المسلمين. هذه مزاعم صربية كاذبة، ولكنها مفهومة إذا صدرت عن "كراجيتش"، أما إذا صدرت من مسئول

في قوات الأمم المتحدة فهو أمر عجيب حقا! ، ولكن هذا ما حدث بالفعل فقد كان الضابط الكندي باري فريور لا يفتأ يردد هذه المزاعم ترديدا ببغاويًا.[١١٧]

ويبدو أن مسئولي الأمم المتحدة أصبحوا لا يشعرون بخجل من ممارسة الكذب لتغطية الانتهاكات الصربية.. فالأمم المتحدة لا تفتأ تردد أنها إما أن تقتصر على إيصال مواد الإغاثة أو تستخدم القوة لردع العدوان، وإذا ذُكرت الانتهاكات الصربية لحقوق الإنسان، يقولون: إن الجميع يقومون بهذه الانتهاكات، وفي مواجهة الاتهام العالمي لميلوسفيتش وملاديتش وكراجيتش بارتكاب جرائم حرب، يقولون فيما بينهم: إما أن نتفاوض معهم وإما أن نحاول تقديمهم للمحاكمة، ويرددون دائماً أنهم لولا انحيازهم إلى الصرب لاستحالت مهمتهم في توصيل الإغاثة.

هذا الموقف المتحيز للصرب لم يشجعهم فقط على أن يفعلوا بالمسلمين ما يشاءون، بل استهواهم إلى فرض سلطانهم على القوات الدولية بالقوة، فقد فتح الصرب النيران على موقع للكتيبة الفرنسية في سراييفو فأسقطوا عليه ثمانين قذيفة فدمرت عرباتهم المصفحة كما دمرت الموقع نفسه، ومع ذلك امتنع الجنرال "بريكمونت" عن رد النار بالمثل، وفسر هذا الموقف الذليل فيما بعد بقوله: "لم أشأ أن أعرّض المفاوضات لخطر التوقف" وكانت هناك مفاوضات جارية في جنيف آنذاك.

كان فتح وإغلاق مطار سراييفو، والسماح بعبور الأشخاص من المطار وإليه،كل ذلك يتم بناء على اتفاق مسبّق مع الجنرال ملاديتش.. وعندما يريد الصرب إغلاق المطار ما عليهم إلا أن يرسلوا إليه قذيفة من القذائف.

وبينما يتلقى أفراد القوات الدولية المهانة على يد الصرب يمارسون السيطرة بل العنجهية على حكومة البوسنة الشرعية، فكان رئيس الوزراء أو نائب رئيس الجمهورية إذا أرادا الانتقال خارج البوسنة فعليهما الانتقال بسيارة مدرعة تابعة للأمم المتحدة لكي يصلا إلى المطار، فقد تُركت القوات الصربية قريباً من المطار بأسلحتها الثقيلة والخفيفة التي يمكن أن تصيب أي راكب متجه إليه، لذلك كان الانتقال إليه يتم تحت رحمة الصرب من ناحية وتحت رحمة أفراد الحماية الدولية من ناحية أخرى، ومن ثم أصبح المطار– وهو المنفذ الوحيد لسراييفو– لعبة في يد الجميع، حتى أن "صاداكو أوجاتا" رئيسة هيئة الإغاثة الدولية تستخدم هذا التكتيك لمعاقبة قادة المسلمين في سراييفو؛ فقد دعا عمدة المدينة المواطنين إلى الإضراب عن الطعام خلال فترة اشتدت فيها حدّة القصف الصربي

---

[١١٧] أنظر "دافيد رييف"، نفس المصدر، ص١٦٧.

للمدينة وامتد زمناً طويلا، حينذاك خرجت "أوجاتا" المرأة الحديدية تـهدد المسئولين في سراييفو إذا لم يوقفوا هذا الإضراب فسوف توقف الطيران لمنع وصول الطعام إلى المدينة، وكأنها تتعامل مع مجموعة من التلاميذ المشاغبين! ، وهكذا تصل المفارقة ذروتها في سلوك الأفراد الممثلين للأمم المتحدة في البوسنة بين تعاملهم المستجدي الذليل للقيادات الصربية المتمردة وسلوكهم الاستعلائي المستخف للقيادات الشرعية لحكومة البوسنة. هذا الموقف له تفسير مفهوم في علم النفس المرضي في دارسته لاضطرابات السلوك عند الأشخاص غير الأسوياء، ولكنه في مجال السياسة الدولية وفي قلب المنظمة العالمية الكبرى- الأمم المتحدة- يحتاج الأمر إلى تفسير أعمق بكثير من تفسير علم النفس المرضي.

إليك هذا المثال الصارخ: في يناير ١٩٩٣م اغتيل نائب رئيس جمهورية البوسنة الدكتور "حقّي توراليتش" وكان أحد أقدر رجال الرئيس "بيجوفيتش". كان في طريقه إلى المطار راكباً سيارة مدرعة في صحبة مجموعة من الحراس يرأسهم الضابط الفرنسي "باتريس سارتر"، أوقف الصرب السيارة في الطريق إلى المطار فنزل الضابط (الهمام) وفتح باب السيارة فنظر قاطع الطريق الصربي داخلها فتعرف علي شخصية الراكب، وعلى الفور أخرج بندقيته وأفرغ رصاصتها في رأسه.. وفي التحقيق الذي أجراه رجال الأمم المتحدة سألوا الضابط المسئول لماذا فتحت باب السيارة فقال: "فتحت باب السيارة لأثبت للصرب أنني لا أحمل للمسلمين أسلحة مهربة ولا مجاهدين" لم يرفع الضابط إصبعه ولم يتحرك لمنع الجريمة التي شاهدها وكان مسئولا عن حماية الضحية وسلامتها وكان بمقدوره أن يفعل، ومع ذلك خرج من التحقيق بريئاً ولم يُفصل من وظيفته على إهماله الجسيم أو تآمره وإنما استمر في الخدمة.

الكذاب الأشر :

كان زعيم صرب البوسنة "رادوفان كراجيتش" أكذب الكذابين، كان يستحق بجدارة لقب "الكذّاب الأشر"، ولم يكن كذبه من ذلك النوع الذي اعتاد السياسيون ممارسته بذكاء ودبلوماسية وإنما هو نوع من الكذب الفج المفضوح الذي يمارسه الفصاميونن ولم يتعب "كراجيتش" من ترديد أكاذيبه كلما انهمرت القذائف على سراييفو يقول: "إنها من عمل المسلمين أنفسهم وليست من مواقع قواته.. إنهم يضربون أنفسهم أملا في الحصول على تعاطف العالم". ورغم كل الأدلة والشواهد كان ينكر وجود أي شيء اسمه "التطهير العرقي" بينما العالم كله يعرف أن المصطلح من صنع كراجيتش نفسه وكان هو أو من أطلقه، فلا حدود لما يمكن أن يتمادى فيه كراجيتش من كذب وإدعاء، وقد تعلم هو وغيره من قادة الصرب خلال عامين من بداية الغزو الصربي للبوسنة أن الأمم المتحدة والقوى الكبرى

جميعاً لن ترفع إصبعاً لوقفهم، وما دامت أعمالهم لن يترتب عليها أي عقاب أو رد فعل فما قيمة أي كلام يقال!؟.

في واقعة انتهكت فيها الطائرات الصربية سماء المنطقة المحظورة كان تبرير كراجيتش للأمم المتحدة: أنه كان احتفالا بيوم الطيران، ولم تعترض الأمم المتحدة، وقد علم الصرب أنها سوف تقبل أي تفسير أو تبرير صربي مهما كان واهيا أو مختلقا، وأثبتت الأحداث أنه يمكن للصرب أن يعتمدوا على قدرتهم في التصرف أو يدّعوا ما يحلو لهم دون أن يتوقعوا من الأمم المتحدة حتى العتاب.

وعندما أطلقت قذيفتان على طابور الخبز في سراييفو خلال أغسطس ١٩٩٢ فقتلت ستة عشر شخصاً وجرحت الكثير أسرع كراجيتش يزعم أن حكومة البوسنة هي التي وضعت ألغاما في المكان، ولم يعبأ "كراجيتش" بحقيقة يعرفها الجميع وهي أن تأثير اللغم يختلف تماماً عن تأثير القذيفة الصاروخية ؛ فاللغم يحدث حفرة في الأرض بينما تتناثر أجزاء القذيفة الصاروخية كالمطر في كل اتجاه. فلما لم تنطل الكذبة على العالم اضطر "كراجيتش" أخيراً أن يغيّر كذبته فنسب الحادث إلى أحد الجنرالات الصرب الغاضبين.

وعندما سُؤل كراجيتش عن عمليات انتهاك الأعراض قال: "كل الحروب تفرز بعض مرضى النفوس". وفي حصاره لسراييفو قال: "إننا لا نحاصر المدينة ولا نقصفها.. إننا فقط نحمي الصرب"، وعندما لا يوجد صرب في موقع ما يلجأ إلى التاريخ فيقول: "كانت أراضي هذه القرية صربية منذ قرون حتى احتلها المسلون وطردوا منها أصحابها".. نفس المزاعم الصهيونية في فلسطين!.

يقول "دافيد ريبف": "عندما ذهبت لمقابلة "كراجيتش" مع مجموعة من الصحفيين في "بالي" بادرنا قائلا: "لماذا أنتم أيها الغربيون تصرّون على أنه ينبغي أن يعيش الصرب مع المسلمين.. إن الصرب والمسلمين مثل القطط والكلاب لا يمكن أن يعيشوا معاً في سلام.. هذا مستحيل" وقد تحقق بالفعل ما قاله "كراجيتش" لأنه استطاع مع "سلوبودان ميلوسفيتش" وأعوانه- أن يجعلوا من هذا الادعاء واقعاً، بتدبير وإعداد مسبق حتى اقتنع الصرب بأنها حقيقة لا يمكن تجاوزها. وفي هذا يقول "جرافكو جريبو" وهو أستاذ قانون صربي في جامعة سراييفو ومنافس سياسي قديم لكراجيتش- يقول متهكّما: "كراجيتش" هذا هو أكبر عبقرية أنجبتها البوسنة.. إنه يدلي بكلام من أكذب الكذب وبعد عامين يصبح حقيقة".

الجنرال الكندي ورجاله :

الجنرال الكندي "لويس ماكنزي" أول قائد للقوات الدولية في البوسنة كان يردد نفس الأكاذيب الصربية– بلا حياء– في كتابه "مذكرات حامي للسلام" يصر الجنرال على أنه كان من المستحيل معرفة أي طرف يمكن توجيه اللوم إليه في حرب البوسنة فهي حرب أهلية وجميع الأطراف أيديهم ملوثة بالدماء، بل إن التدمير الذي وقع في سرايفو لم يكن في الإمكان معرفة ما إذا كان نتيجة قذائف الهاون الصربية كما يزعم البوسنويون أم نتيجة متفجرات وضعها البسنويون كما يزعم الصرب.

هذه الادعاءات الكاذبة للجنرال الكندي أصبحت اليوم أضحوكة ومثار سخرية بعد أن ظهر "تقرير لجنة خبراء الأمم المتحدة" يكشف عن حقائق بتفاصيل مذهلة لا يمكن إنكارها عن القصف الصربي الذى كان يستهدف القتل والتدمير .. كان الجنرال الكندي إلى جانب تعصبه وانحيازه صاحب هوى، تورط مع أصدقائه الصرب في نزوات مخلّة بالشرف، أقام عليه المدعي العام البسنوي دعوى أتهمه فيها باختطاف خمس فتيات مسلمات، إنتقاهن من معسكرات الاعتقال الصربية ونقلهن جوًا إلى كندا،[118] ولما طالبت الحكومة البسنوية بإبعاده سحبته الأمم المتحدة تغطية لفضائحه. لم يقبع الجنرال الموتور في داره بل ذهب يستكمل دوره المرسوم في الولايات المتحدة ليقدم نصائحه كخبير في قضية البوسنة، بغية التأثير في الرأي العام الأمريكي الذي كان يلح على حكومته بالتدخل العسكري الفوري لوقف مذابح البوسنة، وألقى الجنرال عددا من المحاضرات وأدلى بكثير من التصريحات لصالح الصرب، ولكن الصحف الأمريكية كشفت عن فضيحة أخرى للجنرال الكندي، فلم يكن الرجل صاحب قضية يدافع عنها وإنما كان يؤدي خدمة مدفوعة الأجر، فقد حصل على بضعة ملايين من الدولارات الأمريكية دفعتها له جمعية المهاجرين الصرب في الولايات المتحدة تحت ستار أجره على المحاضرات التي ألقاها هناك.

وكلما إرتكست الأمم المتحدة في الهوان واستمرأت المذلة على يد الصرب والإذعان لرغباتهم كلما بعدت عن وظيفتها الحقيقية وتناقضت مع ميثاقها ومبادئها في حفظ السلام ورد العدوان والدفاع عن حقوق الإنسان وكرامته ولم يعد مستغربا في هذا المناخ أن تنشط فئة من العاملين في القوات الدولية في ممارسات ضد القانون وضد الأخلاق. فقد كشفت حكومة البوسنة عن انتهاكات بعض العاملين في الأمم المتحدة انخرطوا في بيع مواد الإغاثة

---

[118] أنظر محمد حرب في كتابه: البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة. القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، ١٩٩٣. ص١٥١ نقلاً عن تلفاز القاهرة في ١٩٩٢/١١/٢٣.

المسروقة في السوق السوداء بمدينة "سراييفو"، بل وصل بهم الأمر إلى حد تهريب المخدرات والتجارة في الأعراض. وعندما وُجهت هذه الاتهامات إلى قيادات الأمم المتحدة أنكروها في أول الأمر إنكاراً شديداً، فلما تفاقمت الأمور واشتدت الشكوى من جانب السلطات المحلية وتزايدت الضغوط من الحكومة البوسنوية اضطرت هذه القيادات لإجراء تحقيق في التهم الموجهة إلى القوات الدولية، أعلنت بعده أن الانتهاكات كانت حالات فردية لا تعبر عن فساد مستشري أو اتجاه عام، وأُغلق ملف الانتهاكات بلا عقاب أو نتيجة ملموسة، ولكن بعد فترة من الوقت هدأت فيها الأمور أعفت قيادة الأمم المتحدة عدداً من الضباط والجنود من الخدمة في القوة الدولية وأرسلتهم إلى بلادهم، وفي هذا دليل على أن قضية الانتهاكات قضية حقيقية وليست قائمة على مجرد إدعاء.

قيل في وصف دور الأمم المتحدة في البوسنة "أنها لم تصنع العار ولكنها نفّذته، لأن الدول الغربية لم يكن لديها الإرادة لعمل شيء آخر". ولكني بعد دراسة متأنية وتأمل طويل أقول: إن الأمم المتحدة اشتركت في صناعة العار ونفذته بحماس، وكان بوسع قادتها- لو تجردوا من الهوى- أن يكون لهم موقف آخر، فيعلنوه في وقت مبكر، وبذلك تبرأ ذمتهم ويعرف العالم حقيقة التواطؤ الذي يتستر خلف المنظمة الدولية، ولكنهم آثروا ألا يفعلوا، ربما للحفاظ على مراكزهم العالية في نيويورك، ويا ليتهم استطاعوا المحافظة عليها، فقد سقطوا منها بعد أن سقطوا بها، حيث شروها بثمن باهظ: إبادة شعب برئ وضياع شرف إلى الأبد.

من الوقائع ذات المغزى في الكشف عن الدور المشبوه للأمم المتحدة في البوسنة ما ذكره الكاتب الصحفي الشهير فهمي هويدي[119] عن الموقف المخزي لقوات الحماية الدولية من منظمات الإغاثة الإسلامية، وإفرادها دون سائر المنظمات الأخرى- بالرفض والتثبيط والإعاقة. مشتركةً بذلك ف جهود الصرب والكروات في خطر توصيل المعونات إلى المسلمين، بينما "تغصّ سراييفو بكل من هب ودب من منظمات غريبة جاءت باسم الإغاثة. حتى بلغ عدد المرخص لها ما بين خمسة وأربعين وخمسين هيئة ومنظمة" هيئات ومنظمات من كل الأديان والأنواع إلا المنظمات الإسلامية فإن المطلوب كما يقول فهمي هويدي "هو استمرار معاناة المسلمين والضغط عليهم بأقصى صورة ممكنة... إن الضغط على المسلمين مطلوب لإخراجهم من أرضهم ومن ملتهم إن أمكن" يذكر فهمي هويدي أيضاً واقعة ربما

---

[119] عن مقال نشر بصحيفة الشرق الأوسط في ١٩٩٣/٨/٢٣. أنظر أيضا كتاب شهادة القلم على مأساة العصر. إعداد خالد الأصور، القاهرة: دار الحكمة، لجنة الإغاثة الإنسانية، ١٩٩٤. ص١١٩-١٢٣.

كانت أوثق دلالة على تحيز الأمم المتحدة للجانب الصربي وعلى النوايا الخبيثة التي تكنّها هذه المنظمة تجاه مسلمي البوسنة. وردت هذه الواقعة على لسان "أيّوب جاينتش" قال: عندما قصف الصرب بعض مواقع المسلمين في البوسنة بالغازات السامة شاءت المقادير ألا تنفجر إحدى تلك القذائف، فاحتفظ بها المسلمون وحملوها إلى قيادات القوات الدولية في سراييفو قائلين: هذا دليل قاطع على أن الصرب يستخدمون في الحرب أسلحة محظورة دوليا. فما الذي حدث عندئذ؟ يقول فهمي هويدي: ".. لم يصدر بيان يعلن عن التثبت من ارتكاب الصرب لجريمة جديدة وانتهاك جديد للقوانين والأعراف الدولية، وإنما كان الرد الذي تلقته حكومة البوسنة يقول: عليكم بالتفاوض إذن حتى يمكن وضع حد للمأساة. ويرى فهمي هويدي بحق أن هذا "كان بمثابة تحذير مبطن للمسلمين بأنهم ما لم يمتثلوا ويقبلوا بما هو معروض عليهم فإن قصفهم بالغازات السامة سيستمر" ثم يمضي قائلا: "كان الرد رسالة ضغط مستجدة وكانت قيادة الحماية الدولية بدورها هي أداة الضغط ومصدره".

في هذا السياق خصصنا الجزء الباقي من هذا الفصل للنظر بإمعان وتفصيل أكثر في دور الأمم المتحدة المخزي إزاء قضية الملاذات الآمنة (المزعومة)، وهي الجيوب أو المناطق المعزولة التي احتشد فيها من بقى من مسلمي البوسنة أحياءً بعد عمليات الذبح والإبادة والطرد والتشريد.

عدد هذه الملاذات ستة كما أشرنا من قبل، ولكننا هنا نخصّ بالدارسة خمسة منها هي "سراييفو" و "جورشده" و "بيهاتش" و "سربرنيتشا" و "جيبا" هذه الملاذات الخمسة شهدت اعتى المؤامرات، وأصابتها أعظم الكوارث وأفدح الخسائر، اثنان منها هما "سربرنيتشا" و "جيبا" مسحهما الصرب تماماً من خريطة الدنيا، فر من سكانها من استطاع الفرار، وبقى ثمانية آلاف من السكان احتجزهم الصرب وقضوا عليهم جميعاً، ثم ألقوا بجثثهم في مقابر جماعية، لا يزال مكانها إلى اليوم خبراً سرّيا لا يعرفه بعد الصرب سوى القوات الجوية الأمريكية خلال أقمار التجسس حيث أعلنت مرة أنها استطاعت تصوير هذه المواقع، ثم انقطع الخبر تماماً فلم يعد أحد يتحدث عنه بينما لا يزال أقارب الضحايا يبحثون عن جثث موتاهم وما من مجيب.

لقد تحولت "سربرينتشا" و "جيبا" إلى أرض خراب يباب تعوي فيها الذئاب الصربية بعد أن أصبحت جزءًا من ممتلكاتهم المغصوبة وفقا لاتفاقية "دايتون"

وثيقة من الأمم المتحدة :

في ٢٧ مايو ١٩٩٤م أرسل السكرتير العام للأمم المتحدة خطاباً إلى مجلس الأمن مرفقا به تقرير مكوّن من ثلاثة آلاف صفحة بعنوان: "التقرير النهائي للجنة الخبراء المشكّلة بقرار مجلس الأمن رقم ٧٨٠ لسنة ١٩٩٢م" للتحقيق في أعمال العنف التي جرت في البوسنة ورصد ما يدخل منها في مفهوم جرائم الحرب، والانتهاكات ضد الإنسانية التي نصت عليها وحرمتها معاهدة جنيف والقوانين الدولية الأخرى. ونظراً لضخامة حجم التقرير رأت سكرتارية الأمم المتحدة– كما يذكر السكرتير العام في خطابه– الاقتصار على النص الإنجليزي فقط، ونشره في أضيق الحدود بحجة الاقتصاد في التكاليف، حيث وزعت النسخ على أعضاء مجلس الأمن وأرسلت نسخة منه إلى المحكمة الدولية لجرائم الحرب في يوغسلافيا السابقة (بمقرها في لاهاي).

بدأت تحقيقات اللجنة في نوفمبر ١٩٩٢م وانتهت أعمالها في إبريل ١٩٩٤. وقد كُتب التقرير بأسلوب موضوعي، بدون ذكر أسماء الأشخاص المسئولين عن جرائم الحرب وإن كان أشار إلى أن المصادر التي فُحصت تحمل أسماء وعناوين مفصلة لهؤلاء الأشخاص. اعتمد التقرير على الإحصاءات والتقارير الرسمية للأمم المتحدة في البوسنة، وعلى زيارات المواقع التي حدثت فيها الجرائم ولقاءات مع الضحايا وشهود العيان في معسكرات اللاجئين في البوسنة وخارج البوسنة.. وسجّل المحققون التعاون الكامل من جانب سلطات حكومة البوسنة، وأنهم لم يجدوا أي تعاون يذكر من الجانب الصربي.

كانت اللجنة تتألف من خمسة من كبار الخبراء برئاسة "البروفسور شريف بسيوني" وتفرع منها عدة لجان مؤلفة من مجموعات من الخبراء المتخصصين في شتى الفروع رجالاً ونساء. والحق يقال أن هذا التقرير وإن لم تخرج نتائجه عن إطار الحقائق والمعلومات التي أصبحت معروفة ومتداولة في جميع الأوساط المهتمة بقضية البوسنة إلا أن مجرد صدوره من الأمم المتحدة يجعل منه وثيقة بالغة الأهمية، لا بالنسبة للباحثين في القضية فحسب ولكن باعتباره وثيقة اتهام غير مباشر للأمم المتحدة نفسها، والتي كانت تعرف هذا الحجم الهائل من المعلومات المفصلة والمقننة ثم كان موقفها من مأساة البوسنة على النحو المخزي الذي لمسناه في سلوكها وتصريحاتها المتناقضة مع الحقائق التي عرفتها.

أهم ما في هذا التقرير أنه أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجرائم الوحشية التي ارتكبها الصرب ضد المسلمين لم تكن كما زعم قادة الصرب انتهاكات يقوم بها أفراد

منحرفون كشأن أي حرب أخرى، وإنما كانت جرائم بتدبير محكم مسبق، وفق خطط رسمية قام بها خبراء من أعلى مستوى في الخبرة، وتم تنفيذها بأسلوب منظم، وطبقت في جهات مختلفة بطريقة نمطية ثابتة، وكان التنسيق بين الأطراف المشتركة في تنفيذها على أعلى مستوى أيضاً، واستطاع المحققون أن يتتبعوا مصادر التوجيه والأوامر إلى أعلى المراكز في القيادات السياسية والعسكرية والإدارية الصربية.

أبرز الموضوعات في هذا التقرير تشتمل على الآتي:

١- دراسة مفصلة لعمليات الإبادة المكثفة للسكان المدنيين في منطقة "أوبتينا وبريدور".

٢- معركة وحصار سراييفو.

٣- معسكرات الاعتقال.

٤- جرائم الاغتصاب والاعتداءات الجنسية الأخرى.

٥- المقابر الجماعية.

٦- تدمير الآثار الثقافية.

ونود أن نلفت النظر هنا إلى أن التقرير رغم ضخامته فإنه لم يكن شاملاً ولا قصد منه أن يكون كذلك، فقد اكتفت لجان التحقيق بالبحث في عينات دالة على الاتجاه العام لكل نوع من أنواع الجرائم، واستهدفت الموضوعات والمواقع التي توفرت فيها وعنها معلومات وأدلّة موثقة وكافية لإصدار أحكام صحيحة.. ولأن هذه الموضوعات قد سبق تناول معظمها في فصول هذا الكتاب فسوف أكتفي في هذا الفصل بحصار سراييفو إلى جانب الموضوعات الأخرى التي أشرت إليها من قبل مما لم يرد ذكره في تقرير الأمم المتحدة.

حصار سراييفو:

قامت مجلة "تايم" الأمريكية الصادرة في ١٧ يناير ١٩٩٤م بنشر إحصائية لخسائر مدينة سراييفو خلال عامين اثنين من بدء الحصار، بيانها كالآتي:

- تراجع عدد سكان سراييفو من ٥٤٥ ألفا إلى ٣٨٠ ألفا.
- قُتل ٩٥٠٠ من بينهم ١٦٠٠ طفلاً.
- أصيب بجراح وعاهات ٥٥٧٠٠ بينهم ١٦ ألفا من الأطفال.
- تدمير كامل وجزئي لمنازل ومباني المدينة بنسبة ٦٠٪، يعني ٦ من كل ١٠ مبانٍ أصبحت غير صالحة للسكن أو الاستخدام.
- تناقص عدد تلاميذ المدارس الابتدائية من ٦٠ ألف إلى ١٨ ألفا.

- هبط عدد الأطباء والممرضات إلى النصف.
- أغلقت ٣٤ محطة ضخ مياه من أصل ٣٧ محطة.

أما تقرير لجنة خبراء الأمم المتحدة فإنه يتناول موضوع الحصار والقصف ويكشف عن أبعاده المأساوية بتفصيل أكثر. يبدأ التقرير بتقديم صورة لتكوين القوات المتحاربة ومواقعها في سراييفو وحولها: كان "فيلق سراييفو الأول" هو قوة الدفاع البوسنوي في المدينة. ويؤكد التقرير التفوق العددي لهذا الفيلق عن قوات الحصار وأنه رغم ذلك- كان يفتقر إلى قوة النيران التي يملكها الصرب. ولم يذكر التقرير حقيقتين هامتين، أولهما أن هذه الفيلق بدأ بداية متواضعة جداً من حفنة من المدنيين ورجال الشرطة الذين لا خبرة لهم بالقتال وبضعة ضباط محدثين، وثانيهما أن الأسلحة التي كانت متاحة لهم في ذلك الوقت هي بضعة بنادق قديمة وقنابل بدائية صنعوها بأيديهم، وبهذه القوة الصغيرة بدأت المقاومة الباسلة لمدينة سراييفو.

ويمضي تقرير الخبراء فيذكر لنا أن "فيلق رومانيا سراييفو" كان هو القوة الصربية المكلفة بحصار المدينة، هذا الفيلق كان مجرد اسم جديد لوحدة الجيش الفدرالي التي كانت تحتل نفس الموقع حتى يوم ٥ مايو ١٩٩٢. وكانت الإدارة المركزية لهذا الفيلق تقع في "لوكافيتشا" على مشارف المدينة، وظل التشكيل القيادي لهذا الفيلق على حاله طوال الحصار وإن توالى على قيادته ثلاثة جنرالات منذ سنة ١٩٩٢.

برغم أن القوات الصربية كان لديها قوة نار أعظم إلا أنه لم يكن في مقدورها احتلال المدينة والسيطرة عليها بطريقة فعالة.. هذه الملاحظة مبنية جزئياً على حقيقة التفوق العددي للمقاتلين في الفيلق البوسنوي،اضافة إلى أن السيطرة على مباني المدينة الكثيرة وشوارعها المتشعبة تؤكد أنها مهمة تفوق طاقة الفيلق الصربي ولذلك تركز جهد الصرب على إضعاف المدينة بواسطة القصف المستمر من الجبال المحيطة، ولم يحدث أبداً أن نفدت ذخيرة الصرب في أي وقت من الأوقات .. وهنا نقطة لابد من إضافتها وهي أن التكتيك العسكري للصرب في البوسنة كان يعتمد على تجنب الاشتباك المباشر مع المقاتلين المسلمين والقصف الكثيف المركز من بُعد مع الحصار والتجويع حتى يقضي على المقاومة المسلحة أو تنفد ذخيرتها عندئذ يتقدم الصرب فيدخلوا المدينة ليقتلوا السكان المدنيين بالرصاص أو بالسكاكين، ولكن انهيار المقاومة البوسنوية لم يحدث في مدينة سراييفو وإنما ظل يتعاظم ويقوى حتى استطاعت أن تتحول من الدفاع إلى الهجوم في محاولات جريئة لفك الحصار كما حدث في عام ١٩٩٥م. فإذا كان التقرير يسميها "معركة سراييفو وحصارها" فإنني أسميها بجدارة "ملحمة سراييفو الباسلة".

تحت عنوان "مواقع المدفعية وطبيعتها" يحدد تقرير الخبراء مصادر القصف الصربي من المدفعية، ومدافع الهاون ومن الدبابات الرابضة في المرتفعات مستنداً في ذلك إلى سجل تقارير القوات الدولية التي كانت مكلفة بالمراقبة والرصد، وقدر التقرير عدد المدافع الصربية بحوالي ألف ومائة مدفع (في تقديرات عسكرية أخرى بلغ العدد ١٤٠٠ مدفعاً) هذا غير الدبابات التي لم يرد ذكر عددها في التقرير.

ويستمر التقرير في وصف أوضاع المدفعية فيذكر أن بعضها كان في مواقع ثابتة في دُشم محصنة في الغابات الجبلية المحيطة بسراييفو وضواحيها، وفي حالة تكاثف ورق الشجر صيفا كان من الصعب تحديد مواقع الأسلحة من الجو، ولكن كان من الممكن تحديد مواقع المدفعية من انطلاق القذائف.

ويحدد تقرير الخبراء أن عدد القصف اليومي للمدينة كان يتراوح في المتوسط بين مائتي قذيفة إلى ثلاثمائة قذيفة، ذلك في الأيام الهادئة، ومن ٨٠٠ إلى ألف قذيفة في المتوسط في الأيام النشطة.

ويؤكد المراقبون أن القصف كان شديد القسوة ولا يكاد يتوقف ليلاً أو نهاراً، وأن أقل أيام القصف كان في يومي ١٨،١٧ مايو ١٩٩٣م، وكان أعلاها يوم ٢٢ يوليه ١٩٩٣م، حيث وصل عدد القذائف التي انهمرت على المدينة كالمطر ٣٧٧٧ قذيفة.

مع هذه الدقة في تحديد ورصد مصادر القصف الصربي لمدينة سراييفو، وتحديد أوقات القصف باليوم والساعة والدقيقة، يتعجب الإنسان: فيم إذن كان الجدال السفيه والتشكيك الذي أثاره قادة القوات الدولية في سراييفو من أمثال الجنرال "ماكنزي" والجنرال "روز" حول إمكان معرفة مصدر الحوادث المأساوية التي أصابت الناس في سوق سراييفو أو في طوابير الخبز، وما إذا كانت بسبب القصف الصربي أم بسبب تفجير عبوات أرضية ناسفة وضعها المسلمون بأنفسهم لجذب التعاطف الدولي نحو قضيتهم!؟.

من دراسة سجلات المراقبين الدوليين يخلص تقرير الخبراء إلى أنه كان هناك قصف منظم لأهداف معينه كما كان هناك أنماط من القصف العشوائي لأهداف أخرى، تركز القصف المنظم على الأهداف الآتية:

مستشفى كسوفو، راديو وتلفاز سراييفو، مبنى صحيفة "سلوبودينيا" وسائل المواصلات العامة، مبنى البرلمان ومبنى الرئاسة، مطاحن الدقيق، المخبز الرئيسي، مباني الإستاد الأولمبي، المنطقة الصناعية، أبراج محطات التلفاز، مقابر اليهود، والمقابر الأخرى، مطار المدينة، مصنع الدخان، مجمع مساكن "دوبرينا"، منطقة وسط العاصمة، المساجد وبخاصة مجمّع المساجد القديمة في المنطقة المعروفة باسم "باسكارسيا" منطقة سراييفو الجديدة،

طريق المرور في شارع المارشال تيتو، الحي التجاري في "فاسي مسكينا". ويشير التقرير إلى مناطق معينة خصّها الصرب بقصفهم المركز وهي المؤسسات الدينية، والمرافق العامة، ووسط المدينة، والمطار، والضواحي الجنوبية، هذه المناطق كانت أكثر المناطق تعرضاً للقصف اليومي، أما المدينة التاريخية القديمة بمبانيها العظيمة ومكتباتها بما فيها مكتبة خسروبك وغير ذلك من الآثار العثمانية البديعة فقد استهدفها الصرب بالقصب الكثيف المركز من أول الأمر لتدميرها وإحالتها إلى أنقاض.

أما القصف العشوائي فقد استهدف المناطق السكنية، والمدارس والشوارع والمتنزهات العامة والملاعب والمدافن والمستشفيات، وطوابير المياه والخبز ومراكز توزيع مواد الإغاثة، وفي هذا المجال وجه القناصة الصرب أكثر نشاطهم.

كشف تقرير الخبراء عن وجود ربط بين شدة القصف وبين أحداث سياسية معينة، فقد لاحظ المحققون من دراستهم للسجلات والأزمنة أن القصف العنيف كان يحدث قبل وأثناء المؤتمرات وجلسات المفاوضات، مما يشير إلى المغزى السياسي لهذا القصف العنيف، ويؤكد هذا أن فريق المحققين وجد ترابطاً ثابتاً بالزيادة والنقص في شدة القصف مع التصريحات السياسية للقادة السياسيين والحكومات.

ولم يوضح التقرير الموجز تفصيلات هذا الترابط وأهدافه المنشودة، ولكن من الواضح أن الصرب كانوا يتعمدون القصف العنيف لسراييفو أثناء المفاوضات للضغط على الحكومة البسنوية حتى تخضع لشروطهم وتقبل الحلول المجحفة المفروضة عليهم دون مناقشة، وهذا النوع من الضغط والابتزاز هو الذي رفضه الرئيس "عزت بيجوفيتش" وقاطع المفاوضات بسببه مرات عديدة.

استغرق عمل اللجنة في سراييفو الفترة من ٢٠ يونيه إلى ٩ يوليه سنة ١٩٩٣م وكانت اللجنة تتألف من ضباط كنديين، ورجال قانون وخبراء من الشرطة، اختارت لإجراء تحقيقاتها المكثفة ستة وقائع، كان محل الاختيار فيها مستنداً إلى وفرة المعلومات بما يكفي لإثبات القصد الجنائي من ارتكابها من بين هذه الوقائع: حادثة قصف ملعب كرة القدم في أول يونيه ١٩٩٣م وحادثة قصف جنازة في منتصف يونيه من نفس العام، ولما كانت اللجنة لا تزال تجري تحقيقات في أماكن أخرى بالبوسنة عندما قصف الصرب سوق مدينة سراييفو في ٥ فبراير ١٩٩٤، لذلك استطاعت أن تضمّن في تقريرها هذه الواقعة أيضا.

في واقعة قصف ملعب كرة القدم يذكر التحقيق أن قذيفتين من مدفع هاون سقطتا على الملعب وهو يغص باللاعبين والمتفرجين من تلاميذ المدارس، وكانت الساعة تشير إلى

العاشرة والنصف من يوم أول يونيه ١٩٩٣، مما تسبب في قتل ١٣ شخصاً وجرح ١٣٣، جاءت القذائف من الجانب الصربي من موقع يبعد حوالي ٣٠٠ متر من معسكر "لوكافيتشا" مقر القيادة المركزية للصرب، كان الجو صافيا والشمس ساطعة والرؤية جيدة، وكانت المنطقة التي أطلق عليها النار منطقة مقتصرة على السكان المدنيين وليس بها أي أهداف عسكرية، مما يؤكد للجنة أن القصد كان قتل السكان المدنيين.

وفي حادثة السوق يذكر التقرير هذه البيانات: في يوم ٥ فبراير ١٩٩٤م، تسبب القصف الصربي في قتل ٨٦ وما لا يقل عن مائتين من الجرحى في سوق بوسط المدينة، وكرد فعل أعطى حلف الأطلسي إنذاراً بتحريك الأسلحة الثقيلة لجميع الأطراف في ٩ فبراير خلال عشرة أيام من منطقة حظر حددها الحلف، وإلا تعرض المخالف للقصف الجوي، ولم يستجب الصرب للإنذار حتى يوم ١٧ فبراير فأعلن الروس أنهم سيرسلون ٤٠٠ جندي إلى المدينة، ونصحوا الصرب بالاستجابة لأوامر الحلف، وفي ٢٠ فبراير أعلن الحلف أن الصرب قد بدءوا يستجيبون استجابة ملحوظة ولا داعي للقصف الجوي.

كان لحادثة سوق سراييفو وقع الصاعقة على الرأي العام العالمي، ترددت أصداؤه في صحف العالم وفي وسائل الإعلام الأخرى، وكنت حينذاك أقيم في لندن فشاهدت نتائجه البشعة كما نقلت صورها وكالات الأنباء العالمية على شاشات التلفاز، ورأيت أخبار الحادث المروّع على الصفحات الأولى لجميع الصحف البريطانية. ولكن في يوم ٧ فبراير ١٩٩٤م (بعد الحادث بيومين) انفردت صحيفة الجارديان بتحقيق شامل عن الموضوع قام به أربعة من مراسليها النشطين هم "إيان تراينور" في فيينا و "مارتن ووكر" في واشنطن و "جون بالمر" في بروكسل و "دافيد فيرهول" في سراييفو. كان العنوان الذي لفت نظري هو "انقسام الحلفاء فيما ينبغي عمله بعد المذبحة".

أهمية هذا التحقيق الذي جاء في لقطات سريعة ترجع إلى أنه بمثابة سيناريو جمع كل الأطراف المعنية بقضية البوسنة، وقد انخرطت كل شخصية في أداء دورها بينما تتنقل كاميرا المصور من وجه إلى وجه آخر، وتتجلى براعة السيناريو في أن المُشاهد لا يكاد يشعر بأن الشخصيات التي أمامة مبعثرة على مساحة شاسعة من الكرة الأرضية، تمتد من واشنطن في أقصى الغرب إلى فيينا في أقصى الشرق، وإنما هي شخصيات حاضرة أمامه على خشبة المسرح. وإذا شئنا وصف المسرحية فهي مسرحية عبثية تنتهي دائماً إلى "لا شيء"، أو كما آثرنا وصفها هي "ملهاة مأساوية":

- بطرس غالي سكرتير عام الأمم المتحدة يضغط على الدول الأوروبية للتدخل عسكرياً بعد المذبحة التي راح ضحيتها ٨٦ من السكان الآمنين في سراييفو خلال عطلة

الأسبوع (٥ فبراير). كما أرسل خطاباً إلى سكرتير عام حلف الأطلسي "منفريد ورنر" يطلب منه اتخاذ الإجراء اللازم للحصول على تفويض من مجلس الحلف لتوجيه ضربة جوية على مواقع المدافع الصربية حول سراييفو.

- يجتمع اليوم وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي في بروكسل، وقد يلي هذا اجتماع طارئ غداً لمسئولي حلف الأطلسي لاتخاذ إجراء تأديبي ضد القوات الصربية التي ظلت تحاصر سراييفو لمدة عامين تقريبا.
- طالبت واشنطن وباريس ولندن أمس بعقد مؤتمر طارئ للحلف حيث اتفق الجميع على ضرورة رفع الحصار الصربي عن المدينة بالقوة (إذا لزم الأمر!).
- هنا يتمطى "دوجلاس هيرد" فيضرب قدمه في الأرض ويقول: "إن الغرب لن ينحاز أبداً إلى صف حكومة البوسنة فهذا أمر لن يحدث".
- مسئول روسي في الأمم المتحدة يصر على ضرورة عرض أي خطة لضربات جوية على مجلس الأمن لاتخاذ قرار بشأنها (ويضيف المعلق: سوف يعترض المندوب الروسي طبعاً بالفيتو).
- القوات الصربية تقول: إن الحكومة البوسنوية هي التي فجرت السوق وقتلت أبناء شعبها لتثير المجتمع الدولي ضد الصرب.
- الجنرال البريطاني "روز" قائد القوات الدولية في البوسنة يقول: قد يكون من المستحيل التأكد من هويّة الجانب الذي أطلق قذيفتي الهاون ولكني لا أملك أي دليل يشير إلى أن قوة ما تطلق النار على شعبها لكي تستجلب ضربات مضادة من الآخرين ضد عدوها.
- لورد أوين الوسيط الأوروبي في أزمة البوسنة سوف يلخص اليوم في اجتماع الاتحاد الأوروبي في بروكسل نتائج محادثاته التي أجراها أمس مع القادة الصرب في بلجراد.
- وجه الرئيس الصربي "سلوبودان ميلوسفيتش" اللوم في حادثة السوق إلى من وصفهم بمجرمي الحرب (يقول المعلق: المثير هو أنه لم يردد المزاعم الصربية في أن المسلمين هم الذين قتلوا شعبهم).
- حكومة الولايات المتحدة وحلف الأطلسي يبدو أنهما منقسمان حول استخدام الضربات الجوية ضد مواقع الدبابات والمدافع الصربية حول سراييفو أو أي عمل عسكري آخر. ولكن إدارة كلينتون تضغط من جديد على حلفائها الغربيين لرفع حظر التسلح عن البوسنة.. وأوروبا تعارض بشدّة.

- مستر كلينتون (بعد اجتماعه أمس مع مستشاريه للأمن القومي يقول:) إنه لم يستبعد الضربات الجوية ولكنه يريد أولاً الضغط بقوة في اتجاه تسوية سلمية في المنطقة.
- علّق المسئولون في الإدارة الأمريكية بأن الولايات المتحدة لا تريد أن تتخذ إجراء عسكريا بدون موافقة حلفائها الغربيين.
- "مالكوم ريفكند" وزير الدفاع البريطاني- وهو في طريقه إلى سراييفو يصرّح: إنني مع الاقتراح الروسي بضرورة الحصول على موافقة مجلس الأمن على أي ضربات جوية ضد الصرب.
- بطرس غالي يرد: إن القرارات الدولية الخاصة بالبوسنة تشتمل على تفويض باستخدام الضربات الجوية في حالة الهجوم الصربى على الملاذات الآمنة وسراييفو ضمن خمسة مواقع أخرى للمسلمين حددها مجلس الأمن باعتبارها ملاذا آمنـاً، ومعنى ذلك أنه لا داعي للحصول على موافقات جديدة من مجلس الأمن بهذا الصدد.
- المسئولون في وزارة الخارجية الأمريكية يرون أنه لابد من عمل شيء.
- ولكن المسئولون في البنتاجون الأمريكي يبدون تخوّفهم، حيث يقول "وليم بيري" وزير الدفاع الأمريكي معترضاً ومتهكما في نفس الوقت: إذا كان المشهد الأول في "الميلودراما" الجديدة هو ضربات جوية، فما هو المشهد الثاني؟ وما هو المشهد الثالث؟
- "لورد أوين" يحذر بشدة من اللجوء إلى الضربات الجوية ضد الصرب ملتزما بموقفه الذي تبناه طوال العام الماضي، بحجة أن هذا سيكون سبباً في احتدام القتال وسيعوق فرص أي تسوية سلمية. ويعلق الصحفي قائلا: كان "لورد أوين" أمس في بلجراد يحاول إقناع الصرب- في غياب أي تسوية شاملة- أن يوافقوا على نزع سلاح مدينة سراييفو ووضعها تحت إدارة الأمم المتحدة...

وينسدل الستار: لا تصفيق ولا جمهور ولا معنى.. لا شيء!

يقول "بيتر ماس" في كتابه "حِبّ جارك: قصة حرب":

"بينما كنت في جنيف أتابع "لورد أوين" حدثت مهزلة في سراييفو فقد كانت العاصمة البوسنوية على وشك الانهيار حيث كانت المدفعية الصربية تدكها دكّا عنيفا وتمطرها بوابل من القصف المتواصل، وبينما كان الرئيس كلينتون على وشك القبول مضطراً بتسديد ضربات جوية إلى القوات الصربية لإجبارها على رفع الحصار عن المدينة، خرج المتحدث الرسمي للأمم المتحدة في البوسنة المدعو "باري فريور" ليثير دهشة الجميع بتصريح له أعلن فيه:

أن البوسنة لم تعد تحت الحصار   ونقل عنه زميلي "جون بومفريت" في صحيفة واشنطن بوست: أن القوات الصربية تحيط بالمدينة مستخدمة ١٤٠٠ مدفع ثقيل وهي في مركز متميز تكتيكيا ولكنني لا أسمي هذا حصارا. (بدأ الجنرال يتفلسف على طريقة السوفسطائيين). وفي خلال ساعات قليلة أعلنت حكومة البوسنة أن فريور هذا شخص لا يوثق به وغير مرغوب في بقائه". ويمضي "بيتر ماس" ليفسر لنا موقف الرجل قائلاً: "السبب غير المعلن لتصريحات فريور وأمثاله سبب بسيط، وهو أن قادة الأمم المتحدة يريدون أن يتجنبوا أي هجوم تقوم به الولايات المتحدة لأن مثل هذا الهجوم قد يغضب الصرب ويقوّي مركز البوسنويين، وهذا عكس ما تفعله الأمم المتحدة، وهذا بالضبط ما كتبه بومفرت بعد ذلك بيومين: "إن قادة الأمم المتحدة بدلا من أن يعلنوا أنهم لا يرغبون في رفع الحصار الصربي عن سراييفو قرروا أن ينكروا وجود هذا الحصار.. لقد أصبحوا مصدر سخرية الصحفيين الذين وصفوهم لا بالمخادعين فقط بل بأنهم أغبياء.[١٢٠]

جوراشده :

في مايو ١٩٩٣ تبنى مجلس الأمن قراراً بإنشاء ستة ملاذات آمنة لتضم ما تبقى من فلول المسلمين بعد أن تمكّن الصرب من اقتلاع مليونين ونصف مليون بسنوي من أرضهم وإلقائهم في العراء.

هذه الملاذات التي سميت (آمنة) تجاوزا هي أشبه ما تكون بمعسكرات اللاجئين في قطاع غزة، يحظر فيها حمل السلاح ويشرف عليها بوليس دولي فقط. بعد صدور قرار مجلس الأمن ثار الخلاف والجدل حول من يقوم بتمويل هذه العملية وكم تحتاج من قوات لحمايتها أو "السيطرة عليها" بحسب التعبير السائد عند ذاك، ولعلها من فلتات اللسان التي تعبر عن مكنون القادة السياسيين في الغرب، فلم تكن الحماية أبدا هي المقصودة ولكن مجرد السيطرة على الملاذات نفسها، ولأن دول الغرب تريد الاقتصاد في النفقات فقد اتفقت على أن توفر لهذه الملاذات أعدادا رمزية من القوات الدولية على أن تقوم قوات طيران حلف الأطلسي بدعم هذه القوات الرمزية. السيناريو النهائي لوضع هذه الملاذات يتلخص في وجود تجمعات بشرية ضخمة في حالة تسوّل دائم وعيش مهين، في جيوب منزوعة السلاح معزولة بعضها عن بعض، تسيطر عليها قوات دولية صغيرة، لا تستطيع هذه القوات حماية نفسها، لذلك تعتمد هي أيضا على طيران حلف الأطلسي، لنجدتها إذا

---

[١٢٠] أنظر بيتر ماس، المصدر السابق، ص ٢٦٢-٢٦٥.

تعرضت لهجوم صربي، وقد أثبتت أحداث البوسنة أن حلف الأطلسي هذا كان مثل العنقـاء في الليلة الظلماء حالكة السواد!

هذا الوضع العبثي للملاذات لا يمكن أن يأتي بالصدفة وإنما هو أمر مدروس ومخطط له، فالدول الغربية ليست بهذه السذاجة ولا العالم بهذا الغباء ليصدق أن هذا أفضل ما يسـتطيع الغرب عمله لهذه الملاذات، وعلى فرض أن الغرب يفتقر إلى المال وإلى الجنـود فـإن بـلاد المسلمين مستعدة لتوفير كليهما بسخاء، كما فعلت ولا تزال تفعل مقهورة في حرب الخليـج الثانية ومعقّباتها.

فما هي إذن حقيقة الأمور؟ من السهل استنتاج الإجابة على هـذا التسـاؤل مـن الشـواهد والمؤشرات الدالة ومن مجرى الأحداث التي ترتبت على هذا الوضع فيما بعـد. إنـها مجـرد مرحلة تمهيدية لتيسير الاجتياح الصربي لهذه الملاذات والقضاء على دولـة البوسـنة قضـاء نهائياً وأبديـا، عندهـا تتدخـل الـدول الغربيـة لتنقـذ الأشـلاء الباقيـة مـن مسـلمي البوسـنة فتجمعهم في معسكرات أو محميات عرقية ترعاها هيئة الإغاثة الدولية التابعة للأمم المتحدة لتبقى مصدر عمالة رخيصة تحت رحمة دولتي صربيا وكرواتيا.

أي نسخة طبق الأصل مـن معسـكرات اللاجئيـن فـي فلسـطين- قبـل "أسـلو" وبعدهـا- يعيشون تحت رحمة القوات الإسرائيلية في خدمة الاقتصاد الإسرائيلي.

لتحقيق هذا المشروع كان "لورد أوين" يسعى جاهداً لتقسيم البوسنة أو بالأحرى تمزيقها مزقاً، كما كان حريصاً، ربما أكثر مـن الصـرب أنفسـهم علـى إلغـاء حكومـة البوسـنة أولا، ووضع مدينة سراييفو (منزوعة السلاح- تحت إدارة الأمم المتحدة، وكان هذا بمثابـة إطـلاق رصاصة على رأس الذبيحة حتى تسقط على الأرض وتكفّ عن المقاومة عندئـذ يسـهل علـى الجزار سلخا وتقطيعها، وهي خبرة بدائية لعل دافيد أويـن شـاهدها وهـو طفـل فـي مزرعـة أبيه.

مضت فترة قصيرة من الهدوء النسبي بعد حادثة سوق سراييفو وتجميـد أوضـاع المدافـع حول المدينة. خلال هذه الفترة كان الصرب يستعدون لجولـة جديـدة فـي جيـب جوراشـده وهي من الملاذات التي يحتشد فيها ٦٦ ألف مسلم وتقع جوراشده في منطقـة قريبـة شـمال شرق سراييفو ولا تبعد كثيراً عن الحدود الغربية لصربيا.

كان رجال الأمم المتحدة يتوقعون هجوماً صربيا وشيكا على جورشده، فقد كانت حشـود القوات الصربية تتوجه إلى المنطقة وتتخذ لنفسها مواقـع مرتفعـة محيطـة بالمدينـة والقـرى التابعة لها حيث بلغ عدد القوات الصربية ١٥ ألف مقاتل تعززها الدبابات ومدافـع الـهاون ومدافع سريعة الطلقات، وقد رأى رجال الأمم المتحدة مجموعة مـن الدبابـات تتحـرك عـبر

المنطقة المحظورة حول سراييفو متجهة نحو جورشده، وعلمنا موقف "ياسوشي أكاشي" فيما سلف عن هذه الواقعة وتبريره الهزيل لهذا الانتهاك الصربي، المهم أن القوات الدولية- وهي ترى أحد الملاذات الآمنة يتعرض لخطر وشيك- لم تحذّر الصرب من مغبة عدوانهم ولم تتخذ أي إجراء تأهباً للدفاع عن المدينة المنزوعة السلاح.

شعرت قوات المقاومة البسنوية بالخطر القادم وتوقعت تآمراً صامتاً من جانب القوات الدولية فحركت قوة مكونة من أربعة آلاف مقاتل يحملون ألف بندقية "كلاشنكوف" رصاصها مصنوع محليا وكان بعضهم يحمل قنابل صنعوها بأيديهم من الزجاجات الفارغة وكان هذا التسليح البدائي هو أقصى ما يمكن أن يوفره الجيش الوليد في وسط البوسنة. فما الذي كانت تستطيعه قوة صغيرة كهذه يشترك كل أربعة من جنودها في مدفع واحد يتناوبون عليه أمام قوات جيش نظامي مدجج بالسلاح وبقوة نيران رهيبة وذخيرة لا ينفذ مددها؟!

الهجوم على جوراشده كان نقطة عودة إلى العنف الصربي الذي لارادع له، فقد استطاعت قوة المقاومة البوسنوية على ضآلتها أن تصمد للحصار والقصف عشرين يوماً وكان في إمكان الأمم المتحدة وطائرات حلف الأطلسي أن تتدخل لضرب الصرب وحماية "الملاذ الآمن" من التدمير كما وعدوا من قبل ولكنهم لم يفعلوا، بحجة إعطاء فرصة لوقف القتال عن طريق المفاوضات كما زعم "ياسوشي أكاشي" الصديق الحميم لكراجيتش.

ظهرت صحف أوروبا كلها تعبر عن السخط العارم والسخرية بالأمم المتحدة وبحلف الأطلسي وبقادة الغرب، ونُشرت ملخصات ومقتبسات من مقالات هذه الصحف في صحيفة الجارديان البريطانية بعددها الصادر في ١٩ إبريل ١٩٩٤م.

انهارت المقاومة البسنوية في النهاية بعد نفاذ الذخيرة وقتل عدد كبير من أفرادها وإصابة آخرين بجروح خطيرة، فلما اطمأن الصرب إلى انتهاء المقاومة بدأت قواتهم تزحف نحو المدينة لتحتل القرى والمزارع وتشعل النيران في المنازل، واستولى الصرب في زحفهم على جميع الأراضي شرق نهر درينا، وسقطت المناطق الشمالية ثم الجنوبية حيث توجد قرية "فيتكوفيتش" التي استهدفها الصرب لوجود مصنع للكيماويات بها كان يستخدمه المسلمون في صناعة المفرقعات، وبذلك تقلصت مساحة جيب "جوراشده من ثلاثين كيلو مترا مربعا إلى ثلاثة كيلو مترات مربعة فقط تضم قلب مدينة جوراشده المزدحم بالسكان واللاجئين.

واصل الصرب قصفهم للمدينة مستهدفين السكان والمرافق الحيوية من ماء وكهرباء وغاز ومستشفيات في محاولة لإخلاء المدينة من سكانها والاستيلاء عليها.

تكاثر عدد القتلى والجرحى من السكان المدنيين وتصاعدت استغاثات الأهالي بالعالم الخارجي بواسطة أجهزة الراديو والتليفون، وتحت ضغوط الرأي العام الهائج في البلاد الغربية، عندئذ فقط بدأت الأمم المتحدة تتحرك، حيث ذهب "ياسوشي أكاشي" والجنرال "مايكل روز" يستجديان الصرب أن يوقفوا القصف والسماح لرجالهم بدخول المدينة لإخراج الجرحى منها.

ومرة أخرى يتكشف المجتمع الدولي عن تناقضاته وتخاذله، فيدعو "ألان جوبيه" وزير الخارجية الفرنسي مجلس الأمن لاتخاذ قرار بوقف القتال وانسحاب الصرب!، فأين ذهبت قرارات مجلس الأمن السابقة بخصوص الملاذات الآمنة وحمايتها من العدوان؟- ذابت وذابت معها قوة الحماية الدولية المخصصة لحراسة جوراشده، ولم تتحرك القوات الجوية لحلف الأطلسي لقصف القوات المعتدية على الملاذ الآمن كما كان مقررا من قبل. فهل يريد "ألان جوبيه" أن يستغفل العالم كله بدعوة فارغة إلى العودة إلى مجلس الأمن من جديد كأن شيئاً لم يحدث فيه قبل ذلك، وكأنها قضية جديدة تحتاج إلى قرار جديد من مجلس الأمن!

عندما بدأت الأمم المتحدة تدخل الحلبة بالمفاوضات كان في حسابها أن الصرب قد حققوا في هذه الجولة من المكاسب أكثر ما تسمح به الظروف المحيطة، فقد استولى الصرب على مساحة واسعة من الأرض تضم قرى ومزارع كانت مصدرا هاما لبعض الطعام والإمدادات التي تفتقر إليها جوراشده ويذهب قليل منها أيضا إلى جيبي "سربرنيتشا" و "جيبا" القريبين. أما الآن وقد حرمت هذه الملاذات الثلاثة من الطعام اليسير الذي كانت تحصل عليه من أرضها، وتحولت "جوراشده" إلى ضرائب محاصرة يستحيل استمرار الحياة فيها أصبح التحكم فيها والسيطرة على مصيرها في متناول اليد.

لكن الصرب كانوا يريدون إنهاء أمر هذه المدينة في هذه الجولة فيطهروها من السكان ويستولوا عليها، أما رجال الأمم المتحدة فكانوا يرون أنه لا داعي للعجلة الآن لأن العالم هائج عليهم، وأن الثمرة سيكون قطفها أيسر منا لا بعد حين.

كان الهجوم على "جوراشده" قد بدأ في يوم ١٩ مارس ١٩٩٤م وفي يوم ٢٣ إبريل خرج "مايكل روز" قائد القوات الدولية في مقابلة مع "تيم بوتشر" مراسل صحيفة "صنداي تليجراف" الذي سأله: لماذا لم تتدخل القوات الدولية لوقف الهجوم الصربي؟ فرد "مايكل روز" قائلا ببساطة: "إن تقدم الصرب داخل جيب جوراشده جعل من المستحيل الآن على الأمم المتحدة أن تتدخل عسكريا"، وفي تصريح أخرى لمراسل صحيفة الجارديان في ٢٩ إبريل أي بعد مرور ٢٠ يوما على بداية الهجوم قال "مايكل روز": "لا نستطيع ضرب

الصرب الآن لأنهم داخل المدينة". قبل ذلك سأله "تيم بوتشر": وماذا ستفعل الأمم المتحدة إذن ولماذا لا تضرب أسلحة الصرب الثقيلة وهي لا تـزال حتـى الآن خـارج المدينـة؟" فـرد "مايكل روز" قائلا: "إنه لا يتصور إمكانية استخدام القوات الجوية مـرة أخـرى لأن اهتمـام الأمم المتحدة قد تحول إلى سياسة الحد من الأضرار اللاحقة بجوراشـده مـن جـراء القصـف الصربي".[١٢١]

أثناء المفاوضات الممطوطة بين رجال الأمم المتحدة والصرب وعد الصـرب ثـلاث مـرات بوقف القصف ولكنهم لم يوفوا بوعدهم فـي كـل مـرة، بينمـا يتمركـز جنودهـم علـى التـلال المحيطة بالمدينة يشبعونها قصفا بنيرانهم صباح مساء، وتتحمل الأمم المتحـدة الـهوان فـي مفاوضاتها مع الصرب محاولة إدخال قواتها إلى المدينة للإسـعاف، وأخـيرا سـمح الصـرب بعدد محدود لا يزيد عن ١٤١ شخصا فقط.

وعبر عن هذا الموقف الذليل "إيفو دوناي" بمقال موجع فـي صحيفـة صنـداي تلجـراف السالف ذكرها تحت عنوان "البلقان مقبرة الشرف الغربي" ولا يحتاج عنـوان بـهذا الوضـوح أي نوع من الشرح أو التفصيل.

قبل أن نترك "جوراشده" المنكوبة لابد أن نسجل واقعة لها دلالتها على أخلاق الرجـال الذين وضع على عاتقهم قيادة عمليات الأمم المتحدة فـي البوسـنة. فمـايكل روز هـذا اسـمه مسبوق بلقب عظيم حصل عليه من جلالة الملكة على خدماته الجليلـة للجيـش البريطـاني، ولكن "الجنرال السير مايكل روز" يفقد كل شرفه العسكري ويتوارى ضميره الإنسـاني عندمـا يدخل "جوراشده" بعد انكسارها ويشاهدها محطمة بائسة لا ينسى أن يتشفى فـي المقـاتلين الذين حاولوا صد العـدوان عنـها فيذهـب إلـى جرحـاهم بالمستشـفى المدمّـرة وبـدلاً مـن أن يشكرهم لأنهم ضحوا بأنفسهم في سبيل الدفاع عن الملاذ الآمن الذي تخلّى هـو عـن واجبـه في حمياته، يقول لهم: "لقد كنتـم جبنـاء فلـم تسـتطيعوا رد العـدوان عـن مدينتكـم"، فقـد الرجل ذاكرته فيما يبدو لأن هذا الملاذ الأمن كان من المفروض أن يخلو تماما من الأسلحة، وأن حمايته واجبه على الأمم المتحدة والقـوات الجويـة لحلـف الأطلسـي بمقتضـى قـرارات مجلس الأمن ولكنه قصّر في واجبه وحاول هؤلاء الشبان أن يقوموا به نيابة عنه، وتناسى أن حلف الأطلسي طلب السماح له بتوجيه ضربات جوية إلى القوات الصربية- صادقا في ذلـك أو كاذبا- ولكن روز وصاحبه أكاشي رفضا بإصرار بحجة استمرار المفاوضـات، فقـد الرجـل ذاكرته وتناسى كل الحقائق ثم ذهب يلقي اللوم على الضحايا من شباب المقاومة البسنوية.

---

[١٢١] أنظر صحيفة "صنداي تلجراف" البريطانية في عددها الصادر يوم ٢٤ إبريل ١٩٩٤م.

وفي هذا تتصدى له الكاتبة الصحفية الجريئة "ماجي أوكين"[١٢٢] التي أجرت تحقيقا واسعاً في هذا الموضوع، التقت فيه مع الجرحى الذين أخرجوا من جوراشده للعلاج وتأكدت من رواياتهم المفصلة التي تتحدى إتهامات الجنرال روز لأن المقاتلين البسنويين الذين دافعوا عن المدينة أظهروا بطولات نادرة وقاموا بتضحيات كبيرة واستخدموا كل ما في أيديهم من سلاح وذخيرة عشرين يوماً كاملة حتى نفذت الذخيرة وتحطم السلاح وسقطوا بين قتيل وجريح. تقول "ماجي أوكين"ماذا يفعل مقاتلون بما لديهم من أسلحة بدائية وقليلة بلغ عددهم أربعة آلاف أمام جيش قوامه خمسة عشر ألف جندي مسلحين بالدبابات والمدرعات والمدافع سريعة الطلقات.[١٢٣]

ملاذات بلا أمان :

المتتبع لسير الأحداث في حرب البوسنة لابد أن يلاحظ أن الهجمات الصربية على السكان المدنيين في "الملاذات الآمنة" علاوة على الهدف التكتيكي لها وأعني به الضغط على الحكومة البسنوية للخضوع لما يُفرض عليها من حلول فإن توقيت هذه الهجمات مرتبط بالخسائر والهزائم الصربية في جبهات قتال أخرى مع المسلمين والضغط عليهم للقبول بالهدنة وتجميد الأوضاع على ما كانت عليه حيث كان الصرب يسيطرون على ٧٠٪ من أراضي البوسنة كسبها لهم الجيش الفدرالي ليوغسلافيا (السابقة) في بداية الحرب، ثم قام الصرب بعد ذلك بتطهيرها عرقيا من المسلمين والكروات.

وللصرب في هجماتهم على الملاذات تكتيك لم يتغير: فهم يزحفون على هذه الجيوب ناشرين الرعب والتهديد حيث يدمّرون المرافق الحيوية ويقتلون بالقصف العشوائي من يقتلون ويحتلون جميع الأراضي المحيطة فلا يتركون للمسلمين المحاصرين سوى رقعة مزدحمة في وسط مدينة مخربة بدون عمق من الأراضي حولها، ثم يتركون باقي المهمة للقوات الدولية التي تسعى بدورها لدى المسلمين للوصول إلى قرار بوقف إطلاق النار وإيقاف القتال في الجبهات التي حقق فيها جيش البوسنة انتصارات على القوات الصربية، وبذلك يتمتع الصرب بهدنة ويجبرون قوات المسلمين على وقف محاولاتهم لتحرير الأرض، وبدلا من احتلال الجيب المسلم يجعلوه تحت سيطرتهم في وضع أكثر أمانا بعد أن تكون القوات الدولية قد نفذت شروطهم بتجريد السكان من كل سلاح.

---

[١٢٢] من ألمع الصحفيات في الجارديان حصلت على جائزة الصحفيّ الأول سنة ١٩٩٣م، وأعتبرت مع "إد فوليامي" أفضل مراسلين صحفيين لنفس العام.

[١٢٣] أنظر صحيفة الجارديان الصادرة في ٢٩ إبريل ١٩٩٤م.

والتنسيق في هذه العمليات يكاد يكون كاملا بين المخططات الصربية وبين السياسة التي التزمت بها الأمم المتحدة والدول التي تشترك بجنودها في قوات الأمم المتحدة بالبوسنة فالجميع متفقون على تصعيد تهديداتهم للمسلمين بإيقاف المساعدات الإنسانية والانسحاب من البوسنة كلما أبدت الحكومة البوسنوية مقاومة للحلول السياسية التي يحاولون فرضها بشأن تقسيم البوسنة، أو لمسوا تهديدا عسكريا من المسلمين للصرب أو حتى محاولة كسر أطواق الحصار المضروب عليهم في سراييفو.

أنظر إلى جميع التواريخ التي تفجرت فيها عمليات الصرب البربرية ضد الملاذات وسكانها المدنيين: في ٢٢ يوليه ١٩٩٣م عندما أمطر الصرب مدينة سراييفو بقذائف بلغت ٣٧٧٧ قذيفة في يوم واحد، وفي حادثة السوق يوم ٥ فبراير ١٩٩٤م، وفي الهجوم الأول على "سربرنيتشا" في إبريل ١٩٩٣، وفي الهجوم الثاني في يوليه ١٩٩٥، وفي جوراشده إبريل ١٩٩٣، وفي خريف ١٩٩٤م في الهجوم على "بيهاتش". كل هذه التواريخ كانت مسبوقة بمواقف صلبة لحكومة البوسنة يُراد كسرها، أو تطورات لصالح المسلمين في أرض المعركة يراد وقفها أو إجهاضها.

ولا يمنع هذا أن كل شيء يجري في إطار خطط واستراتيجيات محسوبة من جانب صربيا وحلفائها، ولكن اختيار الضربة من حيث المكان والزمان والشدة والمدى: فهذا يخضع لظروف وعوامل أخرى لا سلطان للصرب ولا للحكومات التي تساندها على التحكم فيها، مثلا: انفجارات الرأي العام الغربي والعالمي ضد العمليات الوحشية للصرب، أو ضد سياسات ومواقف الدول الغربية والأمم المتحدة، وكذلك المقاومة الصلبة للمسلمين، والانطلاق المفاجئ لقوتهم العسكرية المؤثرة، وكأنه انبعاث من القبور في وسط شعب محكوم عليه بالموت.

وسوف نعرض فيما يلي لنموذجين يتمثل فيهما هذا السيناريو بكامل تفاصيله: نموذج "بيهاتش" ونموذج "سربرنيتشا".

بيهاتش :

في يونيه ١٩٩٤م بدأ النشاط العسكري للمسلمين يشتد وتتوالى العمليات الناجحة التي يقوم بها جيش البوسنة، وفي سبتمبر من نفس العام نشرت مجلة Impact International تقريرا للجنرال "راسم ديلتش" رئيس أركان القوات المسلحة البوسنوية كان قد رفعه سابقا إلى الرئيس "عزت بيجوفيتش" يشرح فيه أوضاع الجيش واحتياجاته المطلوبة لتحرير البلاد، نتبين من هذا التقرير أن عملية بناء الجيش كانت عملية طويلة وشاقة، وأن الحاجة

لا تزال ماسة إلى الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدافع، ولكنه أشاد بقوة الروح المعنوية للجنود والضباط وبتطورهم السريع في برامج التدريب واستيعاب الأسلحة وتحسين الأداء، مما جعلهم ينتصرون في جميع المعارك التي خاضوها ضد القوات الصربية.

وفي شهر نوفمبر بدأت عناوين الصحف العالمية تردد صدى انتصارات المسلمين على الصرب في صفحاتها الأولى: "الإندبندنت" البريطانية (في ١١ نوفمبر ١٩٩٤) نشرت أخبار هذه التطورات الجديدة تحت عناوين كبيرة: انتصارات المسلمين.. انهيار الروح المعنوية للصرب.. انقسام قادة صرب البوسنة على أنفسهم. تقول "الإندبندنت" إن المسلمين قد حققوا انتصارات على الصرب حول "كوبريس" واستولوا عليها، وقبل ذلك في بيهاتش، وتعترف الصحيفة أن هذه نقطة تحوّل في تاريخ الصراع الذي مضى عليه ٣١ شهراً، وأن القوات البوسنوية تتجه الآن إلى "بوسانسكا كروبا"، كما تؤكد أن المقاتلين في الجيش يتزايد عددهم يوماً بعد يوم، وأن هناك تحسّنا ملحوظاً في الأداء، والروح المعنوية عالية، وأن المسلمين تمكنوا من هزيمة الصرب رغم تفوقهم على المسلمين في العدد وقوة التسليح، وتكشف الصحيفة عن الارتباك الذي أصاب القيادات الصربية والذعر الذي أصاب الجنود فأصبحوا خائفين غير واثقين من أنفسهم وأن "كراجيتش" قد قبض على ضباط مخابراته وأقام محكمة عسكرية لمحاكمة الضباط الذين تسببوا في الهزائم وفشلوا في الدفاع عن الخطوط الصربية.

كانت صحيفة الجارديان هي أسبق الصحف البريطانية لنشر أخبار انتصارات المسلمين حيث نشرت في أول نوفمبر ١٩٩٤ تحت عنوان: ثلاثة أسابيع من الزحف في شمال غرب البوسنة، أخبار استيلاء المسلمين على مائة ميل مربع من الأراضي في شمال الغرب حول بيهاتش خلال الأسبوع الماضي ويتجهون إلى "ترنوفو"، وكيف سيطر المسلمون على جبل "إيجمان" قبل ذلك بيومين حيث اعترضت القوات الفرنسية على وجودهم هناك، وكيف هاجموا بعض الصرب المحاصرين لمدينة سراييفو وقتلوا منهم عدداً من الأفراد، وطلب الفرنسيون من الحكومة البوسنوية أن تعتذر عن الحادث، وحذروا أن هذا الحادث قد يفجر الحرب حول المدينة. واجتمع الجنرال روز مع قائد القوات الصربية "راتكو ملاديتش" الذي شرح للجنرال روز تصميم الصرب على أن تكون لهم اليد العليا حول سراييفو.

وفي ١٣ نوفمبر نشرت "صنداي تيمز" خبر اجتماع طارئ لمجلس الأمن لمناقشة احتمال تدخل كرواتيا لمساعدة المسلمين في بيهاتش، فقد بدأ الإنجليز والفرنسيون يتململون من التدخل المتزايد للأمريكيين في المشكلة بسعيها لإيجاد تحالف بين الكروات والمسلمين مما سيقوّي جبهة المسلمين ويوسّع نطاق الحرب. وذكرت الصحيفة أن شحنة وزنها ألف

وخمسمائة طن أسلحة وذخيرة يُقدر ثمنها بنصف مليار دولار أمريكي من إيران، ساهمت في نقلها ماليزيا وتركيا عبر كرواتيا إلى البوسنة، تقول الصحيفة: "هذه الشحنة تكفي لشن حرب عصابات ناجحة ضد الدبابات والمدافع الصربية" وترى أن هذا النوع من الحرب هو الذي يفضله المسلمون في الوقت الراهن.

وتعلق "ماجي أوكين" في صحيفة الجارديان (٢٤ نوفمبر ١٩٩٤)، تحت عنوان "المسيرة الطويلة" تقول: "جيش المستضعفين الذي يتألف من البسنويين المطرودين من ديارهم قد هبّ الآن يقاتل ويهاجم ويكسب... إنهم يستفيدون من كل إنسان فيه قدرة ومن كل شيء يجدونه في متناول أيديهم.. مساعدات من بلاد المسلمين وأسلحة من السوق السوداء لمواصلة حرب التحرير واستعادة بلادهم المغصوبة".

وكتب كل من "ألكسندرا ستيجلماير" و "دوجلاس وُلر" في مجلة "تيم" الأمريكية (عدد ١٤ نوفمبر ١٩٩٤) تحت عنوان "انقلاب مصائر" مقالا يشرحان فيه الموقف العسكري في البوسنة وكيف يتحول سريعاً لصالح المسلمين. يكشف المقال عن تفاصيل هامة في هذا التطور الجديد، نعرف منها أن المسلمين قد أعادوا الحياة إلى مصانع الذخيرة التي لا تزال في حوزتهم وأصبحوا ينتجون الرصاص والقنابل اليدوية الأوتامتيكية، وأنهم يتبعون في حربهم تكتيك الكوماندوز حيث تتألف كل وحدة من مائة مقاتل يقتحمون مواقع القوات الصربية بحيث يتجنبون التعرض لقوة النيران التي يتفوق بها الصرب عليهم، وقد استطاعوا أن يوقعوا بالقوات الصربية هزائم فادحة في ستة عشر موقع خلال الأسبوعين الماضيين. ولهول المفاجأة عمد الصرب إلى الفرار تاركين وراءهم أسلحتهم وذخائرهم للمسلمين" وتكشف المجلة عن انزعاج "البنتاجون" من هذه الانتصارات بدعوى أنها يمكن أن تكون دافعاً للمسلمين للانتقام من الصرب وارتكاب انتهاكات ضد المدنيين الصرب".

هكذا بدأت تداعيات التطورات الجديدة على مسرح الأحداث في البوسنة تتفاعل على المستوى الدولي، فنرى "ألان جوبية" يعبر عن انزعاجه قائلا: "إنه إذا تراخي حظر الأسلحة على المسلمين فإن المخاطرة بحياة جنودنا في البوسنة لن يكون أمرا معقولا"، واجتمعت اللجنة العسكرية المسماة "أدررياتك" والمكوّنة من إحدى عشرة دولة أوروبية لمراقبة فرض الحظر على البوسنة، بحجة مناقشة ما يمكن أن يترتب على تهديد الولايات المتحدة برفع حظر التسلح عن المسلمين.[١٢٤]

---

[١٢٤] أنظر صحيفة الجارديان، الصادرة في أول نوفمبر ١٩٩٤م.

وتتوالى انتصارات جيش البوسنة، ويتعزز موقفه أكثر بتحالفه مع القوات الكرواتيــة فـي البوسنة، وكانت كرواتيا بدورها في حاجة إلى مساندة المسلمين في حربــها لتحريـر منطقـة "كرايينا" الكرواتية التي احتلها الصرب وأعلنوها جمهورية مستقلة، ويستمر مسلسل الهزائم الصربية حتى وصلت قوات المسلمين والكروات إلى مشارف مدينــة "بنيالوكـا" أكـبر معـاقل الصرب في البوسنة وعاصمة جمهوريتهم المزعومـة، وسـنرى حينئـذ كيـف أسـرع المجتمـع الدولي بالتدخل لإنهاء الحرب قبل أن يتم الانهيار الكامل للتمرد الصربي في كل البوســنة، مما سنرجع إليه فيما بعد. ولكن يهمنا هنا بصفة خاصة أننا كشفنا عن الأحداث والتطـورات التي أدت إلى الهجوم الصربي على بيهاتش في نوفمبر ١٩٩٤م.

بدأ الصرب أولاً بجيب بيهاتش لاعتقادهم أنه أيسر منالا وسقوطه في يد الصرب سيكون له وقع الصاعقة على المسلمين، وذلـك للاعتبـارات التاليـة: أنـها أبعـد منطقـة مـن منـاطق البوسنة عن العاصمة سراييفو، على الحدود الكرواتيـة ملاصقـة لمنطقـة "كراييـنا" (الجيـب الصرب في كرواتيا) الذي يمتلك ترسانة حربية كبيرة وبـه مطـار عسـكري مـزود بالطـائرات الحربية والصواريخ الروسية، علاوة علـى وجـود قـوات المنشـق المسـلم "فكـرت عبديتـش" المرابطة على حدود بيهاتش وتتألف من أربعة آلاف مقاتل رهن إشارة الصرب، كـانت هـذه كلها عوامل مشجعة للصرب لكي يضربوا ضربة ناجحة ومضمونة النتائج. ولأن بيهاتش يزيد تعداد سكانها عن ١٢٠ ألف من المسلمين (كان ربع مليون عند بداية الحرب) قـدّر الصـرب أن سقوطها في أيديهم سيكون ضربــة قاصمـة لحكومـة البوسـنة وورقـة رابحـة يلعبـون بـها للقضاء على مكاسب الجيش البسنوي ووقف عملياته الحربية.

في عدد "الأهرام" الصادر يوم الثلاثاء ١٣ ديسمبر ١٩٩٤م كتب فهمي هويدي مقالا بليغا في إيجازه معبراً أصدق تعبير عن السيناريو الذي أُحكمت تفاصيلــه بيـن الأطـراف للإجـهاز على المسلمين في بيهاتش، نستخلص منه النقاط التالية:

- على مدي ستة أشهر سبقت الهجوم على بيهاتش مُنعت قوافـل الإغاثـة عنـها فلـم يسمح بالمرور إلا لاثنتي عشر قافلة من مجموع القوافل الذي بلغ ١٤٣ قافلة.
- بعد التجويع المتعمد بدأت الطائرات الحربية الصربية مـن مطـار "أوبدينـا" الواقـع في منطقة "كرايينا" الكرواتية بقصف مدينة بيهاتش بقنابل عنقودية و "نابالم" وهي من الأسلحة المحظورة دوليا.. وقد أثبت المراقبون الدوليون ذلك ولكن مصادر الأمم المتحدة أخفت المسألة وتولت التعتيم عليها.
- ردًّا على ذلك القصف قامت ثلاثون طائرة لحلف الأطلسي بغـارات اسـتعراضية فـي طلعات استمرت ٢٤ ساعة وكانت حصيلة هذه الغارات المكثفة إحداث فجوة في مدرج

المطـار تـم إصلاحـها فـور توقـف الغـارات.. تصـدرت أخبـار هـذه الغـارات التلفازيـة الصفحات الأولى للصحف ولكن أحدا حينذاك لم يعرف ماذا فعلت؟!

- عشية الهجوم الصربي انسحبت القوات الفرنسـية مـن المنطقـة واسـتبدلت بقـوات بنغالية خفيفة التسليح، وصدرت التعليمات إلى المراقبين الدوليين بإخفاء هذا التحـرّك وعدم ذكر أي شيء عن الوضع العسكري في المدينة.
- في يوم ١٨ نوفمبر طلب القائد العام للقـوات الدوليـة فـي يوغسـلافيا مـن الضـابط الكندي المسئول عن القوات في بيهاتش أن يقوم بنشر مراقبين عسكريين علـى الحـدود بين البوسنة وكرواتيا لمنع صرب كرايينا من التدخل في الحـرب ولكنـه لـم ينفـذ هـذه التعليمات مما أفسح المجال لمشاركة صرب كرايينا في القتـال بصـورة واسـعة، وحيـن سقط بعضهم قتلى ووقع آخرون في الأسر رفضت القوات الدولية إثبات هويتـهم، وظـل "ياسوشي أكاشي" ينفي نفيا قاطعا اشتراك صرب كرايينا في القتال.

فرضت القوات الدولية تعتيما إعلاميا على كل ما يجري في بيهاتش ومنعـت وجـود أي صحفي أجنبي في المدينة أو قريبا منها، وبينما الهجوم الصربي مستمر والأسلحة المحظورة دولياً تستخدم في القتال فإن القوات الدولية ظلتّ تقلل من حجـم الـهجوم وأهميتـه ويسـتمر مسلسل العبث: لورد أوين يهدد بانسحاب القـوات الدوليـة، ويقـول بطـرس غـالي: "نحـن مستعدون أن نعمل للدفاع عـن بيـهاتش ولكننـا لا نسـتطيع إلا بالتفـاهم مـع قيـادات الأمـم المتحدة في البوسنة احتياطا للمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها جنود القـوات الدوليـة"[١٢٥] فلما أثارت إحدى الصحفيات مشـكلة القـوات البنغاليـة التـي تعـاني مـن الحصـار الصربـي وتساءلت: فلماذا لا تدافعـون عنـهم، رد بطـرس غـالي: "لا نسـتطيع أن نفعـل شـيئاً بغـير موافقة قيادة قوات حفظ السلام فـي البوسـنة. يعنـي الرجـوع إلـى الجـنرال "مـايكل روز" و "ياسوشي أكاشي". فماذا كان موقف الرجلين؟

أثناء تصاعد الأحداث المأساوية في البوسنة حرص الجـنرال "مـايكل روز" علـى الإدلاء بسيل من التصريحات أقل ما توصف به أنها كاذبة ومتناقضة مع الوقـائع الجاريـة، فبينمـا كان مستشفى بيهاتش يمتلئ بألفي جريح لا يجدون الإسعافات الأولية وتجرى لهم العمليات الجراحية بدون مخدر، خرج الجنرال ليؤكد أن المدافع الصربية لا تقصف المنـاطق المدنيـة وأن المواطنين في بيهاتش في أمان ولا داعي للقلق الدولي، ويتجاهل الجـنرال أن بيـهاتش كلها ملاذ آمن في حماية الأمم المتحدة والمفروض أنه ليس بها مواقع عسكرية لضربها، كما

---

[١٢٥] لقاء تلفازي على القناة البريطانية BBC مساء ٢٣ نوفمبر ١٩٩٤م.

أنه كان على علم تام بأن الصرب كانوا يضربون وسط المدينة وقد أصبحوا على بعد ١٥٠٠ متراً فقط منها، وأن صاروخا صربيا واحدا قد هدم أربعين مبنى في المدينة على سكانها.

أما المبعوث الخاص لسكرتير عام الأمم المتحدة في البوسنة "ياسوشي أكاشي" فإنه لم يعلّق على الهجوم الصربي على بيهاتش وكأنه لم يحدث. ولكنه يهدد بأن يأمر "حلف الأطلسي" لضرب حكومة البوسنة التي تحاول الدفاع عن جيب بيهاتش المتآكل.(١٢٦)

بلغ العبث مداه في تناقض التصريحات والبيانات التي تصدر عن المنظمات الدولية التي اتفقت فيما بينها على التعاون في معالجة قضية البوسنة، وفيما بين الجهات المختلفة في منظمة واحدة: فبينما يعلن "ويلي كلايس" سكرتير عام حلف الأطلسي أن الصرب قد استخدموا القنابل العنقودية و "النابالم" في غاراتهم الجوية على بيهاتش.. وقد حان الوقت لاتخاذ إجراء ضد الصرب... وفي حديث له مع محطة CNN قال كلايس: "أعتقد أن اللحظة قد جاءت الآن للعمل على إعطاء الصرب إشارة واضحة أن القتال المتزايد لابد أن يتوقف".

بينما يقول هذا يأتي ناطق باسم الأمم المتحدة يقول: "علينا أن ننتظر لنرى لأنه من العسير اتخاذ إجراء عقابي ضد الصرب فقد وقعت الواقعة وانتهت، ونحن لا نملك صلاحيات إلا في داخل حدود البوسنة، وقد جاءت الطائرات من ناحية كرواتيا".(١٢٧)

تطوّعت بريطانيا فاقترحت على مجلس الأمن أن يمد الصلاحيات الدولية للعمل في أجواء كرواتيا وقد استجاب، ولكن كالعادة تمخض الجبل فولد فأرا كما يقول المثل العربي القديم، وقد علمنا نبأ "الحفرة التاريخية" التي أحدثتها غارات حلف الأطلسي الشهيرة التي رأت الطائرات والصواريخ الصربية رابضة في أرض المطار واضحة كالشمس ولكنها نفذت تعليمات الأمم المتحدة المشددة بعدم التعرض للأسلحة والعتاد الصربي بأي حال، كما قامت الأمم المتحدة لحكمة تراها بإخطار الصرب بموعد الغارات قبل وقوعها احتياطا لوقوع خسائر غير مقصودة. هذه المواقف العبثية شجعت الصرب على مزيد من الاستهتار والعبث حيث أطلقت صاروخاً على قصر رئاسة الجمهورية في سراييفو تلاه صارخ آخر- في أقل من ٢٤ ساعة- على مبنى آخر من مباني حكومة البوسنة. وفي يوم الثلاثاء ٢٢ نوفمبر تعرضت طائرتان بريطانيتان ضمن طائرات حلف الأطلسي لصواريخ صربية، وتأديبا للصرب شنت طائرات حلف الأطلسي في اليوم التالي غارة على مواقع الصواريخ الصربية فأحدثت حفرة

---

(١٢٦) أنظر صحيفة الجارديان بعددها الصادر في ٢٦ نوفمبر ١٩٩٤م.

(١٢٧) أنظر الجارديان، ١٩ نوفمبر ١٩٩٤م.

تاريخية أخرى في أرض المطار. وتجرأ الصرب أكثر وأكثر فهاجموا مواقع الأمم المتحدة حول سراييفو واستعادوا أسلحتهم الثقيلة تمهيداً لجولة جديدة لقصف المدينة. فالعبث يولد عبثا أكبر منه والاستخذاء يستجلب الخزي والمهانة.

وأعلنت مصادر الأمم المتحدة أن الفيلق الخامس للجيش البوسنوي الذي تصدى للدفاع عن بيهاتش قد انسحق ولم يبق منه سوى ٣٠٠ جندي يحاولون الدفاع عن المدينة، ويأتي "وليم بيري" وزير الدفاع الأمريكي ليؤكد الانتصار النهائي للصرب أمام التلفاز الأمريكي فيقول: "إن الصرب قد كسبوا الحرب ولم يعد صدهم ممكنا"، ثم تُظهر الحقائق على أرض الواقع أن الأمور لا تجري على هوى هؤلاء الناس كما حاولوا تصويرها للعالم، وإنما هي محاولات لبث اليأس في نفوس الشعب البوسنوي وحكومته وإشعارهم بأن المقاومة والاستمرار في القتال لن يفيدهم في شيء والأولى لهم أن يستسلموا ويرضخوا لما يُملى عليهم.

وللحديث عن الفيلق الخامس ومسئوليته في الدفاع عن منطقة بيهاتش يجب الإشارة إلى أنه ظل معزولا بصفة كاملة عن قياداته في سراييفو، وأنه لم يتلقّ أي نوع من الإمدادات طيلة اثنتين وثلاثين شهراً من الحرب ومن ثم فإن دوره البطولي في الصمود والمواجهة جاء مثل المعجزة، خصوصاً وأنه كان يواجه ثلاثة قوى مسلحة تسليحاً قوياً تحاصره في بيهاتش من ثلاثة جهات وهي قوات صرب البوسنة وقوات صرب كراييna الكرواتية وميلشيات المنشق فكرت عبديتش.

ومع التطويق المحكم وقوة النيران والقصف المتواصل ومع الدمار الشامل قدّر جنرالات القوات الدولية وهم الخبراء المتمرسون بالحروب- أن الفيلق الخامس قد اندثر تحت الأنقاض، ومن ثم لم يتورعوا عن الإعلان عن ذلك في تصريحاتهم الرسمية.

ولكن بعد مرور شهر واحد على بداية الهجوم الصربي وانحسار التعتيم الإعلامي اكتشف العالم أن الأوضاع العسكرية في بيهاتش لم تكن بهذا السوء الذي صوره الجنرالات الذين قالوا إنه لم يتبق من الفيلق الخامس سوى ثلاثمائة جندي فقط، واكتشف العالم أيضاً أن مدينة بيهاتش بأكملها لا تزال في يد الجيش البوسنوي بل إن مساحات كبيرة من المناطق التي حرروها قبل الهجوم ما زالت تحت سيطرة الفيلق الخامس كما جاء في تصريح الجنرال "يوفان ديفياك" نائب القائد العام للجيش البوسنوي.

هذا الواقع المثير هو الذي دفع الصرب لكي يستمروا في التآمر والهجوم على بيهاتش، ولو أن بيهاتش قد انهارت بالفعل وسقطت في قبضة الصرب لكان لها شأن آخر في ترتيباتهم.

ولكن بعد مرور شهرين على الهجوم الأول كانت المدينة لا تـزال تقاوم بكل قـوة وكـان الفيلق الخامس لا يزال يدافع عن بيهاتش بقوة أشد. ولعل من المهم أن تطّلع على الصورة من داخلها كما عرضها أحد القادة الميدانيين من جيش البوسنة.[١٢٨]

في حشد كبير أقامه حزب الرفاه التركي بمناسبة الهجوم الصربي الذي يتعرض له جيب بيهاتش تحدث القائد البوسنوي فقال: "نجحت قوات الفيلق الخامس في اختراق مواقع المليشيات الصربية واستعادت بسرعة مساحات واسعة من المراكز الاستراتيجية والاستحكامات العسكرية في منطقة بيهاتش شمال غرب البوسنة التي كان الصرب قد احتلوها من قبل، هذه العمليات قلبت معادلة الصراع وأظهرت مدى تفكك الوحدات العسكرية الصربية ومدى هزيمتها أمام الجيش البوسنوي عندما سمحت له الظروف بشيء من التسليح... هذا الانتصار شكّل مفاجأة وكابوسا ليس للصرب فحسب بل وللحكومات الأوروبية التي عملت خلال السنين الثلاث السابقة على تقسيم البوسنة إلى كانتونات متباعدة ليسهل على الصرب ابتلاعها. إزاء هذا النصر تحركت أوروبا على ثلاث محاور:

الأول: طلبت من قوات ميلوسفيتش في بلجراد إرسال قواته وقوات صرب كرايينا على جناح السرعة لاستعادة السيطرة على زمام الموقف المتدهور.

الثاني: إقناع رئيس كرواتيا توجمان بالامتناع عن تقديم أي دعم عسكري للمسلمين وأغروه بحل قضية كرايينا (مع الصرب) سياسياً.

الثالث: إقناع كراجيتش زعيم صرب البوسنة بالموافقة على الخطة الدولية بعد أن يفرض سياسة الأمر الواقع باحتلال بيهاتش وما حولها. هذا من جانب أوروبا. أما من جانب قوات الأمم المتحدة... فقد نسقوا معها الإمدادات العسكرية، وبدأ الآلاف من قوات النمور الخاصة تتدافع من بلجراد وكرايينا ومعها كميات ضخمة من مختلف أنواع الأسلحة والذخيرة والدبابات والطائرات، بل إن القوات الدولية سلمت للصرب بعض أسلحتها الثقيلة، بالإضافة إلى البترول اللازم لحركة دباباتها". يقول القائد البوسنوي: "لقد تصدى الفيلق الخامس في جيش البوسنة ومعه المتطوعون المسلمون للهجوم الصربي الذي شارك فيه أكثر من ٢٥ ألف جندي يدعمهم ما يفوق مجموعة لواء من الدبابات فضلا عن أسراب من المروحيات، وما زالت المدينة الباسلة تدافع عن مواقعها".

---

[١٢٨] أنظر صحيفة الشعب القاهرية، ١٠ فبراير ١٩٩٠م.

بعد ثلاثة أشهر من القتال المتواصل والدفاع المستميت للفيلق الخامس، كانت بيهاتش لا تزال صامدة، والحقيقة أنها بقيت كذلك حتى نهاية الحرب، لذلك توجه الصرب يصبون جام غضبهم على ملاذات أخرى أيسر منالا وأقل منعة، ومن ثم كان الهجوم الثاني على "سربرنيتشا" المنزوعة السلاح في ٨ يوليه ١٩٩٥م، وكان القصف المتزايد لسراييفو والانتهاكات المستمرة للهدنة حول المدينة.

سربرنيتشا وجيبا :

تقع سربرنيتشا في خريطة البوسنة إلى الشرق من سراييفو قريبا من حدود البوسنة مع صربيا، وهي مدينة صغيرة لم يتجاوز تعداد سكانها قبل الحرب أكثر من ستة آلاف، ولكن مع عمليات "التطهير العرقي" الوحشية نزح إليها كثير من الهاربين بحياتهم من الموت حتى بلغ عدد سكانها خمسون ألفا.

في إبريل ١٩٩٣ قفز اسم تلك المدينة الصغيرة إلى صدر نشرات الأخبار العالمية عندما حاصرتها القوات الصربية وقطعت عنها إمدادات المياه والطعام ثم تحولت إلى سكانها لتمطرهم بقصف عشوائي ليل نهار، وفي نوبة شجاعة (على حد تعبير الصحفي محمد عوض)[١٢٩] توجّه إليها "فيليب موريون" وكان حينذاك قائد قوات الأمم المتحدة في البوسنة، ارتاع الجنرال من الهول الذي شاهده هناك حيث جثث الموتى ملقاة على الأرض في شوارع المدينة، جثث لكبار السن ومرضى سقطوا موتى من شدة الزحام والتدافع فراراً من الجحيم. خشى السكان أن يهجرهم الجنرال الفرنسي ويتركهم لمصيرهم الرهيب فقسموا أنفسهم إلى نوبات تتغير كل أربع ساعات، افترشوا الأرض أمام سيارته المدرعة ليمنعوه من الخروج، فإذا كان مقدراً عليهم أن يموتوا في هذا الجحيم فليجرب الجنرال مذاق الجحيم معهم.

يبدو أن الجنرال قد اقتنع بالبقاء مع السكان المروَّعين في "سربرنيتشا" إلى أن يحصل على اتفاق مع الصرب يضمن الإبقاء على حياتهم، وفي لحظة صدق مع النفس صاح الجنرال أمام عدسات المصورين قائلا: "إن أي هجوم على سربرنيتشا هو هجوم على العالم، فإذا قبل العالم أن يغمض عينيه عن حرب فهل يغمض عينيه أيضاً عن مجزرة!" سبق أن أشرنا من قبل أن هذا الموقف من جانب الجنرال "موريون" قد أثار سخط بطرس غالي وكان سبباً في إنهاء خدمته للأمم المتحدة.

---

[١٢٩] محمد عوض صحفي يعمل نائباً لرئيس تحرير أخبار اليوم القاهرية، كتب مقالا معبرا عن كارثة سربرنيتشا تحت عنوان: "الموت لأسباب فنية: أي بوسنة.. وأي أمم.. وأي متحدة" أنظر المقال في صحيفة الحياة اللندنية (٢ أغسطس ١٩٩٥).

في ٨ إبريل ١٩٩٣م تنازل سكان سربرنيتشا عن أسلحتهم القليلة الباقية تنفيذاً للشروط الصربية الصارمة التي لم تستثن حتى السكاكين، وذلك مقابل فك الحصار الصربي والتزام الأمم المتحدة بحمايتهم، وفي ٦ مايو أصبحت سربرنيتشا بقرار من مجلس الأمن ملاذا آمنا انضمت إليه فيما بعد خمس ملاذات أخرى.

بعد حوالي ٢٨ شهراً عادت "سربرنيتشا" مرة ثانية تتصدر الأخبار العالمية حيث قرر الصرب أن يقوموا بجولتهم الثانية والقاضية ضد سربرنيتشا بعد أن تهيأت الظروف المواتية لهم فهي منزوعة السلاح وبها مجموعة من الجنود الهولنديين في قوة صغيرة من قوات الحماية الدولية مسلحين بأسلحة خفيفة ويقومون بأعمال المراقبة. في هذه المرة لم يكن هناك ضابط مثل "مريون" وإنما جنود مطيعون ملتزمون بأوامر قياداتهم ألا يتصدوا للصرب.

وفي يوم السبت ٨ يوليه ١٩٩٥ بدأ الصرب محاصرة القوة الهولندية فقصفوا مراكز مراقبتهم، واتصل قائد القوة تليفونيا يطلب دعما جوياً من الجنرال "برنار جانفييه" القائد العام لقوات الأمم المتحدة ليوغسلافيا، ولكن مرّ يوم السبت ويوم الأحد دون ظهور أي رد فعل دولي، هنالك تشجع الصرب وضربوا الضربة الثانية بالاستيلاء على مراكز المراقبة واعتقال ٣٢ من جنود القوة الهولندية كرهائن.

فلما علمت حكومة هولندا بالخبر طلبت على الفور إلغاء الدعم الجوي خوفاً على حياة الرهائن. وهكذا أصبح الطريق ممهدا للضربة الثالثة: ففي يوم الثلاثاء قام الصرب باكتساح الدفاعات البوسنوية المحدودة حول سربرنيتشا ثم شرعوا في قصف القاعدة العسكرية الهولندية، ولم تظهر طائرات حلف الأطلسي إلا في ظهر ذلك اليوم حيث قامت بغارة (رمزية) انسحب بعدها الهولنديون وهم يشعرون بالخزي والمذلة.

كان الصرب قد دخلوا قلب المدينة المذعورة وسيطروا عليها، وأمام عيون أفراد القوة الهولندية والمراقبين التابعين للأمم المتحدة بدأ القائد الصربي يشرف على عملية فرز الضحايا، فالنساء والأطفال يوضعون في شاحنات تمضي بهم خارج المدينة، أما الصبيان من سن ١٥ سنة إلى الشيوخ في سن الستين فأولئك يعتقلهم الصرب ويأخذونهم إلى أماكن مجهولة بحجة استجوابهم عن جرائم الحرب التي ارتكبوها. وطبعاً لم تكن هناك استجوابات ولا تحقيقات وإنما أُخذ أغلبهم إلى ساحات خالية في العراء، وجاء الجنرال الصربي "راتكو ملا ديتش" فطمأنهم إلى أنهم سيُخلى سبيلهم عند توفير وسائل النقل الكافية، واستقل الجنرال طائرته الهليكوبتر، وبدلاً من أن تأتي إليهم وسائل النقل طوّقهم الجنود الصرب وأطلقوا عليهم النيران فقتلوهم، ثم تأتي قصة المقابر الجماعية التي دفن فيها ثمانية آلاف من المسلمين في أماكن مجهولة كما ذكرنا من قبل يعرفها الصرب كما صورتها

الأقمار الصناعية الأمريكية، ولكن بقي أمرها سراً عن الناس، حتى أقارب الضحايا لم يعرفوا حتى الآن أين توجد جثث موتاهم.

حرص الصرب على الاحتفاظ بأفراد الوحدة الهولندية والمراقبين التابعين للأمم المتحدة لكي يحضروا العمليات التمهيدية لفرز السكان وترحيلهم حتى يكونوا شهودا أمام المجتمع الدولي على أن الصرب قاموا بعمليات مشروعة دون انتهاك لحقوق الإنسان، ولكنهم اجتهدوا في إبعاد الجميع عن مسرح عمليات التعذيب والقتل الجماعي للمسلمين، إلا أن هذه العمليات الوحشية كانت من الضخامة واتساع المدى في المكان والزمان بحيث لم يستطع الصرب إخفاء آثارها أو صورها وأخبارها عن العالم الخارجي الذي استجاب بثورة عارمة تعالت أصداؤها في أوساط الرأي العام العالمي.

أما على المستوى الرسمي للدول الغربية فكانت الاستجابة مختلفة، فقد أعلنت بريطانيا على لسان وزير خارجيتها أنه كان من الخطأ أصلا اعتبار "سربرنيتشا" ملاذا آمنا، ولما عرض الرئيس الفرنسي "شيراك" استعداد بلاده للقيام بعمل عسكري فوريّ لاستعادة سربرنيتشا سخرت منه بريطانيا ولجأت إلى حيلها التقليدية لامتصاص الأزمات، فدعت إلى اجتماع ثلاثي (أمريكي فرنسي بريطاني) على مستوى رؤساء أركان الحرب، تلاه اجتماع ثانٍ على مستوى وزراء الدفاع، ثم اجتماع ثالث موسع على مستوى وزراء الدفاع ووزراء الخارجية جميعاً وهو ما سمي بالمؤتمر الدولي الذي انعقد في لندن يوم الجمعة ٢١ يوليه ١٩٩٥ أي بعد سقوط سربرنيتشا بعشرة أيام.

هذا التنطع السياسي البريطاني والدولي هو الذي أعطى الفرصة السانحة للصرب أن ينقلوا هجومهم من سربرنيتشا بعد الإجهاز عليها إلى ملاذ آخر قريب منه هو "جيبا". وبينما كان المسلمون في جيبا لا يزالون يقاومون والقتل دائر في شوارعها على قدم وساق صدر البيان الختامي لمؤتمر لندن دون أي إشارة إلى جيبا التي تحتضر لأن السادة المجتمعين اعتبروا أنها قد سقطت وانتهت بالفعل، ولم يذكر البيان شيئاً عن سربرنيتشا وكأنها لم تكن، وإنما ورد في البيان تحذير إلى الصرب بأن يبتعدوا عن جوراشده، وفي هذا تصريح ضمني باستحلال ما قام به الصرب في سربرنيتشا وجيبا.

هكذا سمح المجتمع الدولي للصرب في هذه الجولة أن يمسحوا من الوجود تماماً مدينتين بسنويتين كانتا ضمن الملاذات الآمنة التي من المفروض أنها في حماية قوات الأمم المتحدة، انتزعها الصرب بقوة السلاح بعد أن طهروا أرضهما من السكان المدنيين قتلا وتشريدا دون أن يحرك للمجتمع الدولي ساكنا. وارتفعت هناك راية الفاشية الصربية حيث سقط المجتمع الدولي.

توالت الأخبار عقب سقوط سربرنيتشا لتكشف تفاصيل الكارثة التي أصابت المسلمين، ولتعرى المواقف الدولية وهي تتخبط وتتضارب: يقفز بعضهم إلى الحلبة متطوعا بقواته للإنقاذ الفوري، ويتعالى صياح بعضهم بالشجب والاستنكار، ويتمحل بعضهم الأعذار لفوات أوان الإنقاذ، ولا يجد البعض الآخر سوى الكلمات الفارغة من المعنى يلوكها بلسانه متلعثما وهو يحاول التخلص من هجمات الصحفيين واستنكارهم.

وبينما هذه الهراء الصاخب يتردد على ألسنة الساسة في المجتمع الدولي كان تلفاز هيئة الإذاعة البريطانية يعرض برنامجا وثائقيا عن سقوط سربرنيتشا ظهر فيه ضباط هولنديون تابعون للقوات الدولية يراقبون– دون أن يتدخلوا– صرب البوسنة أثناء إعدادهم لمجزرة استهدفت مدنيين مسلمين.. قال معد البرنامج وهو "جون سويني" الصحفي المشهور في صحيفة "الأوبزرفر" البريطانية: "إن قائد الوحدة الهولندية الجنرال "هانس كوزي" قد اعترف بأنه أمر بإتلاف أفلام صورها مصور من قوة الحماية الدولية لتجنب التعرف على الضباط الهولنديين الذين ظهروا فيها. وكانت الإذاعة البريطانية قد أدمجت في البرنامج فيلما آخر استطاعت أن تهرّبه من بلجراد قام بتصويره صحفي صربي كان حاضرا أثناء المجازر في "سربرنيتشا" واسمه "جوران بتروفيتش"، كذلك استعان البرنامج بمقابلات أجريت مع عدد كبير من المسلمين الناجين من المجازر الصربية، ومع بعض العاملين في منظمات حقوق الإنسان، وصوّر شهادة الشهود من الوحدة الهولندية أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي، من بين هؤلاء الضابط "كوربورال بول جرونيوجن" الذي قال: أنه في يوم ١٣ يوليه حوالي الساعة الرابعة مساء رأي أربعة يدخلون على مجموعة من المسلمين المعتقلين فيسحبون واحداً منهم جعلوه يقف ووجهه إلى الجدار ثم أطلقوا الرصاص على رأسه فأردوه قتيلا.. وأضاف الضابط أنه سمع في ذلك اليوم حوالي أربعين طلقة في كل ساعة خلف المبنى الذي تجمع فيه المعتقلون مما يدل على أن عمليات القتل كانت تسير بطريقة نظامية، وقد أيدت هذه الواقعة الممرضة الألمانية "كريستينا شميت" التي كانت تعمل في مكان قريب من مبنى الاعتقال.

أما الصور التي بثها التلفاز البريطاني اقتباساً من فيلم الصحفي الصربي "بتروفيتش" فقد ظهر فيها جنود صربيون يضعون على رءوسهم قبعات الأمم المتحدة الزّرق التي استولوا عليها من الوحدة الهولندية، وهم يفرزون المسلمين فيفرقون بين الرجال والنساء بينما يقف بالقرب منهم جنود الأمم المتحدة، ثم تظهر مجموعة أخرى من المعتقلين الرجال يدفعهم الصرب في اتجاه حقل بينما كان هناك جنود صربيون يعدّون أسلحتهم لإطلاق النار على الضحايا.

وما لم يظهر في برنامج "بانوراما" للتلفاز البريطاني قام مؤلفان هولنديان بتوثيقه ونشره في كتاب مخصص عن سربرنيتشا[١٣٠] هما "جان ويليم هونيج" و "نوربرت بوث" أبرزا فيه بشاعة المجزرة الصربية للمسلمين في هذا الجيب المنكور حيث تابعا مجرى الأحداث يوما بيوم وساعة بساعة بتفصيل دقيق مما يهم الباحثين معرفته.

و "هونيج" خبير معروف في شئون الحرب والأمن وسياسات الدفاع، قام بالتدريس في جامعتي "أوتريخت" بهولندا و "نيويورك" كما عمل باحثا مشاركا في "معهد دراسات الأمن للشرق والغرب" في نيويورك، أما "نوربرت بوث" فكان أحد الخبراء الذين ساعدوا في عمليات التفاوض الدولية في البوسنة ثم انخرط مؤخرا في بحوث بجامعة "شيفيلد" عن السياسة الخارجية لهولندا إزاء الصراع اليوغسلافي.

وضع المؤلفان لكتابهما ثلاثة أهداف: الأول هو وصف وتفسير مفصل لمعركة سربرنيتشا فيما بين يوم السادس والحادي عشر من يوليه ١٩٩٥م وعمليات الترحيل السكاني المكثفة وما تلى ذلك من أعمال القتل والإبادة الجماعية. والثاني هو شرح الأسباب التي دفعت الصرب للهجوم على سربرنيتشا وتدبير مذابح نظامية قتل فيها أعداد هائلة من المسلمين الرجال، وأما الهدف الثالث فهو تحليل لماذا لم يمنع المجتمع الدولي الهجوم على سربرنيتشا؟.

وقد نجح المؤلفان في تحقيق الهدف الأول نجاحاً واضحاً خلال وصْفهما الدقيق لجيب سربرنيتشا وللأوضاع اللاإنسانية التي تردى إليها نتيجة للمجاعة والرعب والحصار الطويل الذي استمر أكثر من ثلاثة أعوام، كما قدما حشداً من الحقائق والتفاصيل عن الهجوم الصربي وآثاره مما لم يرد في أي مصدر آخر إلا نثارا متفرقا. أما الهدف الثاني فقد نجحا في الكشف عن الاتجاه المبكر للاستيلاء على منطقة شرق البوسنة التي تقع فيها سربرنيتشا حيث كانت جزءًا أساسيا من مخططات "سلوبودان ميلوسفيتش" لإقامة صربيا الكبرى، ويكمن نجاحهما هنا في توثيق هذه الحقيقة، ولكنها انزلقا بعيداً عن الموضوعية عندما جنحا مع الادعاءات الصربية عن انتهاك المقاومة المسلمة في سربرنيتشا لاتفاقية وقف إطلاق النار بمقاومتهم للحصار الصربي على القطاع، وكذلك كان نجاحهما جزئياً في تحقيق الهدف الثالث للكتاب، فقد نجحا في تصوير حقيقة الاضطراب الذي أصاب المجتمع الدولي نتيجة للخلافات الشديدة فيما بينهم بشأن قضية البوسنة ونتيجة لتناقض القرارات الدولية والاختلاف في تفسيرها وما يلزم من إجراءات لتنفيذها، ولكنهما رتبا على هذه

---

[١٣٠] أنظر "جان ويليم هونيج" ص٣٩، ٤١. Honig, Jan Willem and Norbert Both. Serbrenica: Record of a war Crime. London: Penguin Books, 1996- P. 39-41.

الأوضاع أحكاماً بتبرئة بعض القوى والجهات الضالعة في مشكلة البوسنة، فالأعذار بادية الوهن ولا يمكن أن تبرر هذه الأحكام، ولعل هذا يرجع في جانب منه إلى أن "نوربرت بوث" عمل فترة من الزمن مساعداً للمفاوض الأوروبي "لورد أوين" فحاول في الكتاب الدفاع عن أبشع سقطة وقع فيها عندما أكد في خطته على تقسيم البوسنة على أساس عرقي. وفيما عدا ذلك فإن هذا الكتاب يعتبر واحداً من أهم الشهادات الأوروبية الموثقة على أبشع الجرائم الإنسانية التي ارتكبها الصرب ضد مسلمي البوسنة.

وتظل كارثة سربرنيتشا مشهداً مروعاً في الضمير الإنساني يحدث أثره عند كثرة من الرجال في هذا العالم من أمثال "تاديوز مازوفسكي" الذي عينته الأمم المتحدة لرئاسة لجنة التحقيقات في انتهاكات حقوق الإنسان بيوغسلافيا وكان يعمل رئيساً سابقاً لوزراء بولندا. استقال مازوفسكي من رئاسة اللجنة احتجاجاً على ما أصاب "سربرنيتشا" وبعث برسالة شديدة اللهجة إلي بطرس غالي يشرح فيها أسباب استقالته متهما الصرب بارتكاب جرائم وحشية ضد المسلمين، ومتهما قادة العالم بالتردد والجبن في الدفاع عن حقوق الإنسان في البوسنة، وأكّد أن الأمم المتحدة قد سمحت بسقوط سربرنيتشا وجيبا ولم تحرك ساكنا.. وحذر في نهاية خطابه بأن الحضارة الإنسانية في خطر بسبب قضية البوسنة.

وتعقيباً على المتخاذل الدولي قال "علي عزت بيجوفيتش": "على الرغم من كل شيء سنظل نحمي الوطن والشرف حتى آخر قطرة من دمائنا، ولن يزيدنا سقوط المدن البسنوية في أيدي الوحوش الصربية إلا إصراراً على مواصلة الجهاد بضراوة أشد".

التعنت الصربي وحرب التحرير :

أفرزت حرب البوسنة مصطلحات جديدة لم تكن مألوفة من قبل، تداولتها الصحف في حينها وهي تحاول أن تصف "اللامعقول" في مواقف المجتمع الدولي. من هذه المصطلحات: الغارات الرمزية والقصف الاستعراضي أو الضربات الجوية الاستعراضية، والعجز المفتعل، إلى غير ذلك من مصطلحات. فإذا أخذنا المصطلح الأخير لرأينا أن النقاد السياسيين أرادوا أن يصفوا به تصريحات وسلوك الأمم المتحدة والدول الكبرى المنخرطة في العمليات الدولية بالبوسنة. فهؤلاء يزعمون أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً أكثر مما فعلوا، بينما هم في الحقيقة قادرون على فعل الكثير، ويقفون في حالة مزرية من العجز عندما يقتل الصرب جنودهم أو يأسرونهم، وهم في الحقيقة قادرون على رد العدوان، هذا هو العجز المفتعل.

أما الغارات الرمزية أو الاستعراضية فهي مصطلحات تدور على محور العجز المفتعل. بعض الناس يقولون إنها تهديدات للصرب حتى يرتدعوا، ولكن لما كانت تهديدات فارغة لا جدّية فيها فقد أدرك الصرب حقيقتها منذ البداية وتكيفوا معها وأصبحوا يتحدونها بمزيد من الانتهاكات. ومن ثم فقد أصبح تكرارها من الأعمال العبثية العقيمة لا تنطلي على أحد.

وفي هذا تقول "ماجي أوكين": "أثبت الصراع في يوغسلافيا أن توازن القوى هو الذي ساعد على إقامة تسويات... فعندما هاجمت القوات الصربية مدينة "دبروفينك" في نوفمبر ١٩٩٢م استطاعت كرواتيا الحصول على أسلحة ثقيلة، وعندما شرعت في استخدامها والرد على الصرب صمتت المدافع الصربية فوق الجبال وبدأت محادثات السلام. ولكن على النقيض من ذلك فشلت خطط السلام الأربعة في البوسنة لأن الصرب هم الذين رفضوها جميعاً: خطة "كارنجتون وكوتليـيرو"، وخطة "فانس- أوين" وخطة "أوين ستولتنبرج، وخطة يوليه ١٩٩٤ التي صاغتها لجنة الاتصال الدولية" وتمضي "ماجي أوكين" فتقول: "لقد ثبت أن الصرب يقبلون على المفاوضات فقط عندما يواجهون قوة حقيقية"[١٣١] وقبل ذلك قالت "مارجريت ثاتشر" رئيسة وزراء بريطانيا السابقة في خطاب لها بالولايات المتحدة نشرته "الجارديان" "إن صربيا لن تستمع إلا إذا أجبرت على الاستماع"[١٣٢]

وقائع الحرب في البوسنة تؤكد أن الصرب لا ينسحبون إلا عندما يشعرون بتهديد حقيقي وجاد، حدث هذا في حصار مدينة "ماجلاي" وفي "سراييفو" (٤ فبراير ١٩٩٤) وفي جوراشدة (إبريل ١٩٩٤)، وكان يبدو في مسلكهم الرعب من الضربات الجوية ربما أكثر مما تصوّره رجال القوات الدولية أنفسهم. ولكن ما أن تتحول أنظار العالم عن مذابح البوسنة وتتراجع ضغوط الرأي العام الغربي عن حكوماته يخرج الصرب مرة أخرى إلى الوجود، فيحكمون قبضتهم من جديد على الجيوب المحاصرة، وتتوقف قوافل الإغاثة وتُمنع طائرات الإغاثة من الهبوط في مطار سراييفو، وتُنصب نقاط التفتيش على طول الطرق المؤدية إلى الجيوب المسلمة، ويتنصل الصرب من جميع وعودهم والاتفاقيات التي وقّعوها مع القوات الدولية، ويعودون أكثر استهانة ليجددوا مذابح المسلمين.[١٣٣]

---

[١٣١] أنظر صحيفة الجارديان، الصادرة في ٢٤ نوفمبر ١٩٩٥.

[١٣٢] أنظر صحيفة الجارديان، الصادرة في ٧ أغسطس ١٩٩٢.

[١٣٣] أنظر "دافيد رييف"، المصدر السابق، ص١٦١.

ظل هذا هو موقف الصرب لم يتغير منذ بداية الحرب حتى نهايتـها، ولكـن عـام ١٩٩٥ جاء بعوامل مختلفة تحمل في طياتها إرهاصات مرحلة جديدة من مراحل تطوير الصراع فـي البوسنة:

أولاً: المقاومة العنيدة لجيش البوسـنة بـدأت فـي يونيـه ١٩٩٤ ولكـن ظـهرت معالمـها وآثارها واضحة في عام ١٩٩٥، بعد أن غير الجيش من أساليبه فـي القتـال وحصـل جنـوده على تدريب أفضل، كمـا تمكـن مـن الحصـول علـى بعـض الأسـلحة والذخـائر مـن مصـادر مختلفة.

ثانياً: تمكن الكروات من تصفية جيب "كرايينا" الذي كان يهدد المسلمين في بيهاتش، وجرى بين المسلمين والكروات تحالفاً عسكريا لصـالح الطرفيـن، وكـان هـذا التحـالف رغـم هشاشته ذا أثر خطير في إرباك القوات الصربية وانهيار روحها المعنوية.

ثالثاً: تفاقم الخلافات بين القيادات الصربيـة، واتسـام ردود أفعالـها بدرجـة أعلـى مـن المغالاة والشطط والعنف والاستهتار، مما أحرج أصدقاءها فـي القـوات الدوليـة وأثـار عليـها الرأي العام العالمي.

رابعاً اقتناع الدول الغربية في النهاية بأن الوضع لم يعد في صالح الصـرب، وأن تسـوية سريعة أفضل لهم مـن اسـتمرار القتـال الـذي لـم تعـد نتائجـه مضمونـة، ومـن ثـم رجحـت الاتجاهات الأمريكية في تسوية النزاع.

ولكن كيف جرت الأحداث المتشابكة في دراما البوسنة لتصل إلى هذا الموقف الجديد؟ المراقب للأحداث في البوسنة سوف يدرك أن العـامل الأساسـي فـي هـذا التحـول الدرامـي يرجع إلى الصمود المذهل لشعب البوسنة وجيشها الذي ولد تحت الأنقاض ثـم ظـهر فجـأة في حالة من النضج والعنفوان لم تكن متوقعة، وتحول مـن وضـع الدفـاع إلـى الانطـلاق فـي الهجوم والزحف لتحرير الأرض المغتصبة.

كذلك سوف يدرك المراقب أن التصلب الذي دفع الموقف الصربي وإن ظل يفـرز سـلوكاً نمطياً كأنما صُبّ في قوالب متحجرة، إلا أنه كان تعبيراً عن حالة مرضية لا سويّة، أخذت أعراضها تصيب الأصدقاء والأعداء بدون تمييز، فتصب جام غضبها على القوات الدولية مـن ناحية وتستهدف من ناحية أخرى الملاذات الآمنة كما تجلى في حصـار سـراييفو والـهجوم على بيهاتش ثم الاكتساح المأساوي لسربرنيتشا وجيبا، كما رأينا.

تفاعل الأحداث :

كانت الأحداث على مختلف الجبهات تبدو وكأنها تسير في خطوط منفصلة لا رابط بينها ولكنها في واقع الأمر كانت تتفاعل وتلتقي في محصلة نهائية تصب في نقطة مشتركة، ويمكن أن نميز من هذه الخطوط الأربعة التالية:

١- خط العمليات العسكرية لجيش البوسنة وانطلاقه القوي في تحرير الأرض وإيقاعه الهزائم الواضحة في صفوف القوات الصربية.

٢- التعنت الصربي وآثاره المدمرة على الملاذات الآمنة، وردود الفعل الناجمة عن ذلك في ثورة الرأي العام الغربي.

٣- الانهيار في أوضاع الأمم المتحدة في البوسنة الذي انتهي بها إلى الانسحاب مشيعة بلعنات الجميع.

٤- المساعي الدولية التي انتهت إلى تبني الاتجاه الأمريكي والقيادة الأمريكية لعملية التسوية في البوسنة.

على خط التعنت الصربي ظلت الصحافة العالمية خلال عام ١٩٩٥ تحمل أخباره المتوالية، ففي ٨ مارس نقرأ في صحيفة "الحياة" اللندنية: "الأمم المتحدة تعترف بتصعيد الانتهاكات الصربية... وحدات يوغسلافية تشارك في الهجوم على بيهاتش". والمقصود أنها وحدات من جيش صربيا الأم الذي كانت الأمم المتحدة تنكر تدخّله في حرب البوسنة.

وفي ١١ إبريل حملت صحيفة "الأهرام" الدولية هذا العنوان: المليشيات الصربية تنتهك الهدنة، وتشن هجوما عنيفا على سراييفو، وعلى المناطق الآمنة رداً على الهجمات البوسنوية ضد القوات الصربية في شمال البلاد. وفي ٢ مايو تقول الأهرام: "الأمم المتحدة تعترف بفشلها في تمديد اتفاقية الهدنة.. والمليشيات الصربية تهاجم القوات الدولية وتستولى على أسلحتها... اشتباكات متفرقة في سراييفو"، وهذه أول مرة تنشر الأهرام خبراً عن اشتباكات بين الصرب والمسلمين في سراييفو. وفي ١٦ مايو نشرت الأهرام: ""ألان جوبية" يهدد بسحب القوات الفرنسية.. واتساع نطاق القتال في شمال البوسنة"، وهنا نلاحظ أمرين: تصاعد العمليات العسكرية بين جيش البوسنة والصرب، والتهديد بسحب القوات الفرنسية، فهنا يتدخل خط ثالث يتصل بموقف الدول الكبرى المشتركة في القوات الدولية، ولما كان انسحاب هذه القوات يعني قطع المساعدات الإنسانية والتخلي عن الملاذات الآمنة فقد اتضح إلى أي جانب تنحاز هذه القوات بتهديداتها المتكررة.

مضى البوسنويون قُدما في تحرير أراضيهم والدفاع عن المناطق المحاصرة إثر العجز الذي أبدته القوات الدولية في هذا الشأن، شن جيش البوسنة هجمات مضادة ضد الصرب في مقاطعة "بيهاتش" ومرتفعات "أوزورن" شمالا، وكذلك في الطرق المحيطة بسراييفو.

قصف شديد في جبهات "زافيدوفيتش" و "دوبوي" شمالا، و "برتشكو" شمال شرق، وجوراشده شرقا. أعلن ناطق باسم الأمم المتحدة أن حوالي أربعة آلاف صربي غادر المنطقة المحيطة بأوزورن بسبب ضراوة القتال، وتستهدف هذه العملية ربط مناطق الشمال المحررة بمناطق الوسط عبر الطريق الرئيسي بين مدينتي "زينتشا" و "توزلا".

ما يزيد عن مائتي قتيل صربي في هذه المعركة الأخيرة، لدى جيش البوسنة منهم مائة جثة كما استولى الجيش على مدفعين ومصفحتين وعددا من الأسلحة الثقيلة الأخرى. وتبلغ مساحة المنطقة المحررة عشرين في المائة من المناطق المحتلة.

كما حققت البوسنة تقدما آخر مهماً في منطقة غرب البوسنة، وتصاعدت المعارك في منطقة تسازين.

نشرت صحيفة "الشعب" القاهرية مقالا بقلم منى ياسين يعتبر نموذجاً لسيناريو تفاعل الأحداث على الجبهات والخطوط المختلفة التي سبق أن أشرنا إليها، وهذه لقطات من المقال الذي نشر في ٢٣ يونيه ١٩٩٥:

- اخترقت قوات جيش البوسنة أحزمة الحصار الصربي حول العاصمة سراييفو، وانسحبت القوات الدولية من مواقع كثيرة منها موقع تجميع الأسلحة الثقيلة في محيط سراييفو.
- اجتمع قمة السبعة الكبار في "هاليفاكس" وانضم إليهم "يلتسن"، وأصدروا نداء عاجلاً إلى "الأطراف" المتحاربة في البوسنة بوقف إطلاق النار.
- رفضت حكومة البوسنة هذا النداء لأنه يتحدث عن "أطراف" وليس عن فريق شرعي محاصر ومدينة تُباد في مواجهة معتدين عنصريين من صرب البوسنة.
- رفض الرئيس علي عزت النداء فور صدوره قائلاً: "إن البوسنة لن توقف العمليات العسكرية"، وقال وزير خارجية البوسنة "محمد شاكر بيه": "إن النداء يثير السخرية".

ونلاحظ في الخطاب السياسي لقادة البوسنة نبرة عالية وأكثر وثوقا بالنفس نتيجة للانتصارات التي حققها جيش البوسنة.

وفي ١٥ أغسطس ١٩٩٥ نشرت صحيفة الأهرام خبرين هامين: تقول الصحيفة في الخبر الأول "أن جيش البوسنة يواصل تقدمه في الوسط لتحرير بلدة "دوني فاكوف"، وأن المتحدث باسم الأمم المتحدة قد أعلن أن المسلمين يحققون مكاسب حول المدينة وهو ما

يمثل نقطة انطلاق للاستيلاء على بلدة "جاس" الاستراتيجية مما سيجعلهم في موقع أفضل في مواجهة معقل الصرب في بنيالوكا".

وفي الخبر الثاني تقول الأهرام: جولة جديدة في المفاوضات ستقوم بـها بعثـة أمريكيـة أخرى برئاسة مساعد وزير الخارجية "ريتشارد هولبروك" في منطقة البلقان.

وترجع أهمية الخبر الأول إلى أن جيش البوسنة كان يتجه بنجاح وسرعة نحـو تحقيـق هدف استراتيجي وهو الاستيلاء على "بنيالوكا" بمعاونة حليفه الكرواتي، وبنيالوكا أصبحت تضم أكبر تجمع صربي في البوسنة كلها، علاوة على أن بها مركز القيادة العسكرية للقـوات الصربية (وقد أصبحت فيما بعد عاصمة لجمهورية صرب البوسنة)، وسقوط هذه المنطقة فـي يد جيش البوسنة يعتبر ورقة رابحة في أي مفاوضات مع الصرب.

أما أهمية الخبر الثاني فترجع إلى أنه بداية تحول جديد في سير عمليـة التسـوية التـي تمكنت الولايات المتحدة من استلام زمامها وقيادة الدول الغربيـة فـي طريقـها، وهـي التـي انتهت بالفعل إلى اتفاقية دايتون للسلام.

والمتفحّص للخبرين معا يجد بينهما ارتباطا وثيقا يرقى إلى مستوى السـبب والمسـبب؛ فانتصارات جيش البوسنة وتقدمه تجـاه هـذه المنطقـة الحساسـة بثبـات وقـوة أرغـم القـوى الدولية على المسارعة بخطوات إيجابية وجادة نحو إيجاد تسوية ما فـي البوسـنة، ويتـأكد هذا من التحرك الدولي للضغط على الكروات لوقف تقدمهم نحو "بنيالوكا" في مقابل مساندة كرواتيا لاستعادة منطقة "سلافونيا" الشرقية التي لا تزال تحت يد الصرب.

انتصارات جيش البوسنة وقلق المجتمع الدولي :

وفي ١٥ أغسطس ١٩٩٥ كانت انتصارات جيش البوسنة لا تزال موضع اهتمام الصحافـة العالمية، وقد لخص هذه الانتصارات الصحفي عامر عبد المنعم لصحيفة "الشـعب" القاهريـة في النقاط الآتية:

- سيطر الذعـر والفـزع علـى المليشـيات الصربيـة فـي وسـط البوسـنة بعـد العمليـات العسكرية الواسعة التي قامت بها قوات الجيش البوسنوي خلال الأيام الأربعة الماضية.
- أسفرت هذه العمليـات عـن تحريـر مسـاحات واسـعة مـن الأرض والاسـتيلاء علـى أسلحة الصرب الثقيلة.
- دفعت عمليات الفرار الجماعي للجنود الصرب إلى إصـدار بيـان طـالب فيـه زعيـم صرب البوسنة الجنود الاستمرار في مواقعهم وعدم مغادرتها كما طالب من صربيا إغلاق حدودها أمام الشباب الصربي في سن التجنيد الهاربين من البوسنة.

- طالب الجنرال "راتكو ملاديتش" في بيان له المواطنين الصرب عدم ترويج الإشاعات التي يرددها أشخاص غير مدركين خطورتها والتي تسبب إثارة الرعب لدى المواطنين.
- الجيش البوسنوي في طريقه لتحرير معاقل الصرب الحصينة في مدينة "دوني فاكوف" مستودع الذخيرة والسلاح الثقيل.
- الفيلق الخامس للجيش البوسنوي في بيهاتش بدأ التحرك نحو الشرق والجنوب..
- منع الجيش البوسنوي تحركات القوات الدولية داخل البوسنة بعد ثبوت أنهم يمدّون الصرب بمعلومات عن تحركات القوات المسلمة كما تم منع طيران الهليكوبتر فوق الأراضي الخاضعة لحكومة البوسنة لنفس السبب.

من هذه اللحظة فصاعدا سوف نرى أن عناصر الدراما البوسنوية كلها تتفاعل وتتفجر بسرعة وقوة غير معهودة، وسنرى أن القوى الدولية تسارع في خطواتها لتمسك بزمام الموقف قبل أن يفلت من يدها نتيجة انقلاب موازين القوى، وبصفة خاصة نتيجة التقدم المذهل لجيش البوسنة في معاركه مع الصرب وفي تحرير الأرض.

في ٤ سبتمبر ١٩٩٥ نشرت صحيفة "التيمز" البريطانية رسالة بالفاكس موجهة من الجنرال "جانفييه" قائد قوات الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة يطلب من الجنرال "ملاديتش" سحب الأسلحة الثقيلة من حول سراييفو، ويطلب ضمانات بعدم مهاجمة العاصمة أو المناطق الآمنة، والحرية الكاملة لأفراد الأمم المتحدة للحركة والوصول إلى مطار سراييفو".

وتضيف الصحيفة: "صرح أحد الرسميين في الأمم المتحدة: "لقد حذرنا الصرب بما سنفعله إذا رفضوا.. ونحن على استعداد لردعهم ، كما صرح دبلوماسي غربي قال: "هذا مدخل جديد فقد التزمت الأمم المتحدة كما التزم حلف الأطلسي برفع الحصار عن سراييفو سواء رضى الصرب أو لم يرضوا.. وإذا اعترضوا فسوف يتعرضون للغارات مرة بعد مرة". (انتهي خبر التيمز)، ونلاحظ فيه لجهة جديدة عالية النبرة، وندرك جدية هذا الموقف بالنظر إلى الأحداث التي ترتبت عليه بعد ذلك.

ففي اليوم التالي (٥ سبتمبر ١٩٩٥) نشرت "الأهرام" مجموعة من الأخبار الهامة تأتي في سياق الأحداث التي أثبتت جدية الموقف الدولي، فقد رد الجنرال الصربي "ملاديتش" على رسالة الجنرال "جانفييه" رداً سلبيا لم يقدم فيه ضمانات بفتح مطار "سراييفو" أو سحب الأسلحة الثقيلة بدون شروط، وإنما اقترح بدلا من ذلك وقف شامل لإطلاق النار في

كل أنحاء البوسنة وهو ما ترفضه حكومة البوسنة، وترتب علي ذلك التطورات التالية كما تعبّر عنها الأهرام:

- قامت طائرات حلف الأطلسي بشنّ ألف طلعة من الغارات الجوية المستمرة خلال خمسين ساعة.
- حذر "حارس سلاجيتش" رئيس وزراء البوسنة من أن حكومته ترفض التفاوض تحت ضغط السلاح.
- جهود أمريكية وأوروبية متواصلة لتسوية الأزمة، و "هولبروك" (المفاوض الأمريكي) يعترف بخلافات حول خرائط التقسيم.
- أعلنت الخارجية الفرنسية أن وزراء خارجية مجموعة الاتصال الدولية سيجتمعون مع ممثلي مجموعة الاتصال التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في باريس يوم الخميس القادم عشية الاجتماع المقرر في جنيف للتشاور حول التسوية السلمية.

خلال شهر سبتمبر بلغت الأراضي المحررة أربعة آلاف كيلو مترا مربعا وكذلك نجح كروات البوسنة من تحرير ألفيْ متر مربع أخرى من سيطرة الصرب وبذلك بلغ مجموع الأراضي المحررة ما يعادل ١٢٪ من مساحة البوسنة، وقد نجح هجوم قوات البوسنة (الفيلق الخامس والثالث والسابع) في تحرير ستة مدن بوسنوية هي: "دوني فاكوف" و "كولين فاكوف" و "بوزانسكي بتروفاتش" الواقعة جنوب شرق "بيهاتش"، إضافة إلى مدينة "كليوتش" ومدينة "سانسكي موست" و "بوسانسكا كروبا" وهذه المدينة الأخيرة هي مسقط رأس الرئيس "علي عزت بيجوفيتش".

أمام هذا الزحف المتواصل خشيت الأمم المتحدة أن يتجاوز التحالف الكرواتي المسلم نسبة الأراضي المسموح بها لهم في الخطة الدولية (وهي ٥١٪)- لذلك حذرت الأمم المتحدة بشكل مباشر لا لبس فيه من هذا التجاوز. ففي يوم ١٣ سبتمبر ١٩٩٥ أرسلت الأمم المتحدة إلى كل من حكومة البوسنة وحكومة كرواتيا تطلب منهما وقف هجومهما على المواقع الصربية تفاديا لإلحاق الأضرار بالمساعي السلمية، ودعا مجلس الأمن الأطراف المتحاربة إلى الوقف الفوري لجميع الهجمات العسكرية والمعارك لأن الصراع (كما يراه) لا يمكن حله عسكريا.

هذا الكلام يحتاج إلى فحص وتحليل كما يحتاج إلي خيال وتأمل لربط عناصر الدراما بعضها ببعض، ففي الوقت الذي أعلن فيه مجلس الأمن أن الصراع لا يمكن حله عسكريا كان حلف الأطلسي فد نفّذ ٣٨٠٠ طلعة جوية في غارات على المواقع الصربية حول سراييفو فهل هذا عمل عسكري أم دبلوماسي؟! الأمر إذن يحتاج إلي تفسير آخر وهو

بالضبط ما عبرت عنه مصادر الأمم المتحدة في البوسنة من تخوّفها أن يتجاوز المسلمون نسبة الأراضي المسموح لهم بها في خطة التسوية التي كان يجري طبخها في ذلك الوقت وهي ٥١٪ للاتحاد المسلم الكرواتي و ٤٩٪ لصرب البوسنة.

وأعلنه صراحة وزيرا خارجية كل من ألمانيا وفرنسا حيث عبرا عن قلق كبير تجاه العمليات العسكرية الناجحة التي قامت بها قوات الحكومة البوسنوية مع حلفائها الكروات ضد صرب البوسنة، وقد دعا الوزيران سراييفو وكرواتيا إلى ضبط النفس. وفي اتساق مع هذا التحذير قام "ويلي كلايس" الأمين العام لحلف الأطلسي بإبلاغ سفراء دول الاتحاد الأوروبي أنه قد أصدر أمراً بوقف الغارات الجوية على المواقع الصربية لمدة ١٢ ساعة بحجة دعم الجهود السياسية لفك الحصار عن سراييفو.

كان الصرب قد وعدوا في ١٥ سبتمبر ١٩٩٥ بسحب جميع أسلحتهم الثقيلة ورفع الحصار عن سراييفو، وقرر حلف الأطلسي وقف غاراته ثلاثة أيام ليمنح القوات الصربية فرصة الانسحاب. ولكن حتى يوم ١٩ سبتمبر لم ينفذ الصرب وعدهم ولم يسحبوا أسلحتهم الثقيلة من المنطقة المحظورة حول سراييفو برغم منحهم مهلة جديدة لمدة ٧٢ ساعة لاستكمال سحب هذه الأسلحة.

وفي هذه النقطة نجد اتجاهين متعارضين في الرأي نُشرا مصادفة في يوم واحد هو يوم ١٦ سبتمبر ١٩٩٥. تبنت الرأي الأول صحيفة "الجارديان" حيث رأت أن وقف القصف فيه عودة إلى التأرجح المشين بين الحسم واللامبالاة مما يشجع الصرب على التمادي في التمرد والمماطلة، تقول الجارديان: "إن القصف الجوي لقوات حلف الأطلسي على مواقع صرب البوسنة حول سراييفو لم يحقق الهدف الذي استهدفه، ويجب استمرار القصف حتى يذعن الصرب لإرادة المجتمع الدولي ويسحبوا أسلحتهم الثقيلة بعيدا عن سراييفو". والجارديان محقة في تقديرها لأن وقف الضربات الأطلسية منذ أيام قليلة بحجة تقييم الموقف قبل استئناف الضربات لم ينتج عنه أي نتائج إيجابية بل شجع الصرب على إطلاق ٣٠٠ قذيفة على مدينة بيهاتش ومدينة توزلا ليثبتوا أن ضربات الأطلسي لا تأثير لها عليهم وهو نوع من المكابرة أو الغواية، فالصرب لا يصدقون بسهولة أن دول الغرب يمكن أن تخونهم إلى هذا الحد، ولذلك استعرت في صحافتهم حملة دعائية مبطنة بتحذير من خطر الأصولية الإسلامية التي تهدد البوسنة وخطر إحياء الجيش العثماني.. والأخطار الأخرى التي تهدد الحضارة الغربية والمسيحية في حالة قيام دولة مسلمة في قلب أوروبا.

أما صحيفة "الإندبندت" فإنها تعبر عن مكنون قادة الغرب الذين يكرهون أن يروا المسلمين في البوسنة يحققون انتصارات حاسمة على الصرب، أو يأخذوا المبادرة في تحرير

أرضهم بأيديهم. يريد هؤلاء القادة أن يبقى المسلمون متلبسين بدور الضحية المغلوبة على أمرها حتى نهاية الشوط، والضحية من شأنها أن تستجدي وتستعطف لا أن تقاتل، ناهيك عن أن تنتصر في قتالها أو تنتزع حقها بيدها. فالوضع المريح بل الأمثل لمسلمي البوسنة في نظر الساسة الغربيين هو وضع الضحية، حينذاك تكون الحلول التي يقدمونها مهما كانت مجحفة- صدقة محمودة وإحسانا مشكورا. والصدقة أو الإحسان يكونان بقدر ما تجود به النفوس لا بقدر ما يقتضيه الحق وتستوجبه العدالة. وبلغة السياسة المجردة تريد الدول الغربية أن تقدم تسوية تتسق في طبيعتها ومحتواها مع طرف قوي منتصر هو الصرب وطرف آخر ضعيف منهزم هو المسلمين، وألا تتغير هذه الصورة حتى تتم التسوية.

لذلك كانت "الإندبندت" تخشى أن تتغير هذه الصورة لصالح المسلمين فهي تقول: "إن المسلمين قد أخذهم الزهو بانتصاراتهم في وسط البوسنة وشمالها الغربي وسيكونون هم وليس الصرب العقبة في طريق السلام لأن انتصاراتهم ستجعلهم أكثر تشدّدًا".

لذلك كان القصف الأطلسي للمواقع الصربية مركزًا فقط على مستودعات الذخيرة وخطوط المواصلات والإمدادات وبعض المنشآت العسكرية، ولم يمسس شيئاً من الدبابات والمدافع وغيرها من الأسلحة الثقيلة التي يتفوق بها الصرب على القوات البوسنوية، فلم يكن المطلوب هو حرمان الصرب من تفوقهم العسكري، وإنما مجرد إقناع قادتهم بأن الاستمرار في الحرب والعناد لم يعد في صالحهم، وأنه لا مفر من الجلوس إلى مائدة المفاوضات للوصول إلى تسوية نهائية.

تسارع الخطى نحو التسوية :

في هذا السياق كانت تجرى مساعي المبعوث الأمريكي "ريتشارد هولبروك" في بلجراد. الآن فقط لم يعد هناك شك في أصل العدوان ومصدره ومخططه فقد أهمل "هولبروك" "رادوفان كراجيتش" رئيس جمهورية صرب البوسنة المزعوم، كما أهمل "راتكو ملا ديتش" قائد قواته العسكرية واتجه مباشرة إلى "سلوبودان مليوسفيتش"، وجرت المفاوضات بالفعل بين رؤساء جمهوريات صربيا والبوسنة وكرواتيا وأُستبعد كل من "كراجيتش" و "ملاديتش" فلم يكونا سوى أداتين في يد الفاعل الأصلي "سلوبودان مليوسفيتش" لتحقيق حلمه في إقامة صربيا الكبرى التي تضم كل الصرب وتستبعد كل ما سواهم.

وأصبح كل من "كراجيتش" و "ميلاديتش" رسميا- مجرمي حرب مطلوبين للعدالة أمام المحكمة الدولية لمجرمي حرب البوسنة في لاهاي. وغض المجتمع الدولي الطرف عن

المتهم الأول ومجرم الحرب الأصلي "ميلوسفيتش" بل اعتبره رجل سلام، لأن الغرب أراد أن يغلق صفحة البوسنة ولو بصفة مؤقتة.

وعلى صعيد أخر جاء "نيكولاس سوميز" وزير الدولة البريطاني للدفاع (خلال الأسبوع الثاني من أكتوبر ١٩٩٥) لمقابلة الرئيس مبارك والملك فهد والملك حسين وملك المغرب لإقناعهم بدور أوروبا الجديد وبصفة خاصة دور بريطانيا في تسوية أزمة البوسنة، ولينصح بعدم التمادي في مطالبة الدول المسلمة أو سعيها في تسليح مسلمي البوسنة، محذّرا من وقوع كارثة مروّعة ما لم يتم تنفيذ وقف إطلاق النار والبدء في مفاوضات السلام. وأكد الوزير البريطاني أنه ليس ثمة حل عسكري لأزمة البوسنة، وأنه ما من دولة أو قوة في مقدروها فرض أي حل بدون قبول الأطراف المتنازعة. قال هذا من باب حرص بريطانيا على أن يتفهم أصدقاؤها العرب هذا الموقف.

وقد أشرنا فيما سلف إلى أن مجموعة الاتصال الدولية كان مقررًا لها أن تلتقي مع مجموعة الاتصال التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في باريس يوم الخميس (١١ سبتمبر ١٩٩٥)، وكان لهذه المجموعة موقف معلن مفاده "أن الدول المسلمة نتيجة لتقاعس الغرب في أزمة البوسنة أصبحت في حِلٍّ من عدم التقيّد بقرار حظر التسلح في البوسنة للدفاع عن أنفسهم، متشجعة في ذلك الموقف باتجاه الكونجرس الأمريكي الذي كان على وشك إصدار قرار برفع حظر التسلح عن البوسنة، وبتصريحات الرئيس "بل كلينتون" التي كثيرا ما بدت مؤيدة لهذا الاتجاه. ولكن اللقاء بين مجموعتي الاتصال مع التحرك الغربي نحو الدول المسلمة استهدف قطع الطريق على العرب والمسلمين واشعارهم "أن كُفّوا أيديكم عن القضية فقد اعتزمنا حلها بطريقتنا الخاصة وما عليكم إلا أن تصمتوا وتشاهدوا"، وكان لهذه الرسالة تأثير السحر، فقد صمتت مجموعة الاتصال الإسلامية بعد ذلك صمت الموتى، وبدأت موجة من التراجع في الخطاب السياسي بالدول العربية فبدلا من الحماس المتعلق بضرورة تسليح المسلمين في البوسنة للدفاع عن أنفسهم أصبحنا نسمع "أن تسليح المسلمين قد فات أوانه وأنه لم يعد الآن مجديا، وأنه لو حدث فسوف تتدخل روسيا بمزيد من التسليح للصرب وتزداد الحرب اشتعالا"، وكأن الدول العربية أصبحت بين يوم وليلة تتبنى وجهة النظر البريطانية المتطرفة في غلوائها رغم ثبوت بطلانها، وكانت سببا في كارثة المسلمين بالبوسنة.

المهم أن الدول الغربية نجحت في تسويق تسويتها السلمية لأزمة البوسنة عند الدول المسلمة وفي العالم بأثره بحيث استشعر قادة المسلمين في البوسنة بأنه ليس أمامهم باب مفتوح سوى باب المفاوضات تحت رحمة الغرب أو سطوته. وعلى هذا الأساس استُدعي:

"علي عزت بيجوفيتش" رئيس جمهورية البوسنة، و "سلوبودان ميلوسفيتش" رئيس جمهورية صربيا" و "فرانيو توجمان" رئيس جمهورية كرواتيا، وانتقل الجميع إلى قاعدة الطيران العسكرية في "دايتون" الواقعة بولاية "أوهايو" من أجل بدء المفاوضات، بحيث لا يخرج أطراف النزاع الثلاثة من المكان إلا بعد أن ينتهوا تماماً من تفاصيل الاتفاق على تسوية نهائية فيما بينهم. كانت المنطقة معزولة عن أعين الصحافة والإعلام العالميين، تماما على النمط الأمريكي الذي جُرّب من قبل في مفاوضات السلام بين الرئيسين "السادات" و "مناحم بيجن" فيما عرف باتفاقية "كامب ديفيد".

انتهت المفاوضات باتفاقية عرفت باسم "اتفاقية دايتون للسلام" ووقّع عليها الأطراف الثلاثة بالأحرف الأولى في ٢١ نوفمبر ١٩٩٥م. ثم تم التوقيع النهائي عليها في باريس أمام رؤساء دول مجموعة الاتصال الدولية: الرئيس الأمريكي "بل كلينتون" ورئيس الوزراء البريطاني "جون ميجور" والرئيس الفرنسي "شيراك" والرئيس الألماني "هلموت كول" والرئيس الروسي "بوريس يلتسن".

حدث هذا يوم السبت الموافق عشرين من ديسمبر ١٩٩٥م في "الإليزيه" قصر الرئاسة الفرنسية بباريس. وفي نفس اليوم أغلقت أسوأ صفحة في تاريخ الأمم المتحدة وتسلم حلف الأطلسي مكانها للإشراف على تنفيذ اتفاقية "دايتون".

الفصل التاسع

اتفاقية دايتون للسلام

كانت المبادرة الدبلوماسية الأمريكية لكبح القتال في البوسنة في مجموعها مبادرة هلامية فيما عدا مكوناتها الأساسية، وعلى الرغم من أنها تحافظ اسميًّا على سيادة البوسنة ووحدة أراضيها تحت سلطة بالغة الوهن، إلا أنها- في واقع الأمر تقسّم البلاد إلى قسمين: يسيطر على قسم منها (٥١٪) فدرالية مسلمي وكروات البوسنة وعلى القسم الثاني (٤٩٪) كيان صربي. ثم تطورت هذه المبادرة بعض الشيء في جنيف حيث وافق الأطراف الثلاثة على مبادئ قليلة منها وسميت حينذاك "خطة السلام"، وُصفت هذه الخطة بأنها قائمة بالأفكار والمقترحات مُقدّمة إلى مختلف الأطراف المتفاوضة، ويبدو أن الإدارة الأمريكية كانت تأمل أن يجد الأطراف فيها مبادئ مشتركة يمكن إقامة تسوية على أساسها في النهاية.

كان هذا مدخلا يشبه المدخل السابق لمجموعة الاتصال الدولية الذي كان قائما على أساس خرائط إما أن تُقبل وإما ترفض، ولم يكن مع هذه الخرائط خطة محددة وإنما مجرد قضايا وأفكار للمناقشة، وبناء على ذلك كان للوسطاء مجال للمناورة إذْ أنهم لم يلتزموا بتفاصيل مكتوبة، وفي نفس الوقت أحدث هذا المدخل ارتباكا حتى بين الأطراف المعنيّة، فإنهم لم يكونوا يعرفون على وجه الدقة ماذا كان مطروحا بالفعل على مائدة المفاوضات. وقد تداركت الولايات المتحدة هذا النقص فقدّمت في "دايتون" خطة محددة المعالم مليئة بالتفاصيل.

كيف ولماذا قادت الولايات المتحدة عملية السلام في النهاية؟: هذا سؤال بالغ الأهمية طرحه الباحثون في "معهد الدراسات البلقانية" بواشنطن على أنفسهم وحاولوا الإجابة عليه في إطار دراسة تقييمية مستفيضة لمبادرة السلام الأمريكية.

لاحظنا أن الولايات المتحدة في بداية حرب البوسنة كانت تحاول أن تنأى بنفسها عن التدخل في الأزمة بحجة أنها شأن أوروبي وعلى أوروبا أن تجد له حلا، ولكنها تحققت أن دول أوروبا لم تكن مؤهلة للقيام بهذا الدور بل أسهمت في تردي الأوضاع واستمرار المذابح في مشهد يومي فاضح أمام العالم لأكثر من ثلاث سنوات، ولذلك لم تجد الولايات المتحدة مفراً من التدخل وأخذ زمام المبادرة في يدها.

في تقرير معهد الدراسات البلقانية نجد أن من أبرز العوامل التي أهّلت الولايات المتحدة لقيادة عملية السلام في البوسنة هو استعدادها والتزامها بالمشاركة المباشرة والفعّالة في تنفيذ الاتفاقية التي تحظى بقبول الأطراف المتنازعة على النحو الآتي:

١- إرسال ٢٥ ألف من قواتها الأرضية كجزء من قوات حلف الأطلسي المقترحة والمقدر عددها بخمسين ألف جندي وضابط.

٢- إعادة بناء البنية الأساسية والقوة العسكرية في البوسنة.

٣- توفير مئات الملايين من الدولارات للبوسنة كمساعدات اقتصادية وعسكرية.

وفي الإجابة على الشق الثاني من السؤال المطروح انتهت دراسة المعهد إلى العناصر الهامة التالية التي تشكل هذه الإجابة:

أولاً: جاءت خطة السلام الجديدة لإدارة "كلينتون" في لحظة رأى فيها الجميع بوضوح أن هناك احتمالات امتداد الحرب في المنطقة.

ثانياً: كان تخلّي الولايات المتحدة وأوروبا عن المناطق التي أعلنها مجلس الأمن "ملاذات آمنة" وترك سكانها المدنيين فريسة للمذابح الصربية- بمثابة تقويض لمصداقية الغرب مما ضاعف الضغوط لعكس تيار السياسات الغربية السائدة في ذلك الوقت.

ثالثاً: كان للهجوم المضاد الناجح لكرواتيا على منطقة "كرايينا" واستعادتها ثم اشتراكها بعد ذلك مع قوات جيش البوسنة في "بيهاتش"، وانتصارات المسلمين في شمال ووسط البوسنة- كان لهذا كله أثر في إدراك الغرب أن المكاسب التي حققتها صربيا على الأرض يمكن قلبها بواسطة القوات المسلحة.

رابعاً: تزايد الضغوط من الكونجرس الأمريكي والدول المسلمة ودول عدم الانحياز فيما يتعلق بإلغاء الحظر على توريد السلاح للبوسنة كشف عن حقيقة جديدة وهي أنه في المدى الطويل يبدو أن الوقت قد أصبح في صالح الضحية البوسنوية لا في صالح الصرب.

خامساً: أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا أنهما لن يبقيا طويلا في البوسنة تحت ظروف تصاعد العمليات القتالية، وكان هذا الانسحاب من شأنه أن يؤدي بالضرورة إلى إنهاء الحظر على الأسلحة، وهذا معناه استمرار القتال في البوسنة.

سادساً: أصبح من الواضح أيضا أنه ما لم يستقر الوضع على الأرض في البوسنة أو أن الإدارة الأمريكية لم تحقق تقدّما ملحوظا نحو التسوية، فإن الكونجرس- على

الأرجح- كان سيتخطى حق الرئيس الأمريكي- في "الفيتو"- في مشروع "دُولْ- ليبرمان" لإنهاء حظر السلاح عن حكومة البوسنة، وكان هذا سيعتبر أكبر هزيمة في السياسة الخارجية لرئيس أمريكي.

سابعاً: توقع مستشارو الرئيس السياسيين أن المعارضة الداخلية والجماهيرية للرئيس كلينتون في تعامله مع أزمة البوسنة سوف تتعاظم وقد بدأت حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية.

ثامناً: خلُص مستشارو البيت الأبيض الذين طبخوا مبادرة السلام إلى أن تسوية سريعة من أي نوع ستكون أفضل من استمرار القتال بصرف النظر عن نتائجه. وقد يكونون أيضا قد رأوا أن محاولة جادة- حتى ولو أنها متأخرة أو فاشلة- ستكون أفضل (من الناحية السياسية) من استمرار التراخي عن العمل.

ونتيجة لذلك كله كان على الإدارة الأمريكية أن تجد مخرجا: إما بإبقاء القوات الدولية للأمم المتحدة في مكانها (ولم يعد هذا ممكنا) وإما الحصول على تسوية سريعة.

وينتهي التقرير في هذه النقطة إلى أنه بدلا من الاستفادة من الانتصارات التي حققها التحالف الكرواتي المسلم ضد المعتدي فإن الإدارة الأمريكية قد ألقت بقوات طيران حلف الأطلسي وبثقلها الدبلوماسي الكامل خلف تسوية لتجميد الأوضاع في معظم الأراضي التي استولت عليها صربيا. وبذلك يبدو أن الرئيس الأمريكي ومجموعة من رجاله من صانعي السياسة الخارجية كانوا جميعا مدفوعين بحسابات أمريكية محلية لا بدوافع استراتيجية أساسية أو مصالح سياسية خارجية.

إغراءات وتهديدات :

في محاول من الولايات المتحدة لدفع أطراف النزاع إلى التعاون في مرحلة المفاوضات ومرحلة تنفيذ الاتفاقية قدّمت عدداً من الإغراءات والتهديدات لكل من صربيا وكرواتيا والبوسنة.

فبالنسبة لصربيا: رأينا أنه منذ نهاية شهر أغسطس ١٩٩٥ كان حلف الأطلسي يقوم- بصفة متقطعة- بضربات جوية على أهداف صربية مختارة. وعلى الرغم من أن هذا الغارات تمثل أكبر استخدام للقوات الجوية منذ بدأت حرب البوسنة إلا أنها كانت تستهدف بصفة أساسية تخفيف الحصار عن سراييفو ودفع صرب البوسنة للموافقة على التفاوض وعلى خطط التقسيم الجديدة المقترحة؛ ومن ثم فقد وُجهت هذه الغارات إلى عدد محدد من الأهداف- بحيث إذا دمرت شيئا- فإنها لا تؤثر مستقبلا على قدرة الصرب من الاحتفاظ بالأراضي

التي استولوا عليها. ومن الناحية العملية كانت جميـع الأهـداف تقـع- كما ذكرنـا- حـول سـراييفو، وفـي مناطق طلبـت الإدارة الأمريكيـة مـن الصـرب التنـازل عنـها طبقـا لخريطـة التقسيم، ومن ثم استطاعت هذه الغارات أن تخفف الحصار حول سراييفو و "توزلا" بينما لم توجه نحو "بينالوكا" لأنها ستكون من نصيب الصرب بمقتضى الخريطة.

من ناحية أخرى وُعدت صربيا بإنهاء المقاطعات الدولية في مقابل الاعتراف الدبلوماسي بالبوسنة والهرسك، وبصفة خاصة اعتراف صربيـا بالبوسـنة وحكومتـها بحدودهـا المعـترف بها.

فإذا لم تقبل القوات الصربية الخطة الأمريكية فـإن الإدارة الأمريكيـة تلـوح بالتـهديدات الآتية:

- رفع الحظر عن تسليح البوسنة.
- توجيه حملات جوية استراتيجية على نطاق واسع لضرب أهداف صربية.
- مساندة إدخال عشرات الألوف من القوات العسكرية لـدول صديقـة للبوسـنة بغـرض الدفاع عنها.

وبالنسبة لكرواتيا:- سُـمح لكرواتيـا باسـتعادة منطقـة "كرايينـا" وطـرد الصـرب منـها وُوعدت باستعادة "سلافونيا" عن طريق المفاوضات- بمقتضـى الخطـة سـوف تملـك حكومـة البوسنة والاتحاد الكرواتي المسلم على ٥١٪ من أراضي البوسنة، ومن الناحيـة العمليـة فـإن هذه الأراضي سوف تكون معتمدة في بقائها السياسي والاقتصادي والعسكري علـى كرواتيـا، علاوة على أن مناطق كثـيرة منـها تقـع فـي حـوزة الكـروات الانفصـاليين الذيـن هـم عمـلاء لكرواتيا. وبالإضافة إلى ذلك كله عُرض على كرواتيا مساعدات اقتصادية وعسكرية، بما فـي ذلك مشاركتها المستقبلية في حلف الأطلسي، وعلاقات قوية مع الاتحاد الأوروبي.

أما بالنسبة للبوسنة: فإن أهم شيء هو ضمان وقف العدوان الصربي عليها، مـع وعـود سخية من الإدارة الأمريكية بمساعدات اقتصادية وعسكرية وإعادة البنـاء إذا قبلـت الخطـة، وإذا لم تقبل فإن هذه التعهدات ستعتبر لاغية.

نظرة نقدية:

أكثر الأمور أهمية في هذه الاتفاقية هي أكثرها غموضـا وخطـراً علـى مسـتقبل البوسـنة، وأعنى بهذه الأمور الترتيبات الدستورية والسياسية، فقد اتفق الأطراف علـى دولـة بوسـنوية موحدة مشتملة على كيانين محكومين حكما مستقلاً هما: الاتحاد الفدرالي الكرواتي المسلم، وجمهورية صرب البوسنة، سيكون لكـل منـهما دسـتوره المسـتقل وسيُسـمح لـهما بعلاقـات

خاصة متوازية بالدول المجاورة، بينما تبقى القضايا الحيوية قيد التفاوض مثل صلاحيات السلطة المركزية وطريقة بنائها بما في ذلك: البرلمان والهيئات الإدارية والقضائية، وصلاحيات الدفاع والضرائب، كل ذلك يبقى قيد التفاوض، هذه السلطة المركزية ليس لها سيطرة حقيقية على حدود البوسنة ولا على الضرائب أو الدفاع فيما عدا الأراضي الواقعة بالفعل تحت سيطرة حكومة البوسنة وحيازتها.

هذا الوضع يعطي للمنطقة التي يحتلها الصرب استقلالا ذاتيا قد يؤدي إلى انفصال كامل لهذه المنطقة. ومنح هذا الكيان فرصة إقامة علاقات خاصة مع الدول المجاورة معناه أن تقوم بعلاقات خارجية أو تشكل وحدة كونفدرالية مع صربيا، وفي هذا تهديد خطير قد يقضي على سيادة البوسنة. ولما كانت الاتفاقية تتيح لهذا الكيان دستورا مستقلا فمن الممكن أن يترتب على ذلك سيطرة منفصلة على الحدود وعلى الضرائب وعلى القوات المسلحة، وكل هذا سيقضي على سيادة البوسنة.

هذه الاتفاقية لا تجمد السيطرة الصربية على نصف البوسنة فقط وإنما سنرى أيضا أنها ستخضع سكانها لدكتاتورية بغيضة، وستكون مصدر إزعاج واضطراب للبوسنة بأثرها.

ومنح عملاء صربيا في البوسنة هذا المستوى من السلطة والسيطرة على نصف البوسنة قد يجعل كرواتيا وعملاءها في البوسنة يعيدون النظر في موقفهم من الاتحاد البوسنوي. فهذا الاتحاد– حتى الآن وربما لفترة من الزمن– قائم بضمان وتأثير ضاغط من ألمانيا ومن الولايات المتحدة، ولكن استمرار هذا الضمان أو الضغط غير مأمون العواقب لأن كل شيء يعتمد على موقف كرواتيا نفسها وفي هذا أقوى عامل يعزز تقسيم البوسنة نهائيا إلى ثلاثة كيانات مستقلة، وعلى الأخص إذا استمر الحزب القومي المتطرف بزعامة "فرانيو توجمان" يهيمن على السياسة والسلطة في كرواتيا، لأنه يدعم ويشجع العناصر المتطرفة من كروات البوسنة على الانفصال.

من الأمور الحيوية التي لم يكن يجب تركها لمفاوضات لاحقة:

أولاً: وصف دقيق للعمليات السياسية والعسكرية الموحدة تشمل جميع أراضي البوسنة مشتملة على الكيان الصربي.

ثانياً: الحكومة المركزية تكون هي وحدها صاحبة السلطة على الحدود والضرائب والسياسة الخارجية والدفاع الوطني في كل أراضي البوسنة والهرسك.

ثالثاً: نزع سلاح المناطق التي لا توجد تحت سيطرة الحكومة مباشرة بما في ذلك إجراءات دقيقة لسحب الأسلحة أو تدميرها.

رابعاً: إبعاد قادة المليشيات العسكرية التي قامت صربيا بزرعها في البوسنة.

خامساً: ضمان عودة اللاجئين وفق برنامج زمني وخلق الظروف والضمانات المناسبة لعودتهم في القرى والمدن التي تخضع لسلطات صرب البوسنة.

سادساً: إعادة الممتلكات إلى أصحابها الحقيقيين.

سابعاً: القبض على جميع مجرمي الحرب وعلى رأسهم "رادوفان كراجيتش" و "راتكو ملاديتش" وتقديمهم للقصاص العادل أمام محكمة مجري حرب البوسنة في لاهاي، فبدون القصاص العادل يستحيل تحقيق الاستقرار والسلام في البوسنة.

وأضيف إلى ذلك عنصرا ثامناً كان يجب حسمه من البداية ذلك هو وضع "برتشكو" الذي ترك لمفاوضات لاحقة، وقد اعتبر المحللون السياسيون هذا الوضع قنبلة زمنية قابلة للانفجار في أي لحظة لذلك يرون كما يرى بعض الذين شاركوا في مفاوضات السلام أن إتفاقية دايتون القائمة على أساس من تقسيم البوسنة لن تأتي بسلام حقيقي لا في البوسنة ولا في البلقان. بل يرى بعضهم أن هذه الاتفاقية سوف تشجع على اندلاع القتال وعلى التطهير العنصري مرة أخرى، علاوة على أن هذه الاتفاقية في مجرى تنفيذها سوف تواجه بعقبات قاتلة عند كل مفترق.

بعد توقيع الاتفاقية وقف كل من الرئيسين ميلوسفيتش الصربي وتوجمان الكرواتي فشكرا الرئيس كلينتون أمام عدسات التلفاز، أما الرئيس على عزت فلم يشكر أحدا ولكنه وجه خطابه مباشرة إلى شعب البوسنة فقال: "لم يكن الاتفاق عادلا بالنسبة للبوسنة، ولكن يشهد الله أننا بذلنا كل ما في وسعنا من جهد للوصول إلى تسوية عادلة".

هذا الشعور بالمرارة يصبغ حديث الرئيس علي عزت كلما سؤل عن رأيه في اتفاقية دايتون، فقد أوقفت الاتفاقية المذابح الصربية وأعطت للمسلمين فسحة لالتقاط الأنفاس ولكنها عجزت عن تحقيق العدل، بل أجازت المعتدي على عدوانه بتثبيته في الأرض التي اغتصبها، لذلك يصف الرئيس علي عزت هذا الموقف بأنه "المذاق المر للسلام".

الفصل العاشر

ما بعد دايتون

بعد مرور عام على توقيع اتفاقيــة دايتـون يـتزايد الشـعور بـالقلق فـي البوسـنة فلـم يتـم التوصّل إلى حل لمشكلة واحدة من المشاكل الأساسـية التـي نصّـت عليـها الاتفاقيـة، وفـي نفس الوقت يفقد الرأي العـام العـالمي اهتمامـه بـالموضوع لأن صـورة البوسـنة اختلفـت مـن شاشات التلفاز. لقد فشل المجتمع الدولي مرة ثانية في وضع أسـاس سياسـي لسـلام عـادل ودائم في البوسنة، وهذا ما تكشّف عنه مؤتمر دولـي انعقـد فـي لنـدن خـلال شـهر ديسـمبر ١٩٩٦م. حضر المؤتمر أربعون دولة بالإضافة إلى ثلاثة عشر ممثـلا عـن المنظمـات الدوليـة. اجتمعت هذه الوفود لتقييم ما تم تنفيذه من الاتفاقية خلال العام المنصرم، ولمناقشة أولويات العمل للسنة القادمة.

وجد المؤتمر أمامه حشدا كبـيرا مـن المسـائل التـي كـان يجـب أن يتـم إنجازهـا العـام الماضي ولكنـها لـم تُنجـز بعـد: فالمؤسسـات المشـتركة التـي يُفـترض أن تجمـع "الاتحـاد الكرواتي المسلم" و "جمهورية صرب البوسنة" معا لـم تتحقـق، ومـن بيـن مليونيـن ونصـف مليون لاجئ لم يتمكن سوى ١٠٪ منهم من العودة إلى ديـارهم بينمـا لا يـزال طـرد السـكان المسلمين مستمرا في المناطق الصربية، ومنعــهم مـن العـودة دائـر كذلـك فـي المنـاطق التـي يهيمن عليها سلطات كرواتيـة. وتضـم قائمـة الاتـهام الدوليـة أربعـة وسـبعون شـخصية مـن مجرمي الحرب تم القبض علي سبعة منهم فقط أما كبار المجرميـن فـلا يزالـون يعيثـون فـي الأرض فسادا ويتنقلون بحرية كاملة تحت بصر وسمع قوات حلف الأطلسي التي لا تستطيع أن تقوم بالقبض عليهم بحجة أنه ليس لديها صلاحيات في هذا الشأن فهي ليسـت مخوّلـة بالذهاب إلى بيوت هؤلاء الناس ودق أبوابهم ثم إلقاء القبض عليهم، فنص الاتفاقية يعطيـهم الحق في القبض عليهم فقط إذا صادفوهم في الطريق عرضاً، وهذا ما يحدث كل يوم بـالفعل ولكن أفراد قوات حلف الأطلسي يغضون الطرف عـن هـؤلاء المجرميـن ويفضلـون أن يديـروا وجوههم إلى الجانب الآخر حتى لا تقع عيونهم على أحد منهم، وقد عبر عن هذا الموقـف السلبي بعض ضباط حلف الأطلسي بقولهم: إننا جنود في قوات عسكرية ولسنا من الشرطة.

وتشكلت قوة شرطة دولية مهمتها مراقبة قوات الشرطة المحلية في البوسـنة فـي تطبيـق القانون خاصة ما يتعلق منه بحقوق الإنسان ولكن هذه القوة الدولية مجردة من السلاح وليـس

لديها صلاحيات هي الأخرى للقبض على مجرمي الحرب التي نصت الاتفاقية على ضرورة تقديمهم إلى محكمة لاهاي. ومن ثم فلا القوات العسكرية لحلف الأطلسي ولا قوات الشرطة الدولية قادرة على تنفيذ هذا الجانب الهام من جوانب الاتفاقية فمن يقوم بذلك؟ هل يتوقع المجتمع الدولي أن يقوم "سلوبودان ميلوسفيتش" مثلا بالقبض عليهم وتسليمهم إلى العدالة وهو كبير عصابة المجرمين الصرب؟ هل يقدم "ميلوسفيتش" الدليل على إدانته بنفسه!؟ أم هل يتوقع المجتمع الدولي أن يقوم المجرمون بتقديم أنفسهم بأنفسهم إلى العدالة؟!(١٣٤)

لقد صدرت توصيات مؤتمر لندن في واحد وأربعين صفحة ولكن ما قيمتها؟ إن اتفاقية دايتون تفتقر إلى الآليات اللازمة لتنفيذ الجوانب المدنية من الاتفاقية، كما أنها غامضة أشد الغموض فيما يتعلق بتحديد سلطات المندوب السامي للمجتمع الدولي في البوسنة. الذي يشغل هذا المركز هو "كارل بلت"، كان رئيسا لوزراء دولة السّويد وهو شخصية مرموقة ومقتدرة ولكن ما حيلته وهو مسئول على الورق عن التنسيق لعمليات السلام في البوسنة، ولكن لا سلطان له على القوات الدولية المسلحة ولا قوات الشرطة، ولا سبيل له إلا أن يستمر في إصدار توصيات، لأنه لا يملك الصلاحية لإصدار قرارات يمكن أن توضع موضع التنفيذ.

المعضلة هنا تكمن في عدم وجود آليات لتنفيذ الاتفاقية سوى التشجيع الدبلوماسي من جانب الدول الغربية والتلويح بقطع المعونات الاقتصادية أو المقاطعة، وفي هذا عودة مرة أخرى إلى الأسلوب العقيم الذي ثبت فشله في حرب البوسنة.

ولكن يحق لنا أن نتساءل هل ترجع المشكلة فقط إلى غياب آليات التنفيذ أم إلى غياب الإرادة أيضا؟، وماذا يرى مهندس اتفاقية دايتون للسلام في هذه القضية؟، يقول "ريتشارد هولبروك" في مقال له بمجلة "تيم" الأمريكية (١٢ مايو ١٩٩٦): "لقد قامت الولايات المتحدة بالتزاماتها العسكرية تجاه اتفاقية دايتون كما وعدت، ولكن هناك إشارات خطيرة تبدو في سلوك بعض الدول الأوروبية إذ يبدو أن هذه الدول قد ألقت بتعهداتها والتزاماتها فيما يتعلق بالجوانب المدنية عرض الحائط بما في ذلك: إعادة البناء الاقتصادي للبوسنة، وإعادة اللاجئين إلى ديارهم، وتقديم مجرمي الحرب إلى العدالة، والإعداد لانتخابات حرة سليمة". هكذا عبر مهندس الاتفاقية عن رأيه بصراحة، بل نراه أكثر من ذلك يتهم الدول الأوروبية بموقفها هذا إنما تعرّض الاستقرار في البلقان إلى الانهيار، فقد ينتهي الوضع في

(١٣٤) حتى يوم ١٤ فبراير ١٩٩٨ لم يتطوع أحد من الصرب بتقديم نفسه للمحاكمة سوى أربعة: اثنان منهما- بعد صحوة ضمير- يعترفان بذنوبهما ويرغبان في التكفير عنها، أما الآخران فلا يزالان ينكران جرائمهما.

البوسنة إلى واحد من الاحتمالات الثلاثة: استئناف القتال، نجاح الفيدرالية، أو التقسيم، وفي تقييمه أن استئناف القتال هو أقل الاحتمالات ورودا، ولكنه يخشى من التقسيم لأنه اطلع على ما يدور من أحاديث بين كبار المسئولين في الدول الأوروبية بعيدا عن وسائل الإعلام، ويرى أنهم يهيئون الأوضاع لتقسيم البوسنة تقسيما نهائياً في السنوات القادمة على أساس من الأمر الواقع.[١٣٥]

كراجيتش أكبر عائق في طريق السلام:

الرجل الذي دمر البوسنة هو نفسه الذي يعمل الآن على تدمير اتفاقية دايتون للسلام. وقد عرفنا أطرافا من أفكاره وأعماله الإجرامية خلال حرب البوسنة، ولكن السياسي والكاتب الصربي "فلاديمير سربروف" يكشف لنا عن أبعاد أخرى خطيرة من شخصية "رادوفان كراجيتش"، "وسربروف" يعرف "كراجيتش" معرفة وثيقة، فهو أحد مؤسسي "حزب الصرب الديمقراطي" الذي ينتمي إليه "كراجيتش". في لقاء صحفي أجراه معه الصحفي "عادل كولينوفيش" سأله: "لعل الدكتور كراجيتش هو بلا شك الشخص الذي سوف يترك بصمته على مصير الشعب الصربي في البوسنة والهرسك؟"

فأجاب "سربروف" مستنكرا: "تقصد رادوفان كراجيتش المجرم.. لقد تعجبت للطريقة التي عامله بها المجتمع الدولي وأحاطه بكثير من الاحترام الذي لا يستحقه.. لقد بدأ يظهر خلال سنتي ١٩٩٠و ١٩٩١ في مؤسسات الصرب السياسية والأكاديمية ولكني كنت أعرفه وأعرف صديقه "كرايزنك" فكلاهما من المجرمين ولذلك كنت أحذّر دائماً من خطر وجودهما في قيادة القوميين الصرب، وإذا كنت تريد أن تعرف ماضيه الإجرامي فيمكنك البحث عنه في أرشيف وزارة داخلية جمهورية البوسنة والهرسك.. لقد كان كراجيتش أداة في يد المجرم الأكبر "سلوبودان ميلوسفيتش"."

الصحفي: مهما يكن الأمر فإن كراجيتش- ولو من الناحية الرسمية فقط- لا يزال في مركز السلطة.

أجاب "سربروف": إنك ما فتئت تتحدث عنه كأنه حكومة حقيقية، إنه لا شيء أكثر من محتال مخادع، وأولئك الذين يقومون بحمايته ويعملون معه أكثرهم من المجرمين.. إنه رجل مصاب بجنون العظمة، وقد اختارته القيادة الصربية في بلجراد كأداة لهم في تدمير البوسنة والهرسك.. اختاروه لأنه كان معروفا عندهم بكراهيته العمياء لهذه البلاد.. لقد كان

---

[١٣٥] أنظر تعليق "توم رودس" على مقال هولبروك في صحيفة "التيمز" البريطانية، الصادرة في ١٣ مايو ١٩٩٦، أنظر أيضا صحيفة الصنداي تيمز الصادرة في ١٨ أغسطس ١٩٩٦م.

عضوا في جمعية كتاب البوسنة ولأنني عضو فيها فإننا كنا نعلم أنه يعمل في خدمة رجال الأمن.. يعني كان يتجسس علينا لحساب البوليس.. ولأنه شخص عديم الأخلاق فاقد الكرامة كان صالحا لتنفيذ أقذر خطة.. أقصد خطة تدمير البوسنة والهرسك.. أرجو أن تقرأ أحاديثه وسوف تتحقق أنه أسوأ من هتلر.

بعد أن تم توقيع اتفاقية دايتون في باريس بدون وجود كراجيتش تحقق أن دوره كعميل قد أصبح في ذمة التاريخ، ولكنه خرج من اللعبة وهو يملك أشياء خطيرة:

١- يملك أسرارا تدين شخصيات كبيرة في القيادة الصربية على رأسهم ميلوسفيتش نفسه.

٢- يملك أموالا طائلة جمعها من احتكار تجارة البترول والسجاير المهربة.

٣- يملك قوة خاصة من الشرطة وعصابة من البلطجية يأتمرون بأمره.

٤- يملك قوة إعلامية تتمثل في محطة راديو وتلفاز وصحف تبث أفكاره العنصرية.

لقد خرّب كراجيتش البوسنة في الحرب وهو يعمل في وقت السلم على تخريب اتفاقية دايتون، وهذا هو الدور الجديد الذي سخر له جهوده، ومن ثم فإن تركه حرا طليقا دون تقديمه إلى محكمة مجرمي الحرب في لاهاي جريمة أخرى جديدة يرتكبها المجتمع الدولي في حق شعب البوسنة.

أعلنت المحكمة في يوليه ١٩٩٥م اتهامها الرسمي لكل من "رادوفان كراجيتش" و "راتكو ملاديتش" بجرائم الحرب والمذابح التي جرت في البوسنة، وبعد عام كامل لم تتحرك القوات الدولية للقبض عليهما، ولذلك وجه القاضي "ريتشارد جولدستين" هجوما شديدا لقيادات حلف الأطلسي في البوسنة على تراخيهم في القبض على المتهمين، ويدرك قضاة المحكمة أن ترك هؤلاء المجرمين طلقاء خطر على الانتخابات التي كان مزمعا عقدها في الكيان الصربي، وعلى تنفيذ اتفاقية السلام، وعلى مصداقية المحكمة نفسها. ويرون أن منطق القوات الدولية الذي يقصر إمكانية القبض على المتهمين "إذا تصادف وجودهم أمام أفراد القوات الدولية أثناء تأديتهم عملهم فقط"- يرون أن هذا المنطق أقرب إلى الهزل منه إلى الجد.

وفي هذا يقول القاضي "جولدستين" متهكما: "تصوروا مجرما من عُتاة المجرمين مطلوبا للمحاكمة في إنجلترا، ولأنه قاتل خطير قيل له إن الشرطة لن تبحث عنك ولكنها سوف تنتظر حتى تمر بها عرضا أثناء تأدية وظيفتها، في هذه الحالة فقط سنلقي عليك القبض!".

تناقض الموقف الدولي :

إن المتقصّي لهذا الوضع يتضح له بجلاء مدى ما وصل إليه الموقف الدولي من ضعف وتناقض لا يمكن تصديقه، فبينما يُبالغ المجتمع الدولي من مخاطر محاولة القبض على كبار مجرمي الحرب من أمثال "كراجيتش" و "ملاديتش" يأتي الجنرال الصربي "جراكو توليمير" نائب قائد القوات الصربية ليعلن بصراحة كاملة لقائد قوات الأطلسي الأرضية في البوسنة "مايكل ووكر" بأن الجيش الصربي يقف موقفا محايدا من استبعاد "كراجيتش" وتقديمه للمحاكمة.

تابع هذه الحقيقة وأكدها فريق تحقيقات دولي يُطلق عليه اسم "المجموعة الدولية لبحث الكوارث" تضم في عضويتها شخصيات عالمية مرموقة من بينهم: "ميشيل روكار" رئيس وزراء فرنسا الأسبق، و "مارك أيسنكز" رئيس وزراء بلجيكا الأسبق، و "مالكوم فريزر" رئيس وزراء استراليا الأسبق، إلى جانب عدد كبير من وزراء خارجية الدول الغربية السابقين، ويترأس هذه المجموعة "جورج ميتشل" السناتور السابق في الكونجرس الأمريكي. هذه المجموعة ذات الوزن الدولي قامت بإرسال لجنة منهم إلى "بالي مقر القيادات السابقة لصرب البوسنة لتقصّي الأمر وانتهت إلى نتائج هامة سجلتها في تقرير أكدت فيه أن احتمال ردود الأفعال العنيفة من جرّاء القبض على "رادوفان كراجيتش" ضعيفة إلى أبعد الحدود ويمكن احتواؤها، كما أكدت أن الخطر من تركه طليقا على المدى الطويل يرجح المخاطر المحتملة والآنية من القبض عليه. ثم يمضي التقرير فيقول: "إنه طالما ظل "كراجيتش" طليقا فإن تركيبة السلطة القائمة في المنطقة الصربية سوف تبقى على ما هي عليه دون تغيير". وفي ختام التقرير توصي المجموعة بالإسراع في القبض على "كراجيتش" والجنرال ملاديتش". فهل هناك كلام أوضح وأصرح من هذا الكلام؟.

المسألة إذن ليست مسألة مخاطر متوقعة ولابد أن يكون لهذا الموقف الدولي المتميع من أبعاد أخرى غير ظاهرة، من أراد أن يتعمقها فليفتش عن بريطانيا فهي دائما وراء كل مصيبة تصيب البوسنة، وهذا ما كشفت عنه صحيفة "الصنداي تيمز" في عددها الصادر (١٨ أغسطس ١٩٩٦). فالحكومة البريطانية طالما أبدت لحلفائها عدم رضاها عن مجرد احتمال القبض على كراجيتش أو التفكير في ذلك، وهي التي بالغت في المخاطر التي يمكن أن تترتب على الإقدام على هذا الإجراء.

تقول الصحيفة: "ولكن السبب الحقيقي في رفض الحكومة البريطانية القبض على "كراجيتش" يكمن في شيء آخر غير المخاطر المزعومة، فهذه الحكومة ومستشاروها العسكريون جميعا لديهم اعتقاد قديم وراسخ بأن تقسيم البوسنة هو الحل الوحيد" وتمضي

الصحيفة لتقول: كأن هذه الحكومة لم تتعظ بنماذج التقسيم التاريخية التعيسة في أيرلنده وقبرص وفلسطين والهند!". ولذلك فإن الحكومة البريطانية لا يمكن أن تساند أي إجراء يمكن أن يكون سببا في استياء حلفائها الصرب، نفس هذا المنطق كان وراء ثورة الغضب التي شنتها الحكومة البريطانية قبل ذلك ببضع أسابيع على المنظمة الأوروبية للأمن والتعاون عندما اقترحت إلغاء حزب "كراجيتش" ومنعه من الدخول في الانتخابات إذا لم ينسحب "كراجيتش" كليّةً من الحياة السياسية. وكانت استقالة كراجيش كما ذكرت الصحيفة راجعة إلى جهود المبعوث الأمريكي "ريتشارد هولبروك" بدون موافقة ولا مساندة الحكومة البريطانية.

تعلم الحكومة البريطانية أن إزاحة "كراجيتش" سوف يترك فراغا يمكن أن يملأه السياسيون المعتدلون من صرب البوسنة مما يمنح فرصة أفضل لإعادة توحيد أجزاء البوسنة التي قطعتها الحرب، ولكن بريطانيا لا ترى في أفق المستقبل إلا بوسنة مقسمة، ولذلك فهي لا تبالي بالجهود التي تُبذل في إقامة مؤسسات مشتركة بين المنطقة الصربية والمنطقة الفدرالية من البوسنة، ومن هذا المنطلق يأتي موقفها المائع فيما يتعلق بالقبض على مجرمي الحرب وتسليمهم إلى محكمة لاهاي.

ومع هذا الفتور الواضح في الموقف الغربي من قضية مجرمي الحرب، نرى نشاطا غير عادي يتسم بالحماس الشديد للقبض على اثنين من المسلمين الإيرانيين لمجرد الاشتباه فيهما أن يكونا من الإرهابيين، وقد نشرت تفاصيل هذا الخبر صحيفة التيمز البريطانية في ١٧ فبراير ١٩٩٦م تحت عنوان مثير: "القبض على إيرانيين في حملة على قاعدة إرهابية".

تقول الصحيفة: "جـرّد "ليتون سميث" القائد الأمريكي لقوات حلف الأطلسي في البوسنة حملة مكونة من ٢٥٠ أمريكي وفرنسي معززة بالدبابات وطائرات الهليكوبتر، توجهت إلى موقع في "فونيتشا" يبعد عشرين ميلا غرب سرايبفو، كان يستعمل في الماضي مركزاً للتزلج، فألقوا القبض على اثنين من الإيرانيين ومعهم ثمانية بسنويين، وقد أكدت حكومة البوسنة أن الأمر لا علاقة له بالإرهاب ولا ما يشبه الإرهاب، فالثمانية البوسنويون من رجال الشرطة الحكومية كانوا يتلقون تدريبات من خبيرين إيرانيين على أعمال المخابرات، وأن هذا المركز التدريبي كان موجودا طوال فترة الحرب بعلم وتوجيه من حكومة البوسنة. ولكن القائد الأمريكي يصر على أنه وكر لتدريب الإرهابيين، وأن اتفاقية دايتون تحرم وجود قوات أجنبية في البوسنة وكان يجب أن يغادر هؤلاء الإيرانيون في موعد أقصاه ١٩ يناير الماضي.

إيرانيان اثنان اعتبرهما القائد الأمريكي "قوات أجنبية" بينما هو يعلم- مع غيره- أن هناك ألوف من الضباط والجنود والمليشيات الأجنبية بين قوات صرب البوسنة وقوات كروات البوسنة، ولم يجرّد حلف الأطلسي حملات لإخراج هذه القوات الأجنبية من البوسنة. ولكنها أعراض ما يمكن أن يسمى "إيرانوفوبيا" التي تصيب الأمريكيين في كل مكان.

قال ضابط في حلف الأطلسي لم يذكر اسمه لمندوب الصحيفة: "ليس لدينا أدلة على وجود عمليات إرهابية خرجت من هذا المركز، ولا جاءتنا شكوى من أحد عن هذه المدرسة التي أقامتها الحكومة البسنوية لتعليم المخابرات، إنما نحن نحتاط فقط لأي عمليات اختطاف أو إرهاب يقوم بها أفراد مشتبه فيهم مما يسبب إنتهاكا للاتفاقية". القضية في حجمها الطبيعي (كإجراء احتياطي) يمكن أن تكون أمرا مفهوما، أما حكاية القوات الأجنبية ووكر الإرهاب، وهذه المزاعم الكبيرة فلا أحد يصدق جدّيتها. ولكنها في النهاية تكشف عن التناقضات المزرية التي تقع فيها قوات حلف الأطلسي لتكرر المأساة التي خاضت فيها قوات الأمم المتحدة أثناء الحرب.

يتبلور التناقض الدولي في أمرين: تهاون في كل ما يتصل بالأطراف الصربية والكرواتية وتشدد مبالغ فيه في كل ما يتصل بمسلمي البوسنة. فنرى هذا التهاون الفادح- كما تبيّن لنا- في قضية تسليم مجرمي الحرب إلى العدالة، وفي إغماض العيون عن جميع المخالفات التي يرتكبها الصرب والكروات وعلى الأخص مخالفات صرب البوسنة في الامتناع عن تنفيذ اتفاقية دايتون، وفي تزوير الانتخابات وفي منع السكان المسلمين من العودة إلى ديارهم أو ممارسة حقوقهم الانتخابية، وفي مواصلة الصرب لأعمال الاضطهاد والإرهاب ضد المسلمين والقبض العشوائي عليهم.

أما تشدد المجتمع الدولي وضغوطه وشروطه فيه من نصيب مسلمي البوسنة وحدهم، فالبوسنة هي التي دمرتها الحرب وهي التي تحتاج إلى تسليح جيشها وتمويل مشروعاتها لإعادة بناء ما دمرته الحرب، والتمويل والتسليح كلاهما يأتي من الدول الغربية المهيمنة على تنفيذ اتفاقية دايتون وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية.

معالجة الحالة الإسلامية :

الذي أراه وأعتقد أنه سوف يستمر لفترة طويلة هو التباطؤ والتراخي في تقديم المساعدات المالية والعسكرية التي وُعدت بها البوسنة، حتى تضمن القوى الكبرى مواصلة تأثيرها وسيطرتها لإعادة صياغة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذه البلاد

بما يحقق الأهداف الغربية سواء منها الأهداف المعلنة أو غير المعلنة، ولا بأس أن تقوم هذه القوى من وقت لآخر بتعديل الخطط وتغيير جرعات العلاج بما يتناسب مع تطور الأوضاع في البوسنة. وفي هذا يكمن الفرق بين الأسلوب الأمريكي الحديث والأسلوب البريطاني التقليدي في معالجة الحالة الإسلامية في البوسنة.

أقول "الحالة الإسلامية" لأن الإسلام في البوسنة– منظور إليه بعين غربية– يعتبر حالة شاذة في قلب أوروبا ويجب علاجها، ولكن تذهب في علاجه القوى الغربية مذاهب شتى: فبريطانيا ترى تصفية الكيان المسلم في البوسنة نهائيا، وذلك عن طريق تذويبه في كيان أكبر منه وهو صربيا الكبرى بينما ترى الولايات المتحدة الأمريكية أن معالجة الحالة الإسلامية يأتي من عمليات تطوير وتوازنات على المدى الطويل. ولكي تهيّئ المناخ المناسب لهذه العمليات بدأت بربط المسلمين والكروات بما سمى بالفدرالية.

صحيح أن كروات البوسنة يعتبرون أقلية بالنسبة للمسلمين، ولكن تعزز وجودهم ووزنهم كرواتيا الكاثوليكية، بقوتها العددية والعسكرية، وهذا في حد ذاته يحقق توازنا في عملية تطوير المسلمين. أما عملية التوازن الثانية فقد خلقتها اتفاقية دايتون نفسها التي منحت المنطقة الصربية استقلالا باعتبارها جمهورية داخل جمهورية البوسنة، وسمحت لهذا الكيان بالاحتفاظ بقوة مسلحة منفصلة عن جيش البوسنة.

ولكي يستمر الاحتواء الكرواتي للمسلمين تشترط الولايات المتحدة في تقديم مساعداتها الاقتصادية والعسكرية أن تكون للفدرالية لا للمسلمين بصفتهم المنفردة. ويندرج في هذا الإطار أن يراعي في التمثيل الدبلوماسي نسبة التركيبة البشرية في البوسنة، ولابد أن تدور العلاقات الخارجية للبوسنة مع الدول المسلمة في حدود مرسومة لا تتعدّاها، وقد هددت الولايات المتحدة بقطع المساعدات والانسحاب من البوسنة إذا قبلت البوسنة مساعدات من إيران.[١٣٦]

وفي هذا السياق يُفرض على حكومة البوسنة إقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل،[١٣٧] وتبدأ تجارب لإفساد الحياة العامة بخلق بُؤر يلتقي فيها المغامرون وأصحاب السوابق من الكروات والصرب والبُشناق في أسواق حرة تباع فيها السلع الترفيهية بما في ذلك المخدّرات والجنس، ويلتقي فيها الجواسيس، ويلجأ إليها جنود القوات الدولية يلتمسون فيها المتعة المحرمة. من هذا توجد بؤرتان، واحدة في سرايبفو بالقرب من القوات

---

[١٣٦] أنظر "الصنداي تيمز" الصادرة في ٢١ إبريل ١٩٩٦م.

[١٣٧] أنظر الأهرام الصادرة في ٢٦ سبتمبر ١٩٩٧م.

البريطانية والفرنسية وبؤرة أخرى في شمال البوسنة قريبا من مدينة "توزلا" التي تتمركز فيها القوات الأمريكية.

وترى المنظمات الدولية في هذه البؤر أسواقا حرة يتبادل فيها الناس المنافع والأحاديث، ومن ثم يعتبرونها جسورا لتطبيع العلاقات بين الصرب والكروات والمسلمين، بينما يرى المسلمون فيها مجالات للفساد.

وللمسألة أبعاد أخرى أعمق مما تبدو عليه في الظاهر، فالمساعدات المالية التي تتلقاها البوسنة لإعادة بناء ما دمرته الحرب تذهب نسبة كبيرة منها أجورا ونفقات للعاملين في إدارة هذه المساعدات، ويشكل هؤلاء مع أفراد القوات الدولية والمنظمات الدولية الأخرى طبقة متميزة تعيش في بذخ ملحوظ وتقتنى المساكن والسيارات والسلع النادرة بينما يعاني السكان المسلمون من شظف العيش والبطالة وتدنّي الأجور، ولم يكن هذا حالهم قبل الحرب فقد كانت مجتمعاتهم تعيش حياة رخاء واستقرار. ينظر شباب البوسنة إلى هذه الطبقة الدخيلة بمرارة شديدة ويرى فيها الآباء والأمهات مصدر فساد لأبنائهم وبناتهم.

وتتبنّى بعض المنظمات الدولية أفكارا وأيديولوجيات عن المجتمع المدني تحاول تطبيقها على البوسنة وتشيع بين الناس أن أسلوبها هو الحل الوحيد لمشكلات البوسنة. وتحتاج هذه النقطة إلى شيء من التفصيل والتحليل.

فالمجتمع المدني بمعناه التقليدي هو المجتمع الذي تسود فيه النشاطات المدنية (الأهلية) الحرة على أوسع نطاق وتتبلور هذه النشاطات في الجمعيات المدنية بالأحياء والمدن وفي النقابات والجمعيات المهنية والأندية المختلفة والجمعيات الدينية والكنائس والمساجد وغيرها من أنشطة مدنية. في مثل هذه المؤسسات يتفاعل الناس بحرية وينتمون بعضهم إلى بعض وينخرطون في الحياة العامة المشتركة بصرف النظر عن ولاءاتهم السياسية أو توجهات الدولة نفسها. وفي هذا يكمن الفرق بين الدولة التي تتميز بمجتمع مدني وبين الدولة الشمولية، ففي الدولة الشمولية نجد أن كل ما يحدث فيها من نشاط حتى ما يتعلق من هذا النشاط بالحياة الخاصة للأفراد يخضع بشكل ما لسلطان الدولة ويكون موجها نحو غايات تحددها الدولة بنفسها.

وجاء الإحياء الحديث لمفهوم المجتمع المدني من الشعوب التي دارت زمنا في فلك الدول الماركسية، حيث كان المعارضون في أوروبا الوسطى والشرقية يستخدمون الفكرة في مهاجمة النظم الشيوعية الشمولية، ثم جاء الإحياء الأكبر لهذه الفكرة من جانب مفكري أوروبا الوسطى خلال عقدي السبعينات والثمانينات- الذي رأوا في المجتمع المدني

مجموعة من القيم يمكن تفعيلـها في مواجهـة أجـهزة الدولـة بواسـطة مؤسسـات يقيمونـها تتحدى ما في الدولة من عجز وفساد.

ولكنك عندما تقوم بتحليل ما كانوا يقولونه عن المجتمع المدني ومـا كـانوا يفعلونـه فـي هذا الإطار تجد أن نمط تفكيرهم متأثر بتنشئتهم وتعليمهم في أنظمة ماركسية، فقد اسـتبدت بهم مشكلة الاغتراب وشغلتهم فكرة: كيف يخلقون مجتمعا عضويـا متحـدا يسـتطيع النـاس فيه أن يتعاملوا بطريقة طبيعية، ويتضح هذا في كتابات الأديب "فاداف هافل" علـى سـبيل المثال.

في هذا السياق ظهرت حركة سياسية في بولندا طوّرت فكرة التضـامن المشـهورة، وهـي حركة لا تمثـل المجتمـع المدنـي ذي النشـاط الحـر المسـتقل والرغبـة فـي الالتحـاق الحـر بالجمعيات، وإنما تحولت الفكرة عندها إلـى دعـوة أو حركـة فـي إطـار منظومـة مـن القيـم الإيجابية تبغي من الفرد أن يتوحد معها، وهكذا أخذت "التضامن" فكـرة المجتمـع المدنـي لتحولها إلى شيء آخر، إلى قضية تتلاحم حولها قوى المجتمع.

والذين تبنوا مثل هذه الفكرة عن المجتمع المدني وروجوا لها فـي أوروبـا الغربيـة كـانوا أيضا من خلفيات وثقافات الجناح اليساري: من حزب الخضر الألمان ومن بين أولئك الذيـن أطلق عليهم اسم اليسار الثاني لاشتراكية "زوكار" في فرنسا، ومن المنظّريـن اليسـاريين فـي الغرب الذين كانوا يبحثون فيما ينطوي عليه تطبيق نظريات الإيطاليين الماركسين.

إذن لم يعد المجتمع المدني كما كان في الماضي بصورته التقليدية محددة المعالم، وإنما أصبح مجموعة من الاتجاهات الفكرية المختلفة، ولذلك فمن حقنا– عندما يتحدث المثقفـون عن المجتمع المدني وأهميته– أن نتساءل عن أي مجتمـع مدنـي تتحدثـون؟ فـالتحديد هنـا لازم، خصوصا وأن فكرة المجتمع المدني أصبحت شعارا أو لعبـة يؤمـن الغربيـون بضـرورة فرضها على الشعوب الأخرى.

هذه مقدمة ضرورية لفهم ما يحـدث الآن فـي البوسـنة، فـهناك جمعيـات أوروبيـة لـها أنشطة واسعة متحمسة أشد الحماس لتطبيق فكرة المجتمع المدني على البوسـنة مـن أبرزهـا الجمعية المعروفة باسم "جمعية مواطني هلسنكي". وتكمن خطورة هـذا النشـاط فـي الاتجـاه إلى فرض عقيدة أحادية الجانب لمجتمع أطلق عليه بالصدفـة مجتمـع مدنـي، ولكنـها فـي الحقيقة حزمة من القيم التنويرية يراد فرضها على شـعب البوسـنة سـواء رغـب فيـها أو لـم يرغب" على حد قول نويل مالكوم، حيث يؤكد في دراسة له أن الكـثرة الغالبـة مـن شـعب البوسنة يبدون حذرا شديدا بل نفورا من هذه الفكرة لأنها تشبه خبرتـهم السـابقة عـن نظـام تيتو وأيديولوجيته عندما أعلن شعاره (الوحدة والإخاء) الذي كان نوعا من العقيدة تعني من

الناحية العملية أن على الناس أن يتخلوا عن كل معتقداتهم التقليدية المشتركة كالدين والمشاعر القومية، وقد أدّت هذه الأيديولوجية إلى عكس ما استهدفته، ويمضي مالكوم فيقول: "ما أخشاه اليوم هو أن أفكار "جمعية مواطني هلسنكي" التي تتعارض مع احتياجات وتطلعات المجتمع البسنوي يمكن أن يكون لها نفس الأثر المضاد".[١٣٨]

ويمضي مالكوم فيقول: "أي مذهب أو عقيدة لمجتمع مدني يراد لها النجاح لابد أن تأخذ في الاعتبار عاملي الدين والمشاعر القومية كليهما، لابد أن تبدأ بالاعتراف بهما.. الاعتراف بأن الدين هو أحد أهم مجالات النشاط الاجتماعي الذي لا يخضع لتنظيم الدولة.. ومما يُؤسف له وجدنا في تاريخ الإنسانية أن كل مذهب عن مجتمع مدني يبدأ بإعطاء الناس انطباعا بأنه جاء برؤية جديدة عن مجتمع علماني لا ديني وأنه ضد الهوية القومية، وحُجّته أن كل شيء تلحق به صفة القومية يعتبر في حد ذاته أمر خاطئ، مثل هذه العقيدة متناقضة مع نفسها ودائما ما تنتهي بالهزيمة والفشل".

في هذا الاتجاه رأينا "جمعية مواطني هلسنكي" تشيع مذهبا خطيرا عن مجتمع مدني: أن الدولة هي المشكلة وأن أفراد الناس هم الحل.. فإذا جمعنا الناس معا ليتحدثوا فإن كل واحد سيكون على ما يرام وبذلك تنحل المشاكل تلقائيا. وهذا تبسيط مُخلّ لمشكلة شديدة التعقيد، فالبوسنة بعد اتفاقية دايتون وبعد سنوات من الحرب الضاربة أصبحت دولة ضعيفة بلغت من ضعفها أنها لا تستطيع أن تؤدي وظائفها، فقد انشقت البوسنة إلى كيانين انقسم أحدهما بدوره إلى فدرالية بين المسلمين والكروات، وهناك حكومة مركزية وفي كل كيان توجد حكومة ومجلس وزراء ومجلس برلمان، ولكن الحكومة المركزية للبوسنة لا تتمتع بالسلطات الحقيقية التي لابد من توفرها للدولة، وقد زاد الأمر تعقيدا أن السلطات الفعلية قد انتقلت إلى أنواع من المنظمات الدولية بعضها تابع للأمم المتحدة والبعض الآخر تابع للاتحاد الأوروبي وحلف الأطلسي، إلي جانب ذلك توجد قوات شرطة لا تخضع لسيطرة الحكومة، وإنما تتبع بدورها منظمة دولية، ولكي تعود البوسنة إلى سابق عهدها لابد من تمكينها من قوتها الوظيفية وسلطاتها الطبيعية، ففكرة المجتمع المدني لا تنمو وتزدهر إلا في مجتمع سليم وفي دولة حقيقية، ولن تستطيع البوسنة أن تحيا كمجتمع مدني إلا إذا استطاعت أن تصمد وتحيا أولا كدولة.

---

[١٣٨] أنظر نويل مالكوم في محاضرته عن البوسنة المنشورة في صحيفة "أخبار المسلمين" Muslim News بعددها الصادر في ١٩٩٨/٢/٢٧م.

في وقت مبكر بينما كانت الحرب لا تزال مشتعلة في البوسنة، التقى الصحفي "محمد فيصل دواجي" من صحيفة أخبار المسلمين اللندية[١٣٩] بالرئيس علي عزت بيجوفيتش ووضع أمامه مجموعة من الأسئلة من بينها هذا السؤال: كيف ترى التحديات المستقبلية في البوسنة؟ فأجاب: "أعتقد أنه بعد اندلاع هذا الحريق الهائل ستظل جذوته مشتعلة هنا وهناك لفترة من الزمن، إن هذا الحريق سيحتاج بعض الوقت ليتم إخماده، فعلى الساحة الآن عدد كبير من الأفراد المسلحين يقدّر عددهم بأكثر من نصف مليون، فإذا جاء السلام لن يضعوا أسلحتهم بسهولة، ومن ناحية أخرى لن يستطيع الناس الحصول على عمل فقد خرّبت المصانع التي كانت مزدهرة في البوسنة والهرسك، وسيُفتح الباب واسعاً لمشكلات البطالة والصراعات والأنشطة الإجرامية، هذا هو الجانب المظلم في المأساة. ولكن يوجد جانب مضيء لا يجب أن تخطئه العين، ويتمثل هذا في الجيل الجديد الذي سيظهر إلى الوجود، هذا هو الجيل الذي أحرص على لقائه والتحدث إليه عندما أقوم بزيارتي للمدارس، إنه جيل خشن تربى في مناخ الحرب وله فيها خبرات أليمة، إنه جيل لا مثيل له.. إنني أعرفه وأثق أنه سيقيم دولة فتيّة.. ربما تكون صغيرة ولكنها ستكون دولة قوية.. ولن يسمح هذا الجيل أبدا بتكرار مثل هذه المأساة مرة أخرى، هذا الجيل هو الجانب المضيء.. ولسوف تحظى هذه الدولة بمساعدة الشرق والغرب معا لأنهم سوف يكتشفون خطأهم، وسوف يندمون على تقصيرهم في أداء واجبهم في رد العدوان عن هذه الدولة.. وسوف يعلمون أن هذه الدولة هي الشعاع الوحيد في وسط الظلام الحالك والليل المدلهمّ الذي يسود المنطقة.. وتلك هي الأسباب التي تعزز إيماني بأن هناك أمل في مستقبل البوسنة والهرسك".

لاشك أن هذا الأمل في مستقبل البوسنة كما عبّر عنه الرئيس "علي عزت" له ما يبرره، ولا شك أيضا أن البوسنة هي شعاع الضوء الوحيد في ليل البلقان المظلم كما يقول وكما تدل عليه الشواهد التاريخية والواقع الحاضر. ولكن هل يكشف الذين تقاعسوا عن رد العدوان خطأهم، وهل سيندمون حقا لأنهم قصروا في أداء واجبهم نحو إنقاذ البوسنة؟ هذا ما سوف تنبؤنا به الأيام والأحداث المقبلة.

---

[١٣٩] أنظر صحيفة أخبار المسلمين Muslim News عدد أكتوبر ١٩٩٣م.

بوادر الصراع في الكيان الصربي :

شهد عام ١٩٩٧م بوادر الصراع المرير بين رفقاء الأمن في الكيان الصربي حيث شنت "بليانا بلافسيتش" حملة اتهامات ضد "رادوفان كراجيتش" في محاولة للتخلص في سيطرته، فقد اتهمته بالفساد هو وبطانته وأنهم جميعاً متورطون في عمليات سرقة واختلاسات وتهريب وأنهم يشكلون في الكيان الصربي ما يشبه المافيا، ويقال إن "بليانا" كانت تغض الطرف عنهم انتظارا للحصول على حصة مناسبة لها من هذه العمليات فلما لم تحصل على ما تريد انقلبت عليهم وراحت تكشف عن جرائمهم، والهدف من هذا على حد قولها: "تنظيف الجمهورية الصربية من فسادهم وإجراء انتخابات تشريعية جديدة نزيهة" وأضافت "بليانا": "إن هناك مؤشرات كثيرة على حدوث انقسامات داخل أجهزة الشرطة والمجالس البلدية في الأراضي الصربية".[١٤٠]

حاول "كراجيتش" من خلال أعوانه في البرلمان إزاحة "بليانا" من رئاسة الجمهورية فقامت هي بإلغاء البرلمان والدعوة إلى انتخابات جديدة على أمل أن تحصل على أغلبية برلمانية تساندها في السلطة. فاتهمها كراجيتش بالخيانة وأخذ الفريقان المتصارعان يتبادلان الشتائم والاتهامات عبر وسائل الإعلام التي يملكها كل منهما وتكررت المصادمات بين قوات شرطة كراجيتش الخاصة وقوات شرطة "بليانا".

وبينما ينعم المواطنون في البوسنة بحياة ديمقراطية صحيحة ويتجهون إلى البناء والتعمير ومداواة الجراح التي خلفتها الحرب يصلى نظراؤهم في الكيان الصربي المسمى بجمهورية "صربسكا" جحيم الاضطرابات السياسية والصراع بين القادة الفاسدين الذين لم يعرفوا من صور الحكم إلا الدكتاتورية والتلاعب بالجماهير، ولم يمارسوا من السلطة إلا أساليب القمع والتآمر وتصفية الخصوم.

ويصف نائب مسلم في برلمان "صربسكا" هذه الأوضاع فيقول: "إن الصراع السياسي داخل الكيان الصربي يمثل نموذجا للمفاهيم الفاشية السائدة في الحكومة الصربية وفي المؤسسات الصربية التي قامت أصلا على أنقاض جرائم الحرب، ولذلك يصعب عليها أن تتكيف مع أوضاع السلام".

هذا الوصف لا يخص الكيان الصربي المغصوب من البوسنة فحسب وإنما ينسحب أيضا على الدول المجاورة وأعني بذلك جمهورية صربيا وجمهورية كرواتيا: ففي كرواتيا أجريت انتخابات عامة أسفرت عن تثبيت الدكتاتور "فرانيو توجمان" في السلطة، وقد جاء في

[١٤٠] أنظر صحيفة الأهرام في عدديها الصادرين في ٨ يوليه وفي ٢٦ أغسطس ١٩٩٧م.

تقرير اللجنة المشرفة على الانتخابات من قبل "المنظمة الأوروبية للأمن والتعاون" أنها كانت انتخابات غير نزيهة وأنها جرت بأساليب عقيمة ومتخلفة، وجاءت إلى السلطة برئيس تسيطر عليه عقلية لا تزال أسيرة للنظم الفاشية الشمولية. أما صربيا فالحال فيها أشد سوءا وأبلغ خطر على السلام، فلا يزال الدكتاتور الفاشي "سلوبودان ميلوسفيتيش" يتحكم- لا في صربيا وحدها- بل في نطاق أوسع منها فقد أصبح رئيسا لما يعرف بالاتحاد اليوغسلافي الذي يضم إلى جانب صربيا جمهورية "الجبل الأسود" كما يشمل كوسوفا و "سنجق" و "فويفودينا" حيث يعاني المواطنون جميعا تحت وطأة نظام فاشني قائم على استلاب الهوية الثقافية وانعدام الديمقراطية والأمن وأبسط حقوق الإنسان، بل تطور الأمر في كوسوفا إلى حرب إبادة وتطهير عرقي وتدمير للقرى الآمنة وطرد جماعي للسكان مما ينذر باندلاع حرب ثانية في البلقان تستهدف اقتلاع السكان المسلمين من كوسوفا البالغ عددهم حوالي مليونين، ولولا تهاون المجتمع الدولي مع ميلوسفيتش في عدوانه السابق على البوسنة لما تحولت كوسوفا إلى هذا الحال المهين فقد اكتسبت كوسوفا في يوغسلافيا السابقة حقوقا دستورية جعلت وضعها مماثلا لوضع الجمهوريات الأخرى التي تألف منها الاتحاد اليوغسلافي السابق، فلما جاء "ميلوسفيتش" نسف كل هذه الحقوق وألحقها بصربيا وأغلق مدارسها وجامعتها وصحفها وإعلامها وقضى على لغتها الألبانية واستقلالها ..

وتخشى اليوم أوروبا من اندلاع حرب جديدة في البلقان تهدد أمنها واستقرارها، كما تستمر الشعوب التي يحكمها ميلوسفيتش تعاني من الطغيان والكوارث طالما بقي هذا الرجل في السلطة. وتتحقق نبوءة علي عزت بيجوفيتش: أن البوسنة وحدها ستبقى الشعاع المضيء في ليل البلقان المظلم..

كتب سبق نشرها للمؤلف :

١ - **الفلبين** : سلسلة شعوب العالم - القاهرة : دار المعارف ١٩٦٩ م .

٢ - The political History of Egypt (1952 - 1970) Annotated Bibliography . Canberra : University of Canberra, 1975 .

٣ - **المعذبون** : مجموعة قصص قصيرة من الأدب الفلبينى ، تأليف بينفنيدو سانتوس - القاهرة : الدار العالمية للنشر ، ١٩٨٤ م (ترجمة عن الإنجليزية) .

٤ - **الدولة اليهودية** : تأليف ثيودور هرتسل - القاهرة ، ١٩٩٤ م ، توزيع دار الشروق (ترجمة عن الإنجليزية) .

٥ - **الإسلام بين الشرق والغرب** : تأليف على عزت بيجوفيتش - ميونخ (ألمانيا) - مؤسسة بافاريا للنشر ، ١٩٩٦ ، الطبعة الثانية ، توزيع دار الشروق (ترجمة عن الإنجليزية) .

٦ - **الإعلان الإسلامى** : تأليف على عزت بيجوفيتش - القاهرة : دار الشروق ١٩٩٩ م (ترجمة عن الإنجليزية) .

٧ - **كوسوفا بين الحقائق التاريخية والأساطير الصربية** .
القاهرة : دار المختار الإسلامى ، ٢٠٠٠م

٨ - **الحرب الشيشانية بين التأليف والتزييف** .
القاهرة : دار المختار الإسلامى ، ٢٠٠٠م

كتب تحت النشر :

- **جمهوريات آسيا الوسطى بين الإسلام والقيصر** .
- **المسلمون فى جزر الفلبين** .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٨٠١٨/ ٢٠٠٠

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١